

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والصلبيّة

المصادر السريانية

١ - المؤرخ الرهاوي المجهول

٢ - ميخائيل السوري الكبير

٣ - ابن العبري

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ،

١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

الجزء الخامس

المصادر السريانية

- ١ - المؤرخ الرهاوي المجهول
- ٢ - ميخائيل السوري الكبير
- ٣ - ابن العبري

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

يعد الأدب السرياني بين أغنى الآداب العالمية ، وتتمتع الكتابات التاريخية في هذا الأدب بمكانة عليّة خاصة لأنها كتبت من قبل رجال كانوا ذوي احساس رفيع وأمانة وإخلاص. ولما كان هؤلاء جميعاً من رجال اللاهوت من أبناء الكنيسة ، فقد جعلوا كل شؤون الجنس البشري تتوافق مع نمط معين ، رسمته يد العناية الإلهية المرشدة ، وقد حكوا رواياتهم بدون رياء أو تكلف ، وبلا توهم أو سخرية.

والمراد بالسريانية ، فرع الآرامية الذي نطق به سكان سورية مع سكان الجزيرة وبعض المناطق المجاورة ، وكتبوا به خلال قرون طويلة منذ ما قبل الميلاد حتى ما بعد الفتح العربي بقرون. ففي سورية والجزيرة ما زال العديد من المسيحيين يتكلمون بالسريانية.

وكتب التاريخ السريانية مسيحية في المحتوى والتعبير ، تلونت بعمق بالكتاب المقدس وبسلوك وسير أباء الكنيسة ، وقد تم تصنيف أغلبها في الجزيرة ، والكثير منها في مدينة الرها (اديسا - أورفا حالياً) أو قربها ، فللرها قدسية كنسية خاصة ، على اعتبار أنها أول مدينة ، أو لنقل أول مملكة ، في العالم تبنت المسيحية ديناً رسمياً ، وقد اعتمدت لهجة الرها ونمطها بالكتابة السريانية في جميع أرجاء العالم السرياني الذي تجاوز الرقعة الواقعة فيما بين الهضبة الأرمينية في الشمال حتى حدود الجليل في الجنوب ، واقليم عديين في الشرق حتى البحر المتوسط في الغرب.

وغطت الكتابات التاريخية السريانية أكثر من عشرة قرون ، أي منذ القرن الثالث للميلاد حتى أيام المغول ، وخلال هذه الفترة المديدة لم يتول السريان دورا مباشرا في التحكم بشؤونهم ، ثم إنهم لم يسعوا لفعل ذلك ، ومرد هذا بالأساس الى الجغرافيا ، ففي البداية توزعوا بين امبراطوريتين اريقتين متنازعتين هما : بيزنطة في الغرب وفارس في الشرق ، وامتدت حدود جبهة القتال المستمر بين هاتين الدولتين فيما بين الفرات والبدجلة ، وكانت الحروب مدمرة خربت الأرياف والمدن بشكل مروع ، ولم يكن للسريان أية مصلحة في هذه الحروب ، فضلا عما نالهم من دمار وأذى مستمر من جراءها شطرت السريان الى شطرين : شرقي وغربي ، وكذلك شطرت كنيستهم ، فمذ القرن الخامس للميلاد استقل سريان بلاد ما بين النهرين عن اخوانهم في الغرب ، وفقط مع الفتوحات العربية أزيل الستار الحديدي الذي فصل ما بين سريان المشرق والمغرب واستأنفوا تجانسهم الطبيعي ، إنما منذ أن حدث هذا بدأ المسيحيون يتحولون الى اقلية متضائلة لها بعض الأدوار السياسية والادارية.

وانعكس هذا كله على الكتابات التاريخية السريانية ، فهي لهذا حوت على حكايات كثيرة صممت لاثارة الولاءات للكنيسة ولتقويتها ، وعليه نجد فيها روايات أسطورية عن وصول أولى البعثات التبشيرية الى الرها وتراجم حياة شهداء الكنيسة ، وهي كثيرة جدا ، جل موادها خيالي مخترع لا يمكن للمؤرخ الجاد الاستفادة منه .

وأفضل من هذه التراجم محفوظات وثائق الرها مع انها وصلتنا مفتتة ، وأقدم مادة تاريخية فيها تتحدث عن فيضان أصاب الرها سنة ٢٠١ م ، ويرجح أن كاتب وصف هذا الفيضان كان شاهدا عيان ، وكان مما قاله : « أصبحت ينابيع الماء التي انبجست من القصر العظيم ، العائد للملك أبجر ، غزيرة وفاضت ، وكما حدث في مناسبة فارطة تعاضمت وطافت على جميع الجوانب » ، وبدأت

ساحات قصر الملك وبيوته تمتلئ بالماء ، وعندما رأى سيدنا أبحر الملك ذلك ، صعد الى مكان أمين على تل يشرف على هذا القصر ، حيث كان حرفيو الأشغال الملكية يعيشون ويسكنون « والمتمعن في أسلوب هذه الرواية يراها صادقة ومباشرة ومختصرة ، وهي بالحقيقة نموذج لما تلاها من كتابات ، ومن المفيد التعرف هنا الى عدد من مشاهير المؤرخين السريان وصولا إلى مؤرخينا الثلاثة الذين كتبوا عن أحداث الحروب الصليبية.

لعل تاريخ يهوا العمودي هو الأقدم بين ما هو معروف من التواريخ السريانية ، ولا نعرف شيئا عن يهوا سوى أنه ابتداء كتابه بحوادث سنة ٣٩٥ - ٣٩٦ م وانتهى في سنة ٥٠٦ ، ويرجح أن هذا التاريخ قد صنف بالرها ، ذلك أنه كتب ببساطة وأمانة وحيوية وبتسلسل دقيق رائع ، تحدث فيه يهوا عن الحروب بين الفرس والروم فوصف أعمال الحصار والغارات والكمائن والأسلحة ، حتى أننا نكاد نسمع دمدمة الحشود العظيمة وزحف الهون على أعالي الجزيرة وسورية ففي سنة ٥٠٢ م قاد النعمان بن الأسود قوة كبيرة من العرب والفرس والهون فأغار على حقول حران والرها ، ولدى يهوا هنا رواية شهيرة عن قدوم تعزيزات قوطية قدمت نجدة من البيزنطيين فنزلت على أهالي مدينة الرها واحتلت مساكنهم ، اسمعه يقول: « ونهبنا أيضا الذين جاؤوا لمساعدتنا تحت اسم المنقذين ، نهبونا وهم غادون أو رائحون بقدر ما فعل الأعداء بنا ، لقد قلبوا الكثير من فقراء الناس من فرشهم ، وناموا فيها ، في حين نام أصحابها على الأرض في الطقس البارد ، وطرّدوا آخرين من بيوتهم ، ودخلوها ليسكنوها ، وانتزعوا مواشي بعض الناس بالقوة ، كما لو كانت غنائم حرب ، ونزعوا عن آخرين ثيابهم وأخذوها ، وضربوا بعضهم بعنف لمجرد أمر تافه ، وتشاجروا مع آخرين في الشوارع ، وكانوا يسبونهم لأصغر سبب... وكانوا يهاجمون الناس في الطرق العامة.... من النساء العجائز الى الأراامل والفقراء وكانوا يمنعونهم من أعمالهم لخدمتهم ، وباختصار ، لقد أزعجوا

الناس جميعا ، كبيرهم وصغيرهم ، ولم يكن هناك انسان لم يعان بعض الأذى منهم »

لقد كان البدو هم الرعب الدائم لسكان المدن والقرى في شمالي الجزيرة ، ولم يكن هؤلاء ، كما يجب أن يلاحظ الناس ، الذين يدعون العرب (أو عربي) ، بسريانية تلك الفترة ، وقصد العرب هؤلاء في الريف بشكل رئيس بين آمد وثنوريوس - الذي وقع خلف القرى ، لقد كانوا نصف مستقرين ، وقد عملت السلطات على تسريع عملية تطويرهم الى فلاحين مستقرين ، لقد كان عرب الخيام بداءة طيء ، كما كانوا يسمون عادة - هم الذين تحدوا كل التقاليد والعادات في المجتمع الراسخ ، وكانت الطرق والقرى الآمنة تحت رحمتهم ، وقد انتقل خبر أمير الحيرة ، الذي ضحى بأربع مائة أسيرة من العذارى لربه القمر - العزى - من فم لفم ، وبدأت المسيحية الحقيقية في اصلاح البدو المتمردين على القانون ، ولكن أيديهم عادة ، كانت ضد جميع الناس ، وكتب يهوا يقول : « انهم عبروا دجلة ، وسلبوا ، وأخذوا أسرى ، ودمروا كل ما وجدوه في الأراضي الفارسية ، يا صاحب القداسة » . ويتابع مخاطبا مراسله : « يجب أن تعرف حقيقة أن الطائنين شكلت الحرب بالنسبة لهم موردا كثير الربح ، وقد فرضوا إرادتهم على كلتا المملكتين » .

وقد لاحظنا بساطة أسلوب الكاتب وصراحته ، وأبدى يهوا ، مثله مثل جميع مؤرخينا السريان ، حتى بالنسبة لأولئك الذين ، كانوا بفضل وظيفتهم أعظم الأساقفة في الكنيسة السورية ، تعاطفا وتفهما للناس العاديين ، الذين كانت رغبتهم العيش في هدوء وراحة ، فها هوذا يخبرنا عن أسعار القمح والشعير والخضار والنبيد ، ويكتب عن المحاصيل الجيدة والسيئة ، والضرائب ، والمباهج الشعبية ، وحتى عن عيد الربيع ، الذي كانت له دلالة وثنية واضحة ، والذي يوافق عليه ، هو نفسه ، قلبيا .

أما المؤرخ يحيى العربسوسي (أفسوس) الذي عاش من

- ١٩٥٠ -

سنة ٥١٦ الى نحو ٥٨٧ م فكان ذا طبيعة اكثر حدة وصرامة ، وهو بالأصل من اهالي امد ، اقام معظم حياته في القسم ——— طنطينية ، وكان على صلة وثيقة هناك بالباطرة ، وبالشخصيات القيادية في العاصمة ، وقد رحل بشكل واسع ، وقام بحملات تبشيرية كبيرة في اسيا الصغرى ، وكان احد الذين اشاروا ، وطوروا الحملة البيزنطية على النوبة ، وقد اعلن هو نفسه ، بصورة مملّة نوعا ما ، انه :

« لم يكن غريبا عن صراع الأحداث.... بل كان واحدا من الذين زحفوا الى المعركة ، والذين.... تحملوا المعاناة ، وعانوا بصبر الام الاضطهاد والسجن... » .

وبما ان يحيى كان عضوا قياديا في كنيسة اليعاقبة ، التي كانت قد عدت ، من قبل معظم البيزنطيين ، انشقاقا خطيرا ، فقد كان في موقع استثنائي ، ليصف ضيق الافق والتعصب.. والحاجة الى ضبط النفس والظلم والقسوة ، التي كانت شائعة في تلك الفترة.

وجعلت مسألة الايمان بالإرادة الواحدة للمسيح ، يحيى وثيق الصلة بالمسيحيين العرب ، الذين كانوا اعضاء في الطائفة نفسها. ونقرأ على سبيل المثال ، انه عندما سجنّت جماعة كبيرة من المسيحيين من قبل الفرس في انطاكية ، نجح مسيحيان عربيان في الهرب من المدينة ، وشقا طريقهما الى القسطنطينية ، وهناك اعلم يحيى بهما البلاط ، وعندما دعا تايبيروس - خوفا من الانشقاق الديني الذي مزق امبراطوريته - المنذر بن الحارث الى عاصمته ، وعمل على التوصل الى تسوية مع هذا الملك العربي المسيحي كان يحيى نفسه موفدا الى المؤتمر ، ونجد في صفحات تاريخ يحيى صورة حية للمنذر وشهرته في جميع انحاء الامبراطورية كمحارب ورجل دولة.

وقد القى احد معارف يحيى الآخرين ضوءا غريبا على التاريخ العربي في ذلك الوقت ، وكان احد الممثلين القلائل للكنيسة القائل

- ١٩٥١ -

بالارادة الواحدة للمسيح في الاراضي الفارسية ، وهو سمعان من بيت أرشيم ، وكان مجادلا فظا ، قسام بمرحلات متكررة الى فارس ، وراوغ أعداءه الذميمة بالامتناع عن الاعتراف بصحة اصالة الرداء الأرجواني ، وعندما كان بزيارة الحيرة في سنة ٥٢٤ ، قابل سمعان رسل الملك اليهودي ذانواس وسجل يحيى على صفحات تاريخه أخبار رسل ذي نواس الى أمير الحيرة ، وروايته عن الهجوم على نجران ومذبحة المسيحيين فيها - وهي حادثة زائفة المصيت - كان لها صدى واسع في الأراضي العربية.

إننا يجب ان نقدم التقدير والاحلال لامانة يحيى كمؤرخ - فلقد منح ملك فارس ، وهو العدو المقيت لبيزنطة المسيحية ، مديحا وافرا بقوله : « وكما اثبتت الحقائق نفسها ، لقد كان رجلا حسيفا ، حكيما ، وقد اوقف نفسه طوال حياته باجتهد على دراسة الأعمال الفلسفية... »

ويبدو أيضا ان الحرب بين فارس والبيزنطيين ، كانت سبب حزن كبير له ، ويبدو انه كان مستعدا لتقديم تنازلات كبيرة لاعادة ارساء السلام .

وهو بين مؤرخي تلك الفترة ، صدر كتابه برواية أحداث بعيدة ، مع صوت فيه تجديد وإنذار ، وذلك لدى عرضه للخطوط العامة لأحداث بلاد فارس ، اسمعه يقول : « تلك الأحداث ، التي لم نرها أو تدركها معارفنا ، ولا يمكن أن نشهد بصحتها بقدر ما نحن بعيدون عن البلاد التي وقعت فيها . »

وكتب يحيى إضافة إلى تاريخه تراجم ذاتية للزهاد والزهاد الذين كانوا من معاصريه في منطقة أمد ، دار نشأته الأولى ، وهنا نجد مادة وفيرة للباحث في تاريخ الجزيرة قبل الاسلام ، وهي مادة حول شعب ورع جاهل يمجّد في إنكاره لذاته على الرغم من فقره ، وبالنسبة للزهاد المتجردين ، شابته معاناتهم طرائق المشائين ،

ولكن هؤلاء الرجال والنساء ، هم الذين ألهموا البدو في زمانهم الاخلاص في الصلاة والصوم وكبح الشهوات ، فالصراحة البدائية لمذهب المؤمنين بالارادة الواحدة في المسيح ، قد اجتذبت البداية العرب أكثر من الحلول الوسط ، التي تميز بها الذساطرة وكان في هذا بشائر حركة هداية أكثر عاطفية ، كان مقدرا لها أن تتفجر من الصحراء بعد قرابة جيلين .

وكانت التواريخ التي كتبت عنها من تصنيف سريان الغرب ، أي بيزنطة والجزيرة وقد أنتج سريان الجزيرة ، التي حكمت من قبل فارس خلال تلك الفترة ، كتب تراجم فقط ، متكلفة ومتميزة للقديسين وزعماء الكنيسة ، ولكننا قد نهتم بثلاثة فقط منها ، الفت في القرن السادس ، لأنها ذات قيمة وهي تاريخ مشيخرخا ، مع معلومات قيمة حول قيام الاسرة الساسانية ، وتاريخ كرك بيت سلخ ، مع بيانات طبوغرافية حول فارس قبل الاسلام ، وتاريخ ابن حدبشبا .

ومن المحتمل أنه عند وفاة يحيى العربسوسي ، كان النبي محمد (ص) في السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمره ، وكان مقدرا للعالم ، أن يتغير بسرعة أكبر مما أمكن لأحد أن يتنبأ بها في ذلك الوقت ، وليس لدينا لسوء الحظ روايات معاصرة مفصلة حول الفتح العربي بالسريانية ، وفي الحقيقة مرت ترجمة واحدة في ذلك الوقت بحملات هرقل والعرب في مالايزيد عن كلمات قليلة ، وعندما ارتفع الستار مرة أخرى ، كانت السيادة الاسلامية قد توطدت .

ولم يعد ، في الفترة الاسلامية هؤلاء المؤرخون السريان يعتمد عليهم في تسجيل الأحداث الكبيرة في زمانهم ، وصحيح أنهم كانوا دائما بعيدين عن توجيه الأمور ، ولكنهم الآن باستثناء بعض الأفراد ، عاشوا الحياة المنعزلة لأقلية طائفية ، معزولين عن بلاط الملوك والأمراء ، بمكانة سياسية سلبية ولامبالية ، وحتى بلا خيال ، تشهد فقط مرور الأحداث ، وكان بالنسبة للمسيحي ، من

الاسلم ان تكون له صلات صغيرة بسلطات عصره ، وفي سنة ٧٦٥ م ، على سبيل المثال اعتقل البطريرك جورج ، وقد قدح فيه اعداؤه ، وجلد امام الخليفة المنصور ، وعندما سأل الخليفة بجفاء : لماذا لم يتقدم بطلب (براءة ملكية) تؤكد منصبه في الكنيسة ، اجاب بلطف : لم ارجب في إزعاج احد .

ويلاحظ مع ذلك ، ان المسيحيين مهما كان تحفظهم وبقاؤهم بمنأى عن حروب الحكام المسلمين ومؤامراتهم. كانوا مع ذلك سيبتلون بتلك المشكلات التي تؤثر في الشعب العادي في كل ارض وفي كل عصر ، ويستطيع ان يستخرج من تواريخنا السريانية معلومات مفيدة حول الظروف الاجتماعية والاقتصادية للناس العاديين ، ونحصل على صورة مشرقة للمشكلات ، التي واجهت اقلية دينية تحت الحكم الاسلامي ، ويجب بالطبع ، ان نطبق على التواريخ الاخيرة مسطرة منزلة مختلفة في إمكانية الاعتماد عليها تاريخيا .

إن الآراء حول العصر السالف على ظهور الاسلام الواردة لدى المؤرخين السريان هامة ، حتى وهي تصف حوادث سالفه على زمانهم ، لانهم ربما كانوا ، يكررون اثارا موثوقة ، خلفها لهم اسلافهم ، لكن المؤرخين المتأخرين ، لم يزدوا على تأكيد الحقائق ، التي رسخها مؤرخون عرب ، ويمكن فقط تفضيلهم ، عندما يتولون تقديم آراء تختلف عن آراء المؤرخين العرب ، حيث يقومون بوصف احداث شاهدها بأنفسهم ، او حدثت قرب فترة حياتهم .

وملفت للانتباه انه يوجد في هذه التواريخ فقرات نافذة ، لابل ناقدة بقسوة للنظام الذي كان قائما ، وفي هذا دليل واضح ان السلطات الاسلامية اعطت حرية في العمل والاختيار جديرة بالذكر لهؤلاء الكتاب من غير المسلمين ، فقد شعر هؤلاء الكتاب ، بأنهم احرار في ان يكتبوا كما يريدون باللسان السرياني او العربي ، ويعزز هذا كثيرا ويرفع من قيمة تلك السجلات بدرجة كبيرة .

لقد بينت من قبل ان التاريخ السرياني كما نفهم اصطلاح

التاريخ ، إنتاج غربي الجزيرة وليس شرقها ، وقد جاء حصيلة تقاليد طويلة ، ولم يكن أبدا ردة فعل عرضية ، أرادت التعبير عن وجودها أدبيا بالتكوين في العصور الإسلامية ، فالجزيرة لم تعد مقسمة إلى منطقتين مختلفتي الثقافة ، إحداهما تحت حماية بيزنطة الناطقة باليونانية ، والثانية تحت رعاية فارس ، وحتى عندما أصبحت كلتا المنطقتين تحت الحكم المشترك للإسلام ، فإن كتابات مؤلفي مشاركة الجزيرة - دنحا وإيشودنح ، وتوما المرقى والمؤلف المجهول ، والسير الذاتية ، التي كتبت تراجع للشهداء والقديسين - لم تكن أكثر من خليط ضعيف التمييز بين الحقيقة والقصص الورعة وهناك استثناءان فقط يمكن ملاحظتهما : الأول هو التاريخ ، مجهول المؤلف ، الذي يعطي رواية للأحداث في فارس ، من خلع هرمز الرابع في سنة ٥٩٠ إلى ٦٧٠ ، وقيمته عظيمة ، لأنه لا بد قد كتب بوقت ليس أبعد بكثير من سنة ٦٨٠ ، ويحتمل أنه صنف من قبل راهب نسطوري ، والثاني ، هو تاريخ الياس مطران من نصيبين في القرن الحادي عشر ، وهذا الكتاب على أي حال ، ليس أكثر من مجرد قائمة بالأحداث والتواريخ .

وبالمقابل تتمتع تواريخ مغاربة الجزيرة الموجودة على الرغم من القلة في العدد - باحتفاظها باتساع التواريخ السريانية القديمة وتكاملها. وقد نسب اعتماد الترتيب الحولي في التواريخ أولا بصورة غير صحيحة إلى البطريق دانيوس التلمحري ، والذي ينتهي تاريخه بعام ٧٧٤ م ، وهو رواية مملة نوعا ما مليئة باقتباسات مطولة من الكتب الدينية ومناجاة للرب ضد خطايا الإنسان ، مع الاضفاء الساذج للصفات الأخلاقية ، ومع ذلك فهي تعطينا وصفا ضافيا لبلاد الجزيرة في القرن الثامن ، من مثل قوله : « لقد كانت الأرض كلها رائحة بكرومها وحقولها وماشيتها الكثيرة ، ولم يكن هناك فقير في قرية ، لا يملك حقلا وجملا وماعزا ، ولم يكن هناك مكانا قابل للزراعة تقريبا ، لم يبذر أو يزرع بالكروم حتى في

الجبال ، وحيث يمكن للمحراث أن يمر ، كانت الكروم تزرع
وكانت الأرض غاصة بالرعاة فوق طاقة المراعي الكثيرة » .

ولكن مؤلفنا يستغرب ، « فالأرض مليئة أيضا بالظلم » ، وقد كتب بمرارة عن الصراع المصطنع ضمن الكنيسة ، وضد عدم الاستقرار الداخلي ، أو الثورة ضد السلطة ، والمجازر التي كانت تعقب ذلك ، وقد ندد بالابتزاز ، الذي قام به الحكام واتباعهم ، واعترض على مصادرة الملكيات ، ووشم أجسام الرجال لضمان تأدية ضريبة الجزية بكاملها ، والتدخل المستمر في حرية الفرد ، إلى حد أن الصياد لم يكن يسمح له كما قال « بالصيد في النهر بدون تصريح » ، وكان الموظفون يبالغون في تقدير العشور : « وسلف أن وصفنا الحقول على أنها عامرة تماما ، حتى لو لم يحصد أكثر من خمسة أضعاف البذار ، وقد تحمل العرب محنا أقسى من السريان » .

« ثم انقض جباة الضرائب عليهم بالضرب والتعذيب من كل الأنواع ، وكان عليهم نظريا أن يأخذوا العشر ، ولم يكن العرب يستطيعون جمع ما هو مطلوب منهم ، حتى ولو باعوا كل ما يملكون ، وقد حاولوا حثهم على أن يأخذوا وفق القانون ، الذي شرعه محمد (ص) والملوك الأوائل ، وأن يأخذوا من كل واحد حسب ما يملك قمحا ممن لديه قمح ، وماشية ممن لديه ماشية ، ولكنهم لم يقبلوا ، وكانوا يصرخون فيهم : اذهبوا وبيعوا سلعكم واعطونا ذهباً » .

ومن الأهمية بمكان ذكر السيرة الذاتية ، التي كتبها البطريرك دانيوس الذي نسب إليه خطأ التاريخ الذي وصفناه لتوننا .
وقد كان دانيوس يمارس بهدوء دراسة التاريخ في أحد الأديرة ، عندما سيم رغما عنه بطريركا لليعاقبة في عام ٨١٦ ، وناضل طيلة ممارسته لمهنته دون كلل نيابة عن طائفته ضد الانشقاق من الداخل والاضطهاد من الخارج ، وسافر إلى الموصل وبغداد ، وحتى إلى مصر يلتمس تدخل السلطات ، وترى سيرته الذاتية من خلال أنه

كان مراقبا داهية للرجال ، وقد صورت عجز الأقليات واعتمادها على النوايا الطيبة لأفراد بدلا من مواد القانون المكتوبة ، وفيما يلي كلمات الخليفة المأمون القاسية التي وجهها إلى دانيوس : « إنكم تزعموننا وتضايقوننا كثيرا أيها المسيحيون وخاصة أتباعك اليعاقبة ، ومع ذلك فإننا نتجاهل الشكاوى التي يقدمها أحدكم ضد الآخر ، اذهبوا الآن وعودوا بعد أيام » .

وفي روايته حول زيارته لمصر ، لدينا صورة نابضة بالحياة للطائفة المسيحية هناك : « مدينتنا محاطة بالمياه ، وليس لدينا محاصيل زراعية أو أي موارد أخرى ، ولا يمكننا أن نربي ماشية ، المياه التي نشربها تأتي من بعيد ، ونحن نشترىها بسعر أربعة مثاقيل للرواية ، وعلنا محصور بالصوف الذي تفضله نسائنا ، ونقوم نحن بنسجه ، والتمن الذي نحصل عليه من تجار القماش ، هو نصف مثقال في اليوم ، وحيث أن عملنا لا يوفر الخبز الكافي لأفواهنا ، وعندما نطالب بالضريبة ، نضطر إلى دفع خمسة دنانير (أي ثلاثين مثقالا) عن كل فرد ، ونتعرض للضرب ، ويلقى بنا بالسجن ونكره على تقديم بناتنا وابنائنا كضمان للعمل كعبيد عامين لقاء دينار واحد » .

وقد حكى دانيوس ووصف بلواهم لحاكم مصر الذي « أعطى أمره بأنهم يجب أن يدفعوا الجزية حسب قانون الجزية - ٤٨ مثقالا من الأغنياء ، و ٢٤ من متوسطي الحال و ١٢ من الفقراء - عند جمع الجزية » .

وننتقل إلى مؤرخينا الثلاثة ونصوصهم ، والنص الأول هو حولية لمؤرخ رهاوي مجهول لعله باسيل مطران الرها في فترة أحداث الحولية ، التي تعالج أخبار مدينة الرها وما كان ما يحيط بها خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر ، إنها رواية دقيقة ، تذكر بقوتها بأسلوب تاريخي يهوا العمودي الأقدم بنحو سبعة قرون ، فتظهر الثروة من التفاصيل الدقيقة ، وإلفة المؤلف مع خطط الرها ، أنه كان معاصرا لتلك الأحداث ، وربما كان شاهد عيان لبعضها ،

لهذا رجحنا أنه ربما كان باسيل المطران السوري لمدينة الرها في ذلك الوقت ، ونقرا عنده عن تبادل مجاملات الفروسية بين الحاكم المسلم للموصل وأسيره الصليبي جوسلين ولكن مثل هذا الكرم ، كان يتناوب مع أعمال القسوة المذهلة ، فهناك مشاهد حية للرعب والدمار في الرها والمدن المجاورة ، خلال فترة السيطرة عليها من قبل الصليبيين ، والاستيلاء على الرها من قبل زنكي سنة ١١٤٤ م ، مما أثار حماس برنارد ، راعي دير كليرفو ، وسبب قيام حملة صليبية جديدة - واستردادها من قبل نور الدين بعد ذلك بعامين .

وكانت هناك حادثة سارة أكثر ، تمثلت بزيارة زنكي للمدينة في سنة ١١٤٥ : « وخرج المطران والكهنة والشمامسة وجميع المسيحيين لاستقباله من جهة واحدة ، والمسلمون الذين تجمعوا من كل الأحياء في الجانب الآخر ، وقد حيا المسيحيين بسرور ، وقبل الإنجيل ، وسلم على المطران ، واطمأن على صحته وأحواله وقال إنه جاء من أجلهم لأمدادهم بما ينقصهم لقد زار كناؤسنا السورية ، وتأمل في جمالها ، وأمر بوضع ناقوسين عظيمين يعلقان فيها ، كما كانت العادة في زمن الفرنجة ... ، وأوصى المطران أن يكون حريصا على حراسة المدينة ، وأن لا يخون حكومته » .

وهذه الرواية واردة أيضا في تاريخ كان مؤلفه حاضرا عند سقوط القدس في يد صلاح الدين في سنة ١١٨٧ م ، وقد استمر تاريخه حتى سنة ١٢٤٣ .

وأشهر منه وأعظم أهمية ، العمل التاريخي للبطريرك ميخائيل ، الذي يسمى عادة ميخائيل السوري (ت ١١٩٩) لقد أصبح رأسا لكنيسة البعاقبة في سنة ١١٦٦ م واحتفظ بهذا المنصب ثلاثين عاما ، ولقد كان كاهنا عسكريا ميالا للجدل اللاهوتي وهو انضباطي ، لم يحظ بشعبية حتى بين أتباعه ، وكثيرا ما كان تاريخه مثيرا للجدل المذهبي ، وهو لهذا لا يقدر بثمن ، وهو مرتب في ثلاثة

أعمدة ، عالج أولها الأحداث العلمانية ، وتعلق الثاني بالشؤون الدينية ، في حين حوى الثالث حكايات متنوعة ، وأمورا ذات أهمية شخصية ومحلية. وبالنسبة لنا ، إن العمود الثالث مع مافيه من تسجيل للمحاصيل والجفاف والبناء والحرائق ، هو غالبا الأكثر جاذبية وضياء .

وكان الحكام وشيوخ القبائل الصغار في الجزيرة ، قليلي الاهتمام بخير عامة الناس ، أي أولئك الناس البسطاء من أهل المدن ، والفلاحين الذين تكونت منهم رعية ميخائيل . وبالنسبة للمسيحيين ، الذين كانوا بينهم ، كانت القصة مشابها لما كان في القرون السالفة ، وكانت ثرواتهم خاضعة بشكل خطير لنزوات كل من المرتزقة الأجانب وسادتهم من المسلمين أو الفرنجة

وفي القتال بين الأكراد والتركمان ، كان كل طرف يصب نقمته على المسيحيين المحليين ، ولقد كانت لنور الدين سمعة في الورع والاحسان بين المسلمين ، ولكن المسيحيين رأوه خلاف ذلك ، وعندما جاء إلى الموصل ، يخبرنا ميخائيل قائلا : « ضاعف المكوس على المسيحيين ، وزاد الجزية ، والزمهم بلبس الزنار ، ومنعهم من إطالة شعور رؤوسهم ، حتى يعرفوا ويمكن تمييزهم من قبل العرب . وقضى أيضا أن يحمل اليهود قطعة من مادة حمراء على اكتافهم ، حتى يعرفوا »

وعندما ارتقى العرش خليفة جديد في سنة ١١٧٠ ، أعدم الوزير ابن البلدي وأوضح ميخائيل ، أن الوزير الذي ذبح ، كان عدو المسيحيين ، وقد تعهد الخليفة الجديد بمحبة المسيحيين نكابة بالوزير وكراهية له .

ولكن نور الدين ، بقي العدو الرئيس للمسيحيين ، وقد وضعوا أملا كبيرا في عموري الأول ، الذي روعهم موته ، في سنة ١١٧٤ م ، وفي مثل هذه الظروف ، لم يستطع حتى ميخائيل نفسه أن يدين أو يصف باللاأخلاقية الرشاوى المقدمة للحكام والعسكريين وسواهم من أجل دفع أذيتهم .

وكان نصيرا مدافعا قوي الشكيمة عن رعيته ومحافظا على حقوقهم كزعيم لها ، وقد أعلن صراحة لسيف الدين غازي ، الذي اقترح تسمية كاهن منافس له ليكون بطريكاً :

« إذا كنت تريد تغيير ما جعله الملوك من أسلافك ، فلتعلم أنك ستلقى معارضة ليس مني فقط ، بل من الأنبياء ، موسى وعيسى ومحمد (ص) لأنك تدمر مشيئة الله ... أما بالنسبة لي ففقدان رأسي لا قيمة له ... وها أنا أقدم بحرية رأسي فدعهم يقطعوه ، لأنني أخالف مبادئ القانون » .

وفي عام ١١٨١ استدعى ميخائيل من قبل قلج أرسلان الى ملطية ، فذهب مرتعشا ، ولكن السلطان استقبله بكل حفاوة وتكريم ومجاملة ، وتناقش البطريك معه وأصفى اليه (يؤكد لنا) بسرور ، وتأثر بحكمته الى درجة جعلت الدموع ، تنهمر من عينيه (السلطان) .

وتوفرت لميخائيل فرصة لحضور القداسات في جميع أنحاء الجزيرة وسورية واستقبل وفود اليعاقبة من مصر ، وزار القدس ثلاث مرات ، وكانت في حينه في أيدي الفرنجة ، وحصل على براءات من كل عموري الاول وبلدوين الرابع .

وكانت تعليقاته على مجموعات القوى الرئيسية الثلاث في غربي اسيا في تلك الفترة : التركمان والفرنجة والروم البيزنطيين معنية في المقام الاول بالحرية الدينية ، ولكنها ذات أهمية أوسع ، اسمعه يقول : « وفي السنوات التي سنكتب عنها الآن ، سيطر الهدوء والأمن في كنيسةنا الأرثوذكسية لهذا السبب وكان الروم القساوسة محتجزين وراء البحار » . ولم يثر الفرنجة ، الذين كانوا في هذا الوقت يحتلون أماكن في فلسطين وفي سورية أيضا ، وكان لهم أساقفة في كنائسهم ، صغوبات في أمور العقيدة ، ولكنهم كانوا يعدون مسيحيا كل من يعبد الصليب بدون فحص أو تحر ، ولم يكن للاتراك من جانبهم ، وكانوا يحتلون معظم البلاد التي يسكنها

- ١٩٦٠ -

المسيحيون ، فكرة عن الأسرار المقدسة ، وعليه فقد اعتبروا المسيحية خطأ ، ولم تكن لديهم عادة تعلم أمور العقيدة أو اضطهاد أحد لجهره بعقيدته ، كما كان الروم يفعلون ، ذلك أنهم شعب كافر شرير .»

ونأتي مع ابن العبري الى آخر تواريخنا السريانية . لقد اكمل تاريخ المنطقة منذ وفاة ميخائيل السوروري حتى عام وفاته سنة ١٢٨٦ م ، وجاء تاريخه بالسريانية - لا أبحث هنا في تاريخه بالعربية - في جزأين : تعامل أو لهما مع الأحداث العلمانية ، وتعامل الآخر (في قسمين) مع الأحداث اللاهوتية وقد غير وصول المغول المسرح السياسي ، وقد تولى ابن العبري وصف الظروف الجديدة بشكل واف ، وبشكل خاص أحداث ملطية مسقط رأسه ، وكان هو نفسه حاضرا كمطران عندما سقطت حلب في أيدي المغول في سنة ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م . وكان على معرفة بأمراء وأميرات من البلاط المغولي .

وقد اتبعت مصائر المسيحيين مسارا ، لا يمكن التنبؤ به ، فمن جهة وحد العرب صفوفهم مع المسيحيين للدفاع عن ملطية ضد الهجوم التتري في سنة ١٢٤٣ م . ومرة أخرى في سنة ١٢٥٦ م . وهكذا أيضا في وجه العدوان المغولي على بغداد في سنة ١٢٥٨ م . وقد أودع العرب الأغنياء في المدينة ممتلكاتهم للحفظ في خزائن الجائليق ، ومن جانب آخر ، نهبت الأبرية المسيحية من قبل الجند ورجال القبائل الكردية ، وهوجم المسيحيون من أهل المدن من قبل الغوغاء من المسلمين في بغداد والموصل واربيل .

وكانت الطائفة المسيحية بالتأكيد في وضع شاذ في تلك الفترة ، ولم يتخذ أمراء المغول موقفا عدائيا تجاههم ، بل إن بعضهم جاهر بالعقيدة المسيحية ، وشغل المسيحيون مناصب عليا في البلاط ، وأعلن ابن العبري : « حازت الكنيسة على الاستقرار والحماية في كل مكان » وقد دعا قبلاي خان بأسام « الملك الحكيم

العادل وصديق المسيحيين ، الذي أولى رعايته رجال العلم والعلماء
والأطباء من جميع الأمم ..

ومع ذلك إن هذا التحالف ، لم يعط الأمان للمسيحيين من التتار
أنفسهم ، ويكتب ابن العبري عن التتار في الحملة نفسها : « إنهم في
جشعهم ، قتلوا أيضا كثيرا من المسيحيين وأسروهم ونهبوهم ، مع
أن ملك الملوك ، قد أمرهم بأن لا يؤذوا المسيحيين .. »

وتاريخ ابن العبري بكل ما حواه ، ليس مرضيا ، فمؤلفه لم
يعطنا شيئا من اللامسات الشخصية ، التي جعلتنا مهنته وصلاته
الشخصية نتوقعها ، فقد كانت ولاءاته طائفية ضيقة ، ويبدو أنه
كان يفتقر الى معايير تماسك الذات والأمانة ، التي تميز بها
المؤرخون الأقدم ، لأن قسوة القائد المغولي سبندغا وغدره (ذلك
الشاب الرائع) لم تكن لديه موضع لوم ، بيد أنه ينبغي علينا ، أن
لا نحكم بقسوة على ابن العبري ، ذلك أن كتابته هذا التاريخ ، لم
تتعد ، بالنسبة له ، كونها تمرينا في الانشاء السرياني وجزءا من
محاولته العامة لأحياء الاهتمام باللغة القديمة ، وقد حكم على
التجربة سلفا بالاخفاق ، لأن النهضة بالسريانية ، كانت فوق طاقة
ابن العبري ، لا بل أعظم من معارفه الواسعة ومثابرتة ، وإنه لأمر
له دلالة أن الكتابة على قبر ابن العبري نقشت بالكرشونية ، وهي
عربية بأحرف سريانية.

وتكاد روايات ابن العبري عن أحداث الحروب الصليبية أن تكون
مجرد تكرار مختصر لما كتبه سلفه ميخائيل الكبير ، ولهذا عدت
مواد ميخائيل أعلى أهمية ومكانة ، ولا شك أن الافادة منها ستكون
أكبر لدى مقارنتها بما أورده ابن الأزرقي الفارقي الذي أرخ في
العصر نفسه وعاش في المنطقة ذاتها مثله مثل البطريرك
ميخائيل ، وتتأتى الفائدة ليس من الخلاف في عرض الروايات وإنما
من الخلاف بالمشاعر.

- ١٩٦٢ -

إنها المرة الثانية التي انشر بها نص المؤرخ الرهاوي المجهول بالعربية ولكن الأولى بالنسبة لنص ميخائيل الكبير ، على أنه مفيد أن نذكر أنه لتاريخ ميخائيل الكبير ترجمة بالعامية العربية كتبت بالكرشونية ، منها أكثر من نسخة مخطوطة واحدة في بلدة صدد قرب حمص وعليها اعتمدت كما استفدت كثيرا من الترجمة الفرنسية للكتاب ؛ وسبق للقسم الاسلامي من تاريخ الزمان لابن العبري أن نقل الى العربية من قبل الأب اسحق أرملة ونشر تباعا في مجلة المشرق ثم أعيدت طباعته بعد جمعه في بيروت ١٩٨٦ ، وهذه الترجمة متوسطة الحال ، لاتخلو من بعض الأخطاء خاصة في أسماء الأعلام .

الامل كبير هنا أن يأتي نشري لهذه النصوص السريانية محرزا لمزيد من العناية بالأصول التاريخية المكتوبة بالسريانية وتحقيقها وترجمتها الى العربية لأنها جزء عزيز من تراثنا نحن أحق الناس بالافادة منه فضلا عن العناية والصيانة ، وأتمنى ألا ينفرد بالقيام بهذا الواجب من اتقن السريانية فقط ، بل أن يكون هناك تعاون مع الاختصاصيين بالتاريخ فهذا يجعل العمل أكثر كمالا فيتجنب الوقوع بكثير من الأخطاء التي شاهدناها في كتاب سيفال عن الرها وغيره من المترجمات الحديثة.

من الله استمد العون واطلب الرشاد والتوفيق وصلى الله على نبينا المصطفى وعلى آله واصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق الثالث من رمضان ١٤١٣ هـ

الخامس والعشرين من شباط ١٩٩٣ م

روايات

المؤرخ الرهاوي المجهول عن الحملتين الأولى والثانية

في سنة ١٤٠٥ (٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م) وبعد مضي واحد وخمسون عاما على فتح التركمان ، لهذه البلاد وعندما كان الكسسيوس امبراطورا في القسطنطينية جرى تعيين التركماني يغي سميان واليا على انطاكية من قبل ابو الفتح (١) ، وكان الأفضل (٢) المصري في القدس التي استولى عليها من سكرمان التركماني وأخوته أبناء ارتق (٣) قبل سنتين ، وبذلك أصبح الساحل كله بيد المصريين ، (٤) ، وكان ثيودور كوربلات بن هاتيم في الرها (٥) ، وقد حفظها من التركمان ، وكان يأمل ان يسلمها للامبراطور (٦) فيما بعد ، وفي هذا الوقت ظهر عدد كبير من الملوك والزعماء الفرنجة ومعهم جيش لجب ، يصحبه جمهرة من العمال والحرفيين من جميع الأنواع يعدون بالآلاف ، لابل بعشرات الآلاف وقاد هذا الجيش أربعة من الملوك ، وهم بوهموند ، وغودفري ، وصنجيل ، وتانكرد مع جيش من الأساقفة والرهبان ، وقد توجهوا للسير برا عبر الأراضي البيزنطية ، وقرروا ان يعبروا البوسفور حيث تقوم القسطنطينية ، وحيث يتصل البحران بواسطة مضيق ، وأرسل هؤلاء الملوك سفراء للامبراطور الكسسيوس ، ليستعد ليذهب معهم ، وليهيء لهم ما يحتاجونه من مؤن وعلف لاستعمال الجيش ، وقد وعدهم الكسسيوس بالمساعدة بكل ما يحتاجونه (٧) .

وعندما تقدمت جيوش الفرنجة ، وبدأت تدخل الحدود ، ووصل قسم منهم إلى بعض المعسكرات .. (٨) أرسلت شرازم من المشاة والعمال للعبور قبل وصول الجند ، لكن الكسسيوس أذّر الأتراك الذين كانوا في نيقية وما جاورها ، وأخبرهم بقدوم هؤلاء ، وطلب منهم ان يهاجموهم ، وهكذا أسرع الأتراك إلى ملاقات هؤلاء على شاطئ البحر ، وذبحهم عن بكرة أبيهم دون شفقة أو رحمة (٩) ، وعندما وصلت جيوش الفرنجة إلى القسطنطينية ، قابل رجالها الامبراطور الكسسيوس ، وقام النبلاء بأداء الأيمان المغلظة على الولاء والطاعة له ، واستعد الكسسيوس لمرافقتهم شخصيا في طريق آخر من خلال غالاشيا ، وبدأ الفرنجة والاغريق

- ١٩٦٤ -

زحفهم مباشرة باتجاه نيقية (١٠) التي انتزعوها من التركمان وسلموها للامبراطور ، ثم زحفوا من هناك إلى كليكية وقد مادت الأرض تحت أقدامهم ، وارتجفت أمامهم ، ثم اتجهوا إلى سورية ، حيث قرروا أن يبدأوا بالهجوم على أنطاكية (١١) رأس البلاد السورية ، فنصبوا خيامهم في جميع الأمكنة حول أنطاكية ، وبذلك أقفلوا الطريق على كل من يود الدخول إليها ، أو الخروج منها ، ثم بدأ القتل والنهب في جميع أنحاء المنطقة المحيطة بأنطاكية .

وكما سبق بنا القول كان تيودور يحكم الرها ، وعندما سمع أهالي هذه المدينة (١٢) أن الفرنجة قد وصلوا إلى أنطاكية ، وعسكروا حولها ، طلبوا منه أن ينشد المساعدة من الفرنجة لحماية المدينة من التركمان ، ولم يوافق تيودور على هذا الاقتراح أولا ، إنما عندما رأى أن أهالي المدينة لم تكن لهم القوة الكافية ، وأنهم سوف يستدعون الفرنجة خلافا لارادته ، تظاهر بالموافقة مع أنه لم يكن حقيقة مسرورا من مجيء الفرنجة ، بل كان خائفا جدا ، لأن أهالي المدينة كانوا يكرهونه ، لهذا أرسل رسله إلى الدوق غودفري رئيس الفرنجة وقائد جيوشها ، وطلب منه أن يرسل بعض الفرق العسكرية لحماية تلك البلاد ، وعندما قرا الفرنجة كتب تيودور هذا ، ابتهجوا غاية الابتهاج ، وأرسلوا بلدوين أخا غودفري ، وكان رجلا تقيا ، يخشى الرب ، ويخافه ، كما كان محاربا شجاعا ، وفي ذلك الزمن كانت الرها مدينة كبيرة ، تعج بعدد كبير من السكان ، وتشتهر بما كان بها من رجال الدين والرهبان ، وكانت أرضها تغص بالقرى والمزارع والساكن .

بعد أن أقام بلدوين ورجاله من الفرنجة في الرها بعض الوقت ، بدأ بعض رجال المدينة الفاسقون الأشرار يثيرون البغضاء ، وقد وصل الأمر إلى درجة القيام بحبك المؤامرات لقتل الحاكم تيودور ، وجعل الفرنجة يحكمونهم بدلا منه ، ولم يكن ذلك حبا بالفرنجة ،

لكن بسبب البغضاء والنقمة التي كانت تمלא قلوب أعداء تيودور ، فقد هاجوا كالحیوانات المفترسة ، وحرضوا بعضهم بعضا ، وجمعوا جمهورا عظيما ، واثاروا الشغب والفوضى بنزولهم من القلعة القائمة قرب رأس النبع ، وعندما جاء تيودور نحو ذلك الحشد ليستطلع جلية الأمر ، هاجموه ، لكنه هرب من أمامهم إلى القلعة السفلى ، التي كان قد بناها فوق البوابة الشرقية للمدينة ، وهاجموه في تلك القلعة ، فطلب منهم أن يعطوه الأمان ويقسموا بأن يسمحوا له بمغادرة القلعة مع زوجته وأطفاله دون أن يأخذ أي شيء معه ، واستجابوا لمطلبه ووعده بذلك ، وأقسموا له الأيمان ففتح لهم البوابة ، ولكنهم حذثوا بقسمهم ، وخانوا ما عاهدوه عليه ، وتقدموا منه وضربوه وربطوه بالحبال ، وقادوه وهو عار تماما إلا بما يستر سواته ، ثم قذفوا به من أعلى السور المرتفع مقابل المدينة إلى الأسفل (١٣) ... ابن هاتيم وخراب بيته ، وقد تسلم بلدوين جميع ممتلكات تيودور مع القلعتين ، وعندما سمع الفرنجة أن بلدوين قد استولى على الرها ابتهجوا كثيرا ، ونصبوا خيامهم قرب أنطاكية وأحكموا حصار المدينة ، وضيقوا عليها ، وحالما اشتد القتال حاك بعض رجال الحامية مؤامرة للتسليم ، وأرسلوا رسالة إلى بوهيموند لتسليمه المدينة ، وعندما تم حبك خيوط المؤامرة صعد بعض الفرنجة إلى أعلى السور ، ثم بدؤوا بالاندفاع إلى الأسفل ، إلى داخل المدينة ، وعندما رأى يغي سيان أن المدينة قد سقطت فر عبر باب القلعة العليا على التلة إلى نواحي شرقي الجبل ، وكان سقوط أنطاكية بسبب الخيانة وتسليم الحامية قرب التلة على الجانب الشرقي (١٤) .

وبينما كان الفرنجة يحاصرون أنطاكية ، إذا بسأحد زعماء التركمان الكبار واسمه كربوغا يصل إلى الرها من الشرق ، ويدخل بوابة المدينة ، وقد كانت الأراضي حول الرها مملوءة بقسطعان الحيوانات والمواشي والماعز والرجال والبيوت ، فأحدث دمارا كبيرا وتخريبا وقتلا وسلبا ، وأخذ الكثيرين عبيدا ، ثم اتجه نحو حلب

- ١٩٦٦ -

للذهاب إلى أنطاكية ، وعندما وصل إلى حلب علم أن أنطاكية قد سقطت بأيدي الفرنجة ، فأسرع نحوها وعسكر حولها ، ومعه قوة عظيمة جمعها من بغداد والعراق والجزيرة ، وحاصر الفرنجة وضيق الخناق عليهم في أنطاكية ، وبدأ بالهجوم على المدينة وقد قاسمت الحامية بسبب نقص المؤن والعلف للخيول ، فالبلاذ أقفرت ، ولم تصلها أي امدادات في تلك السنة ، وكان الفرنجة كثيرون يعدون بالآلاف ، لذلك ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وشدت المجاعة عليهم خناقها ، حتى صار ثمن الحمار الواحد عشرين دينارا وانعدم القمح والشعير ، وفي هذه الأثناء رأى أحد المطارنة حلما أن هناك في مكان معين في كنيسة القسيان العظيمة الرمح الذي طعن به جسم المسيح (على يد اليهود في طبريا) ، وقد قال له الهاتف في الحلم : « خذ هذا الرمح ، وضعه أمام الجنود ، واخرج معهم إلى العدو فاسوف تهزمونه » .

وعندما وجدوا الرمح ارتفعت معنوياتهم ، وابتهجوا واستعدوا للهجوم على التركمان ، وخصوصا وأن المجاعة قد شذت همهم ، فأصبحوا يرون أن الموت في المعركة خارجا أفضل من الموت داخل البيوت كالنساء ، ووضعوا علامة الصليب وشارات هذا الرمح على حراهم ، وزحفوا إلى الأمام فوهبهم الرب النصر من لدنه ، وانهار جيش التركمان فهرب ، وبعد أن أعمل الفرنجة القتل بأعدائهم رجعوا إلى خيامهم ومراكزهم بعد أن غنموا كثيرا من الغنائم ، والحبوب والخيول والسلع الأخرى ، وقد انتشر خبر هذا الانتصار في الخارج ، فكسرت شوكة ملوك التركمان (١٥) ، واستولى الخوف والفرع على قلوب جميع ملوك المنطقة .

وحكم بوهيموند (١٦) أنطاكية بمساعدة ابن اخته تسانكرد ، واحتفظ التركمان بسروج (١٧) ، وتملك الأرمن من أبناء بيازك زيوجما (١٨) بضمفاف الفرات ، وأخذ باسميل اللص وهو من الأرمن

- ١٩٦٧ -

كيسوم (١٩) ورعبان (٢٠) (وقد دعي بهذا الاسم لأنه كان يسطو على المسافرين باستمرار) واحتفظ غازي (٢١) التركي صاحب بلدوقيا بسميساط (٢٢) واحتفظ البيزنطيون أبناء فيلارتوس بمرعش (٢٣) والجبل الأسود ، واحتفظ الأرمن أبناء رافين بعين زرلة (٢٤) وكليكية ، واحتل الفرنجة بطرسوس (٢٥) والمصيصة وأذنه (٢٦) .

وعندما قويت شوكة الفرنجة ، استعدوا للتقدم ولحصار القدس ، وزحفوا برا وبحرا ، وقد حاصروا أولا يافا التي تقع على الساحل الفلسطيني ، واحتلوها في بضعة أيام ، ومن ثم تحركوا فورا ، ونصبوا خيامهم أمام القدس ، وأحاطوا بها من كل جانب وقد هاجموها بضراوة ، وبنوا الأبراج الخشبية المتحركة أمام المدينة ، وكانت المدينة تحتوي على جمع غفير من الجند المصري ، والأسلحة والعدد الحربية ، وعندما اشتد الهجوم سلم الحاكم المدينة للفرنجة في شهر تموز في السنة الثانية لبسء تلك الحملة عام ١٤٠٩ (٢٧) ، ولقد قتل في المدينة ثلاثون ألف مسلم ونهبت المدينة (أما المسيحيون فقد كانوا قد طردوا منها قبل وصول الفرنجة) ونصب الدوق غودفري ، وهو أحد قوادهم الكبار ، ملكا على القدس ، (٢٨) ، ثم انتشروا في جميع أنحاء البلاد واحتلوا القرى والقلاع ومدن فلسطين ، وجميع الجليل .

وأخذ الكونت صنجيل أحد مقدمي الجيش الذين قدموا مع الفرنجة قوة كبيرة وحاصر طرابلس ، وهاجمها بضراوة ، وكانت المدينة محصنة بثلاثة أسوار وخندق عميق بين كل سورين ، ولكنها كانت مدينة صغيرة ، وبها حامية كبيرة من الجنود الأكفاء ، وبنى صنجيل حصنا على منحدرات جبل لبنان الجنوبية وجعله مدينة مأهولة كما هو الآن (٢٩) ، وقد حارب وقتا طويلا للاستيلاء على المدينة وظل الحصار مدة سبع سنوات حتى سلمها صاحبها (٣٠) . ولقد غنم كثيرا من الأسلاب ، وقتل جميع المسلمين الذين كانوا في

المدينة ، وقد احتل جميع الأراضى حولها وجميع السواحل ماعدا صور وعسقلان اللتان بقيتا بيد المصريين ، وأما دمشق وحمص وتدمر وبعبك وحماء وحلب وبصرى وكلا (٣١) ، ومنبج وحران والرقعة فقد احتفظ بهم المسلمون الذين كانوا يلحقون الأضرار الفادحة بكل الأراضى التي احتلها الفرنجة .

وفي هذا الوقت كان جبريل القلقيلي (٣٢) يحكم ملاطية ، وكان قد عينه بوزان (٣٣) قائدا عليها وواليا لها ، وعندما قتل بوزان ظلت المدينة تحت سلطة جبريل ، وقد أرسل إلى بوهيموند في انطاكية يقترح عليه أن يأتي إلى ملاطية ويتزوج ابنته (ابنة جبريل) ويستلم ملاطية كمهر (دوطه) للبنت ، وكان اسم البنت كيرا - مورفيا ، واتجه بوهيموند نحو ملاطية ، لكنه عندما اقترب منها تصدى له الدانشمند حاكم بونتوس وكبدوكيا وقد هزم بوهيموند وقتل من كان معه من الفرنجة ، أما هو فقد وقع أسيرا (٣٤) وبعد مدة افتدي بمبلغ ضخم من المال ، ورجع إلى انطاكية حيث عين ابن أخته تانكرد حاكما عليها ، ثم أبحر إلى موطنه حيث مات ، وكذلك فعل صنجيل (٣٥) الذي فتح طرابلس بأن جعل ابنه حاكما على طرابلس ، ثم أبحر عائدا إلى موطنه .

وحدث أن رغب أحد أمراء الفرنجة المدعو بيتافين (٣٦) أن يتوجه إلى المنطقة عندما سمع أن الفرنجة الذين أتوا قبله قد استولوا على سورية وفلسطين ، فعمل خطة بأن يمر من خلال سامفيليا وكبادوقيا ، ويمتلك الأراضى الشمالية وعندما وصل إلى القسطنطينية اجتمع بالأمبراطور الكسسيوس وطلب منه أن يقدم بعض المرشدين الذين يعرفون خفايا الطرق ، ولكن الكسسيوس خانته وضمه فأسل معه رجالا أمرهم أن يقودوه إلى الأراضى الصحراوية حيث لاماء ولا علف : ثم أخبر التركمان في تلك النواحي أن يحيطوا به ويحاصروه ، وقد تحقق كل ما رمى إليه الكسسيوس ، فقد أتت قوة عظيمة من التركمان ، وأحاطت به وبمن معه ، وهاجمتهم وهم في حالة تعب وإعياء من الجوع والعطش وقد رماهم التركمان بوابل من

النبال ، ولم يكونوا بحالة تسمح لهم بالقتال ، ولم يكن امامهم مكان يفرون إليه ، ولهذا هزموا شر هزيمة ، وقتل التركمان الكثير منهم بسيفهم وغنموا منهم مبالغ طائلة من الذهب والفضة ، وقد هرب بيتافين قائدهم ومعه القليل من رجاله ورجع خائبا إلى بلاده .

ومات غودفري ملك القدس بعد سنتين من حكمه ، وترك المملكة لأخيه بلدوين ملك الرها ، وعندما علم بلدوين بالخبر سلم الرها لبلدوين آخر ، وكان رجلا ابيا وزعيما كبيرا من زعماء الفرنجة المحترمين ، وذهب إلى القدس حيث حكم مكان أخيه ، وكان جوسلين وهو أحد أقارب بلدوين الذي أصبح حاكم الرها يحكم تل باشر (٣٧) في منطقة منبج ، وعندما أصبح بلدوين حاكم الرها عرض عليه جبريل صاحب ملاطية أن يتزوج ابنته كما كان قد عرض من قبل على بوهيموند وقبل بلدوين وتزوج كيرا مورفيا ابنة جبريل وأخذها إلى الرها ، وقويت شوكة الدانشمند حاكم كبدوكيا الداخلية خاصة بعدما أسر بوهيموند ، واستلم فدية كبيرة لاطلاق سراحه ، فجمع جيشا عظيما وعسكر حول ملاطية وأصابها بأضرار ، وقد حاربت حامية المدينة قدر استطاعتها ولكن عندما شعر رجال الحامية أن القتال أصبح دون جدوى ، أصابهم الوهن فأقنع بعضهم أسقف المدينة الذي كان مخلصا في تشجيع الرجال على القتال ، أقنعوه بأن يطلب من جبريل ويشير عليه بأن يوافق على المصالحة والتسليم ، وعندما اشتد القتال تكلم المطران مع جبريل لأقناعه ، ولكن جبريل الشقي ظن أن هنالك مؤامرة ضده فدخل الشيطان إلى قلبه ووسوس له فأقدم على قتل الأسقف وعدد من رجال المدينة المسيحيين المعتبرين ، معتقدا أن في ذلك خلاصا له ، لكن العكس هو الصحيح كانت سببا في نهايته ودماره ، وكان اسم الأسقف سعيد ابن صابوني ، وقد تغلب المحاصرون على المدينة وفتحوها ، وأصبح الدانشمند صاحبها (٣٨) ، وقد قتل جبريل وأزيل بيته من الوجود كليا .

وكانت بلدة سروج (٣٩) قرب الرها بلدة غنية ، وماهولة بالسكان

المسلمين والمسيحيين ، وفيها جميع انواع التجار واكثرهم شهرة ، وكان واديها غنيا ومأهولا بالسكان ومليئا بالساكنين ، وكان يحكم هذه البلدة تركماني اسمه بك (٤٠) وهو احد ابناء ارتق ، وقد قام فرنجة الرها بمهاجمة هذه البلدة وحصارها من طرف من اطرافها ، واتى لمساعدتهم ارمن منطقة الفرات ، ووضعوا انفسهم تحت تصرف الفرنجة ، وهاجموا تلك البلدة بعدما احكموا الحصار حولها من كل جانب ، ولما ادرك صاحب سروج ان البلدة لايمكن ان تقاوم وتستمر وسط الاراضي المسيحية راسل بلدوين حاكم الرها يعرض عليه ان يسلمه سروج وفق شروط يعينها له وايمان موثقة ومؤكدة ، فوافق بلدوين واعطى كل الموائيق المطلوبة فسلمت له سروج مع قلعتها ، وعين بلدوين احد الفرنجة المشهورين ويدعى بوتشير ، وقام هذا فجمع الاموال الطائلة من سروج ، وقد صادر اموال احد الرجال العرب المسلمين واسمه عبيد ، وكان واحدا من قادة البلدة واعيانها ، مع اموال اخوته واقاربه ، واخذ من بيوتهم اموالا وثروات لايمكن حصرها ، وهكذا غدا بوتشير غنيا وقويا .

وحينما سمع سكرمان بن ارتق (٤١) عم بك بسان الفرنجة قد استولوا على سروج ، جمع جيشا عظيما وحاصرها معتمدا على عدد المسلمين الكبير في البلدة ، ولدى سماع بلدوين حاكم الرها بذلك خف لقتاله ، وعندما اقترب الجمعان من بعضهما ، نصب التركمان كمينا للفرنجة ، واطبقوا عليهم من المقدمة والمؤخرة ، فكسر الفرنجة ، وقتل منهم عدد كبير ، لكن بلدوين هرب إلى الرها ثم تسلل وهو مفعم بالخوف عبر الفرات ، ووصل إلى انطاكية ليجمع جيشا وينقذ سروج ، وكان بوتشير حاكم سروج قد وقع أسيرا ، وقد انسحب جميع المسيحيون هناك ، وتجمعوا في القلعة ومعهم بابيلاس اسقف الفرنجة في الرها الذي صدف ان كان موجودا في الرها في ذلك الوقت وقد اصطحبوا معهم العمسال والنجارين والحدادين وجمعوا المؤن وبعد ان هزم الفرنجة بدا التركمان في حصار القلعة وهاجموا النصارى بقسوة وبينما كان هؤلاء يقاتلون ليلا نهارا وصل رسول من بلدوين يحمل رسالة يقول فيها استعدوا

من داخل القلعة ، وعندما بزغ الفجر أشعل الفرنجة المشاعل ، ووضعوها على رؤوس الرماح وهجموا ، وقد مادت الأرض تحت وطأة أقدامهم ووصل ضجيجهم إلى عنان السماء ووافاهم رجال الحامية وأمدوهم بالعون والمساعدة ، وهكذا حل الرعب في قلوب التركمان وتملكهم الخوف فهزموا ، وذبح الكثير منهم بحد السيف وتقدم الفرنجة إلى معسكر التركمان وأعملوا النهب فيه دونما توقف ، وغنموا الأموال والسلع ، وحل الخوف في قلوب سكان المدينة من المسلمين ، ولم يصدقوا أن الفرنجة سوف يعاملونهم بأي نوع من الرحمة أو الشفقة ، وهكذا أقفلوا أبواب المدينة وحصنوا الأسوار وبدؤوا بمقاومة الفرنجة ، وكانوا يأملون أن يحتفظوا بالبلدة حتى يأتي جيش من جيوش المسلمين لتخليصهم ، وحاول الفرنجة أن يقنعوهم بأن يتخلوا عن هذا العناد ، ويتخلوا عن هذا الموقف ، وطمأنوهم بالآيمان المغلظة أنهم لا يرغبون في قتلهم ، ولكن هؤلاء لم يعيروا الفرنجة أدنا صاغية ، فأعلن الفرنجة « أنه يجب على كل المسيحيين داخل البلدة أن يلبسوا السلاح ويضعوا إشارة الصليب » ، وبعدها هجموا كالأسود ، وقفزوا من القلعة إلى البلدة وهاجموها كالجزارين فذبحوا جميع المسلمين الصغار والكبار حتى امتلأت المدينة بأشلاء القتلى الألوف ، لأبل عشرات الألوف ، التي لاتعد ولا تحصى ، وقد خربت تلك البلدة الأهلة بالسكان ، وتجمع المسيحيون الذين بقوا أحياء حول القلعة وعاشوا معيشة البؤس والفقر (٤٢) بعد هزيمة كربوقا (٤٣) المذكورة أعلاه ، وبعد هزيمة سكرمان والمصائب التي حلت بالمسلمين في سروج ظهر أحد الأمراء من الشرق ويدعى جكرمش (٤٤) واستعد بجيش عظيم لقتال الفرنجة ولحماية البلاد ، فبدأ بمهاجمة الرها وجاس جيشه خلال البلاد وأعمل بها قتلا ونهباً واستعباداً حسب هواه ورضاه ، وحالما اقترب الجيش من المدينة خرجت حاميتها للقائه عند الباب الشرقي لمنع من الاقتراب منها ، وتقدم كثير من أهالي الرها الحمقى بسيوفهم وأسلحتهم ، وخرجوا من المدينة لقتال التركمان الذين حالما راوهم قادمين بسرعة ودونما نظام انسحبوا إلى الورا قليلا حتى مكنوا الفرنجة من الانتشار في السهل أمام الجسر الشرقي ، ثم حيا

الترکمان بعضهم بعضا وبدأوا يطبقون على الفرنجة من جميع الجوانب ، ورأى الجنود على الأسوار كل هذا فخشوا أن يلتقي الجيشان ويختلطان بعضهما ببعض ويرجعوا إلى المدينة ولهذا أقفلوا الأبواب وانعطف التركمان وأطبقوا بقسوة على المحاربين من أهالي الرها فهرب هؤلاء ، وعندما وجدوا أن الأبواب مقفلة ارتجفوا وحل بهم الذعر والهلع ، لأنهم لم يستطيعوا الوصول إلى الجسر فوق الخندق ليعبروه بين الأسوار ، فسقط معظمهم في الخندق في أحد جوانبه أو في الجانب الآخر ، ونزل الرجالة من التركمان خلفهم وأعملوا فيهم القتل دونما رحمة ، وامتلا الخندق في لحظة بجثث القتلى ، وجرى الدم كالنهر وانساب في الخندق ، وهنا انسحب جركمش بعد أن خرب وأحرق مآشياء من القرى والريف (٤٥) .

وفي هذا الوقت كان رجل من بلدوقيا يعيش في سميساط ، ويحكم بها مع عدد من التركمان فأقدم على تسليم هذه البلدة للفرنجة لقاء بعض المال ثم انسحب ، وفي أرض الشمال في كركر (٤٦) كان الأرمن يعيشون ويحكمون ، وكان مقدميهم : جستادين (٤٧) وتابتوج وكريستوفر أبناء سنبيل ، وكانت البلاد غنية تحوي كثيرا من الأديرة وبيوت الكهنة من بينها دير السلالم « المعراج » ، ودير القديس أبخاي عند منحدرات صخور الفرات ، ودير الرهبان الحفاة في باسكين ، ودير القديس جورج ، ودير القديس شاباتي في شميرا ، ودير مالکوس مع عدد من القرى الأهلة بالسكان ، والدساكر والحقول ، وكان لديهم كثير من المقيمين جميعهم من الأرثوذكس ، وكان الأرمن الذين يحكمونهم خاضعين للفرنجة .

وفي عام ١٤١٤ (٤٨) عندما كان الفرنجة في ذروة قوتهم اجتمع جميع ملوكهم ومعهم الجيوش العظيمة وأتوا إلى الرها وقرروا أن يزحفوا شرقا ويفتحوا البلاد هناك ، وكما جرت عادتهم السيئة لم يتفقوا على شيء بسبب تنازعهم وغطرسة مقدميهم وتفاخرهم على بعضهم بعضا ، ولقد مكثوا مدة طويلة في الرها يناقشون كيفية

تقسيم المدن التي سوف ينتزعونها من التركمان ، فأحدهم كان يريد ميافارقين ، وآخر أراد أمد ، وثالث طلب نصيبين ، ورابع أصر على أخذ الموصل حتى وصل بهم الأمر إلى أن رموا قداح القسمة بشكل مثير للإسخرية ، ثم استعدوا للزحف على نصيبين ، ولدى سماع التركمان بتجمع ملوك الفرنجة بدأوا يلმون شعثهم أيضا ، وفي حين كان الفرنجة مائزالون في الرها يتجادلون حول تقسيم البلدان جمع التركمان قواتا عظيمة ، وأعدوا العدة لمهاجمة الفرنجة عند شروعهم بالزحف .

وعندما غادر الفرنجة الرها رافقتهم جماعات كبيرة من سكان المدينة الذين كان لاهم لهم سوى السلب والنهب وجني الثروات ، والاستيلاء على الأسرى من المسلمين والتركمان عندما تقع الهزيمة بين صفوفهم ، وهكذا تضخم حجم معسكر الفرنجة ، وعندما وصل الفرنجة إلى سهل حران زحفوا عبره شرقا حتى وصلوا إلى بيت إبراهيم في مكان يدعى دهبانه (٤٩) ، حيث كان هناك مسجد كبير وبيت لعبادة المسلمين وخشي أهالي حران من الفرنجة ، فأخذوا مفاتيح بلدتهم وقدموها عنوانا على طاعتهم وخضوعهم لهم وولائهم ، وهنا رأى بلدوين صاحب الرها أن حران من أملاكه ، لأنها واقعة ضمن أراضيه ، وأنه بالتالي إذا عسكر الفرنجة قريبا وتملكها ملوكهم سيجعل ذلك جنودهم يدخلونها ويعملون بها النهب والسلب ، وبذلك ستضعف المدينة ، وهذا لم يكن في مصلحته ، لهذا أرجع المفاتيح للأهالي وأخبرهم أنه يعتبرهم من أتباعه ، وأمرهم أن يحافظوا على المدينة حتى يرجع بعدما يتفرق بقية الغرباء ، وعندما سمع تانكرد صاحب أنطاكية والملوك الآخرون بما حدث اغتاضوا من عمل بلدوين وأخبروه بصراحة أنه لم يتصرف تصرفا لائقا ، إذ كان من الواجب احتلال تلك المدينة الغنية ، وأن يتركوا امتعتهم الزائدة فيها ، ويذهبوا خفافا لمقابلة الأعداء القريبين منهم ، وإذا وهبهم الرب النصر فسوف لن يتجرا أحدهم أن ينتزعها من بلدوين ، ولسوف يحل الزعر بالتركمان عند سماعهم بسقوط

تلك المدينة ، وإذا هزم الفرنجة لاسمح الرب فستكون هذه المدينة ملجأ
وملاذا لهم ، ولكن بلدوين لم يوافق على هذا الكلام .

وزحف الفرنجة من دهبانة وانتشروا باتجاه نهر البليخ ، وكان
تاذكرد مغضباً لذلك فضل أن يظل دوماً في المؤخرة، وعندما وصلوا
راوا التركمان أمامهم ألوفاً لأبل عشرات الألوف وبدأت المعركة حالاً
(٥٠) فأمطر التركمان الفرنجة بوابل من سهامهم التي كانت تنهمر
كالمطر، وهذا جعل الرعب (٥١) والفزع يدب في قلوبهم، ثم سل الأتراك
سيوفهم وبدأوا بالقتل والذبح في المؤخرة ، وحالما رأى تاذكرد
ورجاله في المؤخرة أن المذبحة قد بدأت بين صفوفهم لووا أعنة
خيولهم وهربوا تاركين أولئك الذين في المقدمة لقدرهم ، وهنا زادت
قوة التركمان فبدأوا بالقتل دون شفقة أو رحمة ، وأسروا
الكثيرين ، وقد أسر بلدوين صاحب الرها مع بعض أقاربه ، وكذلك
الكونت جوسلين صاحب تل باشر ، وكان فارساً شجاعاً وقيدوهم
جميعاً بالأصفاد الثقيلة ، ونهبوا معسكرهم وأسلحتهم وخيولهم
وجميع ممتلكاتهم التي لا تحصى (٥٢) ، وأخذ التركمان بلدوين
وجوسلين مقيدين بالأغلال إلى الموصل ، وهناك انعكست الآية ،
وخابت آمالهم حيث حكم عليهم بأن أودعوا السجن ، بعدما خططوا
أملين بالاستيلاء على الموصل ، ومضى تاذكرد صاحب أنطاكية إلى
الرها وارتاح هناك بضعة أيام يأكل ويشرب ويفعل ما يشاء
ويهوئ ، وأخذ منها ثروات كبيرة وخيولاً كثيرة ثم عين أحد رجاله
واسمه ريتشارد (٥٣) حاكماً عليها وغادرها عائداً إلى أنطاكية .

وكان ريتشارد هذا رجلاً فاسداً طاغية خشناً ظلوماً ، وانتهز
أشرار أهالي الرها هذا الظرف الذي ناسب مفاسدهم فوشوا ضد
بعضهم بعضاً ، وتآمروا ، ووجد كل من كان يحقد على آخر الفرصة
المناسبة لا يذاته ، وعاملهم الحاكم بعنف وعذبهم وسجنهم ، وأنزل
بهم النذل ، وقد جمع منهم كثيراً من الأموال خاصة وأنه كان يدرك
أنه كان مغتصباً وعابر سبيل ، وليس سيداً حقيقياً أو وراثياً .

وظل بلدوين صاحب الرها وقريه جوسلين الشهير أسرى في الموصل ، ولم يزعج أحد من الفرنجة نفسه ويسعى لتحريرهما لأن تانكرد كان حاقدا عليهما ، وريتشارد كان يتصرف بأملاكهما كما يشاء ، وبدأ السجناء بالتداول في الأمور فقال بلدوين إن من الصعب إطلاق سراحه لأنه رجل كبير الأهمية ، وإن جوسلين ينبغي أن يطلق سراحه أولا فعندها يستطيع أن يعمل لإطلاق سراح بلدوين ، وتم التفاوض مع التركمان واتفق على إطلاق سراح جوسلين مقابل مبلغ قدره اثني عشر ألف دينار ، وأطلق سراحه لجمع هذا المبلغ ، ووضع مكانه في السجن اثني عشر رجلا من أعيان أصدقائه كرهائن ، وبينما كان يجمع المال المطلوب ، هرب الرهائن الاثنا عشر ونجوا من سجن الموصل ، وهكذا تحرر جوسلين وأصدقائه دون عناء ، وبمساعدة صاحب قلعة جعبر على الفرات (٥٤) - وهو رجل مشهور بشهامته وقدرته على التوسط - حددت فدية بلدوين قدرها سبعين ألف دينار ميخائيلي (٥٥) . وجمع جوسلين حوالي خمسة وعشرين ألفا وحملها بنفسه إلى قلعة جعبر ، ووضع نفسه كرهينة لدفع الباقي ، وأرسل صاحب قلعة جعبر رسولا من قبله إلى الموصل مع الدنانير التي دفعها له جوسلين ، وتعهد بدفع الباقي باعتبار أن جوسلين كان في عهده ومتحفظا عليه عنده ، وفي هذا الوقت تعين حاكم جديد للموصل يدعى جاولي (٥٦) ، فسمع بجوسلين ولكنه لم يكن قد رآه ، وعندما سمع أنه وضع نفسه رهينة لدفع الذنود ، رغب في رؤيته ، وعندما حضر الرسل ومعهم مبلغ الخمسة وعشرين ألف دينار ، وتعهد صاحب قلعة جعبر وكفالاته بدفع الخمسة والأربعين ألفا الباقية ، أطلق سراح بلدوين ، ولكنه رغب في رؤية جوسلين شخصيا ، لأنه سمع بشهامته وأنه محارب شجاع ممتاز ، وعندها عمد صاحب قلعة جعبر إلى إرسال جوسلين إلى الموصل ، بعد أن زوده بهدايا وثياب وحصان مطهم وأسلحة فرنجية ، وعندما وصل جوسلين جمع الحاكم أفضل فرقه وعساكره للقاءه على أرض العرض ، وأمر جوسلين أن يعرض مهارته الحربية أمامه فقام هذا باللعب برمحه ، وبمناورات حربية أعجبت الوالي ، فأنقص عشرة

- ١٩٧٦ -

الاف دينار من فدية بلدوين ، عندها ترجل جوسلين وقبل الارض بين يدي جاولي وشكره ، وكتعبير عن امتنان الوالي لسـلوك جوسلين هذا أمر بخـصم عشرة الاف اخرى من الفدية ، وفي اتناء عودتهما الى المدينة أقام الحاكم له وليمة كبرى ، وخصم عشرة الاف اخرى ، وقد اقام جوسلين بضعة ايام في الموصل اظهر له الحاكم اثناءها كل مودة واقسم له أنه لن يحاربه ، وجعله يقسم الا يحاربه واتفقا الا يتحاربا ماداما على قيد الحياة بل على العكس ان يساعد بعضهما بعضا وقت الحاجة ، تم اعطى جوسلين الهدايا ، واطلق سراحه نهائيا ، وسامحه بكل ما بقي من فدية بلدوين ، وسمح له بالذهاب بامان ، وهكذا وبمـشيئة الرب اطلق سراح الاثنين .

وعندما اطلق سراحهما (٥٧) ، جمع ريتشارد الذي كان يحكم الرها كل ما استطاع جمعه من المدينة ، وتوجه عائدا الى ارضه في مرعش ، وحالما وصل بلدوين وجوسلين الى الرها وعلما بما قد فعله تانكرد وريتشارد هناك استشاطا غيظا من جديد ، واذا يستعدان للمعركة ، وارسل جوسلين رسالة الى جاولي صاحب الموصل يطلب منه العون فارسل هذا عددا من الجنود التركمان لمساعدته ، والتقت الجيوش في الاراضي التابعة لبرجبة بين كلز ودلوك (٥٨) وقد ارتفع غبار المعركة الى عنان السماء ، وكانت نتيجة المعركة أن هزم الأتراك وهربوا ، ولحق بهم رجال انطاكية واعملوا بهم القتل ، ثم هرب بلدوين ورجاله ، وهكذا كانت نتيجة المعركة ، وبعد زمن اتفق الفريقان وحل السلم بينهما ورجعت الالفسة والمودة الى سالف عهدهما .

وفي عام ١٤١٧ عندما كان ملوك الفرنجة في حالة سلام ، جمع مودود حاكم الشرق جيشا لجبا لايعد ولايحصى وتوجه الى الرها اولا وقد عسكر في السهل الشرقي حول قلعة كاساس (٥٩) وقد ارسل مودود عددا من الفرسان لنهب البلاد ، فقطعوا الاشجار والحدائق واثلفوا الارض ، وخربوا الديارات ولكنهم لم يقتربوا من

المدينة لمحاربتها ، بل نصبوا حولها الات الحصار ، واكتفوا بالاقتراب منها ثم رحلوا عنها .

وعندما سمع الفرنجة في انطاكية بهجوم مودود على الرها بدأوا بجمع جيش على جناح السرعة لانقاذها ، وتحركوا بسرعة نحو الفرات وعبروه ، وعندما سمع التركمان بمقدمهم انتقلوا الى نهر الجلاب ، واتخذ الفرنجة موقعا لهم امام معسكر مودود ، وكان جيش الفرنجة يحوي كل من بلدوين ملك بيت المقدس صاحب الرها سابقا وابن صنجيل صاحب طرابلس ، وتانكرد صاحب انطاكية ، وعدد كبير من الجند والخيول ولكن كان ينقصهم القمح والعلف ، فقد كان (مودود) قد خرب البلاد واتلف المؤن ، وقد قاسى الفرنجة من قلة المؤن ، وكعادتهم لم يكونوا يتحلون بصفة الصبر(٦٠) وصمموا على العبور الى غرب الفرات وهم لا يزالون في مواجهة العدو ، وفي الوقت الذي كانوا يسيرون في طريقهم الى سميساط وهم يشكلون جيشا كبيرا يتبعه عدد هائل من القرويين وسكان المدن مضى فرنجي من مطايا الشيطان وادواته ، كان قد تشاجر مع رئيسه ، مضى الى معسكر الاتراك على نهر الجلاب واخبر مودود ان الفرنجة فروا وهم في حالة يائسة قد اضعفهم الجوع ، وانهكتهم مصاعب الطريق وقال له : « اذا اسرعت الى مطاردتهم فانك سوف تلحق بهم افدح الخسائر » ، وفي الحال اصدر مودود الاوامر بالهجوم ، واخذ المنادون يصرخون والابواق تنفخ ، وتقدم المحاربون الاشداء وتبعوا جنود الفرنجة الذين اصابوا بالدهشة ، ولم يعلموا ماذا حدث ولم يستطيعوا ان ينظروا امامهم او خلفهم ، وعندما وصلوا الفرات تقدم المحاربون اولا بينما انتظر المشاة وحاملوا الامتعة في الخلف ، وكان الرب غاضبا على شعبه ، وخصوصا على اهالي الرها الذين شكلوا اكثرية الجيش ، وفجأة انقض عليهم التركمان وهاجموهم كالجزارين واخذوا يذبحون دون رحمة او شفقة ، ولقد غرق منهم اكثر مما قتل ، وكان التركمان يطعنون الفرقى بالرماح واخذوا الكثيرين منهم اسرى ، ثم استولوا على الغنائم والمؤن والاثقال ، وهكذا ال زحف الفرنجة الى نهاية تعيسة ، وهنا قفل مودود راجعا

الى ارضه وبلاده ، وعسكر حول المدينة واتلف الاراضي والمحاصيل الزراعية حولها ، وقطع الاشجار والحدائق التي بقيت (٦١) وحاصر المدينة وسبب لها الكروب طيلة الصيف ، وانتشر الخوف وحل الرعب والبؤس في المدينة بسبب قلة الاطعمة ، وتولاهم اليأس وهلعت قلوبهم ، لانهم زرعوا وتعبوا وشقوا سنة بعد سنة ، لكنهم لم يحصدوا شيئا ، وقد ارسل لهم مودود يمنيهم ويطلب منهم تسليم المدينة له ، وبذلك يصيبهم الخير بدلا مما هم فيه من التعب والويل ، ولم يرسل له اهالي الرها اي جواب ايجابي ، ولكن عشرون ارمينيا تأمروا مع مودود لتسليم المدينة وخيانتها ، فنقل معسكره ونصبه مقابل سروج ليوهم اهالي الرها انه قد يذس وذهب ، وبذلك لايهتمون بحراسة السور ، وبعد منتصف الليل في ليلة الأحد أتى التركمان بسرعة من الشرق وتسللوا من بين الاسيجة في الحدائق حتى لا يلاحظهم احد وارسلوا بعض المحاربين الاشداء الى المكان المتفق عليه قرب السور في شرقي المدينة داخل الجسر السفلي فوق الخندق المملوء بالماء ، حيث كان هنالك مكان مناسب للمغامرة ، فقد كان هنالك برج في الزاوية يحرسه رجل من اهل الرها يدعى سيروس ، وهنالك تقابلوا طبقا للاتفاق ، فانزل الخونة بعض الحبال وسحبوا سلالم قوية ثبوتها على السور ، وبدأوا يتسلقونه ولما راهم الحراس على السور اخذوا يصرخون إن الاعداء قد تسلقوا السور ، وسمع الاعداء هذه الاصوات وبدأوا يحدثون ضجة وجلبة في الغرب ويضربون الطبول وينفخون بالابواق حتى يظن اهالي المدينة ان مشهد المعركة من الغرب فيتجهون الى هناك ، ويتركون الخونة وشأنهم حتى يستطيعون اتمام التسليق على الاسوار ، وقد قتلوا كل من كان في تلك الناحية ولم يستسلم لهم ، اما سيروس فقد ظل صامتا اذ انتابه الخوف وفقد ارادته فتركهم ينفذون خططهم ، وقد صعد الى البرج حوالي ستون رجلا ، وعندما طلع النهار رأى الجميع التركمان على السور وعلى البرج فاصيب الفرنجة وزعمائهم بالذعر عندما علموا ان هناك خيانة في المدينة ، واذا بالعدو في الخارج والاسور يغص بالتركمان والناس يتراكمون الى بيوتهم واطفالهم ، وصدف ان كان جوسلين صاحب تل باشر في

الرها في ذلك اليوم ، فقام باعمال الابطال اذ صعد الى السور من ذلك الجانب ، واقترب من العدو وعندما رآه الاعداء تجمعوا في البرج الكبير ووقفوا على سطح فوقه وامطروه بوابل من الذنشاب والحجارة ، ولكنه دخل البرج الذي كانوا يقفون على سطحه وكله شجاعة واقدام ، ومد سيفه من خلال نافذة مخصصة لرمي السهام وقطع حبال السلالم التي كانوا يصعدون عليها بينما كان كثير من الرجال على تلك السلالم فسقط الجميع الى الأرض مهشمين وأما الذين كانوا فوقهم فقد ارتجفت قلوبهم لما رأوا هذا المنظر ، وفقدوا الأمل ، فبارج جوسلين بالصعود الى حيث كانوا وقد ضربوه بالحجارة من الأعلى وكسروا درعه ، فأخذ كيسا مملوءا بذشارة الخشب كان ينام عليه الحرس ووضعه فوق رأسه وتسلق بكل جراءة وقوة ونزل بينهم فهربوا ، وقد أوقع بعضهم بضربة من سيفه وبعضهم قفز الى الأسفل وتحطم ، وهكذا اخفقت المؤامرة ودفنت في مهدها وهي لم تكد تبدأ ، وقد رجع مودود الى بلاده ، بينما أخذ الفرنجة يحاكمون المتآمرين والقوا القبض على كثير من المذبذبين والأبرياء ، وقطعوا الأيدي وجدعوا الأنوف وقلعوا الأعين ، وقد مات الكثيرون من جراء ذلك ، وأعدم الآخرون.

وبعد بضعة سنوات (٦٢) ذهب مودود الى دمشق وفلسطين وطبرية وخرب البلاد ونهب وسلب ودمر وأخذ كثيرا من الأسرى ، وعندما وصل الى دمشق ودخل الجامع الكبير ليصلي في يوم الجمعة كعادة المسلمين قام الاسماعيليون باغتياله (٦٣) وفي السنة نفسها (٦٤) مات تانكرد صاحب انطاكية الذي لم يكن له ولد ، فورثه ابن اخته روجر ، وكان شابا متغطرسا ومتعجرفا ، وكان روجر متكبرا ووسيدا ، فجمع فرقا كبيرة من الجند وتزوج اخت بلدوين صاحب الرها ، وهاجم بجيشه قلعة اعزاز الحصينة في وادي كلز ، وقد حفر سرايب في الأرض تحت الأسوار ووضع عوارض من الخشب داخلها ثم أشعل النار بالعوارض فترنح السور وسقط ، فهجم الفرنجة من خلال الثغرة التي حصلت ، واستولوا على الحصن

ونهبوا المسلمين في داخله ، وهكذا استولى روجر على هذا الحصن الشهير (٦٥) .

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٤٢٢ وعند الفجر يوم الأحد ضربت هزة أرضية مدينة جرمانيكما التي هي مرعش (٦٦) فهدمتها كلياً ، ودمرت المعابد وأديرة الرهبان وسقط السور بكامله وقتل أربعة وعشرون ألف شخص غير الغرباء وأكثر من مئة من رجال الدين والشمامسة ومحيط قلعة منصور وأزيلت وأماكن أخرى كثيرة من الوجود ، وفي هذه السنة غضب بلدوين صاحب الرها من جوسلين ووضع في السجن وعذبه ، وبعد أن أطلق سراحه ذهب إلى بيت المقدس ، ونزل عند بلدوين الذي رحب به وأحبه وجعله حاكماً لطبرية والجليل (٦٧) ، وهناك ولد له ابن سماء جوسلين ، وفي هذه السنة مات رضوان صاحب حلب (٦٨) . وكان السلطان السلجوقي يعيش في إيران ، وقد أرسل ولاية لسانر البلدان الغربية ، وعندما قتل مودود في دمشق أرسل البرسقي إلى إقليم أقور (الموصل) ، فتقدم هذا وعسكر حول الرها وأتلف الحدائق وأحدث الأضرار العظيمة في الأراضي (٦٩) ، وعبر الفرات ، وخيم في أراضي حلب وعمل كل ما في وسعه لتخريب الأراضي التابعة للمسيحيين قدر استطاعته ، ثم عاد أدراجه وفي السنة التالية أتى كالعادة إلى الرها وعاث في الأرض وأتلف المحاصيل وسبب أضراراً عظيمة ، ثم تحرك متجهاً إلى حلب واستعد لحرب الفرنجة الذين جمعوا جيوشهم ، وعسكروا بين حلب وانطاكية ، وفي عام ١٤٢٧ نظمت الصفوف ونفذت الأبواق ، ودقت الطبول ، وقد هب الرب النصر للفرنجة وهزم التركمان ونهب معسكرهم بينما هرب البرسقي (٧٠) ومعه بضعة رجال .

وكان أبو الغريب وهو أرمني يحكم قلعة البيرة الحصينة (٧١) وقد قام بلدوين صاحب الرها ومعه قريبه جاليران على رأس جيش كبير بحصار هذه القلعة مدة طويلة ، لأنه لم

يستطع الاستيلاء عليها بالهجوم المباشر ، ولما لم يستطع أبو الغريب أن يحصل على أية مساعدة ، استسلم للفرنجة على شروط ، وتزوج جاليران ابنته ، وكانت القلعة هي المهر لهذا الزواج ، وهكذا استولى الفرنجة على تلك القلعة .

وفي عام ١٤٢٥ (٧٢) ذهب بلدوين صاحب الرها للحج الى بيت المقدس وكان بلدوين صاحب بيت المقدس قد جمع جيشا وزحف على رأسه الى مصر ووصل الى الفرما (٧٣) ومات هناك وكان قبل وفاته أمر أن تدفن جثته في قبر أخيه غودفري ، وأن يصبح بلدوين صاحب الرها ملكا لبيت المقدس ، وقد نفذ هذا ، وعندها دعا بلدوين الكونت جوسلين صاحب طبرية وأحل السلام بينهما ، وهكذا أصبح بلدوين حاكما لبيت المقدس ، وجوسلين حاكما لطبرية وكان جوسلين عندما عاش في طبرية قد ربح عدة انتصارات ، وأصبح مرهوب الجانب في جميع أنحاء المنطقة .

وكان ميخائيل بن قسطنطين وهو أرمني يحكم أراضى كركر (لاقى جستادين الأب حتفه بعد أن دفن وهو أسير في سمسباط عند حدوث الزلزال الذي دمر مرعش) وكان ميخائيل هذا شابا متعجرفا قام بارتكاب الكثير من الأعمال الشريرة بدعمه للعصابات واللصوص في جميع الأنحاء ، وكان بلك بن أرتق (الذي حكم سروج سابقا) والآن صاحب هنزيط وحصن زياد (خرتبرت) (٧٤) قد حذر ميخائيل من مغبة أعماله الشريرة ، وطلب منه أن يكبح جماح اللصوص الذين يهاجمون التجار والمسافرين، لكن هذا لم يعر هذا التحذير أي اهتمام وكانت الشكاوى ترد الى بلك باستمرار حتى أنه لم يعد يستطيع الاحتمال ، فجمع جيشا عظيما من التركمان في شهر كانون ، وهو شهر قارس البرودة ، وتوجه الى أراضى جرجر الأهلة بالسكان وقد رافقته العناية الالهية وساعدته وأرشدته لأن مياه نهر الفرات كانت متجمدة في ذلك الوقت ، فعبر هو ورجاله النهر بسهولة تامة فوق الجليد ، بينما لو ود أن يعبره بالقوارب لاستغرق ذلك منه

- ١٩٨٢ -

خمسة ايام على الاقل ، ودخل إلى اراضي جرجر في المساء ، واخفى رجاله بين الصخور الشاهقة ، ولم يعلم بهم أحد ، فالب رب كان غاضبا على اهل تلك البلاد وفي تلك الليلة هطلت كميات كبيرة من الثلوج ، وهكذا استطاع التركمان ان يقتفوا على الثلج اثار كل اولئك الذين هربوا من القرى المجاورة الى التلال أو المراعي العليا وقتلوهم أو اخذوهم اسرى ، وانتشروا كالطوفان خلال الاراضي واحرقوا البيوت والقرى وانزلوا الخراب بالمنطقة .

وكان بلدوين عندما ذهب للحج في بيت المقدس عين جاليران صاحب البارة^(٧٥) نائبا عنه في الرها ، وجمع هذا ما استطاع جمعه من العساكر ، وهاجم معسكرات التركمان في السهل المتاخمة لجبل حزمه *El Zama* شرقي الرها ، وفي اراضي ايلغازي بن ارتق ، ففاجأهم على حين غرة ، واسر خمسمائة من الرجال والنساء والاطفال ومئتي حصان ومئة الف رأس من الماشية والابل والماعز ، وقتل كثيرا من المحاربين وجلب الاسرى الى الرها وقد حدث هذا في شهر آذار عام ١٤٢٦ (٧٦) وكان سببا في اندلاع الفتنة والشر ، وغضب ايلغازي وكان قد استلم زعامة ال ارتق ، فجمع جيشا عظيما وعسكر قرب الرها في زمن الحصاد ، ولكنه ابتعد قليلا عن الحقول والمحاصيل الزراعية ، ولم تقع الحرب بل عقد المسلم بينه وبين الفرنجة الذين أعطوه جميع الاسرى التركمان الذين يمتلكونهم ، فغادر المدينة دون ان يلحق بها اي ضرر ، ثم انتقل الى حران واحتلها ، وبعد ذلك عبر الفرات واحتل حلب وما جاورها ولذلك اصبح اقوى زعماء التركمان وخضع له حتى امراء اقليم اقور ، وجمع جيشا غزا به انطاكية.

وعندما سمع روجر صاحب انطاكية برحذف ايلغازي تقدم للاقاته ، وقد كان بلدوين اتيا من بيت المقدس مع جاليران لمساعدته ، ولكن ذلك الشباب المتعجرف لم ينتظر قدوم الملك لانه فكر انه قادر على انزال الهزيمة بالتركمان لوحده ويحتفظ لنفسه بمجد النصر ، وتقدم بدون تردد تجاه معسكر المسلمين ، وكان الأتراك

يتوقون لقتاله قبل قدوم الفرنجة لنجدته ، واحاطوا به احاطة السوار بالمعصم وامطروه بوابل من النبال كسحب من البرد وكان الرب غاضبا على الفرنجة واشماح بوجهه عن روجر الذي قتل اثناء هذه المعركة ، ولم يجد احد جثته لابين الموتى ولا بين الاسرى (٧٧) ، وقد استولى الاتراك على الامتعة وجميع ما كان بحوزة الفرنجة.

وبعد موت روجر وصل بلدوين ملك بيت المقدس ، وكونت طرابلس وجاليران من الرها ، وخرج رجال انطاكية لمقابلة الملك ، فاستلم زمام السلطة ، وجمع الجنود الموجودين ، وزحف لمقابلة ايلغازي ، وابتدا الالتحام وكان الرب غاضبا على التركمان لذلك هزم ايلغازي وقتل عددا كبيرا من عساكره ، ونجا بصعوبة بالغة مع بضعة (٧٨) من اتباعه حيث ذهب الى حلب .

ورجع بلدوين وهو مزهو بانتصاره الى انطاكية ، وتوجه الى بيت المقدس ، حيث استدعى جوسلين من طبرية ، وبعث به عام ١٤٣٢ حاكما على الرها (٧٩)، وهذا ما بهج قلوب سكانها ، وقد رجع جاليران الى البارة ، ثم جمع جوسلين جيشا هاجم به المعسكر التركي وغنم كثيرا من الاسرى ، وقد انتشر اسمه خارج منطقتيه ووصل صيته حتى شمال مابين النهرين ، وحلت رهبته في قلوب التركمان حوله .

والتجأ التركمان الذين اخذ رفاقهم عبيدا الى ايلغازي صاحب ماردين ، واقنعوه بأن يهاجم الرها وينتقم لهم ، فجمع جيشا عظيما ، وعسكر حول الرها والتهم المحاصيل ، وقطع الأشجار والحدائق ، ونهب وسلب ثم رحل (٨٠) .

واصبح ايلغازي قويا وارتفع شأنه لانه كان يحكم زيادة على اراضيه : اراضي ابناء اخيه سكمان ، وراضي ابن عمه داود حتى بلاد اقور وارمينية ، وارض العبرانيين (٨١) ، وكان احد اقاربه يحكم جميع ارمينيا ، وقد بدا الخلاف يدب بينهما وبين الملك داود ملك العبرانيين الذين كانوا وثنيين ، وكان ايلغازي جريئا

جدا ، فجمع كل أقربائه ومعهم قوى عظيمة ، وغزا أرض
العبرانيين ، وعندما سمع الملك بهذا الأمر جمع جيوشه وتقدم
لمقابلته ، وحدثت معركة قهر بها ايلغازي وطارد العبرانيون
فلوله ، وقتلوا كثيرا من رجاله ، ونهبوا كل مقتنياتهم ، وهكذا
رجع ايلغازي يجر اذيال الخيبة والعار ، وهرب الى بلاده ، وبعدها
بقليل اصابه المرض فمات (٨٢) وخلفه ابنه تمرتاش الذي حكم في
ماردا (مارين) ودارا وميافارقين ، اما بك ابن عمه فقد احتفظ
بقلعة زياد هنزيط (٨٣) .

وفي ملاطية حكم رجل من أسرة السلاجقة ملوك التركمان العظام (٨٤)
بعد زوال حكم أبناء الدانشمند ، وبعد موته حكم ابنه القاصران مع
أمهما ، وقد حكم مسعود أكبرهما في قونية وأراضيها المتوغلة تجاه
الأغريق (البيزنطيين) وأما غازي بن دانشمند فحكم في سبسطيه
وقيصرية ، وقيصرية الجديدة ، وقد أصبح متكبرا متعجرفا وطاغية
وصمم على احتلال ملاطية ، وعمل كل ما في وسعه للقبض على
صاحبها ، وأخذ المدينة منه ، حتى أنه رغب بتزويج ابنته له ، ولما
لم يستطع الاستيلاء على المدينة بالحيلة والخداع قرر استعمال
القوة ، فجمع جيشا وحاصرها ، وضيق عليها الحصار وسبب
المجاعة فيها حتى انتشر بها الوباء ، فاستولى عليها في
عام ١٤٤٣ (٨٥) ، وهكذا تعاضمت قوته ، وأصبحت أملاكه تشمل
كبدوكية وملاطية وجميع المدن بينها وبين بحر الخزر ، وأصبح يغزو
الأراضي الأغريقية (البيزنطية) بانتظام ، وبدأ بالنهب والسلب في
منطقة غلاطية وكولونيا وهرقلية ، وجميع شواطئ البحر
الشمالي ، وقد أخذ العبيد وسبب الكثير من الأذى والضرر .

وتزوج جوسلين كونت الرها بابنه روجر صاحب أنطاكية وحصل
على أعزاز كمهر معها ، ثم ذهب ليجلب عروسه الى الرها وأمضى
ليلة في البارة ، وأخبروه أن التركمان قد أغاروا على المنطقة وأخذوا
كل من لا قوه أسيرا ، وكان هؤلاء من جيش بك صاحب هنزيط
وقلعة زياد ، وقد كان بك قد أتى من حلب ومعه أربعة آلاف فارس

أرسلهم في جميع الجهات للنهب والسلب بينما عسكر بنفسه قرب بئر يسمى هايج ، وهو ينبوع دائم طوال السنة في مملكة الرها عند إحدى القلاع الشهيرة مقابل رأس كيفا ، وعندما سمع الفرنجة هذا الخبر اشتاقوا لمطاردة الغزاة ، إذ لم يكن لديهم أية فكرة أن بلك كان معسكرا هناك ومعهم جميع عساكره ، وقد قام جاليران بتشجيع جوسلين خاصة وذلك لأن الأرض أرضه ، وبدأوا في الهجوم بسرعة ليلا ممتطين خيولا ضعيفة وهزيلة ، وطاردوهم وهم يظنون أن باستطاعتهم اللحاق بهم في أراضي رأس كيفا ، وعندما وصلوا إلى أمكنة رأوا فيها آثار أقدام الغزاة تبعوهم طيلة الليل حتى منتصف النهار ، وكان قد أصابهم التعب والعطش وأرهقهم الغبار واشتداد الحرارة ، ومع هذا تابعوا مطاردتهم حتى وصلوا إلى المعسكر العظيم لجيش بلك ، فرأوا جندا عظيما بينما كانوا قلة منهكة بسبب الجوع و السفر الطويل ، وراهم التركمان ولم يعد بمقدورهم التراجع ، وعندما تقدموا لسقي خيولهم ، سار التركمان بالاصطفاف على ضفة النهر وأمطروا وأبلا من النشاب كل رجل من الفرنجة حاول هو أو حصانه أن يقترب من النهر ، ثم أحاطوا بهم وقتلوا الكثيرين ، وأخذوا الباقين أسرى أحياء ومنهم جوسلين وجاليران وفرسانهم ، وجلب هؤلاء إلى حضرة بلك الذي لم يكن يصدق ما يرى إذ لم يكن يحلم أن مثل هؤلاء الأمراء قد أصبحوا أسرى تحت رحمته ، وهكذا أسر هذان الأميران الشهيران وهما في غفلة ولا يتوقعان ذلك ، وأخذهما بلك إلى أمام باب الرها وهو يتوقع أن تسلم له المدينة ، ولكن الأهالي أهانوه ولم يتفوهوا بأي كلمة عن السلام ، لذلك وضع أسراه في قلعة زياد.

وكان الملك بلدوين في أنطاكية عندما سمع هذه الأخبار ، فتوجه في الحال إلى الرها وبقي هناك ، ووضع حامية فيها تحت قيادة راهب محترم يدعى غودفري الموين حتى يعرفوا ماذا سيحدث لأسرى بلك ، وفي هذا الوقت كان ميخائيل الأرمني صاحب كركر مهددا من قبل الأتراك ، ولما كان يعلم حق العلم أنه لا يستطيع الاحتفاظ بالقلعة لذلك أعطاها وسلمها للملك بلدوين ، واستلم

اماكن اخرى لاعالة نفسه في هذه الحياة ، فبعد ان سلم كركر استلم ميخائيل دلوك مكانها ، وسار بلدوين الى انطاكية واستمر بك بالهجوم على كركر ونهبها ، وكذلك على سميساط « وجاكسي » وقلعة منصور فاضطر بلدوين للرجوع ثانية لانقاذها ولجلب القمح من كيسوم وسميساط وعندما سمع بك ان بلدوين في كيسوم جمع جيوشه وتوجه الى نهر سنجة بين كيسوم وسميساط . ولم يكن يعلم شيئا عن قدوم بك وانه أصبح قريبا منه لذلك استمر في اقامة الحفلات والولائم بمناسبة صعوده الى كيسوم ، وفي الثلاثاء سار هو وجنوده دون اتخاذ أية احتياطات حتى وصلوا الى قنطرة سنجة الشهيرة وكانوا على بعد حوالي فرسخ واحد منه (الفرسخ = ٤ اميال) وكان معظم خياله وفرسانه بعيدين عنه ، فهم لم يكونوا قد وصلوا الى النهر بعد ، وكان الملك سائرا في المقدمة وأمامه الراية ، ومعه بضعة مرافقين ، وعندها فاجأه كمين أعده بك ، واحاط به التركمان كالذئاب الكاسرة من جميع النواحي احاطة السوار بالمعصم ، وهم مسلحون ومجهزون ومتعطشون لنيل الغنائم ، عندها أسروا الملك وابن اخته وكان شابا وسيما ومعه كثير آخري ، وقد قتل منهم كثيرون ، وأخذ بك الملك الى كركر وعذبه حتى سلمه القلعة فاحتلها بك واكتفى بذلك.

وتخلصت البلاد من اللصوص وقطاع الطرق الذين عاشوا في الأرض فسادا ، ونهبوا الفقراء ، وأخيرا حل السلم ، وقد قيل ان بك كان يأمر بقتل أي تركماني على الخازوق لسرقته قطعة لحم من رجل فقير ، ولم يكن يسمح لأي شخص ان يهين أي مسيحي ولو بكلمة ، ثم وضع حامية في كركر ، ونقل الملك والأسرى الآخرين الى قلعة زياد ، حيث انضموا الى جوسلين وجاليران ، وكان جوسلين قد أسر في شهر ايلول ، ووصلت أخباره الى الرها في أمسية عيد الصليب ، فألغيت الاحتفالات والمواكب في تلك السنة ، وحل محلها الندب والنواح ، وكان أسر بلدوين في آخر ثلاثاء من شهر نيسان ، وروي أنه عندما غادر بك قلعة زياد قال لجوسلين : سوف

اجلب الملك ليكون معك انشاء الله ، وهكذا كان ، فبعد ستة أشهر التحق بهم الملك بلدوين.

وللمرة الثانية في هذه السنة عسكر بلك حول الرها ، واتلف المحاصيل الزراعية والحدائق وخرب الأرض ، ومن ثم ذهب الى حران التي سلمت له ، ثم الى حلب التي خضعت أيضا بدورها له ، وبعدها بدأ يغزو الفرنجة في تل باشرو وبلوك وأعزاز ، وأخذ كثيرا من الأسرى والقرى بعد أن نهبها وأرسل من فيها الى بلدة ، ثم استولى على قلعة منصور ، وهزم رجال خلاط (٨٦) وأحدث الضرر العظيم في أراضي الفرنجة في ذلك العام.

وفي شهر آب من تلك السنة وهي ١٤٣٥ (٨٧) قام عشرون رجلا من الأرمن ممن كان يخدم في حصن كيسوم مع غودفري الموين والملكة فذهبوا الى قلعة زياد متذكرين بشكل جنود فقراء ، وكان عشرة منهم يحملون العنب والفواكه والطيور الداجنة ، وقد تظاهر هؤلاء أنهم قرويون أتوا للشكوى ضد واليهم الذي ظلمهم ، وبقي الآخرون خارجا وهم مستعدون للالتحاق برفاقهم عندما تحين ساعة العمل ، وذهبت الجماعة التي تحمل الأحمال الى بوابة الحصن العليا وأخبروا البواب عن سبب مجيئهم ، وهو الشكوى ضد واليهم ، فطلب منهم الانتظار بين البوابات بينما يخطر شحنة القلعة بقدمهم ، وصدف أن كان الشحنة يقيم وليمة لضباطه ، وقد أثرت الخمرة بهم ، وكانوا بمنتهى الغبطة والسرور ، وكان كثير من الحرس يشاهدون الوليمة ولم يبق سوى اثنان أو ثلاثة مع البواب على البوابة ، وعندما ذهب الرسول لاختبار الشحنة عمد الرجال لاختطاف السيوف المعلقة بين البوابات وقتلوا البواب وكل من وجدوه هناك ثم دعوا أصدقائهم الذين كانوا بانتظارهم في الخارج وانضم هؤلاء اليهم وفتحوا الأبواب واندفعوا وقتلوا جميع الضباط الذين كانوا يشتركون في الوليمة بدون استثناء ثم فكوا أسرار الأسرى ، واحتلوا القلعة وساعدتهم جميع الأرمن الموجودين داخل المدينة ، وحالما انتشر خبر هذه الواقعة أرسل الخبر الى بلك في

حلب ، وتجمع الأتراك من كل حذب وصوب ، وأحاطوا بالقلعة وراقبوها عن كثب حتى لا يخرج منها أحد أو يدخلها أحد وعمد جوسلين في الليلة الأولى ومعه اثنان أو ثلاثة آخرون الى الهرب بشجاعة ، فاخترقوا الحصار ونجوا ، وكان جوسلين قد وعد الملك بالألا يرتاح حتى يصل الى بيت المقدس ويجلب جيشا لانقاذه ثم سار مارا بكيسوم ، ثم تل باشر ثم انطاكية ، فالى بيت المقدس .

وزاد فرح الفرنجة لدى سماعهم أن بلدوين وجاليران قد أطلق سراحهما وأن قلعة زياد قد سقطت ، ولكن عندما سمع بك بما حدث في قلعته الحصينة ، عاصمة مملكته ، وبیت ماله ومخزن ثروته بدأ بالتحرك حالا مع فرق جيشه ، ووصل الى قلعة زياد بمدة أربعة أيام ، أي بعد عشرة أيام من حدوث الكارثة ، وهاجم القلعة بضراوة ونصب آلات الحرب التي حطمت السور دون توقف دقيقة واحدة لنلا يحضر الفرنجة لنجدتها ، وفي بضعة أيام فتحوا ثغرة في السور ، وطلب بك تسليم الحامية ووعدا أن يحفظ حياة أفرادها لأنه لم يرغب أن يهاجم القلعة ويدمر سمعته وشرفه ، ثم هدم برجاً آخر واقفا فوق صهريج المياه وعندما حدث هذا فقد المحاصرون الأمل وخرج جاليران بنفسه ليطالب كلمة الشرف من بك لحفظ حياتهم ، وأعطاهم بك كلمة الشرف ، فسلموا له القلعة فدخل بك وبدأ بتعذيب الأرمن وسلخهم أحياء ، ثم أعيد الملك وجاليران الى سجنهم (٨٨) السابق .

وذهب جوسلين الى بيت المقدس ، وجمع جيشا ونزل خارج حلب في جبل جوشن مقابل البوابة الغربية لمدة ثلاثة أيام ، وأخذ الجزية منهم ، وقد أراد أن يخلص قلعة زياد ، لكنه سمع أن بك قد احتلها وقتل الأرمن لهذا عمد الى هدم المساجد الواقعة على الجبل الذي كان نازلا به ، وكان أحدها مشهد الدكة وآخر بني للملك رضوان ، ثم قطع الأشجار وخرب الحدائق ورجع (٨٩) .

وفي حلب طلب أبو الحسن بن الخشاب قاضي المسلمين من

المسحيين في المدينة أن يعيدوا بناء المسجدين وكان هنالك أسقفان في المدينة أحدهما أرثوذكسي اسمه غريغوري أو شمشوم الرهاوي والآخر ملكاني وكانت خزانة الكنيسة لا تسمح بتمثل هذه النفقات فقالا :إننا لانسطيع أن نفتح علينا بابا ، إذ أنه كلما هدم مسجد توجب أن نعيد بناؤه من « أموال الكنيسة » ، وعندما سمع المسلمون هذا الكلام قاموا في يوم الجمعة بناء على أمر القاضي فهجم ألوف من المسلمين ، ومعهم النجارون والفؤوس على الكنائس ، فاقتحموا كنيسة القديس يعقوب وكسروا المنبر وحطموا ملائكة المذبح وشوهوا الصور ، وفتحوا محرابا في حائط الحرم الجنوبي ، وبدأوا بالصلاة هناك ، وحولوا الكنيسة إلى مسجد ، وقد حدثت العملية نفسها في كنيسة ثيوتوكس الاغريقية وكنيسة الذساطرة ، ونهبوا الكنائس وحجر خلوات الأساقفة ، وقدهرب الأسقف الملكاني إلى أنطاكية والأرثوذكسي إلى قلعة جعبر ، وقد حدث كل هذا في عام ١٤٣٥ عندما كان أثناسيوس بن قماري بطركا (٩٠)

وعندما سمع ملك بتركات جوسلين أسرع في جمع قوات عسكرية بها قرب منبج وخرب الأراضي التي لم تكن تابعة له وذلك عقابا للأهالي الذين لم يساعده ، وفي أثناء القتال ضد منبج أصيب بسهم أطلق عليه من أعلى السور فمات ، فأخذوه إلى حلب ودفن هناك بعيدا عن أسرة ارتق (٩١) .

وفي تلك الأثناء وفي أثناء الحوادث التي حدثت في قلعة زياد في عام ١٤٣٥ ، تجمع بعض الفرنجة ويدعون البنادقة وجمعوا جيشا عظيما وجهزوا كثيرا من السفن وأبحروا في البحر إلى فلسطين تحت قيادة ملكهم المدعو الدوج ، فوصلوا إلى ساحل صور وصيدا ورسوا بسفنهم هناك ، وعندما سمع الفرنجة بقدمهم أتى بطرك بيت المقدس لاستقبالهم لأن الملك بلدوين كان أسيرا ، وقد حاصروا صور التي كانت لاتزال تحت حكم المسلمين وأصبحت ملجأ لكل من احتل الفرنجة بلادهم ، وهاجم هؤلاء صور برا وبحرا وحاربوها

- ١٩٩٠ -

بمختلف أنواع الأسلحة ونصبوا المجانيق والعرادات التي قذفتها ليلا ونهارا ، وبنوا برجين من الخشب مؤلفين من سبع طبقات ، وكل برج طوله عشرة أذرع وغطوا البرجين بأنواع قوية من خشب البلوط الرطب التي لا تؤثر بها زيران النفط ، وعندما انتهوا من بناء البرجين سحبوهما ووضعوهما أمام الأسوار ، والآن لم يكن للمدينة سور واحد بل ثلاثة أسوار عالية يفصل بينها ثلاثة أسوار صغيرة ، وخندق عميق بينها ، وكانت الأسوار مسلحة تسليحا قويا ، ووجد عليها جنود مسلحون بأقوى الأسلحة ، ورجال صور مشهورون بأنهم محاربون أشداء .

واستمر الحصار مدة سبعة أشهر ، وقد فتحت ثلمات في الأسوار في بضعة مواقع وهدمت عدة أبراج ، ولكن الحامية لم تتأثر لأن الطعام كان موفورا لديها إنما أصبح أفرادها في كرب عظيم عندما نفذ الطعام ، ولما لم يتمكنوا من الحصول على أية مساعدة من حاكم مصر توجهوا إلى صاحب دمشق ليساعدهم ويحكمهم ، وكانت المراسلات تجري بواسطة الحمام لأنه لم يكن هنالك مجال للإنسان لدخول المدينة أو الخروج منها ، وجمع حاكم دمشق جيشا لجبا لمساعدتهم وأرسل لهم رسالة بواسطة الحمام أيضا تقول أنا قادم بعد أيام للتفريغ عنكم وبصحبتى جيش عظيم كونوا أقوياء ، استمروا في المقاومة ولا تهنؤا ولا تضعفوا ، ولكن بمشيئة الرب وقعت الحمامة بيد الفرنجة في معسكرهم فقرأوا الرسالة ، وكتبوا رسالة أخرى ذات معنى معاكس نصها :

« لقد كتبتم لنا بأن نأتي لنجدتكم . نحن لانستطيع القدوم لأنه ليس لدينا عساكر تقاوم هؤلاء الذين يحاصرونكم فسلموا المدينة ، وتأكدوا من الحفاظ على أرواحكم » وربطوا هذه الرسالة بجناح الحمامة وأطلقوها وعندما قرا أهالي صور هذه الرسالة فقدوا الأمل لأنه لم يكن لديهم طعام » حذفت هنا فقرة تخص قصة الاسكندر الكبير .

وأرسلوا بعض اعيان المدينة إلى الدوج قائد الفرنجة والبطرك ،

ورجوا أن تحفظ أرواحهم فاتفق على أن كل من يرغب بالبقاء يمكنه البقاء في المدينة ، وكل من يرغب في الخروج يمكنه الخروج مع عائلته إلى حيث شاء ، بأمان ، عندها فتحت أبواب المدينة ودخل الفرنجة وتمركزوا فيها في شهر تموز (٩٢) ، وفي هذه الأثناء كان بلدوين (جوسلين) وجاليران لايزالون في السجن (٩٣) .

اطلاق سراح بلدوين وموت جاليران (٩٤)

أما البرسقي الذي سبق وروينا خبر انكساره فقد رأى حلما وهو في الموصل أن أحد عشر كلبا قد مزقوا جسمه إربا إربا وعندما استيقظ أخبر عن حلمه ، فحذروه بالألا يذهب للصلاة في ذلك اليوم ، وأن يحتاط لأمره ، ولكنه رفض أن يتخلى عن صلاة الجماعة في يوم الجمعة في الجامع الكبير في ذلك اليوم ، وبينما كان يسير داخلا من باب المسجد في منتصف النهار متوجها إلى المسجد للصلاة كما هي عادة المسلمين ، إذا بأحد عشر رجلا من الاسماعيلية يحيطون به ويطعنونه بالمدى ويقتلونه (٩٥) ، وقد خلفه في حكم الموصل واقور ابنه الذي كان يدعى البرسقي أيضا ، وتجمع الفرنجة : الملك بلدوين وصنجيل صاحب طرابلس وجوسلين كونت الرها والتحق بهم أحد المسلمين المنفيين المدعو ديبس صاحب الحلة والعراق ، وكان قد أتى إلى انطاكية وانضم إلى جانب الفرنجة ، وحاصر هؤلاء حلب بجيش عرمرم وهاجموها من جميع الجوانب مدة تسعة أشهر ، وقد أصبح الأهالي في كرب عظيم بسبب المجاعة ، واكلوا لحوم الحيوانات القذرة ، وبعد تسعة أشهر عندما أصبحوا على وشك الاستسلام اتتهم رسالة من البرسقي حاكم اقور أنه قادم لنجدهم ، واقترح ديبس أن يعطى جيشا يذهب على رأسه ويمنع البرسقي أو يعيقه من عبور الفرات حتى يتمكنوا من فتح المدينة ، وقد كان الفرنجة عنيدون فلم يأنبها لنصيحته وعبر البرسقي الفرات ودخل حلب ليلا بمنتهى الجراءة ، وفي الصباح فتح أهالي حلب أبواب المدينة وزحفوا وعلى رأسهم البرسقي ، وهاجموا الفرنجة الذين تركوا حصار المدينة وعسكروا على قلعة الجوشن ، وبعد عشرة أيام جلوا عن المنطقة

واتجهوا إلى أنطاكية ، فطاردهم البرسقي حتى الأثارب ، وقد قام بضرب المتخلفين من الجيش ، ونهب الأمتعة ثم رجع إلى حلب وقد انتابه السرور العظيم .

ثم بدأ البرسقي حصار عزاز ، وركب الآلات لضرب الأسوار ليلاً ونهاراً ، وقد حفرت الأنفاق تحت الأسوار حتى يدب الفزع في قلوب الحامية ، وعندما سمع الفرنجة في أنطاكية تلك الأخبار تجمعوا تحت قيادة بلدوين وجوسلين ، ولكنهم كانوا يخشون التقدم لأنقاذ المدينة لأن عدد التركمان كان عظيماً ، وقد وقعت الحملة في ارتباك عظيم فلم يستطع أحد أن يدخل أو يخرج ، ولكن رجلاً واحداً تبرع بالمخاطرة بنقل أخبار الوضع السيئ إلى الملك ، وقد وعده الأهالي بمكافأة سخية إن هو رجع إليهم سالماً ، فامتطى حصاناً قوياً ، وأخذ سيفاً في يده وحمالة على صدره ، وخرج من البوابة كالبرق واجتاز جماعة جماعة من جماعات الأعداء الذين كانوا يراقبون البوابة وقفز فوق الخندق الذي حفر حول المكان ، وعبر إلى الضفة الأخرى ، وقفز الأعداء عليه من كل حذب وصوب ولكنهم لم يستطيعوا إيقافه ، فوصل إلى أنطاكية وسلم الرسالة للملك ، فبدأ الفرنجة في الاستعداد لاغاثة عزاز وهم يعتمدون على الرب ، وأرسلوا رسالة بواسطة حمامة يقولون فيها : « سوف نغيثكم بعد بضعة أيام كونوا أقوياء ولا تهنوا وتضعفوا » ونزلت الحمامة في معسكر الأتراك الذين كتبوا رسالة بمعنى معاكس تحمل اسم جوسلين وهي تقول : « لا أمل يرجى منا إن الملك مشغول بمحاربة المصريين الذين يحاصرونه ، أنقذوا أرواحكم وسلموا الحصن » ، وعندما قرأ أفراد الحامية هذه الرسالة انقسموا في الرأي ، وقالوا : « سوف نصمد ونتحمل لئلا يحدث لنا ما حدث لحمامة صور ، إذ ربما كانت هذه الرسالة مزورة ، فلنسبق أقوياء ولنحافظ على صمودنا أكبر مدة نستطيعها ، دعنا نموت ولا نستسلم » ، ورأى الأتراك أن حيلتهم قد أخفقت فأرسلوا بعض أمتعتهم إلى حلب لأنقاذها من الفرنجة وأرسلوا الجواسيس إلى أنطاكية ليعرفوا متى يتحرك الفرنجة ، وبعد بضعة أيام جاءت الأخبار أن الفرنجة بدأوا

بالتحرك ، فأعاد الأتراك كل مساكن لديهم من أدوات إلى حلب وأحرقوا آلات الحصار ، ولم يبق إلا الرجال المحاربون ، واختزن الفرنجة أمتعتهم في كلز وتركوا التلة وتمركزوا في السهل فوق كلز ، وعندما رأى الأتراك الفرنجة بدأوا يتحركون هنا وهناك وأصبحوا على يسارهم ، ومر الفرنجة الذين كانوا قليلي العدد بين التركمان دون قتال ، وعسكروا حيث كان الأتراك معسكرين ، ورأى الأتراك قلة عدد الفرنجة فارتفعت معنوياتهم وناقشوا القضية بهذا الشكل . إذا توقفوا في مكانهم فإننا سوف نحيط بهم ونقطع عنهم المؤن فيموتون جوعا ، وإذا هربوا فذلك علامة ضعفهم وسوف نطاردهم ، أما الفرنجة فأدخلوا عددا كبيرا من الرجال إلى داخل القلعة ، وأعطوهم التعليمات التالية : « نحن متوجهون لفترة قصيرة غربا حيث ترتاح خيولنا ونحصل على الماء والغذاء (لم يكن أي شيء من هذا في أعزاز) فإذا طاردنا رجال العدو راقبواهم فعندما يخرجون من مكانهم ويصبحون كتلة واحدة خلفنا عندها ارفعوا شارات الدخان فوق القلعة ، وعندها تتم مشيئة الرب » ، وتحرك الفرنجة عند الفجر في طريق أنطاكية ، وعندما تبعهم الأتراك تظاهروا بالهرب ، وتشجع الأتراك فأظهر جميع الرجال الذين كانوا في الكمان أنفسهم ، وطاردوا الفرنجة بكل عزم ، وظهرت علامة الدخان فوق القلعة ، فأصدر الملك الأمر ونفخت الأبواق وجلبت الأعلام الملكية إلى المؤخرة وكان الرب غاضبا على الأتراك الذين هربوا وتركوا خلفهم ألفي قتيل ، ولم ينج إلا البرسقي وبعض مرافقيه الذين طوردوا حتى حلب ، ثم عاد إلى الموصل ومات في الرحبة على الفرات (٩٦) .

وأرسل الملك بلدوين وأحضر من أوربا أمين بوهيموند الأول صاحب أنطاكية (الذي رجع إلى بلاده بعد أن أطلق سراحه من أسر الدانشمند) وقد خطبه لابنته وجعله حاكما لأنطاكية وبعد هذا أحضر شابا آخر من عائلة الكونت فولك وخطبه لابنته الأخرى (٩٧) وأعلنه ملكا على بيت المقدس أثناء حياته ، أما طغتكين صاحب دمشق وبانياس فقد رأى أنه لا يستطيع الاحتفاظ ببانياس ، لأنها

محاطة بأراضي الفرنجة ، وهكذا أعطاهما لبهرام ، الاسماعيلي فقبلها هذا ، وجمع خمسمائة رجل وأرسل بعض الهدايا لملك الفرنجة وقدم له ولأنه .

أما أبناء رافين الأرمني أسياذ كيليكية فقد قاوموا غازي بن دانشمند ، وبدأ رجالهم بالنهب في أراضيه ، فبدأ غازي وهو من أقوى الأمراء في مهاجمة أراضيهم واستعد بوهيموند صاحب انطاكية الذي كان متضاميا معهم أيضا ، للهجوم على كيليكية ، وعندما بدأ بوهيموند بغزو كيليكية ، قام غازي بالهجوم عليها من الجانب الآخر ، وقد تقابلت جيوش الفرنجة مع جيوش التركمان في الحال ، وكانت مقاصدها واحدة ، وهي تخريب تلك البلاد ، وأحاط التركمان بجيش بوهيموند وقضوا عليه ، ولم ينج منهم أحد ، وقتل بوهيموند الشاب النبيل ، فأخذوا رأسه وسلخوه وأزالوا الشعر الرقيق عنه وأرسلوا جلد رأسه مع أشياء أخرى لطيفة : دروع ورماح فرنجية ، ومهاميز للخيال أرسلوها جميعا للسلطان في أصفهان كهدايا النصر ، هكذا قضى الأميران الواحد على الآخر ، وأطلق سراح الأرمن ، ومن الغريب أن نذكر أن دانشمند أبو غازي قضى على جيش بوهيموند الأكبر وحطمه ، وهو أبو بوهيموند هذا وأخذه أسيرا ، بينما ابنه غازي قضى على جيش بوهيموند هذا ، وقتل غازي الشاب بوهيموند الشاب .

وفي عام ١٤٤٢ (١١٣١ م) مات السلطان السجلقوي في أصفهان ، وحدثت زلزلة قوية سببت الكثير من الوفيات في خراسان ، وقد أنعم خليفة بغداد على غازي بن دانشمند ، وهو صاحب كبدوكية وملاطية بالسلطنة ، وقد كان أقوى أمراء الأتراك في تلك الديار .

وفي هذا العام جمع جوسلين صاحب الرها الذي كان قد طعن في السن ولم يتوقف عن القتال ، جمع جيشا لتدمير قلعة تدعى تل أعرن (٩٨) بين حلب ومنبج حيث كان يعيش بعض اللصوص الذين عاثوا في الأرض فسادا باستمرار، وقد حفر الخنادق حولها ليحدث

ثغرة في الأسوار ، لكن انهيار الثغرة طمره عندما نزل ليرى الثغرات بنفسه ، وعندما أخرجوه من تحت الانقاض كان في حالة سيئة جدا يكاد يموت فقد تحطم جسمه فحملوه إلى تل باشر حيث بقي وهو مريض هناك ، وفي أثناء ذلك جمع غازي جيشا للهجوم على أراضي الأرمن أبناء (رافين) ، وعندما سمع جوسلين هذا الخبر أمر بجمع جيش ، وحمل على نقالة وتقدم لمقابلة غازي الذي رحل إلى بلاده عند سماعه هذا الخبر ، وبعد أن وصل جوسلين إلى دلوک توفي هناك ودفن في الكنيسة هناك ، وقد حكم بعده ابنه جوسلين الشاب الذي كانت تعوزه المعرفة والفهم ، وفي هذه السنة أيضا مات بلدوين ملك بيت المقدس وحكم بعده صهره الأمير فولك أوف أنجو ، وكما ذكرنا من قبل فقد كان هذا الشاب يتمتع بسلطة الملك أثناء حياة عمه أبي زوجته ، وأما في أنطاكية فبعد موت بوهيموند بن بوهيموند حكم بيتابين الذي ذكرنا أن جيشه قد تحطم في الأناضول ، وعاد إلى بلاده .

وفي الشرق بعد موت البرسقي الأصغر في الرحبة عين السلطان العظيم عام ١٤٤٣ (الصحيح ١١٢٧) زنكي بن أق سنقر حاكما في الشرق. وكان أق سنقر أحد رفقاء بوزان الذي ذكر قبل مجيء الفرنجة ، وقد قتلهما تتش وهو تاج الملك ، وكان السلطان في بغداد هو مسعود ابن أخي سنجر شاه العظيم ، وهو ابن أبي الفتح ملكشاه الذي دخل إلى سورية في أيام فيلارتوس الدمشقي وعين يغي سميان حاكما على أنطاكية وبوزان حاكما على الرها ، وطفكتين على دمشق ، وقد ولد سنجر شاه لأبي الفتح من الملكة العظيمة في سنجار ، وهكذا حصل اسمه ، وفي هذه الأثناء كان مسعود ابن أخي سنجر شاه يحكم أراضي أصفهان وخراسان والعراق وبغداد وكل البلاد الواقعة في الجنوب الشرقي ، وقد تبعت له أراضي إقليم أقور في الشمال الغربي أيضا ، وفي الموصل كانت السلطة بيده أيضا ، وكان بها حاكم يدعى أتاك ، وهذا الاسم أطلقه عليه التركمان ، وقد حكم كل منطقة مابين النهرين والشمال وحلب وفينيقية ، وفي الموصل كان هناك صلاح الدين (٩٩) المشهور وكذلك ناصر الدين وزين الدين

علي ، وهم تركمان حصلوا على الحظوة لدى السلطان ، وعندما مات البرسقي تقلدوا جميع السلطة في الشرق وخرضوا السلطان على تعيين زنكي بن أق سنقر حاكما (وهو عماد الدين) ونفذوا هذا الأمر ، ثم جعل زنكي حاكما على اقور ، وجميع مهابين النهرين وسورية وفينيقية ، وقد اعطاه ولدي السلطان مسعود الشهابين ليكونا سيدين على المنطقة بينما احتفظ زنكي لنفسه بمنصب الوصي والحامي، وفي هذا الوقت مات مسعود صاحب اصفهان وقد خلفه ابنه سليمان شاه في همذان (١٠٠) .

في عام ١٤٤٣ زحف زنكي إلى جوار الرها ، وحاصر قلعة واقعة في شرق المدينة التي كان الفرنجة قد انتزعوها من شخص عربي يدعى مانع بن عطير ، واحتل زنكي قلعة شان (١٠١) ثم زحف واقترب من الرها ، وارسل رسولا لاهالي المدينة قائلا إنه لا يريد الحرب مع الفرنجة بل يبغى السلم معهم ، فأرسلوا له الهدايا من طعام المدينة وشرابها ، وهكذا مر بسلام إلى حلب .

وحكم تاج الملك دمشق بعد وفاة والده طغتكين ، وبعد زمن قتله الاسماعيلية ، ولم يتفق أبناءه وأخوته الباقون ، فاستولى أحد القادة الذين كانوا مع تاج الملك على دمشق وهو أنر باسم أحد أبنائه ، واستولى ابن آخر على بعلبك ، وجمع زنكي جيشا وحاصر به بعلبك ونصب آلات الحصار التي خربت تلك الأبنية الرائعة ليلا ونهارا ، حتى أنه كان يرمي عليها كل يوم ألف حجر ضخم ، ولهذا سلمت المدينة بسبب ما أصابها من كروب ، وهكذا استولى زنكي على بعلبك وبدأ القتال باستمرار ضد دمشق .

وعندما رأى أنر صاحب دمشق أن زنكي كان قويا يمكن أن يتغلب عليه بسبب ضعف جيشه وافتقاره إلى القوة طلب العون من ملك بيت المقدس ورشاه ليأتي لمساعدته ، وجمع ملك بيت المقدس جيشا وتقدم حتى أصبح قريبا من جيش زنكي وبحركة فنية بارعة انسحب زنكي من أمامه كما لو كان هاربا حتى توغل ملك بيت المقدس في البلاد ، وبعدها انعطف عليه زنكي بعنف وشراسة تسببت

في هزيمة الملك وهرب جيشه ، فبدأ التركمان بذبحهم بالسيوف ، ولكن ملك بيت المقدس هرب مع بعض رجاله إلى حصن الأكراد في أراضي طرابلس ، واختبأ هناك مع الرجال الذين هربوا معه ، وحاصر زنكي هذا الحصن وضيق على الحامية ، حتى أنهم أكلوا الخيول والحمير دون ملح ، واستغاث ملك بيت المقدس ببتابين صاحب أنطاكية وجوسلين الأصغر صاحب الرها ليأتيا لاغاثة ، وقد قاسى الملك ورفقاؤه وهم ينتظرون جمع الجيش ومجيء النجدة ، وعندما سمع زنكي بالهرج والمرج ، وتجمع الفرنجة وإمكانية مجيئهم ، وعما يعانيه الملك أرسل له الأطعمة الطيبة اللذيذة لاسترضائه وعمل معه اتفاقا وعهدا وميثاقا مشفوعا بأغلظ الأيمان ، ثم سار زنكي في حال سبيله (١٠٢) ، وسرعان ما وصل الفرنجة وأرادوا أن يطاردوا زنكي ، ولكن الملك لم يسمح بذلك بسبب ميثاقه وقسمه ، وقويت شوكة زنكي واستمر في حرب دمشق بعناد ، وأخذ أراضيها واستولى على تدمر في الصحراء .

وبعد إحلال السلم مع الملك لم يعد زنكي يحارب الفرنجة ، بل كان كل همه محاربة المسلمين ، وأخذ أراضيهم ، وإخضاعهم لسلطته ، وكان هنالك قلعة قرب حلب تدعى الأثارب ، وقلعة أخرى تدعى هادانا (زردنا) وهي تحت حكم أحد زعماء الفرنجة ، الذي جمع جيشا وأخذ في تخريب الأراضي في حلب ، وأخذ كثيرا من الأسرى ، ثم رحل ، وعندما سمع زنكي بهذه الأخبار ، أخذ جيشه وأحرق هذه الأماكن ، واستولى الذعر على الأهالي ، فطلبوا من زنكي أن يقسم بالحفاظ على أرواحهم ، فأقسم ولكن كانت نيته الغش ، فقال بأنه سيأخذهم إلى بوابة أنطاكية ، وعندما فتحوا الأبواب ، أخذهم جميعا رجالا ونساء وأولادا إلى حلب ، لكن إلى باب يدعى باب أنطاكية في حلب ، وبذلك حافظ على قسمه ، لكنه ذبح جميع الرجال بالسيوف ، وأما النساء ، والأطفال فقد جعل الأولاد عبيدا والبنت جوارى .

وعندما مات غازي بن دانشمند (١٠٣) حكم ابنه محمد بعده ،

وأصبح قويا ، لكنه كان رهيبا ، وزاد ثقل نيره على ممتلكاته في كبدوكية ، وخصوصا على أهالي ملاطية ، وقد أهلكهم بالضرائب وخصوصا الجزية ، وعاقبه الرب بأن أصيب بمرض خبيث ، ومات ، وكان لغازي ولدان آخران هما (دولة) والآخر (يعقوب) . وعندما مات محمد استلم الحكم (دولة) بعده (١٠٤) .

وفي عام ١٤٤٦ (التاريخ الصحيح هو ١١٣٧ م) بدت الحماسة في الظهور عند الامبراطور جون في القسطنطينية لغزو سورية فجمع جيشا يقدر بأربعمئة ألف رجل من الأتراك والفرنجة والألمان والهنغارين واستعد للزحف على طول ساحل كيليكية ، حتى يظل بجانب البحر وبذلك ينقل أمتعة في السفن التي تستطيع أن تمده بالمواد والعلف للخيول بانتظام ، وكان حاكم كيليكية في ذلك الوقت (ليو) (ليون بن رافين) الأرمني ، وهو خال جوسلين الأصغر صاحب الرها ، وقد تحسنت أحوال (ليو) هذا وأصبح قويا ، وعندما قتل بوهيموند في أراضيه زادت سلطته على الفرنجة وعلى الأراضي الساحلية المدعوة « تاغر » (١٠٥) واستولى على طرسوس ، وسبب كثيرا من الخسائر للفرنجة ، وعندما حكم بيتابين في أنطاكية نمت وزادت هذه العداوة ، وقد استمر (ليو) هذا في غزو أراضي الأتراك ، وسبب هذا الانزعاج للامبراطور ، وفي الوقت الذي حدث فيه غزوة الامبراطور ، كان بيتابين قد جمع جيشا ، وبدأ بنهب أراضي كيليكية ، واستعد (ليو) للقتال ، ولكنه فوجئ بكمين فرنجي فأسر وأخذ إلى أنطاكية حيث أودع السجن ، وبينما كان (ليو) أسيرا وصل الامبراطور إلى أبواب كيليكية ، وأرسل رسالة إلى الفرنجة طلب بها من كل من يخضع له أن يأتي ويقدم له فروض الولاء والطاعة ، وعندها أتى جوسلين وبيتابين لتقديم فروض الطاعة وقابلاه فيما وراء طرسوس ، واستقبلهم الامبراطور بسرور ثم رجعا كل إلى مدينته ، واستولى الامبراطور على طرسوس والمصيصة وأذنة واستولى على عين زربة بعد حصارها ، ثم تقدم إلى سهل أنطاكية وانتشر جيشه في السهول والقرى ، وأنزل أضرارا جسيمة بالقرى المسيحية ، وعندها أتى

هاكما انطاكية والرها مرة ثانية لتقديم فروض الطاعة للإمبراطور ، وقد رغب أن يضع الأمتعة التابعة لجيشه وأمواله في انطاكية بمثابة عهد منه وتعهد بأنه تغلب على أراضي المسلمين فسوف يعطي هذه الأراضي لصاحب انطاكية ، لكن صاحب انطاكية لم يكن راضيا عن هذا الاجراء.

وزحف الامبراطور على رأس جيش عرمووم ومعه أموال كثيرة ورافقه أبناؤه الأربعة وأخوته وأصهاره وجميع رجال بلاطه الامبراطوري ، وقد أقسم يمينا ألا يرجع مع قياصرته وأغسطسه وبطارقته وبقية نبلائه دون أن يحرز نصرا مبينا ، وهذا مادبره الامبراطور ولكن الرب يعطي نصره وتأييده لمن يشاء ، فعندما رجع بيتابين إلى أنطاكية أطلق سراح (ليو) الذي رجع إلى بلاده وانضم للإمبراطور بمثابة رديف ، ولكن الامبراطور سجنه واحتل أراضيه وأرسله إلى القسطنطينية مع أولاده وأهل بيته .

وبينما كان الامبراطور في سهل أنطاكية والفرنجة يخدعونهم إذ لم يكونوا مستقيمين بالتعامل معه ، أتت أخبار تستحق الرثاء من أذنه التي حلت بها نوازل قاسية ، فقد كانت أذنه مليئة بالمسيحيين اليعاقبة ومعهم مطرانهم يحيى يسوع بن أريك الرهاوي ، وعندما استولى عليها الامبراطور ترك فيها قسوة لحمايتها ، وانتقل إلى أنطاكية وقد فرح أهلها لأنهم أصبحوا تحت حكم الاغريق الذين خلصوهم من الضرائب الباهظة التي فرضها الفرنجة عليهم ، وبينما كانوا هائئين وناغمي البال في أحد أيام الأحد اذا بجيش تركماني (١٠٦) ينقض عليهم ويحيط بهم إحاطة الخندق بالأسوار ، وبدأ هذا الجيش بالهجوم عليهم كالريح العاتية ، ونصب جنده السلال على الأسوار وتسلقوا عليها ، وعندما كانت حامية السور تدفعهم من جانب كانوا يظهرون في جانب آخر ، ولقد ضعفت الحامية بسبب السهام التي كانت تطلق عليها من جميع الاتجاهات والحجارة ، والهجوم المركز المحيط بها ، وصمدت الحامية من الفجر حتى منتصف

- ٢٠٠٠ -

النهار ، وأشاح الرب وجهه عنهم وتركوا لتتسلمهم أيدي الأعداء بطريقة غريبة عجيبة لا يصدقها أي شخص يسمعا ، اذ دفع أحد الأتراك سلما على السور وبدأ بالتسلق عليه ولكن عندما وصل الى نهاية السلم كان السور لا يزال أعلى منه . فتمسك بحجر بارز في السور ووقف عليه واذا بواحد من رجال الحامية فوقه يطعنه برمح ليرميه على الأرض وتمسك التركماني بالرمح فسحب الجندي الذي على السور الرمح بشدة ليخلص الرمح من يد التركماني وبهذه الطريقة سحب التركماني الى الشرفات في أعلى السور ، وسل التركماني سيفه وهجم على الجندي الذي انهارت قواه وسقط من أعلى السور ، عندها اعتري الجنود الآخرين الخوف والفرع فهربوا من التركي ، وتركوا أمكنتهم وتشجع التركمان فتسلقوا وتبعوا رائدهم ، واحتلوا السور ، وفي لحظة من الزمن أصبح السور يعج بالتركمان الذين نزلوا الى المدينة وفتحوا ابوابها ، وأدخلوا بقية الجيش التركي ، ولقد كان الرب غاضبا على أنه وسكانها ، وجمع التركمان جميع الرجال وأمرهم بالركوع ثم قطعوا رؤوسهم بالسيوف ، وقد نهبوا البيوت والأديرة والكنائس ، وجمعوا غنائم لاتعد ولا تحصى ، وأخذوا أسرى من الأولاد البنات بشكل مجاميع كاملة ، وأخذوا المطران والكهنة والشمامسة الصغار وربطوهم بالحبال وجروهم الى الأسر المهين ، ودمروا المدينة وجعلوها خرابا يبابا ، ثم رجعوا الى بلادهم ، وعندما وصلت الأخبار للامبراطور أرسل جيشا لمطاردة التركمان ، ولكن لم يستطع هذا الجيش أن يدركهم لأنهم كانوا قد ابتعدوا مسيرة سبعة أيام ، وبيع الأسرى في أماكن متعددة خصوصا في ملاطية ، وأما الذين نجوا فقد رجعوا الى مدينتهم وقد اهتم الامبراطور بأمرهم ووهبهم كل ما يحتاجونه لاقامة أودهم في هذه الحياة ، وجاء تدمير مدينة أنه وخرابها بعد خمسة أشهر ماضين منذ بداية حملة الامبراطور ، وعندما حل الشتاء قضاه الامبراطور في كيليكية مع جيشه وقد كان هنالك كثير من المرضى وأعداد لاتحصى من الوفيات .

وفي نهاية شهر تشرين الأول وعندما كان الامبراطور في

كيليكية ، تجمع جمهور كبير في بسمسياط واتجهوا الى الرها لانه في مثل هذه الحالات لم يكن التحرك مأمونا الا بشكل جماعات وذلك بسبب الكمائن التي كان ينصبها العدو على الطرق ، وكان معهم جملة من العلف والنبيد وجميع ضروريات الحياة ورجال وحيوانات لاتعد ولا تحصى ، ويصحبهم فرسان ومشاة من الفرنجة ، وعندما عبروا نهر الفرات وأصبحوا على بعد بضعة أميال من الرها فاجأتهم قوى تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين وميافارقين المؤلفة من عشرة الاف فارس عند غروب الشمس في ٢٩ تشرين الاول عام ١٤٤٧ وتحاربوا طيلة الليل ، وظل القتال مستمرا من فجر ذلك اليوم حتى الظهر بشكل مرير ، وقد توجهت عدالة الرب ضد القافلة قرب قرية تدعى باتال على طريق الرها ، واطبق عليهم التركمان واعملوا بهم السيف وقتلوا منهم عددا لا يحصى وأسروا الالوف ، وغنموا غنائم هائلة من الخيول والبغال والحمير وأخذوا الاسرى المصفدين بالأغلال وأوقفوهم امام ابواب الرها صفوفها صفوفها ، وخاطبوا اهالي الرها قائلين : ايها الحمقى ، ماذا تأملون سلموا المدينة ، ونحن سوف نطلق سراح اسراكم ، ولم يحر اهالي الرها اي جواب وهكذا انسحب الجيش لانه لم يكن لديه اي آلات حصار .

وعندما انتهى الشتاء واتى الربيع (١٠٧) استعد الامبراطور لدخول سورية وارسل الى زعماء الفرنجة حسب الاتفاقية ومر بمرعش وعين تاب وتل باشر ثم اتى الى منبج ، وقد قاده جوسلين لحصار حصن بزاعه بين منبج وحلب فاستولى عليه ونهبه ، ثم سلمه الى جوسلين وفي عام ١٤٤٨ (١٤٤٩) (١٠٨) زحفوا من بزاعه وموا من حلب ، وبدوا مثل اسراب الجراد جيشا لا يعد ولا يحصى ، وقد ارتجفت قلوب اهالي حلب حين ظنوا ان الامبراطور قد حضر ليهاجمهم ، وعلموا انه اذا فعل ذلك فالمدينة سوف تسقط حتما ، ولكن الفرنجة الماكريين الغشاشين لم يكونوا راغبين بانتصار مساحق للامبراطور ، فكانوا يقلبون له الحقائق ، ويتظاهرون بالتفاني في حبه والولاء له ، ولكن كذبا ورياء

فمنصحوه بألا يهاجم حلب بل أن يقدم على عمل انتحاري بحصار (شيزر) ، وهي قلعة حصينة واقعة على قمة تلة عالية ، ويجري نهر أسفل منها ، وكان أصحابها من نبلاء العرب يدعون (بنو منقذ) وهم أقارب صاحب قلعة جعبر وهو الذي جاء بلدوين كما سبق وأشرنا عندما أطلق سراحه من الموصل ، وكانوا كرماء الأصل طبيعتهم حب الخير والمصالحة لا ينوون لأحد الشر ، وكان زنكي في حلب وابتهج كثيرا عندما رأى خطط الاغريق والفرنجة السيئة ، فأدرك فورا أن أغراض الفرنجة تتضارب مع أغراض الاغريق ، وبينما كانوا يحاصرون شيزر تصرف زنكي بحكمة وفضل أن يتجنب مصادمتهم في الوقت الحاضر ، فأخذ يقوي رجاله ، ويحمي حدوده ، وتقدم قليلا بمحاذاة المعسكر الاغريقي ، وهاجم الامبراطور قلعة شيزر دون جدوى ، وبدأت المجاعة تتغلغل في صفوف الاغريق لأنهم كانوا يؤلفون جيشا عظيما يحتاج لمؤن كثيرة ، وقد منع زنكي عنهم المؤن بحكمة مدوية ، وعندما اشتدت وطأة المجاعة ، ولم تكن هناك أي حيلة للاستيلاء على الحصن بالقوة ، أدرك الامبراطور ، خيانة الفرنجة في اضاعة وقته في حصار هذا الحصن ، وأرسلت حامية الحصن رسلا الى الامبراطور قالوا لها « ان الفرنجة قد ضللك ، وقد اتوا بك لتحاصر هذا المكان مع اننا لم نـسبب أي ضرر للمسيحيين ، وأرسلوا له الهدايا وأواني ذهبية وفضية مختصة بالسر المقدس وصلبان من الذهب حصلوا عليها من انتصاراتهم على الأباطرة ، واحتفظوا بها منذ زمن آبائهم ، وغادر الامبراطور شيزر وذهب الى انطاكية ، وبعد مسيرة مرهقة وصل الى عين زربة ، ولم ينجز أي عمل في ذلك الصيف .

وتوجه زنكي الى بزاعه واستولى عليها وقتل جميع الفرنجة فيها وكان الأسرى الذين أخذهم الفرنجة منها عذبا استيلائهم عليها قد وضعوا في أعزاز ، وكانوا يأخذونهم كل يوم الى حقول القمح ليأكلوا لأن الطعام كان نادرا ، فوضع زنكي كميناً قتل جميع حراس أولئك الأسرى وأطلق سراحهم وأخذهم الى بزاعه وكان الامبراطور

- ٢٠٠٣ -

في كيليكية ، وقد مات ابنه الأكبر فحنطوه وأرسلوه الى العاصمة ، وسرعان مات ابن آخر من أبنائه فحنط ايضا وأرسل الى العاصمة ، وتأثر الامبراطور كثيرا وزاد حزنه فرجع الى القسطنطينية خائبا دون ان يستولي على بيت واحد من بيوت المسلمين ، أو ان يربح معركة واحدة فقط .

وفي بداية السنة التالية استعد الامبراطور جون ثانية ، وأتى الى طرسوس ومعه جيش كبير ، واستدعى زعماء الفرنجة ووبخهم على ما فعلوا به في السنة الماضية ، ورتب مصاهرة وزواجا حتى يتفقوا معه بموجب حب حقيقي ، وبينما كان يقوم بهذه الترتيبات ذهب الى الصيد في يوم عطلة وظهر له غزال فوق القوس نحوه بعد أن وضع به سهمها ، ولكن رأس السهم جرح يده اليسرى فالتفت ، وحدث تورم في نراعه وبعد بضعة أيام مات ، وكان معه ابنه الأصغر مانويل الذي كان قد أعلن امبراطورا أثناء حياة والده ، وحنطه الجيش وأخذه مع ابنه الى القسطنطينية وأصابهم كرب وحزن شديد ، وفي تلك الأثناء حدث زلزال شديد فهدمت عدة مدن وخاصة في كيليكية وسورية ، وقد اختفت قلعة الأتارب الحصينة ، وغارت في الأرض كأنها لم تكن ، ولكن القدس نجت وفي هذه الأثناء توفي بلدوين وخلفه ابنه .

وبدا زنكي الذي استراح وأمن جانب الفرنجة والأمراء المسيحيين ، بالهجوم على أعدائه من التركمان ، فعبر الفرات وهاجم أبناء أرتق وتمرتاش وأبناء داود ، وأخذ منهم أسرى واحتل دارا وتل موزن وجمالين وجميع شبختان ، وأخذ حاني وأرقين والحميمة ، وفي شدتهم استغاث أبناء أرتق بجوسلين صاحب الرها ، وأعطوه مقابل مساعدته حصن بابولا في أراضى كركر ، فاستعد لمساعدتهم ضد زنكي ، وقد كان نكيا وماكرا فعقد السلم مع الأراقة الذين كانوا راغبين في هذا السلم لأنهم كانوا يعلمون انه ليس باستطاعة جوسلين مساعدتهم كما يجب ، وشعر زنكي بالغضب من جوسلين ، ولم يوفر أي محاولة أو وسيلة

- ٢٠٠٤ -

لاحتلال الرها ، وكان يرسل الجواسيس باستمرار للتأكد من ان المدينة كانت خالية من الجند ، وكان في حران زعيم مسلم يدعى فضل الله بن جعفر ، وكان يكره رجال الرها ، وكان الجواسيس يأتون اليه وهو يوجههم وفي ذلك الوقت كان زنكي يحاصر امد .
وجمع جوسلين جيوشه وذهب للاغارة على المقاطعات القائمة على الفرات قرب بالاس والرقه ، وبإدارة رئيس حران الى اخبار زنكي ، وكان في امد : ان الرها باتت خالية من الجنود ولذلك ارسل زنكي على الفور جنودا مدربين تحت قيادة صلاح الدين (١٠٩) الشجاع ، وأوعز اليهم ان يعملوا جهدهم لاحتلال الرها ، وأخذها على حين غرة ، واذا لم يستطيعوا فتحها عليهم ان يهاجموها ويختبروا مدى قدرتها ، فاذا وجدوا الدفاع قويا وفعالا فعليهم ان يعودوا ، والا فعليهم ان يحدقوا بها ويستدعونه .

وما ان بدأت الحملة سيرها ، حتى سار زنكي على اثرها وقد زحفت الحملة بسرعة طيلة ذلك اليوم والليلة التالية ، ولو انها وصلت في الظلام لكان باستطاعتها الاستيلاء على المدينة لأن سكان المدينة لم يكونوا متوقعين ابدأ مثل هذا الهجوم ، ولكن حدث ان هبط مطر غزير ، وكان الليل شديد الظلام ، وعندما اقتربت الحملة من المدينة ضلت الطريق ، وعند الفجر وجدت نفسها قد سارت في طريق حران ، وعندما رجعت كان عنصر المباغثة قد أصبح لامل منه ، فهاجمت المدينة عند الفجر في يوم الثلاثاء ٢٨ تشرين الثاني عام ١٤٥٥ ، ووصلت الى الهضاب المحيطة بها ثم قتلت بعض الرجال الذين كانوا بين الأسوار ، وعندما رأت ضعف المدينة أرسلت الى زنكي رسالة بسواسطة الحمّام الزاجل ليأتي حالا ، فوصل في فجر يوم الخميس على رأس جيش يفوق عدده عدد نجوم السماء ، ملأ السهول حول المدينة وأحاط بها فرقة تلو فرقة ، ونصب خيامه حولها كخيام المتسولين ، وقد كان العسكر حريصين ان ينصبوا خيامهم امام المعقل الخارجية ، فقد نصب زنكي خيمته مقابل باب الساعات على التلة فوق كنيسة الاعتراف ، والى الشرق منه نصبت خيمة الملك العظيم ابن

السلطان ، والى الشمال كانت خيمة الايراني العاقل جمال الدين الوزير ، الذي كان مسؤولا عن جباية الضرائب وادارة الواردات من اراضي زنكي حيث عسكر على تلة المراقبين .

وأما صلاح الدين العاقل العظيم القائد العام لجيش زنكي فقد نصب خيمته في الغرب مقابل باب النافورة على تلة المقبرة حيث يوجد ضريح مار أفرام ، وفوقه في أعلى وادي سليمان كان زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور مقابل حدائق بارصوما ، وفي شرقي باب كاساس كان الزعيم الكبير دبيس سيد الأراضي المنخفضة مقابل بابل ، وهو الذي كان قد التحق بالفرنجة فيما مضى من الزمان (١١٠) وشمال موقعه هذا وفي حديقة بوزان كان ابو علي صاحب زعفران وارقنين ، وفي الشمال الشرقي كان ابناء باقساق وهم حكام سبابرق على شواطئ الفرات ، وفي شرقي باب كاساس عسكر عين الدولة سيد شبختان وجنوب هذا عسكرت قبائل من الاكراد يليهم كثير من الرجالة والعرب ورجال من حلب ، وفي الغرب مقابل القلعة عسكر حسان صاحب منبج ونصب خيامه.

وكانت المدينة ضعيفة ، ولم يكن بها اي جند ، بل فيها الاسكافيون والذساجون ، وتجار الحرير والخياطون والكهنة والشمامسة فقط وكان بها ثلاثة اساقفة هم بابياس (١١١) من الفرنج وباسيلوس السرياني بن شومنا ، وهو من ابناء المدينة ، والارمني اهنانيوس ، وقد قاموا بشراسة ، وقاتلوا قسدر استطاعتهم ، فنصب الاعداء الات الحصار ، وكل قائد فعل ذلك في القسم الذي امامه ، وقد ضربوا السور بعنف ، وقد حفروا الانفاق تحته في الجانب الشمالي تحت الجسر خارج باب الساعات ، ووصلوا الى أسس السور بينما كان القتال مستعرا في الخارج ومستمر ، وقد حاول زنكي اضعا فهم بارسال اقتراحات للسلام - رفضوها - لأنه كان يرغب أن تسلم له المدينة استسلاما دون أن تدمر ويقتل الاهلون ، فأرسل لهم: « انصتوا ايها الحمقى انكم ترون الا أمل لكم بانقاذ ارواحكم ، لماذا تنتظرون

وتأملون ، أشفقوا على انفسكم وابنائكم وبناتكم وزوجاتكم ومدينتكم حتى لا يحل بها الخراب ، وتصبح خالية من السكان ، ولم يكن هنالك أحد من السكان يملك اي سلطة ، فكل واحد يفعل ما يريده ، وهكذا تركوا للخراب والنهاية المحزنة ، فقد أجابوا زنكي بوقاحة بالاهانات والسباب بشكل كله حماقات ليس لها مثيل ، وقد اقترح الاسقف السرياني بعد التشاور مع اسقف الفرنجة ان يكتبا زنكي ويطلبا منه هبة مؤقتة لزمان محدد حتى تأتيهم النجدة ، وقد بنت هذه الفكرة جيدة ، وهكذا استشار بعض الرجال العقلاء فكتبوا الرسالة وقراها للشعب وكان الهدف من ارسال الرسالة هو تأجيل النتيجة الحاسمة حتى يلتقطوا أنفاسهم ، لانهم فقدوا أملهم في الحياة ، وكانوا متعبين ومنهوكي القوى في العمل المرهق على السور الجديد أمام مقالع الحجارة ، وكانت النساء والبنات والأولاد قد أخذ منهم التعب كل مأخذ من حمل الحجارة التي يلقونها الأعداء ، بواسطة آلات الحصار تسقط عليهم من الخار ، ولم يكن هنالك نهاية للاضطرابات المحيطة بهم ، لذلك فكر الاسقفان ان يرتبوا هبة ليحصل أهل المدينة على بعض الراحة ، ويتأجل ولو الى فترة وجيزة الغضب الذي كان ينتظرهم ، وقد رأيا السور وقد هدم من جميع جوانبه بفعل آلات الحصار ، وفي المقلع الشمالي اتلفت أسس السور ووضعت في مكانها العوارض الخشبية وقطع الخشب بالنفط والزيت والكبريت حتى تحترق كالمشاعل عند اللزوم ، وبذلك يسقط السور ، وعند ذلك قام رجل جاهل ، وهو تاجر حرير يدعى حسنون ومد يده بمزق الرسالة ، فحدثت ضجة عظيمة وجلبة وفستت هذه الخطة الحكيمة ، ومع أن زنكي كان قد قال: « اذا رغبتهم في هبة فاننا سنهبكم ذلك فاذا اتتكم النجدة ، او لم تأتكم عليكم أن تسلموا المدينة وتنقذوا ارواحكم » ، فهو لم يكن راغباً في اتلاف المدينة ، لكنه رأى الا فائدة ولا جدوى من الاقناع ، ولذلك كما قيل في الكتاب المقدس « لقد جعل الرب قلب فرعون قاسياً كيما يدمره » •

وأصدر زنكي الأوامر بإشعال النار تحت السور ، وهكذا أصبح
هدم السور أمرا محتوما ومقضيا ونادى المنادون في المعسكرات
يحثون الجند أن يستعدوا للقتال وأن ينقضوا عندما يرون السور
يسقط على المدينة ويدخلوها من خلال الثلثة ، وقد سمح بنهب
المدينة لمدة ثلاثة أيام والتهمت النار الزيت والكبريت وتسربت
للعوارض الخشبية وصبوا الزيت عليها ، بينما هبت ريح شمالية
فدخل الدخان في أعين رجال الحامية في الأعلى ، وترنح السور
العظيم وسقط وكان الخندق الموقت غير كاف لصد التركمان ، فقد
ظهر بأنه قصير لأن الجزء الذي سقط ودم كان أطول من الجزء
الذي بنوه وقاتلت الحامية في الثغرتين من الفجر حتى الساعة الثالثة
من مساء عيد العذراء (أم الرب) (٢٤ كانون الأول) ، وبعد أن
قتل الكثيرون اقتحم التركمان المدينة - لأن الرب كان غاضبا على
أهاليها - وبدأوا بالذبح بالسيوف ولم يوفروا أحدا ، وقتل في ذلك
اليوم حوالي ستة آلاف شخص.

وعندما دخل التركمان هرب النساء والأطفال والشباب إلى القلعة
العليا لينجوا من القتل ، وكان الباب مغلقا وذلك طبقا لتلك العادة
السيئة التي اتبعها الفرنجة ألا يفتح الباب إلا بناء على أمر من
الأسقف ، وألا ينفذ الأمر ما لم ير رجال الحامية الأسقف
بنفسه ، ولهذا فقد انسحق الحشد سحقا وذلك خوفا من القتل
والأسر ، فأخذوا يدوسون بعضهم ، وأنه لمنظر يستدعي الشفقة
منظر مفرع مخيف ، فقد أصبحوا كتلة واحدة مسحوقة مؤلفة من
حوالي خمسة آلاف شخص اختنقوا بهذا الشكل البأس ، واقتيد
حوالي عشرة آلاف ولد وبنت إلى الأسر ، وعندما وصل زنكي إلى
القلعة ورأى منظر أولئك المختنقين تأثر كثيرا وأمر بإيقاف
المنبجة ، وقد قتل الأسقف الفرنجي بضربة فأس وهو في طريقه إلى
القلعة ، وقتل كثير من الكهنة والشمامسة والرهبان.

وكان عندما وصل زنكي إلى بوابة القلعة تكلم مع الحامية

برفق ، وطلب منهم التسليم ووعدهم أن يوفر أرواحهم ، فخرج قسم منهم يطلبون الأمان للفرنجة الموجودين في القلعة ، وكان بينهم الكاهن بارصوما (الذي غضب عليه الرب) الاشمايلي ، وكان قد تمكن بتأثير حديثه من جعل نفسه رجلا بارزا في القلعة ، وأقسم لهم زنكي قسما مغلظا أن يحفظ أرواحهم فسلموا بعد يومين من سقوط المدينة ، وفي اليوم التالي استعرض زنكي الأسرى في جميع المعسكرات ، فأختير بعضهم وأرسلوا إلى الرق ، وأمر بوضع الحرس على الأبواب لمنع أي شخص غريب من دخول المدينة، ورجع أهالي الرها الباقون إلى بيوتهم ، وأعطاهم زنكي كل ما يحتاجونه من الطعام وشجعهم وواساهم وهكذا استقروا في بيوتهم.

ولنعد الآن إلى ما حل بأولئك الذين كانوا في القلعة عندما سلمت للأتراك ، وعندما هلك جمع غفير من النساء والأطفال بعد أن اختيروا للأسر ، وكان عددهم حوالي ألفين ، وقد قتل ستة آلاف أو أكثر بحد السيف أو الاختناق أمام القلعة ، وأطلق الحاكم سراح حوالي عشرة آلاف من الجنود ، أما أولئك الذين اختبأوا تحت الأرض أو في الحصنين فقد نجوا أيضا ، وعندما سقط الحصن الشمالي بعد أن وعدوا بالحفاظ على أرواحهم أحضر زنكي المطران باسيلوس الذي كان تحت الحفظ يحرسه أحد الجنود وبدأوا بإحضار الفرنجة الذين كانوا في الحصن مع نسائهم وأطفالهم ، وكذلك الكهنة والشمامسة وأحضروا معهم كثيرا من الذهب والأواني الفضية وما شاكل ذلك ، وقد التحق بهم الكثيرون لأن زنكي أقسم أن يأخذهم عبر نهر الفرات ، ويطلق سراحهم ويسمح لهم بالذهاب إلى حيث شاؤوا ، ودخل القائد صلاح الدين إلى القلعة وأخذ المطران من يده وقال : « نريد من قداستكم أن تقسموا على الصليب والانجيل أن تكونوا صادقين معنا ، وتخلصوا لنا ، لأنكم تعلمون جيدا أنكم تستحقون القتل لأنكم قاومتُمونا واحتقرتم نبينا ، ونحن مستعدون أن نعاملكم معاملة حسنة ونطلق سراح جميع الأسرى ، وأنتم تعلمون أنه منذ الزمن الذي استولم المسلمون به على هذه المدينة ، بقيت تحت سلطتهم منبتي منذ

ازدهرت خلالها واصبحت مدينة كبرى ، ولكن اليوم بعد ان حكمها الفرنجة مدة خمسين عاما ، اُتلفوها وخربوا اراضيها كما ترون ، وإن الحاكم هنا مستعد ان يعاملكم معاملة حسنة ، وهكذا عليكم ان تعيشوا بسلام وأن تلجأوا اليه ، وأن تصلوا لأجله» (١٠).

وخرج من القلعة جميع من كان فيها من رجال المدينة من السريان والأرمن ، وذهب كل منهم الى بيته ونهب التركمان كل ما كان يملكه الفرنجة من الذهب والفضة والأواني في الكنائس والكؤوس والطاسات والصلبان وكثيرا من الجواهر ، ثم جمعوا الكهنة والنبلاء والزعماء ونزعوا منهم كل ما يملكونه ، وأرسلوهم اسرى الى حلب ، أما الآخرون فقد اختاروا اصحاب الحرف وشغلوهم في حرفهم سخرة ، لكنهم عذبوا حوالي مئة شخص ، وبعضهم الآخر ذبحوهم بالسيوف ، وهكذا فقد أصبح كل شيء معطلا ، وبعدها دعا زنكي المطران الأعظم وحمله مسؤولية الاخلاص والصدق مع المسلمين ثم أعطى لرجال الرها بعض المواشي والثيران والعلف ثم عين التركماني زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور حاكما للرها ومعه سبعة زعماء آخرون ، وشكل حامية قوية للدفاع عن المدينة ، وبعد أربعة أيام من الحصار سار زنكي مارا بحران الى الرقة على الفرات ، وقد أفتدى أهالي الرها أسراهم فأسعبدوا الى المدينة ، وكان الحاكم زين الدين رجلا عادلا وأظهر لهم منتهى العطف.

وبعد أربعين يوما من سقوط الرها أرسل زنكي جيشه الى سروج ففر المسيحيون الى البيرة ، واحتل التركمان سروج ، ثم ساروا الى البيرة في أول الشهر القمري من شهر آذار عام ١٤٥٥ (١١٤٤ م) وحضر زنكي بنفسه ووضع آلات الحصار حول المدينة ، وقام بهجوم ضار مركز ، وظل القتال دائرا دون انقطاع من يوم عيد الفصح (يوم الخميس حتى مساء يوم أحد - القيامة) في اليوم الرابع والعشرين ، وحطم التركمان السور الخارجي ، وفي هجوم تال احتلوا القلعة الخارجية ، وقد حدثت

ضجة عظيمة مزقت الإسكون في الأرض ، لكن الحامية كانت قوية وشجاعة فاستل أفرادها سيوفهم وقفزوا على التركان وردوهم على أعقابهم خائبين.

وحضر الى قلعة الروم وهي قلعة على الفرات على مسيرة يوم أو أقل من البيرة ، حضر أحد قادة الكونت (جوسلين) واسمه روبرت السمين ومعه قائد آخر يدعى روبرت ، وكان كل منهما محارباً عنيداً ومجرباً ، وقد قدما معهم مؤناً وأسلحة وكل ما يحتاجونه ، وأبحرا في النهر ، وعندما اقتربا من القلعة قاما بعمل سخيف يدل على الحمق ، فقد نفخا في الأبواق ، وعندما سمع التركمان أصوات الأبواق ذعروا واندفعوا من جميع الجهات ، فعندما رأوا أن القاربين قادمين لنجدة الحامية هاجموهما من كلتا الضفتين ، وأرسلوا قوارب ضدهما ، ولم تعلم الحامية بما كان يحدث وحل بها الخوف عند سماع نفخ الأبواق لأن أفرادها ظنوا أن هذا هجوماً من قبل العدو ، وعندما اقترب القاربان من الضفة النهر لم يكن هناك من أحد يرمي حبلاً أو يمد رمحاً لمساعدتهما وقفز من كان بهما واحداً تلو الآخر الى الماء وخرجوا بسرعة وهم في خوف شديد ، وبعضاً منهم جرفه التيار وأمسكهم العدو وبعضهم الآخر غرق ، وقد انجرف القارب الذي به روبرت السمين الى القلعة ، ووصل الى منتصف معسكر العدو إذ لم يكن هناك من يوقفه ، وفقد الفرنجة الأمل ، وقفز بعضهم الى الماء ليموت غرقاً ، بينما قتل التركمان كل من بقي داخل القارب ، ورمى روبرت السمين بنفسه الى الماء ، ومشى في الوحل حتى وصل الى قرية على الضفة الغربية ، ولما كان عاري القدمين وثقيل الحركة ، لم يستطع أن يذهب بعيداً فاختبأ في مخزن مليء بالتبن والقش ، وأتى في ذلك اليوم بعض التركمان الى القرية لجلب التبن (١١١) فوجدوه في ذلك المخزن ، فقبضوا عليه وأرسلوه الى زنكي الذي أرسل به مع الأسرى الى حلب ، وأما روبرت الآخر ومعه بعض من نجو فقد وصلوا الى الحصن ، وفي أثناء القتال أصابه سهم في عينه فمات على الفور ، وقد دام حصار القلعة أربعين يوماً .

وبينما كان الحصار على أشده أتى رسول راكبا على جمل وهو مسرع كالعاصفة ، وأفضى بنبا أن نصير الدين(١١٢)القائد الذي عينه زنكي في الموصل قد قتل وأن بلاد أقور قد ثارت وتمربت ، وهو قد ترك الموصل بسرعة ولا يدري ماذا حل بالمدينة ، وخاف زنكي لأنه فكر أن ابن السلطان قد نصب نفسه ملكا واستولى على كل أقاليمه ، وكان يخشى من الجيش الذي معه فاستدعى في الحال زين الدين صاحب أربيل وحاكم الرها وأرسله بسرعة الى الموصل ليحل محل نصير الدين المقتول. وترك تلك الليلة زنكي البيرة وذهب الى حلب اذ كان يخشى اندلاع عصيان هناك. وفي الصباح أفاق أهالي البيرة فلم يجدوا أي أثر للمعسكر الذي كان يحاصره ، ولم يجدوا أثرا لأي رجل أو خيمة ، وقد رأوا المعجزة وهم في أعلى الحصن ، لقد شهدوا لهب الحرب قد انطفأ والخطر قد زال عنهم ، وهكذا نجت البيرة من زنكي بعد حصار دام أربعين يوما.

وكان نصير الدين قبل مصرعه متمركزا في الموصل لدعم مركز زنكي بعدما أصبح نائبه هناك ، وقد كان محاربا شجاعا وحاكما عاقلا وحكيما ، وكان ولدا السلطان التركي العظيم الذي كان يحكم في بلاد خراسان ، في عهدة زنكي ، وكان عندما استولى عمهما مسعود على العرش في أصفهان أرسلهما مع زنكي الى تلك المنطقة لحماية هذه البلاد ، وقد أخذهما زنكي كما لو أن هذه المنطقة قد أعطيت لهما من قبل عمهما ، وأنه هو الوصي عليهما ، وهو قائد جيشهما ، وقد كانا يتمتعان بكل الاحترام الذي ينبغي للملوك أن يتمتعوا به ، فأحدهما كان يعيش في الموصل ، والآخر كان يتنقل مع زنكي الذي كان يحكم البلاد باسمه ، فبالاسم كان خادما لهما ، وبالحقيقة كانا هما الخادمين ، وعندما كبر أحدهما وهو الموجود في الموصل ذكره بعضهم أنه هو الملك ، وأن الأراضي والبلاد تابعة له ولأبيه ، لأنه لا يملك حولا ولا قوة فهو كالعبد ، وأنه يجب أن يتصرف كالملوك بدلا من أن يطيع أوامر العبيد ، وقد أعارهم أننا صاغية ، فقام مع أعوانه بحبك مؤامرة لقتل نصير الدين والاستيلاء على الموصل وطرد آل زنكي ، وفي الصباح حالما أتى نصير الدين كالعادة

- ٢٠١٢ -

ليقدم فروض الاحترام لابن السلطان قتله عبيده بين أبواب القاعة الكبيرة في القصر ، وخيم الرعب على الموصل ، لكن فرق جيش الاكراد في الموصل اتحدت مع غلمان نصير الدين وقوت عزيمتهم ودخلوا القاعة الكبرى وقبضوا على ابن السلطان وسجنوه في أحد أجنحة القصر ، وبعد عشرة أيام وصل زين ومعه تفويض بالحكم من لدن زنكي فسلموه المدينة والحصون وخزينة الدولة وكل مظاهر السلطة ، وقد استلم مقاليد الحكم بقوة ، وألقى القبض على الكثيرين ممن تسببوا في الفتنة وأعدمهم على الخازوق ، وأمر بقتل ابن السلطان سرا ، وأصبح عين الدولة صاحب (شبهختان) حاكما على الرها بعد زين الدين ، وكان فضل الله بن جعفر رئيس حران الذي كان سببا في سقوط المدينة موجودا هناك (أي في الرها) ، هذا ولابد لي أن أشير أن جميع الذين عاشوا في الرها بعد الاستيلاء عليها لأول مرة ظلوا أشرارا ولم يتحولوا عن آثامهم ، مع أن الأسقف كان قد وعظهم ، وذكرهم بالمصيبة والكارثة التي حلت بهم ، وقد ظل عبيدون مصرا على ممارسة أعماله الشريرة ، مع أنه كان قد بلغ من العمر ثمانين عاما ، وكان بارصوما هو الآخر رجلا شريفا ، وقد تزوج بعض نساء الرها من رجال التركمان ، وبذلك خالفوا روح الرب وأنوها ، وقبل ان تمر سنة على احتلال التركمان للرها اقترن حوالي مئة امرأة برجال « وثنيين » وهكذا حلت عليهن نقمة الرب الذي هجرهن وسبب لهن المصائب .

وبعد ان مكث في حلب مدة سنة واحدة انتقل عماد الدين زنكي بن أقي سنقر الى الرها في موسم الحصاد في السنة الثانية وترك جيشه على ضفاف نهر (الجلاب) بين كاساس وحران ، ودخل المدينة ومعه قواد جيشه ومستشاريه والولاة في اليوم الخامس ، وكان يوم الثلاثاء ، وفي منتصف ايام عيد العنصرة ، ودلف المطران والكهنة والشمامسة وجميع المسيحيون لاستقباله من جهة واحدة اما من الجهة الأخرى فقد أتى جميع المسلمون الموجودون هناك ، والذين تجمعوا من الأماكن المجاورة لاستقباله ، وقد حيا المسيحيين بحرارة ، وقبل الانجيل وسلم على المطران واطمأن على صحته

- ٢٠١٣ -

وأحواله ، وقال انه اتى ليطمئن على أحوالهم ويمسدهم بما يحتاجونه ، وقد مر من البوابة الشرقية ليدخل المدينة من البوابة الشمالية التي حدث اختراق المدينة وفتحها منها ، وكان اهالي المدينة قد رمموا الثغرات والأبراج السبعة التي دمرتها آلات الحصار ، وجعلوها أقوى مما كانت قبلاً ونقشوا عليها باللغة العربية قصة سقوطها واسم الحاكم ، وهدموا كنيسة الاعتراف واستعملوا حجارته لترميم السور وبدأوا يبنون حصناً للحاكم بجانب كنيسة القديس يوحنا الجميلة ، حيث سكن الحاكم ، ووضعوا حراساً على الكنيسة لحمايتها من الضرر لأن الفرنجة قد جعلوها وغيروا السقف وجددوا القرميد ، وكان بها حوالي مئة نافذة كبيرة زينوها جميعها بالشعريات الرصاصية ، لادخال النور ، ومنع الطيور من الدخول وقد دفن فيها كثير من الأساقفة والبطاركة ، وقد دفن الأساقفة الفرنجة بما فيهم (بابياس) الذي قتل أثناء الحصار ، دفنوا جميعاً خلف المنبر وقد غطي ضريحه بقطعة من المرمر الأحمر نحتت بحيث تمثل صورة الأسقف ، وكان جسم آدائي  الرسول والملاك أبحر في تابوت مطلي ومموه بالفضة ، وعند سقوط المدينة سرق التابوت وتناثرت العظام ، ولكن الرجال المؤمنين جمعوا هذه العظام ووضعوها مع نتف من بقايا القديسين في جرة من الفخار في كنيسة السريان التي تدعى كنيسة القديس ثيودور ، وقد استولى المسلمون أيضاً على كنيسة القديس اسطفان وجعلوا كنيسة القديس توماس اصطبلًا ، وكنيسة القديس اسطفان مخزنًا للعلف والواردات الأخرى التي تصل للحاكم ، وهدموا أيضاً كنيسة القديسين ثيودور وميكائيل الملاك في شرقي المدينة ، واستعملوا حجارتهما لترميم الثغرات في السور من تلك الناحية ، والقلعة الشمالية حيث هلك الجمهور واختنقوا ، وأصلح المسلمون المسجد الذي كان قد استعمل كمقر للمطران الفرنجي ، ودخل زنكي من البوابة الشمالية بوابة الساعات ، وذهب باتجاه كنيسة القديس يوحنا ثم انحدر باتجاه الينابيع وعابنها بدقة ، وذهب الى كنيسة توماس الرسول وأفطر هناك ، ثم امتطى حصانه وذهب الى الينبوع المستدير

- ٢٠١٤ -

المدعو « أبجروس » حيث كان هناك في السابق مقر قصر للملك أبجر قد يمر منذ مدة طويلة ، وقد غرست هناك حديقة لاتزال تدعى حديقة المطران ، وفي أواخر الليل ذهب الى كنيسة القديس يوحنا حيث بات تلك الليلة ، وقد نصبت حولها خيام قواده ، ودعا في الصباح المطران واستفسر منه عن البئر الموجودة في جنوب المدينة حيث كان يشفى منه المصابون بالجذام فأخبروه قصة هذا البئر من أولها (١١٣)

كان زنكي يشكو من مرض داء الفيل (تورم القدمين) الذي أصاب قدميه ، وعندما سمع قصة البئر اعتقد ان بركة المسيح يمكن ان تفعل المعجزات فركب وذهب الى البئر ، وأخرج منه ماء غسل به قدميه ، وكان كل ما بقي من الكنيسة هو المذبح في الشرق ، لذلك امر زنكي ببناء دار ضيافة ومأوى للمرضى الذين يفدون الى ذلك المكان للاستشفاء ، وأوقف على هذا المأوى ريع الحقول المجاورة ، ولكن الرب لم يرغب ان يتم هذا العمل لذلك عجل بموته قبل ان يتمه .

وزار كنائسنا السريانية وتأمل في جمالها ، وأمر بوضع ناقوسين كبيرين يعلقان فيها كما كانت العادة عند الفرنجة ، ثم استعد للذهاب وأوصى المطران ان يكون حريصا على حراسة المدينة ، وان لا يخون الحكومة ، وترك المدينة يوم الجمعة بعد انتهاء عيد العنصرة ، وذهب الى الرقة عن طريق حران وارسل بعض الجنود لنهب اراضي قلعة جعبر ، ثم اسكن ثلاثمائة عائلة يهودية في الرها ، وبعد اقامة قصيرة في الرقة تقدم زنكي على رأس جيشه بكامله لحصار قلعة جعبر ، فهاجمها بضراوة ولكن دون جدوى لأنها كانت قلعة حصينة وضايق القلعة بهجوم شديد لأنه كان قد اقسام الا يرجع حتى يستولي عليها ، وفي ليلة الأحد وهو يوم عيد الصليب المقدس الموافق ١٤ أيلول ، وبينما كان زنكي نائما لا يشعر بأي هم من هموم الدنيا ، ويحلم ان يعيش سنوات وسنوات اذا باثنين من خصيانه المقربين ينقضان عليه ويقتلانه وهو في فراشه ، ثم يهربان الى القلعة ، وانتشر الخبر في تلك الليلة ان زنكي قد قتل ، وخيم

الرعب على المعسكر وانتشرت الفوضى فيه ، فأخذ كل شخص يقتل الآخر ، وكل من كان يحمل اي حقد على جواره ويملك اي سلطة ، كان يقوم بالانتقام فوزا ، اما القادة والزعماء الذين فقدوا صوابهم وتشوشت افكارهم واصبحوا يضربون اخماسا بأسداس ، فقد عقدوا اتفاقيات سرية وهربوا الى بلادهم ، واما بقية الجند وجماهير الشعب والتجار فقد نهبوا ، ونهب الحراس خيمة زنكي ومعسكره وامواله ومخازن اسلحته واملاكه الشخصية ، وابله وخيوله التي لاتعد ولا تحصى ، وكلها نهبت واصبح ذلك الشخص الذي كان يرهب العالم في الامس وحيدا في الصباح دون ان يجد من يدفنه ويوارى جسده التراب ، وكان له اربعة ابناء ، وكان الاكبر غازي سيف الدين في بلاد العجم مع سلطان ميديا (١١٤) وبابل والثاني نور الدين محمود كان معه في المعسكر عند قتله ، والابنان الاخران وهما قطب الدين مودود وميرميران كانا في الموصل ، ولكن الزعيم العاقل صلاح الدين ، حالما سمع بمقتل زنكي بادر بأخذ ابنه محمود والقواد الآخرين الذين كانوا معه الى حلب ونصبه حاكما عليها ، وقد استولى على الاموال والثروات الموجودة هناك ، ولم يدفن احد زنكي بل تركوه حتى قيض الله له بعض الرجال الذين حملوه الى الرقة ودفنوه هناك ، وحكم قطب الدين مودود في الموصل وكان زين الدين هو مستشاره ، وحكم نور الدين في حلب ومسابين النهرين في عام ١٤٥٨ (١١٤٧ م) ، واستولى على حماه وحمص ودمشق مع ان والده لم يستطع ذلك ، وعقد هدنة مع الفرنجة حيث قابل جوسلين وعملا عهودا موثقة بالقسم ، وكان اكثر دهاء وبراعة من والده ، ولهذا زادت قوته ، واخذ اعزاز ، وبعلبك التي استولى عليها حاكم مصري يدعى الضحاك .

وبقي الفرنجة في كل مكان واخذوا للراحة والسلام ، وقد حزن جوسلين من اجل الرها ، ولكن لم يستطع ان يعمل شيئا ، وعندما سمع بمقتل زنكي فرح فرحا شديدا لانه ظن ان المسلمين سوف يتنازعون ولا ينتبهون للرها ، وعمل خطة تقضي بأن يقوم بلدوين

صاحب كيسوم ومرعش بمد يد المساعدة له ، ولكن بيتا بين صاحب انطاكية أهمل المساعدة وذلك لأنه كان حنقا عليهما لأنهما لم يعترفا به سيديا ، وبعد أربعين يوما من موت زنكي جمع بلدوين وجوسلين قواهما في دلك واستعدا للزحف على الرها ، وفكرا أن يساغتا المدينة ليلا ، وسمع حكام حلب ما أزمع عليه جوسلين وما جمعه لهذه الغاية ، فأرسلوا رسلا لحكام الرها يقولون لهم ان الفرنجة يجمعون الجموع ، ولانعلم الى أين هم ذاهبون ، فاذا اتجهوا نحوكم فنحن قد جمعنا قوانا ايضا وسنأتي بالسرعة الكلية ، انتبهوا لانفسكم وحافظوا على المدينة ، اجعلوا المسيحيين يقسمون بالولاء لكم وخذوا منهم رهائن ، وعندما وصلت هذه الأوامر الى الرها أخذ حكامها رهائن من المسيحيين حوالي خمسين رجلا من رجال الحرف كالبنائين والصناع والحدادين ، وأعدوا كل ما هو مفيد ويمكن ان يحتاجونه في الحصون في المدينة ، وسرعان ما حضر الفرنجة في السابع والعشرين من تشرين الأول (بعد سنتين من سقوط المدينة) وقد اختبأوا في أحد الوديان حتى المساء ، وعندما هبط الليل أرسلوا بعض الرجال الأشداء على الأقدام فاقتربوا من المدينة من جهة الغرب ، واختاروا إحدى الزوايا حيث لم يكن هناك حرس فيها ، وتسلسلوا السور بسرعة ، ثم أنزلوا الحبال وأخذوا يسحبون السلال مع بعض الرجال من رفاقهم ، وعندما تقدم الحراس ليروا من أتى الى السور هاجموهم وقتلوا قسما منهم ورموهم الى خارج السور وسمعت الأصوات وحدثت ضجة عظيمة وجلبة ، وصرخ الفرنجة على السور صراخ الفرخ ، وأخذوا يسبحون بحمد الرب فسمع الجنود في الكمين المنصوب على مسافة ، فاندفعوا بشكل كتلة موحدة ووصلوا الى المدينة في الساعة الثالثة ليلا ، ثم نزلوا وفتحوا الأبواب : الباب الغربي بجانب النافورة ، ودخل فرسان الفرنجة ومشاتهم الى المدينة ، وفي الحال توقف هؤلاء الحمقى عن القتال وأهملوا الحراس المسلمين والمسيحيين وأخذوا يضعون أيديهم على كل ما يجدونه ، وحالما رأى المسلمون هذا الخطأ ، هرعوا الى الحصون ففتح لهم من كانوا في الأبواب واستقبلوهم واستقبلوا أطفالهم

ومقتنياتهم دون ضجة او فوضى ، ولم يرتكبوا الخطأ الذي ارتكبه الفرنجة عندما سقطت المدينة لأول مرة بأن أقفلوا الأبواب وسحبوا الفوضى والتشويش والاختناقات ، وقفز كثير من المسلمين من الأسور ليلا وهربوا الى حران لأنه لم يطاردهم احد ، وعندما طلع الصبح استدعى الكونت المطران السرياني وطلب منه ان يهيء آلات الحصار للهجوم على القلاع ، ووضعوا آلات الحصار ونصبوها وهاجموا القلعة السفلى بضراوة ، ولكن دون جدوى او نجاح لأن القلاع كانت تعج بالرجال وكانت عالية وقوية - ولم يستطيعوا ان يهاجموا القلعة العليا لأنها كانت مليئة بالرجال الأشداء ، وهكذا ظلت المدينة عرضة للشدة والكرب ستة ايام ، وعندما رأى الفرنجة انهم لا يستطيعون ان يستولوا على الحصون ، وان أعداءهم كثيرون وهم يتقاطرون من كل حـدب وصـوب ، حلت بهم المخاوف ، واستولى عليهم القلق ، وتجمع في كل ليلة أهالي المدينة حول المعسكر الفرنجي قرب كنيسة أبجر ، وذلك خوفا من التركمان ، وفي يوم السبت أتى جاسوس قادم من جهة العدو وحذر جوسلين من أن فرقا من الجند قد تحركت من حلب ومنبج ومعها كثير من التركمان ، وقد انتشروا فوق الشهور الشرقية والتلال ، وقـرر الفـرنـجـة

ان يخلوا المدينة في الليل دون علم المسلمين في الحصون او التركمان في السهل الشرقي والتلال الشرقية ، ولكن هل من الممكن ان يخرج الألوف من الرجال والخيول من بوابة واحدة دون ان يشعر بهم احد ؟ ولو خرجوا ليلا لأوقفوا حركتهم ، ولكنهم انتظروا حتى مضت ثلاث ساعات من الليل ، وفتحوا البوابة الشمالية وهي باب الساعات وبدأوا بالخروج ، وعندما راهم أهالي المدينة المسيحيون ونساءهم وأطفالهم ، وعلموا ان الفرنجة قد تركوهم تحت رحمة الطغاة الوثنيين ، بدأوا بالصراخ والعويل ، وغرقت المدينة في لجة من الفوضى وساد عويل النساء والأطفال الضائعون يتجولون وهم شاردون في كل مكان ، وهم يصرخون بألم طلبا لأمهاتهم دون جدوى ، وهم يتراكمون بين جماهير الرجال وسنابك الخيول التي

كانت تدوسهم وتفتك بأجسامهم وتمزقهم بحوافرها اربا اربا دون ان ينقذهم أي انسان ، وكانت السماء مظلمة ولم يكن هناك أي نور او ضوء ، واندفع الجميع باتجاه البوابة الشمالية راسا من خلال الشارع الذي يؤدي الى بوابة الساعات ، وهناك كنت ترى الجنود والرجال المدججين بالسلاح والدروع والخيول والحيوانات ممترجة بالاولاد والنساء والأطفال يتدافعون ويدوس بعضهم بعضا دون شفقة او رحمة ، والماشية والبغال والحمير التي كانت تحمل الاسلاب التي اخذها الفرنجة من المدينة ، وسقطت هذه الحيوانات على الأرض ولم يستطع أحد ان يرفعها او ان يرمي ما عليها من اثقال واحمال ، وقد انسحق الأطفال بين هذه الحيوانات ولاقوا حتفهم بشكل بائس مريع ، وفي كل طريق كنت ترى الكثيرين يلقون على الأرض : رجال ، حيوانات ، نساء وأطفال ، شباب كلهم لاقوا حتفهم بشكل بائس وليس هناك من يمد لهم يد العون ، وهكذا كانت نهاية هذا الخروج المعيب ، وقد تركوا بيوتا مملوءة بسالمون والحاجيات ، ابوابها مفتوحة والمصابيح فيها مضاءة والفرش ممدودة. وغادرت العساكر الفرنجية ومن استطاع اللحاق بها المدينة وتجمعت حول أحد الأبراج وهو ، عمود الذسك امام كنيسة الاعتراف حيث شكل التركمان نطقا حولهم وامطروهم بالسهم التي اخترقت أجسادهم ، وقد اختلط الحابل بالنابل فلم يكن يسمع الا صوت السيوف وهي تضرب فيما يشبه جنود الأشجار ، وارتفعت الأصوات في الظلام ، ولم يكن من السهل على المسيحيين التفريق بين التركمان والعساكر الفرنجية ، واختلط جنود الفرنجة بالجمهور وكان كل واحد منهم يحاول ان يخفي نفسه بالاندفاع نحو الوسط ، وصاح قادة الفرنجة بسخط وفزع : اكراما للرب تعالوا نحو الخارج وقاتلوا بسرجولة وقاوموا هجوم العدو ، وإلا فإننا سننضيع وترجل الفرسان واحاطوا بالحشد وظلوا هكذا حتى طلوع الفجر ، وعندما طلع النهار ركب بلدوين وجوسلين مطايهما واعادا النظام بين صفوف الجند ، وتقدم بلدوين الى الامام وقاد جوسلين المؤخرة ، بينما كان المشاة على يمين ويسار

الحشد ، وعندما بزغ النهار في يوم الأحد الحزين هذا في الثالث من تشرين الثاني ، وهو عيد القديس جورج ، ساروا بهدوء في طريقهم الى قلعة (سميساط) ، وكان العدو الذي يعد بالآلاف لا بل عشرات الآلاف قد أحاط بهم وقتل كثيرا من الجنود ، ومن الرجال غير المقاتلين ، ولكن الجنود حاربوا ببسالة ولم يعطوا مجالا للعدو للتقدم نحو الحشد ، لأنهم كانوا رماة أشداء ، وتحرك الفرنجة وقد أخذ التعب منهم كل مأخذ فضلا عن الخطر الشديد الذي كان يحدق بهم ، إذ ليس باستطاعة القلم أن يعبر عن الحزن الشديد ولا أن يصف ذلك المنظر المشؤوم لشعب أصيب في الصميم مثل شعب الرها ، فقد ساروا حفاة على الحجارة الصلبة والأشواك والحسك والمسامير ، وقد مزقت أقدامهم كما لو بالسكاكين وسال الدم من أرجلهم مما سبب لهم الآلام المبرحة ، وكانوا يتدافعون دون أيما نظام ويسقطون بعضهم فوق بعض ، وكان الواحد منهم يجرد قدميه جرا ويتقدم ويندفع ثم يسقط ويمد جسمه نحو الشرق ، وبالوقت نفسه كان المطاردون يذبحونهم كالغنم ، وكان الأطفال يركضون حفاة الأقدام بين الأشواك ، والسننتهم متدلية من شدة العطش ، وأفواههم مرة كالصبر أو العلقم ، وأسنانهم سوداء كالسحام ، شاردون ، منساقون بين الحشود تدوسهم سنابك الخيل ، وهم يهلكون ، زد على ذلك أن طريقهم لم تكن لتمر على أرض معبدة ، بل كان عليهم أن يمشوا بالأدغال ، وكان أمامهم غابة كبيرة تقع في السهل ، وأشعل العدو النار في الغابة فأصبحت النار تتوهج أمامهم وحولهم ، ولم يستطيعوا أن يتحولوا عن الطريق بل تابعوا السير بأقدام محترقة ، وظلوا في هذا العذاب حتى الساعة التاسعة من اليوم التالي ، وكان التعب قد حل بالعدو أيضا لأنهم ظلوا يحاربون طوال الليل والنهار يقاتلون ويزحفون ، لذلك استعدوا للعودة خشية أن يباغتهم الفرنج من بعض الحصون ، يضاف الى هذا أن قسما منهم رغب أن يساهم في نيل الغنائم من المدينة ، لأن كثيرا من المشاة بقوا هناك حيث كانت حاميات الحصون قد بدأت في نهب المدينة ، وهكذا رجس العدو ولم يبق الا قليل من التركمان.

وارتكب الفرنجة خطأ فادحا فقد صمموا على مهاجمة الأتراك الذين كانوا لا يزالون حولهم ، ولذلك هاجم الكونت جوسلين ورجاله الذين كانوا في المؤخرة ، هاجموا العدو قربهم وعن يسارهم أي في الغرب وعندما رأى بلدوين أن جوسلين قد بدأ الهجوم وأن الأبرواق قد بدأت تذفخ هاجم الفرنجة من اليمين وتقدم فرسان الفرنجة بشكل متهور وسط جموع التركمان الذين التفوا عليهم من المؤخرة وكسروهم ، ولم يعد الفرنجة يفكرون بالنظام والتماسك ، بل أصبح كل منهم يبغى النجاة لنفسه بشكل هزيمة معيبة مخجلة ، ورموا برماحهم ودروعهم وسوابغهم المصنوعة من الزرد وكل ما لديهم من سلاح ، وحتى السيوف التي بأيديهم ، وذلك نتيجة للفرع الذي حل بهم ، ووصل المشاة إلى قلعة متهدمة قريبة على يسارهم على تلة الذسور حيث التجأ إليها حوالي ألفان وكانوا من شباب الرها المنعمين المترفين ، أما النساء والأطفال والرضع فقد تركوا للذهب والأسر والعبودية ، وأصيب جوسلين بجرح في يده من رمية بسهم لكنه نجا ووصل إلى قلعة سميساط في حالة تعيسة ، وأما بلدوين الذي كان شابا وسيما أشقر طويل القامة ، عريض المنكبين ، شديد المراس في الحرب والقتال ، لم يعد يعرفه أحد من شدة ما نزل به من الضربات بالسيف والطعنات والسهام ، وقد هلك كثير من الكهنة والشمامسة والرهبان الذين نجوا من الحصار الأول ، واحتل التركمان المدينة بكاملها ، ونهبوا أموال جوسلين وبلدوين وجميع أموال الشعب.

وأصبح التركمان والقبائل المختلفة أسيادا لتلك المدينة الشهيرة التي لم تنهب أبدا منذ تأسيسها من أيام سلوقس قبل ألف وخمسمائة وستين سنة ، ففي المرة الأولى استبيحت للذهب مدة يومين فقط ، وقد أنقذت من النهب والسلب على يد زنكي عندما أمر بأن يرجع الجميع إلى بيوتهم وديارهم ، ولكن في هذه المرة استمر النهب سنة كاملة بدلا من يومين ، فكان التركمان يتجولون في المدينة ويحفرون ويبحثون في الأماكن السرية والأسس والأسطحة ، وقد

- ٢٠٢١ -

وجدوا كثيرا من الكنوز التي خبأها الآباء وقدماء السكان ، والتي لم يكن يعرف عنها الأهالي الحاضرون شيئا.

وأما أولئك الذين نجوا من الهلاك والتجأوا الى القلعة فقد تفرقوا بأعداد صغيرة تبلغ الخمسة أو العشرة رجال عند حلول الليل ، وقد قتل بعضهم ونجا الآخرون ، ووصلوا الى سميساط لأن أملاك الفرنج كانت قريبة منها ، وقبض على الأسقف الأرمني وبيع عبدا في حلب ، وأما باسيلوس المطران السرياني فقد هرب الى (سميساط) ولكن لم ينج الكثير من الكهنة فبعضهم قتل وبعضهم أسر ، وأما رئيس الكهنة ورأس الفتنة والفوضى ومخرب الكنيسة وهو (عبدون) فقد القي القبض عليه في تلك الليلة المشؤومة خارج بوابة المدينة ، فسقط في الخندق لكنه ظن أن المسيحيين سوف ينتشلونه فصاح « من يريد أن يكسب مائة دينار فلينتشلني » وسمعه أحد التركمان فنزل إليه وقتله وأخذ كيس نقوده الذهبية الذي كان معه ، وكل ما كان في حوزته من الأموال ، وأكلت الكلاب جثته وذهبت روحه الى العقاب الأبدى ، وإذا لم يعف الرب عنه فإن مصيره الى جهنم وبئس المصير ، وبدأ جميع الذين نجوا من الأسر والدمار بالتجوال والاستجداء من أقاربهم المستعبدين ، غير أن المسيحيين الذين كانوا في الشرق والغرب وخصوصا الذين سكنوا ماردين وشبختان وفي (سبابرق) كانوا كرماء ورحماء نسأل الرب أن يرحمهم ، ونذكر بينهم الفضائل التي يعجز عن وصفها اللسان التي امتاز بها يوحنا أسقف ماردين وهو من أهل الرها ، نسأل الرب أن يعلي اسمه ويكتب عاليا في بيت المقدس ، أما في غربي الفرات فكانت الرحمة معدومة بين المسيحيين ولم يظهر منهم سوى الشر والقسوة وعناد الراس والعقول المتحجرة ، خصوصا عند الكهنة والرهبان والأساقفة.

(الحملة الثانية)

وفي عام ١٤٥٨ (التاريخ الصحيح ١١٤٨ م) بعد سقوط الرها للمرة الثانية اجتمع ملك الألمان وملك فرنسا على رأس جيش قوامه ثلاثمائة وخمسة وتسعون ألف مقاتل ، ووصلوا الى القسطنطينية عاصمة الاغريق عن طريق البحر ، وغرر الامبراطور بهم وارسل معهم ادلاء قادوهم الى الصحراء حيث لاماء ولا طعام ، وبعد ان تقدموا مسيرة عشرة ايام عن القسطنطينية نفذ منهم طعامهم ، ولم يجدوا بيوتا او قرى يستطيعون ان يشتروا منها أي شيء ، وحتى الماء نفذ منهم ، فهاموا في صحراء جافة مجربة ، ولم يعلموا ماذا يفعلون ، فقد هجرهم مرشداهم ليلا واخطروا تركمان كبذوكية ، فخرج الامير مسعود مع جيشه ، فوجدهم في الصحراء منهوكي القوى من الجوع والعطش ، ونجا الملكان ومعهما قليل من الجند ، ووصلا الى البحر ، ثم تقدما حتى انطالية وذهبا بالسفن الى انطاكية بعد ان خسروا كل شيء ، اما التركمان فقد غنموا غنائم لا تعد ولا تحصى من الذهب والفضة التي كانت بين ايديهم كالحصى ، وفي اواخر العام وصل الى عكا امير آخر يدعى الفونسو (الفندش) ومعه زوجته وعائلته وتبعه الف من الخيالة وكان من اقرباء كونت طرابلس الذي كان يخشى ان يطالبه هذا بحصاة ارضه واملاكه ، لذلك دس له السم الزعاف مع واحد من افراد بيته الذي ناوله اياه فمات .

وكان بلدوين على عرش القدس آنذاك ، وقد قابله ملك الألمان وملك الفرنجة في بيت المقدس ، واتفقوا جميعا على مهاجمة دمشق ، والقاء الحصار عليها ، وعندما احاطوا بالمدينة ، شددوا الهجوم عليها وخصوصا الألمان ، وارادت الحامية ان تستسلم بعد ان شعرت بالضيق والخطر ، ولكن الحسد والغيرة التي امتاز بهما الفرنجة سببت اخفاق الحصار ونجاة المدينة ، فقد بدا ملك بيت

المقدس يفكر بنفسه أن الفرنجة الغرباء إذا استولوا على المدينة فانهم سوف يصبحون أقوياء ، وربما أخذوا بلاده منه ، ولذلك أرسل رسالة الى رجال الحامية يسألهم كم يعطونه إذا جعل الملوك الغرباء يرتحلون عن المدينة؟ وسبب هذا العرض السرور لدى جند الحامية ، فوعدوا باعطاء ملك القدس مئة ألف دينار ذهبية ، فنصح الملكين أن يحولا معسكريهما ، وهكذا انتقلا من موقع حصين الى موقع غير مناسب ، وعندما رأى الملكان أن ملك القدس غير مخلص غضبا ، وتركوا دمشق وذهبوا عائدين الى عكا ، واستلم ملك القدس مئة ألف دينار ، لكنه وجد بعد وقت قصير أنها كانت من النحاس الأصفر وليس ذهبيا ، هذا وقفل الملكان راجعين الى بلادهما بحرا ، وعندما سمع (عين الدولة) بن غازي بن دانشمند صاحب ملاطية بما حل بجوسلين في الرها ، وتأكد أن بلدوين صاحب كيسوم قد مات ، وبما أنه هو الذي كان يحكم أراضي زوبر ومنطقة التلال حتى حدود ملاطية ، فقد جمع جيشا وهاجم به الأديرة في (زوبر) ، وكانت أرمينية ، وهي دير روبر الكبير وتاجنكار وشمانج وشيكار ، فاستولى عليها جميعا مع القرى والأديرة التي كانت حولها في مدة ثلاثة أيام ، وكانت هذه الأديرة قوية وغنية ، ومليئة بالمحاصيل الزراعية ولم يفتحها أي عدو منذ زمن طويل ، وقد استباح السكان ، وجعلهم عبيدا ، وعددهم سبعة آلاف وأربعمائة نسمة ونهبهم ، وقد كان جنوده مشدوهين لما رأوه من الثروات ، فأصحاب هذه الثروات لم يساعدوا الفقراء ولا المحتاجين ، وبعد أن نهبهم استعبدتهم وأشعل النار في المباني وأراق الخمسور وأتلف الزبيب والتين والجوز واللوز والأعلاف والأطعمة ، وكانت بكميات لا تحصى ، وأحرق كثيرا من الكتب من جميع الأنواع ، وفي تلك الأثناء استولى التركمان على قلعة تدعى تل ادنا أو أجنجاتل (تل أعذي) وهي فوق سميساط فقتل رجالها واستعبد عددا كبيرا من نساءها وأطفالها ، ثم دمر القلعة بالنار وايضا قلعة أخرى تدعى سروج في أرض (تل باشر) ، وقتل الرجال واستعبد النساء والأطفال واستولى أبناء داود الأرمني على تل ارسينوس على نهر (١١٥) يسمى بذلك الاسم ، وهو أحد روافد

الفرات ، وبعد موت الوالد تفاهم الأبناء ، فالأبناء الأقوياء استولوا على ذلك المكان بالقوة واستعبدوا خمسة آلاف سرياني مسيحي ونهبوا كل شيء ورحلوا ، ونهب جوسلين دير القديس بارصوما .

وفي عام ١٤٦١ (التاريخ الصحيح نهاية عام ١١٤٨ م) جمع نور الدين جيوشه وحاصر يغرى (١١٦) وهي جوار أنطاكية وكان صاحبها في (جبلة) على البحر ، وعندما سمع الخبر سار بجيشه وضرب التركمان فجأة وقهرهم ، وهرب نور الدين ومعه خمسمائة فارس إلى حلب ، وقتل حوالي عشرة آلاف ، واستولى الفرنجة على معسكر نور الدين والذهب والفضة والعبيد الذكور والاناث والطبول والأبواق والجواري المغنيات والموسيقيين ، واستولى الفرنجة على كل هذا ورجعوا إلى أنطاكية مسرورين ، وعندما خرج سكان أنطاكية لاستقبالهم حدث ما لا يمكن وصفه من الابتهاج بين جميع المسيحيين ، وكان مع الفرنجة سيد من أسياذ العرب يدعى علي بن وفاء الذي كان يحقد على نور الدين ويخدم في أنطاكية .

وبعد ثلاثة أشهر من هذه الهزيمة جمع نور الدين جيشه وحاصر إنب ، وعندما علم بيتابين صاحب أنطاكية بذلك جمع جيشه واستعد لحربه ، ولدى سماع نور الدين بمجيء الفرنجة ترك القلعة وانسحب إلى التلال ومعسكر الفرنجة في السهل حوالي إنب ، وقد أخبر الكشافه نور الدين أن عدد الفرنجة صغير ، فاستعد للقتال ونفذت الأبواق ، وانحدر جيشه وأطبق على الفرنجة وكان الرب غاضبا على الفرنجة ، ولذلك هزموا وهربوا ، وقد قتل غودفري صاحب مرعش وعلي بن وفاء ، وأخذ نور الدين كثيرا من العبيد ، وأنزل أضرارا جسيمة بأراضي الدوق (جوسلين) واستولى أيضا على حارم وعم وارتاح ، وجميع القرى حول حارم ، وقد قتل حاكم أنطاكية ، وكان انكسار الفرنجة هزيمة منكرة ، فقد أخذ التركمان عبيدا وأسرى وخبولا وبضائع لا تقدر بثمن ، وكان جوسلين صاحب الرها في أعزاز عندما علم بمقتل حاكم أنطاكية ، وهكذا جمع بعض الرجال من هناك ، وذهب إلى أنطاكية ليحكمها ، وعندما وصل إلى قورس

واستعد للعبور إلى شيخ (١١٧) (الدير) ، هناك انقض عليه بعض التركمان وقبضوا عليه بعد أن كانوا مختبئين بين الأشجار ، فوعدهم أن يعطيهم كل ما يريدونه إذا أوصلوه إلى أعزاز ، لكنهم أخذوه إلى قرية تدعى شيخ الدير ، ولم يكن التركمان يعرفونه لكن المسيحيين عرفوه وأرادوا أن يشتروه من التركمان ، فاتفقوا أن يكون الثمن ستين ديناراً ، عندها حدث بمشيئة الرب الذي لا اعتراض على حكمه فهو يفعل بما يريد ، أن مر يهودي صانع بالقرية ، وعرفه فأخبر التركمان أنه جوسلين ، وهكذا أخذوه إلى حلب فأمر نور الدين بسمل عينيه وزمّاه في السجن مقيداً بالسلاسل والأغلال ، وقد بقي تسع سنوات في السجن ثم مات هناك (١١٨) .

وفي عام ١٤٦٣ (التاريخ الصحيح ١١٥٣ م) استعد بلدوين ملك بيت المقدس وحاصر عسقلان ، وكان أحد رجال الفرنجة البارزين قد أبلى بلاء حسناً في حصار عسقلان ، واسمه ريمون (١١٩) وقد طلب هذا من ملك بيت المقدس أن يزوجه أرملة صاحب أنطاكية المقتول ، فوافق الملك على ذلك وأذن له بالذهاب إلى أنطاكية لاتخاذ سيدتها زوجة له وليصبح حاكماً للمدينة ، وغادر هذا متوجهاً إلى أنطاكية وبلدوين ما يزال يحاصر عسقلان وشدد الفرنجة الحصار ، وبنوا برجاً من الخشب كان أعلى من سور المدينة ، ووضعوا جنوداً على البرج ، وآلة لرمي الحجارة والسهام على المدينة مباشرة ، فأصبح كل من يخرج من بيته أو يأتي إلى الشارع معرضاً للقتل ، وهكذا شعر أهالي المدينة بالكرب من الجوع والقتال ، وكان الحصار طويلاً ، ولما راوا ألا منفذ لهم ، لأن حكام مصر كانوا يحاربون بعضهم بعضاً كما سنذكر ، ولم يكن هناك أي أمل بالمساعدة من أي جهة أخرى ، طلب أهالي المدينة أن تحفظ أرواحهم ، فنزل الأعيان منهم وقابلوا الملك والبطريرك اللذان أعطياهما وعداً معزّزاً بالقسم ، وهكذا استسلمت المدينة وخير الناس من أراد أن يبقى في المدينة تحت حكم الفرنجة سمح له بذلك ، وأما الذين رغبوا بالذهاب إلى مصر فأخذوا أسرهم وأموالهم ورحلوا بسلام .

وحدث في تلك السنة زلزال هدم مدينة (شيزر) بكاملها ، وقد هلك حاكمها وأولاده وأهل بيته ، وأربعون ألفاً من الرجال الآخرين ، وسقط نصف الصخرة التي بنيت عليها القلعة وقتل كثيرون في حماء والسلمية وفي معظم القرى المجاورة ، وحدث أيضاً أن استولى نور الدين على حران وانتزعها من أخيه (ميرمران) وكذلك على بيت هسنا (بهسنا) بعد حصارها واستولى التركمان على دير البارد وقتلوا أربعة من الرهبان ، واستولى نور الدين على عين تاب أيضاً عنوة ، ودمرها كلياً ، ولم يظهر أي رحمة ولاشفقة وأخذ الأسرى والغنائم إلى حلب .

وفي عام ١٤٧٠ (التاريخ الحقيقي ١١٥٧ م) أتى إلى بيت المقدس رجل شهير ينتمي إلى ملوك الفرنجة ويدعى كونت فلاندرز ، ومعه عدد كبير من الجند ، وكون جيشاً عظيماً بعد أن جمع معه ملك القدس وكونت طرابلس وطوروس الأرمني صاحب كيليكية ، وحاصر شيزر واستعبدوا كل من فيها واستولوا على الحصن ، ونهبوها كلياً ، وقتلوا الكثيرين ، وأخذوا حوالي خمسة آلاف امرأة وطفل عبيداً لهم ، وأخذوا كميات من الذهب والفضة لانهاية لها ، ثم زحفوا إلى حارم التي استسلمت لأن المسلمين فيها قد ذهبوا إلى حلب ، وفي نهاية العام أتى مانويل امبراطور القسطنطينية إلى أنطاكية وعسكر على ضفاف نهر (عفرين) ، وتظاهر أنه يريد حلب وهكذا جمع نور الدين الفرق الإسلامية من أقور ومسابين النهرين وأمد وماردين وميافارقين ليحارب الامبراطور ، وذلك لأن المسلمين كانوا شديداً الخوف من الامبراطور ، ولكن الامبراطور سمع أن أندرونيكوس الذي كان واحداً من النبلاء قد ثار ضده في العاصمة ، لهذا بادر إلى عقد هدنة مع نور الدين ، وافق بها نور الدين على إخلاء سبيل الأسرى الذين في حلب بما فيهم ابن الفونسو الذي دس له كونت طرابلس السم ، ورجع الامبراطور إلى عاصمته ، ولم يحقق أي عمل ، أو أي انتصار في هذه الحملة .

وفي تلك السنة حدث زلزال هدم مدينة (جبلة) على الساحل ،

وتسبب في قتل حوالي الفين من الناس ، وفي تلك السنة غزا أراضي حلب ونهبها رينالد صاحب انطاكية وجوسلين وهو ابن جوسلين الذي أسر في حارم ، وبعد أن عاثا في الأرض فسادا وأسرا وقتلا من شاءا ، رجعا إلى أماكنهما دون أن يحدث لهما أي ضرر ، وذهب رينالد إلى أنطاكية ، بينما بقي جوسلين في إحدى القرى يأكل ويشرب ، وإذا بجيش التركمان يداهم ويلقي القبض عليه ويأخذه إلى حلب حيث وضع وهو مقيد بالسلاسل والأغلال مع والده ، وفي تلك السنة عاد رينالد لنهب وسلب أراضي حلب ، لكن في طريق عودته داهمه جيش تركماني وكسر جنوده عند النهر الأسود ، وأخذه أسيرا وقيد بالسلاسل ، وفي تلك السنة أصبح أحد أبناء بيتابين (١٢٠) حاكما على أنطاكية ، فطرد والدته التي ذهبت إلى اللانقية .

وحشد في عام ١٤٧٥ (١١٦٤ م) نور الدين جيوشه ، وجلب أخاه قطب الدين حاكم أقور والموصل وزين الدين حاكم إربيل ، وحاكم سنجار ، وزين الدين صاحب حصن كيفا وأرض هنزيط وحسام الدين صاحب ماردين وشهاب الدين صاحب زندان والبيرة ، وابن عمه مجد الدين وسيف الدين صاحب منبج والرها ، وعندما تجمع كل هؤلاء حاصروا حارم ، وقد بلغ عددهم سبعون ألف فارس وأربعون ألف راجل ، ووضعوا آلات الحصار وقاموا بهجوم ضار على الحصن الذي كان يحكمه رينالد (١٢١) وكان محاربا ، وقد قاوم هذا بعنف وشجاعة وجمع الفرنجة ستمائة خيال وخمسة آلاف راجل تحت قيادة كونت طرابلس وصاحب انطاكية وطوروس الأرمني ، وزحفوا جميعا من أنطاكية إلى حارم ، وعندما سمع التركمان خبر قدوم الفرنجة وتقدمهم نحوهم انتقلوا إلى قرية تدعى عم ، ووصل الفرنجة وعسكروا في المكان الذي كان التركمان يعسكرون به ونصحهم طوروس صاحب كيليكية وقال إنه مادام أنهم قد نجحوا في رفع الحصار عن الحصن ، يجب عليهم أن يسحبوا الجنود الضعاف من الحصن ويضعوا مكانهم جنودا أقوياء شجعانا ويرجعوا إلى أنطاكية وينتظروا رجوع ملك القدس من مصر ، ولكن

- ٢٠٢٨ -

كونت طرابلس لم يوافق على هذه النصيحة وأصر على القتال ، وقهر التركمان لأنهم جميعاً كلاب حسب رأيه ، وهكذا زحف الفرنجة من حارم إلى عم ، وعندما اقتربوا رأى التركمان الذين كانوا على التل أنهم قليلي العدد ، ونفخوا الأبواق وانحدروا نحوهم وهاجموهم ، واحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم وضربوهم ضربة قاضية ، وهرب كونت طوروس الأرمني ، وأسر دوق الاغريق ، وقتل جميع الرجال ، وأسر صاحب انطاكية ومعه كثير من الفرسان ، وهلك الكثيرون معهم خيولهم ومؤنهم بأعداد كبيرة كل ذلك في أب من تلك السنة ، وبعد أن هزم الفرنجة حاصر التركمان حارم التي استسلمت ، ثم غزوا أراضي الدوق وأخذوا الأسرى ثم ذهبوا إلى دير القديس سمعان وهو دير اغريقي مشهور ونهبوه وأخذوا منه الذهب والفضة والأموال وكل الأشياء الثمينة ، والكتب وصحن الخبز المقدس (صحن الجسر) وكؤوس القربان والعشاء الرباني والصلبان والمباخر وتمائيل من الذهب والفضة وملابس الكهنة الرسمية الثمينة ، ونهبوا الرهبان وأخذوهم جميعاً أسرى إلى حلب وقد قتل أكثر من عشرة آلاف افرنجي عند الهزيمة التي حلت بهم في حارم وعدد أكثر منهم من التركمان وبعد هذا زحف التركمان إلى بانياس التي استسلمت كما استسلم صاحبها (١٢٢) ، وأما ملك القدس فكان في مصر (١٢٣) .

روايات المؤرخ
ميخائيل السوري الكبير

« زحف الفرنجة إلى بلاد المشرق »

لما استولى الترك على بلاد فلسطين وسورية أخذوا يفحشون في تعذيب النصارى القاصدين الحج إلى بيت المقدس ، ويتقاضون منهم المال عند دخولهم المدينة وزيارتهم جبل الجلجلة وضريح السيد المسيح ، ويبالغون في التضيق خصوصا على الزوار الوافدين من روميه وإيطاليا إلى بيت المقدس ، ويوقعون بأقوام منهم ظلما وعدوانا فتحمس ملوك الفرنج واقتابهم فحشدوا جيوشا كثيفة وخرجوا من رومية وانضم اليهم في الطريق الأمراء والقواد والعساكر من القواد والعساكر من جميع أنحاء أوربا يريدون استنقاذ البيت المقدس من أيدي المسلمين ، وكان خروجهم من بلادهم ١٠٩٧ م وهي السنة الثانية والخمسين لظهور الترك (٤٩١ هجرية) وكان الكسوس يومئذ ملكا على القسطنطينية .

وكان يضم جيش الأفرنج الوفا وربوات من العساكر والجنود والضباط والصناع واستصحبوا طائفة من الأساقفة ولقيفا من الأكليروس والرهبان وعلى رأسهم ملكان وسبعة قمامصة أما الملكان فهما بوهوموندو وطرکید ، وأما القمامصة فهم روجر وبيموند وبلدوين وجوسلين وغالارن وغودفري وصنجيل فساروا إلى إسبانيا أولا وملكوها ، ثم توجهوا برا وبحرا إلى القسطنطينية ، فوصلوا إلى الخليج حيث يجتمع البحران ، وأرسلوا وفدا إلى الكسوس لينضم إليهم ، وليوصي أهالي مدن مملكته ليجهزوا المؤن للعساكر والخيال فوعدهم بذلك ، لكنه مالبث أن خلف بوعدة ، فاتصل بالأمراء الترك في نيقية وغيرها ليرسلوا عساكرهم ويقبضوا الأفرنج فاحتشدوا للحال وساروا بحشدهم وجموعهم وانقضوا عليهم في سواحل البحر ، وأعملوا فيهم السيوف قتلا ونحرا حتى أبادوهم برمتهم ، فانهزم الباقون إلى القسطنطينية وحاصروها سبع سنوات (١) ثم تحالف الأفرنج مع ملك الروم ووزرائه فخرجوا معا

- ٢٠٣٠ -

من ناحية غلاطية ، ووصلوا إلى نيقية فحاصروها واحتلوها وملكوا عليها الكسوس ، ولما ارتحلوا إلى قليقية ارتجت لهم الأرض وهلعت منهم القلوب وبات الملوك جميعا يحسبون لهم ألف حساب ، ثم توجهوا إلى أنطاكية لأنها مفتاح بلاد سورية ، وخيموا في ضواحيها وأخذوا يغيرون على الغادين والرائحين ، وقطعوا المؤونة عن البلد وعاثوا في الحقول والضياع والمزارع المحيطة بها فسادا وخرابا ، وقد بقي الأفرنج يحاصرون أنطاكية تسعة أشهر .

في ذلك الزمان عندما كان الأفرنج يحاصرون أنطاكية حدث فيها زلزال عظيم فقوض كثيرا من الأبنية الفخمة ، وقد ظهر في أساس أحد أبراجها المتهدمة بيت قديم يشتمل على أشخاص من نحاس شتى بأشكال فرنجية تمثل رجالا ممتطين الخيل مدججين بالرمح والسيوف النحاسية ، متدرعين بأصناف الأسلحة فأمر يفسيان التركي أن يبحثوا عن أصلها وفصلها فلم يهتد أحد إلى حقيقتها ، بل غلب على ظنهم أنها أصنام وثنية فأمر الوالي بتكسيرها وتحطيمها ، واتفق أن عجوزا عمياء أذاعت آنذاك أنها سمعت الكهان يقولون إن في أسفل ذلك البرج طاسمات لتمنع أمم الفرنج من الخروج ومن عبور البحر ، فلما سمع يفسيان الوالي قول تلك العجوز ندم لأنه حطم تلك التماثيل ، وسألها هل سمعت كيف يمكن أن ترمم فأجابت : لا ، فأمر بضربها وقتلها .

أما الأفرنج فبعد أن خرجوا من البحر إلى الساحل عقدوا مجمعا وعاهدوا الله تعالى أنه إن أتاح لهم الاستيلاء على بيت المقدس فإنهم سوف يعاملون بالحسنى جميع النصاري من أي مذهب كانوا ، وأنهم سوف يهبون لكل طائفة تؤمن بالمسيح كنائس وأديرة .

« استسلام الرها للفرنجة »

لما سمع الرهاويون بقدوم الفرنج إلى بلاد المشرق ووصولهم إلى انطاكية طلبوا من الوالي ثاودوس بن هاتم أن يكاتبهم ويستحثهم القدوم إلى الرها ليحميهم من هجمات الترك أعدائهم ، فرفض ذلك في بادئ الأمر وأخذ يثنيهم عن ذلك ، لكنه تخوف أن يتصلوا بالفرنجة سرا ، فأرسل إلى الدوق غودفري رئيس القواد وفدا حمله كتابا يطلب فيه أن يرسل جيشا ليتسلم منه ولايته ، ولما أطلع الفرنج على ذلك الكتاب ابتهجوا ابتهاجا عظيما واستبشروا خيرا ، وقالوا : كما أن الرها سبقت أورشليم في الإيمان بالسيد المسيح هكذا شاء الله تعالى أن تدخل قبلها في حوزتنا ، فبعث غودفري بأخيه بلدوين وسيره في شرنمة من الجنود ، فخرج الأهالي لاستقباله مرحبين وأدخلوه المدينة وملكوه عليهم مسرورين .

وما أن استلم بلدوين مقاليد الأمور في الرها حتى بدأ الأهالي يتعرضون لثاودوس الوالي لحقدهم عليه ، ثم مالبثوا أن ثاروا عليه فهرب إلى الحصن الذي كان قد سلف له أن يبناه فوق باب المدينة الشرقي فأحاطوا به وتسلقوا الحصن وقبضوا عليه وخلعوا عنه ثيابه سوى ما يستر عورته ، ثم دلوه من أعلى السور على هذه الحالة فانقض عليه الأهالي وفتكوا به ، ثم صادر بلدوين أمواله وسيطر على الحصنين ، ووضع فيهما حامية .

« الاستيلاء على أنطاكية »

عم الفرخ بين الفرنج بعد الاستيلاء على الرها ، وقد شد عزائمهم هذا المكسب فزحفوا إلى أنطاكية ، فاستدعوا روزبه الفارسي ، وأخوين أرمنيين ، وكان هؤلاء الثلاثة يحرسون البرج من ناحية كشكروف وأغراهم بسوهيموند بمال كثير إن سمحوا لهم بالعبور فوق الجسر المبنى على قضبان حديدية ، وهكذا كان فاقبل الأفرنج ليلا وعبروا المضيق وتسلق بعضهم بالحبال إلى أعلى السور ، والتف الباقون حوله وقبل بزوغ الفجر شرع الأفرنج ينفخون في الأبواق فاستفاق يفسيان الوالي مذعورا معتقدا أن الأفرنج قد استولوا على القلعة ، فهرب من الباب الأعلى للحصن في ناحية الجبل الشرقية الجنوبية ، وسار باتجاه حلب بصحبة ثلاثة رجال ، لكنه سرعان ما اكتشف أن الفرنج لم يستولوا على القلعة بعد ، فحزن حزنا شديدا وأخذ يعرض أنامله ندما ويقول : والهفي كيف تركت بلدي وأهلي وأولادي وأموالي وخرجت وحيدا متشردا ، وكان طوال الطريق يلتفت نحو أنطاكية وينوح عليها إلى أن سقط عن حصانه ، فأركبه أصحابه ، فسقط ثانية فأركبوه ثالثة فتركوه وحده ، فمر به رجل أرمني كان يقطع خطبا في الجبل فقطع رأسه وأخذه إلى الفرنج .

بعد ذلك دخل الفرنج أنطاكية دون اكتراث بالسكك التركي المتبقي في القلعة وبقي الأتراك داخل القلعة ثلاثة عشر يوما ، أجهدهم فيها الجوع الذي كان يفتك بهم وبدوابهم حتى أكلوا لحم خيولهم ، واشتدت المجاعة حتى بلغ ثمن رأس الحمير عشرين دينارا تقريبا .

في هذا الوقت أقبل كربوقا التركي في مائة ألف فارس من أطراف بغداد والموصل ، فمر بالرها واستباح ضواحيها قتلا ونهباً واستأنف

- ٢٠٣٣ -

المسير إلى حلب فبلغه أن الفرنج قد احتلوا أنطاكية فغضب غضبا شديدا وعجل لاستردادها ، وكان العسكر التركي الذي في القلعة مازال محاصرا يقاوم الفرنج ليل نهار ، فوصل كربسوقا مع جيشه وخيموا عند بغراس حيث كان معسكر الفرنج قبل دخولهم البلد ، فأصاب الفرنج بأس شديد ، وأخذوا يقيمون الصلوات ويثابرون على الصوم ، ويتضرعون إلى الله ليساعدهم على الغلبة ، في ذلك الوقت رأى طنكريد رؤيا فحفروا في أحد أمكنة بيعة القسسيان وعثروا على مسامير صليب المسيح ، فسكبوا منها صليبيا وسنانا لواحد من رماحهم ، وخرجوا لقتال الترك وأعملوا فيهم السيف وملأوا الأرض من جثث القتلى ، ودحروا من بقي إلى مابين النهرين (الجزيرة) حدث ذلك في ٣ حزيران عام ١٠٩٨ م وتولى انطاكية بوهيموند وابن اخته طنكريد .

ثم أتى الأفرنج إلى المعرة وسروج وكانتا لبني عطير .

استيلاء الفرنج على بقية سورية وبيت المقدس

كان المصريون قد صعدوا واخذوا بيت المقدس من الترك قبل خروج الافرنج ، فتوجه الافرنج اولا الى يافا ، واخذوها بالسيف ، ثم توجهوا الى بيت المقدس ، وكان بها والي الافضل المصري فاقاموا برجين احدهما عند باب صهيون في الناحية الجنوبية وثانيهما عند مار اسطفانس في الجهة الشرقية ، فبادر المسلمون والقوا النيران في برج باب صهيون فاندلعت وانتشرت ، لكن ما ان انتهى الحريق حتى وقعت في البلد صيحة عظيمة ان الفرنج قد اقتحموا المدينة ودخلوها من الناحية الشرقية .

وقد استطاع الفرنج ان يدخلوا بيت المقدس في تموز سنة خروجهم (١٠٩٩ م) وقد اعملوا السيف في العسكر والاهالي واوغلوا في سفك الدماء اسبوعا كاملا ، حتى بلغ عدد القتلى ثلاثين الفا ، وقتلوا في المسجد الأقصى نيفا وسبعين الفا ، وامتلات شوارع المدينة من جثث القتلى فكوموها واحرقوها .

وكان اول ملك افرنجي بها هو غودفري وقد ملك سنتين ثم ملك بعده بلدوين مدة سبع سنوات .

ولما انتهت تلك المعركة الدموية ، اخذت امور الفرنج تقوى وتتحسن ، وتمت لهم الغلبة فتوجوا الدوق غودفروي ملكا على القدس ، ثم جالوا في اطراف فلسطين واحتلوا ضياعا وحصونا ومدنا شتى ، وساروا الى حبرون ، وابتنوا فيها كنيسة ضخمة ، واوحى الى بعضهم وهم قانتون صائمون عن مفارقة الالباء حيث اضرحه ابراهيم واسحق ويعقوب فابتنوها على اجمل طراز .

ولما تمكن الفرنج في بيت المقدس وصلحت احوالهم اخرجوا الروم من الكنائس الكبرى ، وابعدوا اساقفتهم واقاموا من شعبيهم

- ٢٠٣٥ -

بطريكين احدهما لأور شليم والثاني لانطاكية ، فنصب البطريرك
الانطاكي اساقفه لطرسوس والمصيصة والرها ودلوك وافاميا
وطرابلس واللائقية وجبله وقوروس ومرعش وحارم ، ونصب
بطريك اورشليم اساقفه لبيت لحم وحبرون والسامرة ويافا
والناصره وقيساريه وصيدا وبيروت ، وكان جملة الاساقفة الفرنج
عشرون اسقفا ، ولما استولوا على صور رسموا لها ايضا
اسقفا . على ان مدينتي صور وعسقلان بقيتا في حوزة المصريين
زمننا .

معارك صنجيل مع الطرابلسيين والدمشقيين والحماصنة

في عام ١١٠٣ استولى صنجيل (القائد الفرنسي) على طرطوس فبلغ الترك ان عسكره قليلون ، فوجهوا اليه من طرابلس ودمشق وحمص جيوشا ضخمة ، والتقى الجيشان الفرنجي والتركي . فانكسر الجيش التركي وهرب جنوده وقد سقط منهم كثير من القتلى .

فتوجه صنجيل الى طرابلس واستطاع احتلالها بعد حصار طويل ، فنظم احوالها ثم ولى عليها اولاده وعاد الى بلاده حاملا الحربة التي استخرجها الفرنج في انطاكية - كما ذكرنا من قبل - وعند وصوله الى القسطنطينية التمس الكسوس الملك منه ان يعيره اياها لكي يتبرك منها ، فأعطاه اياها صنجيل ، لكن الكسوس صاغ من تلك الليلة حربته مثلها وارسلها الى صنجيل واحتفظ بالحربة الحقيقية ، وهذه الحربة هي التي طعن بها اليهود في طبرية يقونة السيد المسيح تهكما وسخرية فسال منها الحال دم وماء .

احتلال الاتراك ملطية

كان الروم قد وضعوا جبرائيل الرومي (الملكي) على ملطية ، وكان الامير دانشمند صاحب كبدوكيا التركي يضايقه ويقلقه ويفزو بلاده اثناء الصيف وينقلب الى حاضرتة ، فعول جبرائيل على التملص من مساوئه وعدوانه ، فكتب الى بوهيموند صاحب انطاكية يستقدمه ليسلمه البلد ، واقسم له على الوفاء بذلك ثلاثا ، مصرحا له بأنه يروم بكل خاطره ان يزوجه ابنته كيرا مورفيا ويوليه على ملطية بدلا من جهازها ، فوثق بوهيموند بكلامه وسار اليه في جيش جرار ، بيد ان ولاية الارمن مثل باسيل صاحب كيسوم وابناء روبين واصحاب ارمينيا تخوفوا من الفرنج متوهمين انهم اذا اخذوا بلادهم اخرجوهم عنها ، فارسلوا الى اسماعيل بن دانشمند سرا ليكمن لهم ويمنعهم من الدخول ، ولما اقترب بوهيموند من ملطية وخيم في قرية جفنة اوفد الى جبرائيل يطالبه بانجاز وعده ، فراح يؤجله من يوم الى يوم حتى وصل ابن دانشمند في عسكره وكمن لبوهيموند حتى تمكن منه ، واوثقه واوفده مكبلا الى سبسطية ، وتوجه هو الى ملطية وشدد عليها الحصار ، فسار وجهاء البلد الى السيد يوحنا سعيد صابوني اسقف المدينة يتوسلون اليه ليشير على جبرائيل الوالي ان يسلم المدينة صلحا ، مع ان المطران المشمار اليه كان فيما سلف يشجعهم ويبعث في قلوبهم النخوة ليقاتلوا الترك ، بيد ان جبرائيل ابي الا التصلب في رايه واستشاط سخطا على المطران وطعنه بيده ، فغاصت روحه حالا ، وعمد الى طائفه من وجهاء المدينة المسيحيين ، فقتلهم ظانا ان فعلته هذه سوف تمكنه من التشبث في بلدته ، لكنه مالبث ان هجم عليه قائدان قويان اتفقا مع الترك ، فسلموها البلدة يوم الاربعاء في ١٨ ايلول ١٤١٣ يونانيه (١١٠٢) فسادقوا على ملطية التعيسة ، واخذوا اموالها لكنهم ابقوا على سكانها واعادوهم الى بيوتهم .

- ٢٠٣٨ -

بعد هذا اوفد ابن داندشمند فاستحضر من بلاده الذخائر والمؤن والغنم والبقر ، واجزل الخيرات للاهالي ووطنهم وولى عليهم باسيل التقي الورع .

بعد ذلك اقتصت العدالة من جبرائيل فصار يعذبه الترك بقساوة كذلك قام كثير من المسيحيين ، واخذوا ينتقمون منه فضربوه وعذبوه واخذوا يذكروه بقتل المطران القديس والرؤساء المظلومين ، وبقيّة الفظائع التي كان يقتربها وبعد ان اشبعوه احتقارا وسقوه مرا اخذوه الى قلعة متمرّدة مقطوعة كانت امراته فيها ، فأمره الترك ان يقول لامراته ان تسلّم القلعة فحاول القيام بحيلة شيطانية ليضلّهم فقال لها لك علامة ان ارسلت الفتى ميداس ، فاعطيهم القلعة ، لكن هذا الاسم في اللغة الارمنية يعني لاتعطي ، فلما عرف الترك انه يخدعهم قتلوه ورموه للكلاب فأكلته الكلاب .

اما الداندشمند فقد امر بإحضار الملك بوهموند من سبسطية عام (١١٠٣) وقبض منه في ملطية مائة الف دينار ، وارسله الى انطاكية فولى عليها ابن اخته ، اما هو فرجع الى بلاده وهناك انجب ابنا دعاه باسمه ، وقد خرج هذا بعد زمان قليل وتملك على انطاكية .

مجموع ل احداث ١٤١٢ - ١٤٢٥
يونانية ١١٠١ - ١١١٢ م

فيما مضى كان يملك في خراسان الترك اما في بلاد اثور والجزيرة ومابين النهرين فكان الترك مخبطين مع العرب الذين رجعوا وضيظوا هذه الاماكن .

اما في مصر فكان العرب المسيطرون ، لكن لما اندلعت الحرب في خراسان كانت هذه الحرب بين الاتراك ولذلك قويت شوكة العرب . وفي سنة ١٤١٢ يونانية خرج ابن ملاعب العربي من حمص واخذ اوفيمية (افاميا) .

وفي تلك السنة ملك على دمشق دُقاق الغُزّي وملك على حلب
رضوان بن الملك الغُزّي .

وفي سنة ١٤٢٠ اخذ عمر بن سالم العربي سوكره وصابوره واشتعلت الحروب بين الترك والعرب .

اما الترك الذين في كبدوكية والبيتونية فلم يكن بينهم احد من العرب لانه كان قد انطفأ كليا حكم العرب من هذه المناطق بسبب قتالهم مع اليونانيين ومع بعضهم بعضا .

ومات بسبب سيطرة داذشمند بعدما ملك ملطية لمدة عامين ، فأقبل بعد ذلك السلطان قلع ارسلان الى ملطية وكان بها يغسيان بن داذشمند ، فنزل عليها في ٢٨ حزيران وحاربها حربا شرسا واءاقاموا المنجنقيات على البرج المجوف الواقع في الناحية الغربية من شرقي المدينة ، ولما علم الذي كان بها انه قد دنت ان تؤخذ طلب الامان وسلمها ، وتملكها قلع ارسلان ودخل ملطية في ٢ ايلول سنة ١٤١٧ يونانية .

- ٢٠٤٠ -

في هذا الزمان وقع انشقاق بين الترك والعرب الذين في اثور ، لان سلطان خراسان غياث الدنيا ارسل رجلا اسمه ابو منصور جاولي لمجابهة الاقرنج ، ولما وصل لبغداد توجه الى الموصل وكان بها في ذلك الزمان جكرميش ، لكن هذا لما سمع بزحف جاولي نحوه حصن المدنية وجهاز عساكره للحرب ، واشتبك مع جاولي وانتصر عليه واعتقله وادخله الموصل موثقا لكن بعد ايام يسيره مات جكرميش فخرج جاولي وجمع عسكرا في بلاد صابورا ليعود الى المكان نفسه لان اهل الموصل اقاموا عليهم ابن جكرميش رئيسا ، لانهم خافوا ان لا يستطيعوا الوقوف في وجه جاولي ، ولما سمعوا ان قلع ارسلان قد استقر بملطية ارسلوا يطلبون منه النجدة ويعطوه بالمقابل الموصل ولما سمع جاء وقطع الفرات ، وكان حكام مدائن ما بين النهرين اتراكا من قبيلة ارتق حين سمعوا بمجيء السلطان خافوا وكلهم اتوا لخدمته :

ابن شافك من قلعة زياد وابراهيم من امد والغازي من ماردين ، فلما نظر جاولي هؤلاء لم ينزل الى الموصل .

اما قلع ارسلان فقد دخل الموصل وحكمها ، اما جاولي فقد حكم على الرحبة ولما سمع السلطان اتي بعسكر عظيم وصار الحرب على نهر الخابور لكن وبفعل الاعداء وقع انشقاق بين عساكر السلطان فتركوه وهربوا وبقي يحارب وقام في الحرب ببطولات عظيمة ، اخيرا دخل في النهر ليجتازه لكن بسبب ثقل الحديد الذي يلبسه اختنق في النهر ومات .

وملك جاولي على الموصل وعلى نصيبين واخذ يضطهد اعداءه بقساوة ، وجمع مالا كثيرا ورجع الى خراسان حينئذ غازي عم الذي نزل في ماردين واخذ مدينة نصيبين .

في سنة ١٤١٧ في اول جمعة من صييام الاربعين ظهر كوكب في المغرب وكان ذنبه باتجاه المشرق وبقي من اول المساء حتى آخر الليل

المصاعب التي تزايدت في ملطية بعد موت السلطان

لما أتى خبر موت السلطان قلعج أرسلان أقاموا بملطية ابنه الصغير الذي كان اسمه طغرل أرسلان، وصار مدبره رجل شيخ اسمه برميش وكان هناك رجل آخر اسمه أرسلان، فاتفقت معه أم الصبي أن قتل برميش وتتزوج هو هكذا كان ، لكنه صنع شرورا كثيرة بأهل المدينة فأخذ يجمع الذهب ، ثم أخذ يعتقل الجميع ليمضي إلى بلاد الروم ولما عرفت به المرأة اتفقت مع ابنها وأمسكت بأرسلان ، وحبسته وظن الناس أنه قتل وبعد سنة أخرجه وأرسلته للسلطان، وكان لطغرل أرسلان ثلاثة بنين آخرين كبار هم : عرب ، وملكشاه ، ومسعود ، أما عرب فقد قتله الأمير إلغازي بن دانشمند، وتنصب ملكشاه سلطانا وأمسك أخاه مسعود وحبسه ودخل القسطنطينية عند الكيس الملك ، لكن رئيس عسكر ملكشاه مالبث أن عصى عليه فأخرج مسعود وأتوا لعند الأمير غازي ابن دانشمند ونصبوا مسعود سلطانا ، ولما خرج ملكشاه من القسطنطينية وهو يحمل الذهب صنعوا له كمينا وأمسكوه وقلعوا عيذه ، ولما نظر الأفرنج أن الترك يحاربون بعضهم بعضا اشتد ساعدهم، وأتى بوهيموند وأخذ أبلستين وبلاد جيحان وخضعت له كل بلاد ملطية ، حينئذ اجتمع بالرها جمع عظيم للاحتفال بالانتصار وقد بقوا أياما كثيرة يتخاصمون مع بعضهم بعضا لأجل قسمة المدن ، ولما طالت هذه المشاجرة اجتمع الترك لمهاجمتهم فخرج الأفرنج وهم مختلفون مع بعضهم حول قسمة البلاد ، ولما وصلوا إلى حران خرج أهل حران لاستقبالهم واحضروا لهم المفاتيح لكن بلدوين حاكم الرها لم يأخذها لأن حران كانت حصته ، وقد أنهم إذا دخلوها أولا فسينهبونها ويقتلوا شعبها ، فتركوها وهم مختلفون خصوصا لأنهم لم يدخلوا حران ، فلما التقى بهم الترك حدثت معركة انكسر فيها الأفرنج وأسر الأتراك بلدوين وجوسلين وأخذوهما للموصل، أما تذكرد فقد هرب للرها ووضع بها شرد

رئيسا ، هذا صار في سنة ١٤١٤ على نهر البليخ الخارج من فدان أرام (٢) ، والذي هو اليوم مسجد للعرب ، ويدعونه بيت ابراهيم ويجري ليختلط مع الفرات عند قالينيقوس، أما تذكرد فقد ترك الرها بيد شرد وقد ابتلى هذا الرهاويين بشرور كثيرة ومضى لانتاكية ولم يكن يريد خلاص جوسلين بسبب الفتنة التي صارت بينهم، لكن اناسا من تل باشر تبرعوا ان يجلسوا في السجن رهنا ليخرج جوسلين ويحضر الذهب، غير ان اولئك المسجونين كسروا البيت المحبوسين به وهربوا وخلص جوسلين دون ان يدفع دراهم ، أما بلدوين فقد كان غرضه سبعين الف دينار ، فأخذ جوسلين ثلاثين الف ومضى الى قلعة جعبر وجلس هو رهنا على الباقي ، فأخرج بلدوين ، ولما سمع سلطان الموصل ان جوسلين سلم نفسه ليدخل السجن تعجب وطلب ان يراه لأنه لم يره من قبل وانما سمع عن حسن قامته ، فمضى جوسلين الى الموصل ، ولما راه السلطان حذف من جزية بلدوين عشرة الاف ، فسجد جوسلين ووضع وجهه على الأرض، حينئذ ولأجل هذه السجدة ترك عشرة الاف أخرى أيضا ، ثم أرسلوا وابتهجوا ، وخرج في الصباح السلطان مع عسكره فأمر ان يركب جوسلين فركب وحمل سلاحه ، ولما نظر السلطان حسن جوسلين وقوته تعجب هو وكل الشعب ، فسمح له بكل ماتبقى من غرامة بلدوين ، ولما خرج بلدوين من السجن صعد ليصلي بالقدس ، وحين وصل وجد أنه في يوم الأربعاء الذي يتقدم على عيد الشعانين .

وفي تلك السنة التي هي ١٤٢٨ كان قد وقع بلدوين الملك عن فرسه ، ولما علم انه سيموت أمر ان يصير ملك مكانه بلدوين هذا حاكم الرها الذي هو ابن اخته ، وكان قد وصل فجأة وبدون معرفة بما جرى ، فعرف ان الرب قد اختاره ففرح به الجميع ، ونصب يوم الثلاثاء الذي يتقدم على يوم الجمعة العظيمة في ٩ نيسان ، ولما صار ملك اعطى الرها لجوسلين الشجاع الجبار .

وفي هذه الايام اتفق بعض الارمن مع الاتراك عندما راوا ان

- ٢٠٤٣ -

الأتراك قد سبوا بلاد الرها ووصلوا الى السور ووقفوا ، فأدخلهم هؤلاء الأرمن بأحد الأبراج لأن الأرمن ظنوا بأن الترك يأخذوها ، لأنه ليس لها رئيس لكن الله تعالى صنع تدبيراً فوجد جوسلين ان الأتراك قد صعدوا الى رأس البرج، فدخل وحده وكان يلبس درعا فقتل ثلاثين رجلاً بالسيف فوق الذين كانوا يتسلقون عليها وتكسروا وهكذا نجت المدينة •

قبل هذا الزمان أي في سنة ١٤٢١ خرج من خراسان رئيس للجيش اسمه مودود ومعه مائة ألف ، وحل على الرها ثلاثة أشهر، فأجتمع الأفرنج ليهاجموه فتركها الترك وهربوا •

كمل هذا أيضاً بعون الرب صلوا علي •

في سنة ١٤٢٩ تراءى في بلاد جيحان نور في نصف الليل كنور الشمس وبقي نحو ثلاث ساعات ، وفي الرابع من نيسان من تلك السنة حدث ظلام على وجه الأرض ، وغطى قرص الشمس نوع من الرماد من أول ساعات الصباح وحتى ثالث ساعة ، ومن ثالث ساعة الى الساعة العاشرة أضواء قليلاً قرص الشمس ثم انظلم ثلاث ساعات أخرى من النهار ، ثم صار قرصاً مثل النار ولم تعد للضياء، وبقي هذا الظلام اثني عشر يوماً .

في ٢٥ من أيار اظلمت ثلاث ساعات، وفي أول حزيران تراءى كوكب بذنوب، وذنبه كان كالرمح ممتد لנاحية المشرق، وبقي خمسة عشر يوماً وكل يوم كان يمشي للأمام ، وفي تلك السنة في شهر أيلول حدث زلزال شديد، وتهدمت أماكن كثيرة .

انخساف مرعش بالزلزال

في سنة ١٤٢٥ في ٢٩ تشرين الثاني ليلة الأحد ارتجست الأرض، وصار زلزال قوي جدا وقد غارت مدينة مرعش كليا وانقلبست اساساتها وابنياتها وصارت قبرا لسكانها ، وقد انهارت بهذا الزلزال بيعة ماريوحنا في كيسوم ، وبيعة الأربعين شهيداء، وإدارة مارديونوسيوس اسقف كيسوم اعيد بنيانها ، وايضا سقطت شمشاط بهذا الزلزال واختنق بها كثيرون ، ومن جملتهم قسطنطين صاحب قلعة جرجر، وتهدمت في جميع المدن والقرى اماكن كثيرة .

وفي سنة ١٤٢٧ اتى ضباب معتم ومظلم وحدثت زوبعة هدمت ابنية وقلعت صخورا وقلبت الأشجار، كذلك صار في الرها سيل وثقب السمكر المدعو سمكر أوفى الرسول .

وفي هذا الزمان جلب ابن جالبي عين ماء الرها .

خبر اخوانية الرهبان الفرنج المدعويين داوية

وفي اول عهد مملكة بلدوين الثاني ملك القدس (١١١٨) خرج من رومية رجل فرنجي اسمه دفرزين في ثلاثين فارسا من الأخوة الرهبان يريدون الحج الى القدس ، وعاهد ذلك الرجل نفسه انه لن يعود في اصحابه الى وطنه الا بعد ان يساعد ملك بيت المقدس مدة ثلاث سنوات في جميع المواقع الحربية، وانه اذا وفقه الله تعالى في بغيته عكف بقية حياته على اعمال الرهبنة في المدينة المقدسة ، فلما وصلوا الى القدس واكملوا الفروض الدينية اخذوا يختلفون الى المعارك الحربية، فابلوا بلاء حسنا مدة الأعوام الثلاثة .

على ان بلدوين الملك وارباب دولته لما راوا ما هم عليه من البسالة والشجاعة اشاروا عليهم ان يستخدموا في الجندية ليصونوا الأراضي المقدسة من هجمات الأعداء ، ويعدلوا عن الانقطاع الى احد الديرة ، فأجاب ذلك الرئيس ورهبانه الى مشورتهم فخصصوا بيت سليمان الملك لاقامتهم وعينوا لهم بعض القرى لمعيشتهم ، وتكرم عليهم البطريرك بشيء من ريع الأوقاف الكنسية .

بناء عليه ابرم اولئك الرهبان عهدا على نفوسهم امام الله ، ان يسيروا سيرة الرهبان، وقررروا انهم لن يتشربوا بزواج ، ولا يختلفون الى حمام ولا يستبدون بملك او عقار بل يجعلون اموالهم باسرها عمومية مشاعة ، ومامر القليل من الزمن حتى اشتهروا شهرة عظيمة وضاع شذا اعمالهم المجيدة في جميع البلاد القريبة والسحيقة، واقبل الملوك وابناء السلاطين والعظماء والعوام وانخرطوا في سلكهم واتخذوا معهم إتحيادا اخويا روحيا ، وكان كل من ينضم اليهم يتنازل لهم عما ملكته يداه من المال ، فأزدادوا في برهة من الزمان ونموا نموا عجيبا واستولوا على أمكنة شتى في فلسطين وايطاليا ورومية ، وانشأوا لهم قوانين وضوابط حتموا ان يقوموا بها .

وكانوا اذا قصدهم احد للانضمام في سلكهم اضطروه ان ينزوي في قلايته سنة كاملة يعمل الروية في مانواه ، وكانوا يتلون عليه تلك القوانين سبع مرات، ويقولون له في كل مرة احذر وانتبه لئلا تندم فيما بعد او يتعذر عليك الثبات حتى النهاية في حفظ هذه القوانين ، والا فالخليق بك ان تطلعنا على مكنونات قلبك وتعود الى بيتك .
وكانوا اذا وافق احد على تلك القوانين ورضي بها طوعا ونذر ان يحفظها ويعمل بها صلوا عليه ووشحوه بثوبهم ، واذا اتفق فنكث احدهم وخالف نذره ضربوه بالسيف واستعملوا قتله .

اما قانونهم فكان يشتمل على عدة بنود : اخصها انه لايجوز لكائن من كان منهم ان يملك شيئا خصوصيا لا بيتا ولا ذهباً ولا قناعا ، وان لا يذهب الى اي محل كان دون اذن الرئيس ، ولا يرقد الا في بيت الرهبان ، ولا يأكل على مائدة العوام ، وان يذهب طوعا الى حيث يؤمر مهما كلفة ذلك من المشقة ، ولو افضى به ذلك الى الموت ، ويلزمه ايضا ان يوفي بنذره هذا فيخدم في الجندية حبا للدين حتى الممات .

وكان اذا توفي احدهم اقام له كل فرد منهم اربعين قداسا، واطعموا لاجله اربعين مسكينا مدة اربعين يوما ، وذكروا اسمه في قداساتهم على مدى الازمان ، واعتبروا من مات منهم في ساحة الحرب شهيدا ، اما من كان يخفي عنهم شيئا ويحتفظ به لنفسه فكانوا لا يحتفلون بدفنه ، وكانت ثيابهم جميعا بيضاء بسيطة لايجوز لهم ان يتزينوا بزى اخر ، وكانوا اذا رقدوا رقدوا لابسين ثوبهم الرهباني وزنارهم .

وكانوا يأكلون اللحم ايام الأحد والثلاثاء والخميس ، وكانوا يقتصرون في سائر الايام على اكل الحليب والبيض والجبن ، وكانوا يشربون الخمر يوميا وقت الغذاء فقط ، اما قساوستهم وشمامستهم فكانوا يمارسون الصلوات والطقوس في الكنائس ، وكان قوادهم وضباطهم وفرسانهم يصلون صلواتهم وهم مزاولون مناصبهم الجندية ، وكان رجالتهم يقضون فروضهم

الدينية وهم في ساحة الوغى ، أما الصناع والفلاحون فكانوا يمارسون فروضهم وقت العمل، وابتنوا لهم في كل مدينة وقرية بيتا خصوصيا يتولى شؤونه رئيس ومدبر ياتمر كل من فيه بأمر ذلك الرئيس ونهيه ، أما رئيسهم العام فكان يسكن في القدس وكانت أوامره تشمل الجميع على حد سواء ، ولم يكن له ان يتمتع ويتفرد بشيء خاص أصلا ، واتصف هؤلاء الرهبان خصوصا بأعمال الرحمة فكانوا يوزعون على المساكين عامة عشرة ما يصيبهم من الغلال كالقمح والخمر وغيرهما ، وكانوا كلما خبزوا خبزا في أحد ديرتهم أو بيوتهم وزعوا على الفقراء عشرة مع كل ما كان يفضل من طعامهم . وكانوا يوزعون أيضا خبزا وخمرا على المساكين مرتين في الأسبوع .

وفي عنفوان امرهم اخذوا يتولون حراسة الجنود أثناء اختلافهم الى تأدية فروض العبادة والصلاة وقت خمود نيران المعارك ، ثم اخذوا يخرجون مع ملوكهم لمحاربة الترك فنموا نموا عجيبا حتى بلغوا مائة ألف راهب ، وامتلكوا قلاعاً وحصونا منيعة في جميع البلاد التي احتلها المسيحيون ، وازدادت لديهم الأرزاق والأموال والأسلحة ، وتوفرت عندهم القطعان والغنم والبقر والخنازير والجمال والخيول أكثر من جميع الملوك ، وعلى الرغم من كثرة أملاكهم كانوا زاهدين متجردين كأنهم لا يملكون شيئا البتة ، وكانوا يعتبرون ويحبون على حد سواء كل من امن بالصليب وسجد له .

وانشأوا في جميع الأماكن التي شغلوها ولا سيما في القدس مستشفيات أو ملاجئ للمرضى أقاموا فيها خداما يعتنون بهم ويسهرون على شفائهم . فكانوا ينقلون اليها كل غريب أصيب بمرض ويعالجونه حتى يصح . فاذا تعافى اعطوه زادا وسرحوه بسلام وإذا توفي شيعوه باكرام (٣)

واتفق لهؤلاء الأخوة الرهبان الداوية انهم حين حدوث المجاعة الشديدة في القدس واصلوا توزيع الخبز على المساكين كمألوف

- ٢٠٤٨ -

عاداتهم الحميدة حتى كادت تنتهي مؤونتهم وتفرغ اهراؤهم. فأبلغ الوكلاء رؤساءهم ومديريهم وسألوهم أن يشرفوا على تلك المخازن استدراكا للخطر ، فيروا بأمر عينهم ما تبقى فيها من الذخائر الزهيدة، فعقدوا مجمعا وتفاوضوا في ذلك الأمر الخطير فقالوا :إننا إذا حررنا المساكين ما تبقى لدينا من المؤن فلا تعود تكفي لنا أيضا ، فالأجدر أن نواصل التوزيع كعادتنا إذ أننا مساكين ويلزمنا أن نحكي المساكين في شدتهم إن جاعوا جعنا معهم ، وإن ماتوا متنا معهم . وبعد أن أبدوا اتفاقهم هذا واثبتوه جميعا ثابروا على التوزيع كعادتهم فتعهدهم الله بغزير مراحمه كما تعهد الوفا الجياح في القفر وأشبعهم بقليل من الأرغفة ، على أن الوكلاء تفقدوا الأهرات يومئذ فالفوها مشحونة بالقمح والشعير والخمر وسائر الحبوب ، وذاع أمر تلك الأعجوبة الباهرة في جميع البلدان. وحمد الله تعالى كل انسان

وفاة تنكرد

في سنة ١٤٢٥ مات تنكرد حاكم انطاكية وملك بعده ابن اخته روجيل وقد كسر هذا برسق التركي وكان ذلك في ٢٦ ايلول من تلك السنة.

وفي السنة عينها كان تركي يتولى قلعة زياد فمضى وسبى سكان البلد وباعهم عبدا.

كذلك ابراهيم سبى بلاد عرقة وامتلات ملطية أسرى ، حينئذ اظهر المؤمنين حرارة الأمانة فخلصوا الجميع.

(احوال الأرمن)

كان أمراء الأرمن يتولون بعض الجبال والقلاع والمدن في بلاد الجزيرة وقلقية ، وكان الفرنج تارة والروم طورا يستعملونهم عليها ، وكانت امرأة باسيل يومئذ تتولى سميساط ومعرش وكيسوم، وتحت امرتها عدد كبير من القربان والمشاة، وكانت تدفع لكل فارس اثني عشر دينارا ذهبيا في الشهر ، ولكل جندي من المشاة ثلاثة دنانير ذهبية ، وكان أولاد قسطنطين بن روبين في قليقية وميخائيل وأوهنس في جرجر. وباسيل اللص في رعبان وكيسوم وقلعة الروم ، وقسطنطين وتبتوغ وبيستفور أبناء سنبل في سميساط ، وكان أبناء سنبل سريانا مخالفيين لباسيل اللص، وباسيل الفتى الذي تربى عند امرأة كوغ يبغض السريان بغضا شديدا ، فاحتل الدير المعروف بدير الأحمر عند كيسوم ، وكان هذا الدير لجماعتنا منذ أجيال بعيدة ، فطرد الرهبان وولى عليه غريغوريوس الجاثليق ، ونفى رهبان دير حصن عرنيش وأنزل بهم ألوان العذاب ، وأقام فيه الحراس والعسكر فلم يتيسر للفرنج أن يتغلبوا عليه فزوجه امرأة أفرنجية يقال لها كلاماري فأماتته مسموما.

وما دمنا سردنا أخبار الأحداث حسب تسلسل السنين دعونا نوضح أنه في سنة ١٤٢٣ استولى أتابك سلطان ملطية على بلاد جيحان من الأفرنج.

وفي سنة ١٤٢٤ خرجت امرأة قلعج أرسلان من ملطية وتركزت أولادها عند أتابكهم، ومضت الى بك أمير بابولا وقالت له : إني سمعت السلطان يقول أن ليس بين أمراء الترك في هذه البلاد مثل بك رجلا جبارا وحكيما ، ولهذا السبب وثقت به وبوساطته حفظت مكانتي وهو عظيم جدا .

ولما رجعت خاتون من عند بك طردت الأتابك وجلست هي وابنتها بالقلعة حينئذ تضايق ذلك التركي الذي في قلعة زياد فباعها لسلطان ملطية ، واخذ عوضها ذهباً وأماكناً ، ولما دخل رجال سلطان ملطية الى القلعة قدم نحوهم ابن سلطان خراسان فجاءه بجيش عظيم ، فسلموا حصن زياد هذا لابن سلطان خراسان دون حرب ، وللحال تم الصلح .

وفي سنة ١٤٢٩ أغار أمير منبج وحاكم قامح على بلاد ملطية في ١٥ آذار فنهب وسبى ، فأرسلت خاتون ملكه ملطية الى جوسلين حاكم الرها وأقامت معه صلحاً لكي يساعدها .

وتوفي في سنة ١٤٢٨ يونانية (١١١٧ م) الخليفة المستظهر ، وفي شهر آب في هذا العام توفي أيضاً الكيس ملك الروم ذلك الحكيم الجبار وهو بحكمته نجى مدينتهم من الأفرنج ومن القوفيين والصربيين والبالاكين ، وقد جاهد ضد كل هؤلاء وحفظ مملكته ودبرها بالاستقامة تسع وعشرين سنة ، ثم ملك بعده ابنه يوحنا في سنة ١٤٢٩ ، فتآمر عليه أخوه وأخته وأمه فوضع أخوه وأخته في السجن وجعل أمه راهبة ، وعندها استتبت له المملكة .

في تشرين الأول عام ١٤٠٦ توفي اغناطيوس المؤرخ مطران ملطية ورسم عوضاً عنه مار اثناسيوس سعيد بن الصابوني المتبحر بالعلم والكاتب الماهر في خطنا السرياني هذا والخط اليوناني ، وقد ارتسم في عيد الصعود في تلك السنة في قان قرن بنواحي آمد ودعي يوحنا ، ولأن انتخابه تم بموافقة جبرائيل الحاكوز ، فقد دخل المدينة وهي محاصرة من الترك ، وفي اليوم الذي دخلها أغلقت أبوابها وكان يحاصرها ويعزلها سلطان قونية قلج أرسلان ، فطلب جبرائيل من المطران أن يشترك مع الحراس في الحراسة ، فشرع يداوم على ذلك طوال العام بكل اخلاص .

ثم أرسل السلطان رسولاً من عنده شماساً فقال للمطران وكان جبرائيل موجوداً في المقابلة :

يقول لكم السلطان أن تعطوه المدينة سلماً وهو يعاهدكم بالآمن وسيغدق عليكم الخيرات ، والا فسوف يأخذها بحد السيف ، عندها فإن الله سوف يطالبكم بدم كل الشعب، فأجاب المطران البار الشماس : لم يستطع أحد أن يأخذ هذه المدينة بالحرب منذ القدم وحتى الآن ، وإن فيها خبزا لعشر سنوات وأكثر ، ثم أطلق الشماس ، لكن جبرائيل التفت الى المطران البار وقال : اسمع مني ياسيدي انه لخير لنا أن نسلم المدينة بسارادتنا ، لكن المطران البارحين سمع ذلك رفض ، فابتدأ جبرائيل يبغض المطران. أما اليونانيون فأخذوا يحتقرون كثيرا هذا البار لأنه كان يخزي الأفرنج في تعليمه ، وكانوا يتهمونه بأنه يريد أن يسلم المدينة للترك ، وصدف أن كان البار على السور يوم الجمعة يحرس وأثناء خدمة ثالث ساعة أخذ يتكلم بين الشعب بكل محبة ووداعة ، وكان الشعب يلتف حوله فاغتاظ جبرائيل واليونانيون من محبة الشعب له والتفافهم حوله ، ففكروا أن يقتلوه ، ولما نزل عن السور قالوا له : إن جبرائيل قد أمر أن يقتل رجل مؤمن بحد السيف ، فذهب اليه ليلاً ليشفع لذلك المظلوم عنده ، فوجد جبرائيل الأثيم على فرس خارجاً بين السورين وحوله جنود فأخذ يتضرع له المطران البار قائلاً : اشفق على المساكين ، من الخارج قتل ، ومن الداخل قتل ايضاً، لكن المنافق ملكونه نوى أن يقتل المطران البار ، فقال وأنت يا كذا وكذا تريد أن تسلم المدينة للترك ، حينئذ قال لأحد الجنود ، وكان يحمل حربة : إضربه فلم يتجراً ، فأخذ الحربة بيده وضرب بها البار على رأسه فقتله ، وكان ذلك يوم الجمعة في تموز سنة ١٤٠٦، أما القساوسة الذين كانوا هناك فقد هربوا وتبددوا وضجت المدينة كلها واجتمعت الجموع حيث استشهد البار ، أما جبرائيل القاتل فقد خاف لما رأى هذا الجمع الحاشد فأصر على أن يدخلوا البار الى البستان ويخفوه بين القصب ، وبعد يومين سجي جسده في بيعة الساعي الكبيرة.

فاما البطريرك اثناسيوس لكونه لم يقدر أن يدبر أمور البيعة بسبب تدخل عبدون المتمرّد فقد سافر الى بغداد وقابل الخليفة أبو

- ٢٠٥٢ -

جعفر عبد الله القادم بالله ، واحضر منه كتابا الى كل الحكام وولاه
المملكة في اثور والجزيرة وبين النهرين وكل سورية كبِدوكيه والى
العرب والترك يأمر أن يقبل اثناسيوس ويعزل عبدون.

عبدون المتمرد رسم أربعة اساقفه هم: اياونيس اسقف تلمحرون
الذي اكلته الكلاب ، وأبدوخوس اسقف عرقه الذي طرد وصار
هرطقيا، وايجنا اسقف ماردين الذي انقلب بالتوبة ، وابن كوريزا
الذي اسلم في امد.

اخبار البيعة في هذا الزمان

بعد ان رجع البطريرك من بغداد بفترة قليلة توفي عبدون العاصي في حصن منصور ، فأمر ان يقبر امام باب البيعة لكي يدوسه كل من يدخل اليها ، لأنه اخطأ بحق ببيعة الرب ، فأما البطريرك ماراثناسيوس فقد جمع الأساقفة وصنع له جنازا وصلاة للغفران وقد قال : صحيح انه أحب الرئاسة وداس القوانين المقدسة لأجل ذلك ، لكنه لم ينحرف عن الأمانة المستقيمة المجد ، فيجب ان نصلي له ليرحمه الرب ويرحم كل خاطيء .

وبعد ان قتل سعيد بن صابوني وخرب الأتراك المدينة أدخل البطريرك ديونيسيوس اسقف غوبوس ابن المعترف وأقامه مطرانا لمطية ، لأنه كان معلما وحكيما وذلك في أول كانون الأول عام ١٤١٣ ، وكان ديونيسيوس الذي أدخل الى مطية قد تتلمذ في دير ابن جاجي عند مار يوحنا البطريرك ابن شوشن ، ثم ارتسم اسقف لغوبوس ، ولما خربت بلاد غوبوس اثناء الخروج الأول للترك أتى هذا الى دير مار برصوم حيث نظم الدير ورتب الخدمة كما كانت في دير ابن جاجي ، وفي شيخوخته رسمه البطريرك على كرسي مطية ، فلما وجدها فقيرة في العلم اهتم بها ، وجدد بها التعليم ، وكان يعلم في العهدين القديم والجديد ، وكتب المعلمين الأوائل ، وكذلك كان يعلم الكتابة ، وبعد هذا رسم البطريرك مطرانا للرها أبو غالب ابن صابوني أخو سعيد الذي قتل في مطية ، لأن هذين الأخوين كانا مشهورين بالعلوم الكنسية ، وفي المعارف الخارجية وفي الكتابة باللغتين ، وبالجدال ضد الهرطقة ، وبالاختصار كانا المع كل افراد جيلهم من المستقيمين المجد . وكان سعيد الذي ارتسم لمطية قد دعي يوحنا ، لكن بعد اربعين يوما من رسامته قتله جبرائيل بمطية كما اوضحنا من قبل .

- ٢٠٥٤ -

وأبو غالب الذي رسم مطرانا للرهما دعي باسيليوس لكن قبل كمال الأربعين يوم حدثت مشاجرة بينه وبين البطريك فحرمه وبقي بعيدا عن الخدمة لكونه قام في وجه البطريك ، لكن بسبب هذا الخصام صار انشقاق في البيعة كما سنوضح .

ولما ملك الأفرنج أنطاكية أخرجوا اليونانيين من البيع الكبيرة وطردوا رؤساء كهنتهم ، وأقاموا بطريكاً من شعبهم ووضعوا مطارنة في طرسوس والمصيصة والرهما ومنبج وأفاميا ، كذلك وضعوا مطارنة في طرابلس واللاذقية وجبله وقورس ومرعش وحارم وأقاموا لهم بطريكاً في القدس ، ورسم أساقفة لبيت لحم ولحبرون والسامرة وليافا والناصره وقيسارية وصيدا وببيروت ، ولما استولوا على صور رسم لصور أسقفاً أيضاً لأنهم لما طلبوا نفقة من بطريك أنطاكية على رحيلها لم يعطهم ، وكان اسم أول مطران قام للأفرنج في الرهما مبارك ، وقد تراءت له رؤيا حول جسدي أري وأبجر حيث وجدتهما في صندوق ماريوحنا .

وخلال السنوات الثلاث التي حاصر بها الدانشمند ملطية حدث بها جوع عظيم وبيعت حنطة الحاكم بدينار للمد .

وفي سنة ١٤١٣ تبليبل بدء صوم المسيحيين بملطية وفي البلاد كلها بما فيها القسطنطينية فصام السريان والأرمن في ٨ شباط، ووضعوا الفصح في ١٣ نيسان ، أما الخلقينيين فصنعوا العيد في ٢٦ نيسان ، ولما علموا أن النور قد فاض على القبر في القدس في ١٣ نيسان صار اليونانيون يجدفوا على النور لأنه تطابق مع عيد السريان والأرمن .

وفي سنة ١٤١٤ في بدء الصوم ، أي في الأسبوع الأول من شهر شباط. حدث زلزال كبير دام يوماً في كل مكان ، وقال الجميع ربما صار هذا لأجل اختلاف المسيحيين حتى في الصوم ، وهذا دلالة على غضب الرب.

فصل ثان عن أخبار البيعة

يارب اعن لما اخذ الأفرنج فلسطين اخرجوا منها المصريين واتوا الى حبرون حيث بنوا هيكلًا مجيدًا ، كذلك انوجدت مغارة المضاعفة التي اشتراها ابراهيم ، وكان بها ثلاثة قبور للآباء فزينوها ببنيان عجيب .

اما سبب الخلاف الذي صار بهذا الزمان في بيعتنا فكان ان لما ارتسم ابن صابوني مطرانًا للرها طلب البطريك منه ومن الرهاويين الأناجيل التي كانت في خزانة البطريركية ، لكن لما وقعت بيد عبدون العاصي وضعها رهنا بالرها ، واخذ ذهبًا ورشى الحكام في ذلك الزمان ، فلما طالبه البطريك وعد أبو غالب مع الرهاويين الذين حضروا رسامته انهم بمجرد رجوعهم الى الرها سيرسلون هذه الكتب المصفحة بالفضة والذهب ، وقد كتب ابن صابوني تعهدا بيده انه ان لم يرسلها فلن يكون له سلطان ان يخدم رئاسسة الكهنوت ، ولما ارتسم ومضى رفض ان يعطيها ، وكان يحتج بأن اكابر الرها منعه ان يعطيها ولهذا السبب زرعت بذور الفتنة وحرم البطريك ابن صابوني قائلًا : كما وكتبت بيدك فأنت محروم وليس لك سلطان لأن تخدم ، أو تدعى رئيس كهنة اما هو فقال : ان هذا الحرمان لا يسري عليه لأنه ليس بارادته أمسك الكتب .

واما الرهاويون فصاروا فرقتين منهم من كان مع البطريك وضد المطران، ومنهم من كان مع المطران ويشجعه على التمرد ، حتى انه تجرأ ورسم قساوسة وشمامسة وهو محروم ، حينئذ صار اضطراب بكل البيعة وخاصة بالرها ، وكان حاكمها الفرنجي يساعد المطران وقد ارسل مرارا كثيرة القساوسة ، واكابر المدينة ومعهم اناس من الأفرنج ليطلبوا من البطريك ان يحل حرمانه فلم يقبل ، ثم أتى أيضا مطران ملطية مارديونسيوس ومعه سبعين

رجلا مؤمدين الى البطريرك في دير ماربرصوما وخروا على وجوههم امام رجلية وقالوا : مانرفع وجوهنا عن الأرض حتى تحل حرمان مطران الرها ، ولم يقبل وبعد هذا اجتمع الاساقفة كلهم وسألوا البطريرك ان يعيده الى حظيرة الكنيسة وأجابهم قائلا : في نيسان تعالوا جميعكم ويأتي هو ايضا وعندها يصير الحل ، وبهذه الحجة ارسلهم فارغين ولم يجمع مجمعا ليغفر لابن صابوني ، بل عزل الشيخ ابن المعترف من رعاية ملطية لكونه كان يدافع عن ابن صابوني ، وقد خدم المطران ديونسيوس رئاسة الكهنوت بملطية اثنتي عشرة سنة وعلم ورتب ووضع بها عادات مستقيمة ، واغناها بالعلوم التي مازالت الى اليوم يعلمون بها بعد ان تسلسلت من جيل الى جيل ، ولما أخرجه منها البطريرك بقي وحيدا ، أما السبب الذي لأجله لم يجمع البطريرك مجمعا كما وعد فهو انه لما خرجوا من عنده مشككين لعدم قبول طلبهم، كتب ديونسيوس لمطران ملطية وطيماتاوس اسقف قليسورية وديونيس اسقف جيحان وقرروا ان عقد البطريرك مجمع كما وعد فسيسعدوا ان ابن الصابوني مظلوم ، وان لم يصنع جمعا فان ابن الصابوني سيكون ايضا محلولا من حرمانه ، فلما سمع البطريرك اغتاض جدا خصوصا من المطاردين ، ولم يجمع جمعا بل وأخذ ملطية من غوبوس ابن المعترف ودعا اليشع راعي دير البارد ورسّمه عليها ، ودعا اياونيس فوصل اليها في تشرين الثاني ١٤٢٥، ثم طلب منه الحاكم ذهباً فدفعت عنه اهل المدينة مائتي دينار وقبلوه عندهم ، وأخيرا لما أحسوا انه يحب معاقرة الخمر احتقره جميع الناس ونبذوه

حروب الأمير ايلغازي بن ارتق

وفي سنة ١٤٣٠ في شهر ايار جمع الأمير غازي ابن داندشمند (٤) سبعة الاف من الترك وبخل الى بلاد انطاكية فخرج الى لقائهم رجز صاحب انطاكية مع رجال كثيرين ، فكمن لهم الأتراك ووقع الأفرنج في الكمين فأحاط بهم وقتل كثيرا منهم ، وقد قتل غازي بن داندشمند رجز صاحب انطاكية وسبى الترك البلاد ، واحتلوا كثيرا من القلاع ، وقتلوا جملة من الرهبان في الجبل الأسود ، وبقي الأتراك أيام كثيرة في تلك البلاد ، وقد صنعوا قطاعات مروعة ، وحين سمع بلدوني ملك القدس اتي ، فلما سمع الترك بان الملك قادم كمنوا له ايضا لكن الملك اكتشف الترك ، وطاردهم وكسرهم لكن الذين كانوا يكمنون من الخلف انقضوا على العساكر الرجالة وقتلوا كثيرين منهم الى ان احس الملك ، فكر عليهم وقتل الذين كانوا يكمنون كليا ، ثم طارد غازي فهرب مع الترك ، فذهب بعضهم الى حلب وبعضهم الآخر مع غازي ، وقد لحقت بالترك ضربة عظيمة .

وفي ذلك اليوم خلص الأفرنج الذين نجوا من القتل خلصوا الأسرى الذين سباهم الأتراك في البلاد ، وبخلوا مع الملك الى مدينة انطاكية .

وفي تلك السنة تملك سلطان ملطية ضييع بلاد جيحان وابلاستين .

وفي شباط من تلك السنة سبى الأفرنج بلاد جرجر ، واما اليونانيون فقد اصطفوا على ساحل البحر مقابل الترك مدة شهرين ثم عادوا بون حرب .

وغزا سلطان ملطية مع ملك بلدة قماج ، فهرب صاحب تلك البلاد ابن قلج ارسلان الى طرابزون ، والتجأ لليونانيين فأتى معه

جيراس ، ثم ان بلك وسليطان ملطية غازي بن دانشمزد اتفقا ، ولما صارت الحرب انكسر اليونانيون واسر جيراس وابسن قلعج ارسلان ، فبيع جيراس بثلاثين الف دينار ، اما ابن قلعج ارسلان فخلصه غازي لأنه كان ختنه، وبهذا صارت عداوة بين السلطان من جهة وبلك وغازي من جهة ثانية .

وخرج يوحنا ملك اليونانيين في تلك السنة واخذ ثلاث قلاع من الترك .

وجمع غازي عسكرا ، وبخل الى بلاد الرها واحرق الغلال واذ لم يجد عساكر تمنعه او تصدمه تابع سيره الى بلاد انطاكية وسبى ورجع الى بلاده وتملك بلك قلعة زياد والبلاد التي حولها ، وصارت ملطية تحت امره وكان يخيف كل الأمراء .

اما الأرمن الذين في جرجر فكانوا يخربون بلادهم بالسرقة ، فأرسل الى ميخائيل الذي في جرجر يتعهد ان يعطيه كل سنة الف حمل حنطة ان كان يمنع الأرمن من السرقة ، وأعطاه ثلاث قرى في بلاده فحلف ميخائيل عدة مرات لبلك لكنه لم يف بعهده ، وذات يوم بينما كان يرسل الحنطة هاجم لصووس ميخائيل واحرقوا قريتين بهنزيط ونهبوا كثيرا وقتلوا الترك الذين كانوا يرافقون ارسالية الحنطة وكانوا غير مسلحين معتمدين في ذلك على الصلح الذي صنعه وعلى هدية الحنطة التي يرافقوها ، ولما علم بلك بما جرى غضب واحتال على الأرمن واصطادهم ، واهلكهم ، ففي الشتاء القاسي حيث كانت الجبال مملوءة بالثلج الكثير واهل جرجر قابعين لا يفكرون بشيء ولا يضعون حراساء عبر بلك على مياه الفرات المتجلدة الى جوباس ، وخدع اهل جرجر فأوهمهم بانه ماض الى ابعد من منطقتهم وسير امامه الوف الخيل الى جبل العسر المكزي الشمعة ، وهكذا اندثر الثلج وسار العسكر وخلال يوم واحد وصلوا الى دير ماربرصوما ، وفي تلك الليلة عبروا جبل جرجر، وفي الصباح هجم بلك على البلدة الشقية وسبهاها، وكان ذلك يوم الاثنين في اول كانون الثاني

سنة ١٤٣٢ ، ولم ينج من ايادي الترك لابلشر ولا بهائم ، لقد حرقوا كل شيء وخرجوا ، وبقيت البلد خالية ، واما بك فقد صنع رحمة كثيرة مع الشعب ، فلم يسمح أن يهلك منهم أحد ، ولم يجعلهم اسرى بل هم وبهائمهم وكل ما لهم حفظه لهم ، واعطاهم قرى واسكنهم في بلدة هنزيط وحلفهم أن لا يرجعوا لجرجر ، اما من يهرب ويعود الى جرجر فانه متى اقبل مرة ثانية اليها فسوف يؤخذ عبدا ، وهكذا صار لأن بعد سنة اتى بك لجرجر وقد اخذ كل الذين وجدهم عبيدا ، واحرق القرى والكروم والزيتون ثم اتى عليه جوسلين فهرب بك للجبل فلم يقدر عليه الا فرنج فرجعوا ، اما هو فرجع الى بلده .

وفي سنة ١٤٣٣ ارسل سلطان خراسان مائة الف من العسكر ودخلوا الى بلاد الترك لكي يملكوا هناك ايضا ، ففسد عليهم ملك الأتراك المعابر من كل جانب وقتلهم كلهم بحد السيف .

وفي تلك السنة سبى جوسلين بلاد جوباس ، وفي تلك السنة ايضا قتل يوحنا ملك اليونانيين شعب القومنيين « الكومان » وصاروا عبيدا لليونانيين ، وقد كتب البار بيسيلليوس مطران الرها عن القومنيين لأنه كان هناك ، فقال : لما اتى القومنيون الى القسطنطينية احتال الملك يوحنا وعقد معهم سلاما ، ولما اختلطوا ودخلوا المدائن والقسطنطينية اصدر الملك امرا بان يمسكوا بوقت واحد كل من يجدوه منهم اينما كان ، فامسك منهم بمعسكر الملك نحو ثلاثة الاف ، وفي كل مدينة الذين وجدوا منهم ، وفي اليوم الذي امسكوا به مضى الملك وعساكره الى معسكرهم ، فاما هم فحسب عاداتهم فقد احاطوا بمعسكرهم بأبراج من خشب وصاروا يحاربون ، فنزل الملك عن فرسه وامر كل الفرسان ان ينزلوا عن مطاياهم ويحاربوا ، وهكذا اشتد الحرب وقفزوا ودخلوا وقتلوا اكثرهم ، وامسكوا اكابرهم وغيرهم كثير ، وجروهم عبيدا للقسطنطينية وصار هدوء عظيم في عهد هذا الملك بعد انتصاره على هؤلاء القومنيين .

- ٢٠٦٠ -

أما القومنيون فهم جزء من الأتراك ولسانهم تركي لكنهم
لأيؤمنوا بموسى أو بالمسيح أو بمحمد أو بالأنبياء كافة ، كانوا
حيثما يذهبوا يأخذوا نساءهم وأولادهم وبيوتهم معهم ويضعوهم في
الأبراج الخشبية التي يصنعوها حول مقر سكنهم .

وبهذا الزمان صعدوا من شاطئ نهر نجيس واتوا ليملكوا
القسطنطينية الى ان كسرهم هذا الملك كسرة عظيمة،ومن ثم
اصبحوا عبيدا في مملكة اليونانيين .

اسر بك ملك بيت المقدس بلدوين

في سنة ١٤٣٤ دخل الأمير بك الى بلاد انطاكية واجتمع الأفرنج لمقابلته وقد بقي الجيشان معسكران وجها لوجه مدة اربعة اشهر ثم تفرقوا بغير حرب .

فاما جوسلين الوالي لما توفيت امراته وهي ابنة رجير حاكم انطاكية، أراد ان يأخذها الى الرها فصنع له بك كمينا في الطريق ، وأمسكه وأرسله لبولا وصار لبك اسما كبيرا عند الأتراك ، فاجتمعت اليه الشعوب وبخل ايضا الى بلاد الأفرنج ، أما ميخائيل الأرمني الذي كان في جرجر فلما رأى الترك قد تسلطوا اعطى جرجر للملك واخذ له مكانا في بلاده فلما أخذ الملك جرجر ووضع محارس وجمع عساكره أتى ليطرد الترك من بلاد حصن منصور وكيسوم .

وحين كان الأفرنج متوجهون على نهر سنجة خرج عليهم فجأة بك من كمين كان قد نصبه لهم، وخربوا معسكر الأفرنج وأمسكوا الملك، وقتلوا الذين معه، وكذلك أمسكوا جوسلين وغاليران ، وكان ذلك ليلة عيد الصليب كذلك اعتقلوا بلدوين الملك يوم الأربعاء جمعة البياض من تلك السنة ، ولما صار ملك القدس أسيرا وبقيت البلاد بغير رئيس أو سيد أراد المصريون أن يملكوا القدس وبساقى البلاد ، فأرسلوا جيشين واحدا في البر وآخر في البحر ، أما جيش البر فقد انكسر وفقدوا جمالهم وكل أموالهم وأدخلوها الى القدس ، وقد فرح الأفرنج ووقفوا للصلاة والصوم واحد وعشرين يوما .

أما الجيش الآخر والذي كان يبحر على ظهر السفن، فعندما وصل الى عكا، كان شعب البنادقة قد وصلوا في ذلك الوقت للزيارة، فلما

راوا العرب في البحر اصطفوا مع الأفرنج وحدثت معركة انتصر فيها الأفرنج ، حينئذ عادت الثقة لأهل القدس فهجموا على صور .

أما بلك فإنه لما أمسك ملك الأفرنج نزل على حصن منصور فأعطوه إياه صلحا ، لكن الترك القسامة سبوا الشعب وأحرقوا المدينة والبلاد ، حينئذ انسحب الأفرنج من جرجر أيضا ، فدخلها الترك أيضا أما بلك فسجن الملك وجوسلين وباقي الأفرنج في قلعة زياد في قلب بئر عميق ، ونزل فاستولى على حران وحلب من العرب وتل باشر ، وثلاث قلاع أخرى من عرب الأفرنج ، حينئذ حدث تمرد عليه في قلعة زياد ، فأناس من الأرمن كانوا داخل القلعة يعملون في البناء ، ولما نظروا أن القلعة فارغة وليس فيها إلا القليل من الحراس اجتمعوا عند الباب وصاروا يدممون لأجل أجرتهم ، ثم هجموا فجأة وحملوا السيفوف التي كانت موضوعة عند الباب ، وقتلوا ثلاثة رجال من حراس الباب ، وأخرجوا الملك وجوسلين والباقي ، وقتلوا العرب واستولوا على القلعة فاجتمع أهل المدينة وأخذوا يقاتلونهم ، حينئذ تحيل جوسلين وخرج ليلا برفقة رجل أرمني وأقسم للملك أن يجمع عسكرا يعود لأنهم لم يستطيعوا لأن يحافظوا على القلعة ، ولأن يأخذوا الملك معهم ، ولما مضى جوسلين وصل بلك ونصب أربع منجنيقات وهدم الأسوار ، حينئذ خرج الأفرنج وبعد أن عذبوهم بمرارة قتلوا منهم سبعين رجلا ، ثم أخذ معه الملك وغالران ابن اخته ، ورجع عاجلا لأنه كان يريد أن يستولي على كل المسكونة ، ولما حل على مرعش أرسل المرعشيون يستنجدون بجوسلين ضد بلك مقابل أن يؤدوا له جزية ، فأتى جوسلين واشتبكوا في حرب من الصباح إلى المساء ، فقتل حاكم كيسيوم المدعو مونيجوفري ، وقد كان هذا بعدما خرج من رومية راهبا أدى بطولات في القدس أثناء الحرب ، فصنعوه رئيسا للعسكر ، ولما تجول الملك ليحفظ البلاد أحضره وأعطاه كيسيوم ورعبان ومرعش ، وقد قتل بهذه الحرب فأوقفت المعارك ، وفي الصباح قام بلك وتقدم إلى السور ليريهم أين يجب أن يضعوا المنجنيق فأتاه سهم من حارس كان يقف في أعلى

- ٢٠٦٣ -

السيور فأصاب منه مقتلا ، فهربت العساكر الى حلب واقامت لها
رئيسا هو ابن عم بك ، لكن هذا باع الملك بمائة الف دينار ، فرجع
الملك بلدوين الى القدس ، ورجع بعض الأتراك الى قلعة زياد واقاموا
لهم رئيسا اسمه سليمان رئيس اسرة الأراقة .

من نظر خطأ في هذه الاسطر الذميمة فليصل لراحة كاتبها
الكسلان .

في سنة ١٤٣١ يوم الخميس اول كانون الأخير صارت زلزلة
صعبة دامت ثلاث ساعات وأفسدت أماكن كثيرة .

بهذا الزمان صار جوع عظيم في القدس وكان أولئك الأخوان
الذين يسمونهم داوية - أي الهيين - يعطون المساكين ويقدمون
كعاداتهم بغير نقصان ، ولما قلت الغلة التي كانت موجودة ، ولم
يبق سوى القليل قالوا فيما بينهم : إذا أوقفنا اطعام المساكين فإن
ما بقي يكفيننا ، ثم قرروا وقالوا لن نقطع عن المساكين شيئا بل نحن
والمساكين نقتات سوية بما تبقى الى ان ينتهي ، وحينئذ نموت نحن
والمساكين ، لكن الرب افتقدهم ، وهو الذي اشبع بالبرية من خبز
قليل كثير من الناس ، فدخل فجأة الوكلاء لبيوت المخازن فوجدوها
مملوءة بالحنطة والشعير والخمر والحبوب ، وانتشرت هذه
الاعجوبة في كل البلاد، ليتمجد اسم الرب .

وفي اول كانون الثاني سنة ١٤٣١ سقطت نار في وسط
القسطنطينية وأفسدت عشرة الاف بيت وحانوت ، واتى الى ملطية
جراد طيار وأكل الزروع ، فأقاموا صلوات متصلة فلجت افواه
الجراد ولم تعد تاكل شيئا ، فسلمت المزروعات، وبعد قليل خرج
جراد ناعم وأكل الأشجار والكروم لكنه في الحال اضمحل .

وفي هذه السنة غرقت مدينة بفارس اسمها اردبيل فجأة وصارت
بحيرة ماء ، وكل سكانها اختنقوا بداخلها .

وفي سنة ١٤٣٢ صار شتاء قاسي أربعين يوما، وتجلدت مياه
الفرات وباقي الأنهر وصار الناس يمشون على الأنهر .

- ٢٠٦٤ -

وفي ٣٠ ايار من تلك السنة في ليلة الاثنين تراءى قوس كامل وهذا امر لم ير قط منذ اجيال ، واظن انه خارج عن الطبيعة او لعله فوق الطبيعة ، وكان يظهر كالقوس بالليل ، لأجل ذلك صار الأمر عجباً لكل من يشخص به ، ولكن كل شيء سهلاً للقادر على كل شيء ، وهو كل ما يشاء يصنع .

كمل هذا الخبر عن عجائب يصنعها الرب :

في سنة ١٤٣٣ في ١٨ كانون الأول صارت زلزلة اربع مرات بالليل وأربع مرات بالنهار ، وتشققت الصور في بلاد صمحا على شط الفرات ، وغرقت أماكن كثيرة ، وصارت قبوراً لساكنيهم .

وفي سنة ١٤٣٤ صارت قلة في المطر وصار في كل موضع جوعاً عظيماً ، خصوصاً في ناحية المشرق .

وفي تلك السنة ايضاً وقعت نار بالقسطنطينية واحترقت فيها بيوت ودور وصار انكسار وانتصار ، أما لماذا هذا الأمر وكيف صار ، لا أحد يعرف علته الا ذلك الذي وجده عالم بكل شيء ، وهو يعرف بالصحيح وقد صار على الشكل التالي . فجأة ابتدأت تجتمع طيور الشامهريج أي ابو الحودنج من موضع وأخذت تلتأم ، وكذلك اجتمع الكراكي وصاروا مجموعتين على نهر تالالاكوم وظلوا مجتمعين لمدة أيام كثيرة ، وأخيراً كما شهد كثيرون من الذين راوهم كانوا يرسلون مثل الرسل من معسكر لمعسكر خمسة أو عشرة من الطيور، وبعدها تقاولوا كثيراً قفزوا بغتة وصرخ الجاسانبان صرخة عظيمة ، وصاروا يضربون بعضهم بعضاً ويقتلون الواحد مع الآخر، والذين كانوا يضعفون كانوا يقعون ويموتون ، وهكذا سقط من الشامهريج ومن الكراكي الافا ، وتكوفوا تلالا تلالا على الأرض، وقد دامت بينهم هذه الحرب العظيمة من ثالث ساعة من النهار الى تاسع ساعة ، وأخيراً انكسرت طيور الشامهريج واكثرهم ماتوا ، أما الذين بقيوا فقد هربوا ثم طار الكراكي في أثرهم فلحقوهم في أوكارهم ، ومات لهم صغارهم في الأعشاش .

مجمـل الأحداث التـي وقعت بين عامي ٥٠٠ - ٥١٦

هذا القسم فيه اخبار كان يجب ان تقدم لانها مقتبسة من كتاب تاريخي مكتوب بلغة عربية ويؤرخ بالسنة الهجرية القمرية ، وقد أدى هذا الى اختلاف في ترتيب الأعوام بسببه الاختلاف بين الأعوام العربية القمرية وبين الأعوام اليونانية الشمسية .

ومن هنا على القارئ ان يفهم ان الخبر المكتوب لاحقا حول نجم الدين الأرتقي ، الذي ملك على حلب يجب ان يكون متقدما على اخبار ملك التي ورت مقدما ، لأنه بعد موت نجم الدين ملك ملك على حلب .

شروحات من كتب عربية في اثور وبابل قـالت انه في سنة ٥٠٠ للعرب كان ابو العباس أحمد المستظهر ، هو خليفة للعرب في بغداد ، وكان سلطان خراسان غياث الدنيا وقد قتل الاسماعيلية وزيره المسمى أبو مظفر (هـ) وفي تلك السنة قتل الاسماعيلية كوسدكين أحد رجالات السلطان، فتحرك السلطان غياث الدنيا وقتل كل الاسماعيلية ، الذين كانوا من العرب ، لكنهم طائفة لا تتبع العرب ولا الترك لا بالايمان ولا بالعوائد ، ويقولون عن المسيح انه هو الذي تنبأ عنه الانبياء لكنه لم يصنع خلاصا لأن اليهود لما قاموا عليه ليقتلوه هرب الى السماء ، وهو مزعم ان يأتي وحينئذ يصنع خلاصا ، اما عن محمد (ص) فيقولون اقوالا سمجة ولا يقبلون القرآن، ويقدمون انفسهم للقتل بغير شفقة لكي ينتقموا من اعدائهم، على رجاء الذي سيصير لهم في العالم الأخير

وفي سنة ٥٠٠ للعرب ملك سيف الدولة صدقة بن دبيس على العرب، فأخذ تكرت .

- ٢٠٦٦ -

وبهذه السنة كان في تكريت ديلمى اسمه قباز بن هزارسب ، وكان ظالما شريرا وقد خرب مسجد العرب الكبير الذي كان قريبا من القلعة ، ولما علا ضجيج العرب اخذ بيعة المسيحيين الكبيرة واعطاها للعرب .

وفي سنة ١٤٣٣ اخذ الحسين بيعة تكريت الكبيرة البهية المدعوة بيعة الجرداء مع اثائها ودورها وحوانيبتها واعطاها للعرب ، ولما كثرت المصادمات بين المسيحيين والعرب ارسل السلطان الكبير غياث الدين اميرا اسمه اق سنقر فتحارب مع تكريت سبعة اشهر، ولما تضايق حاكمها سلمها لصدقة ملك العرب وخرج منها، وبعد اربعة عشر يوما مات ، ولما سمع السلطان غياث الدين ان صدقة بن دبيس قد تملك على تكريت وتمرد عليه ، جمع عساكر الأتراك وزحف ضده ،

حينئذ جمع صدقة عساكر العرب وصار الحرب على النهر المدعو نقهزني (١) ، فانكسر العرب وقتل صدقة ملكهم وهبنا انتهت مملكة العرب كليا.

وفي سنة ٥٠٠ هجرية سنين العربية اي سنة ١٤٣٣ يونانية بعد ثلاثة سنين من خروج الترك، وفي سنة ٥٠٢ للعرب خرج امير يدعى مودود بن التونتكين بمعرفة السلطان غياث الدين ليمضي ويقا تل الأفرنج، واعطاه الموصل والجزيرة ونصيبين ، وامر جملة امراء ان يمشوا معه ، ولما وصل الى الموصل رفض جاولي ان يعطيها له، فاقام عليها المنجنيقات وشن حربا عنيفة ، وفي يوم الجمعة وفيما كان العرب في صلاتهم صعد رجال اقوياء الاسوار، لكن جاولي ورجاله تحصنوا بالقلعة ، حينئذ اقسم لهم مودود ان يعطيهم الأمان ، فخرج جاولي ورجاله ومضى الى نجم الدين بن ارتق في ماردين، فاجتمعوا وصعدوا ليتحاربوا مع الأفرنج ليكون يد لهم عند السلطان الكبير، لأن مودود لم يركب على الأفرنج لكنه رجع الى السلطان ، فاتفق جوسلين حاكم الرها مع جاولي لأنه تكرم عليه

بالموصل ، ورضوان حاكم حلب اتفق مع ذلك الملك وانكسر جـاولي وجوسلين .

وفي سنة ٥٠٠ للعرب اخذ الفرنج طرابلس التي على شاطئ البحر من ابي علي بن عمار بعد حروب كثيرة اخذوها بيومين ، ولما دخلوا قتلوا العسكر وسبوا الشعب وكل البلاد وباعوهم عبيدا .

وفي هذه السنة وقع سيمان بن ارتق من الفرس ومات، وخرج الأفرنج واخذوا الآثار وقتلوا بها الفين، واتوا الى منبج وسبوا وتملكوا ايضا على المدينة، ووصلوا حتى بـالس واحرقوها بالنار ، ولما وجد رضوان صاحب حلب ونظر انه لن يستطيع ان يلاقي الأفرنج ارسل لهم اثنين وثلاثين الف دينار وعشرين بغل واربعين ثوب اطلس، وارسل لهم ظهير الدين طغتكين اتاك دمشق عشرة الاف دينار، وحاكم حماة الفين وحاكم عسقلون اربعة الاف دينار، وعقدوا صلحا . (٧)

وفي سنة ٥٠٥ هـ ايضا ارسل السلطان غياث الدين عساكر مع مودود ليتحارب مع الأفرنج ، ولما وصلوا الى شبختان اخذوا قلاعاً كثيرة، واتوا على الرها لكنهم لم يستطيعوا ان يأخذوها ، وهاجموا تل باشر ، كذلك لم يستطيعوا اخذها ، وتوجهوا الى حلب لكنهم لم يتركوهم يدخلوها ايضا .

ومرض سيمان (٨) حاكم اخلاط فحملوه لياخذوه، لكنه مات في الطريق .

واجتمع الفرنج وهاجموا على مودود ثلاث وعشرين هجمة في يوم واحد وتحاربوا، وكان قد غلبهم في اول هجمة مودود لكنه انكسر فيما بعد وهرب الى دمشق ، وفي يوم الجمعة بعد الصلاة خرج وهو يتفرج ويمسك بيد حاكم دمشق فوثب عليه اسماعيلي فقتله . (٩)

وفي سنة ٥٠٨ للعرب خرجت عساكر السلطان غياث الدين مع

ابنه ابو الفتح مسعود وقسيم الدولة اق سنقر البرسقي ليتحاربا مع

الأفرنج، ولما وصلوا الموصل خرج لخدمتهم تيمرك بن أرسلان وزنكي ابن اق سنقر واتفقوا أيضا معهم ، وحين وصلوا الى ماردين خرج نجم الدين لخدمة ابن السلطان وأرسل معه سبع مائة وثلاثين فارسا ، ولما جازوا النيك أرسل نجم الدين الى الأفرنج وسأدهم ، ولما عرف ابن السلطان بهذه المسألة أمسك ابن نجم الدين ورماه في الحديد وسبى بلاده ، ونزل على دارا ، ولكن نجم الدين مضى الى شهرزور وجمع شعبا كثيرا وأتى اليه ركن الدين ابن عم حاكم كيفا وملك بن بهرام أخوه الأكبر ، وجمع رجالا يفوقون العدد، وأتى بقوة عظيمة ليلتقي بابن السلطان ويخلص ابنه، ولما وصلوا القرديس بقرب دارا كان هناك شرنمة من عسكر ابن السلطان نازلين وغير عارفين ، ولما راوا فرسان قليلين من عسكر نجم الدين اتوا عليهم واشتبكوا كلهم ، وكان بينهم حاكم شبختان وحاكم نصيبين وحاكم مكسين .

ولما علم ابن السلطان ان عساكره قد انكسرت ترك دارا وهرب لنصيبين ونزل نجم الدين وأخذ الخيام وكلما كان لهم ، فأما ابن نجم الدين لما راهم مرتجفين وصار الليل وليس من يعتني برفيقه ، وكانت رجلية بالحديد وهو راكب ، فطرح نفسه من على البغلة واختفى بين جماعة من اليهود، وإذا بكردي أتى وأعلم أبوه فأرسل عشرة رجال وحملوه فأحضروه، وصار فرح عظيم لبیت ارتق. فأما ابن السلطان فتوجه نحو أبيه واشتكى على نجم الدين فأرسل السلطان تهديدا لنجم الدين كونه حقر سلطنة الترك ، فصنع نجم الدين مسالة مع الأفرنج ، ومع أتابك حاكم دمشق، وتحالفوا أنهم يساعدان بعضهما بعضا، فمضى كل واحد لبلاده، وبقي نجم الدين وحده ، ولما أتى حاكم حمص عليه ليلا وجده سكران وغير عالم اين هو فحملوه ووضعوه في حمص وأرسلوا أعلموا السلطان ، ولما أبطنوا الجواب ، أعطى نجم الدين وعده ، وترك ابنه، فأما هذا فجلب عسكرا من السلطان ، ولما وصل اصطلاحوا وأطلق ابن نجم الدين (١٠) وبخلت عساكر السلطان الى بلاد الأفرنج ليسبوا فالتقى

بهم الأفرنج وقتلوهم كلهم ، يقولون إنهم أحرقوا منهم ثلاثة آلاف بالنار .

وفي سنة ٥١٣ سلم حاكم حلب مدينته لنجم الدين لأن الأفرنج قد أضعفوها ، وفي تلك السنة أخذ نجم الدين الغازي نصيبين ، ولما مضى إلى حلب ليصنع صلحا مع الأفرنج ولم يقبلوا فجمع جملة من الأتراك لأنهم كانوا يطيعونه جدا ، يقولون أنهم أرادوا أن يحصوهم فمما

قدروا ، الف أمير كان فيهم ، ولما اصطفوا لم يصبر حاكم انطاكية حتى يأتي الملك فانكسر ، وأخذ نجم الدين نحو الشرق ، ولما رجع إلى ماردين سمع أن أهل حلب قد عصوا عليه فتوجه إلى ميفارقين ، ومات في الطريق وأمر أن يملك ابنه بعده وكان اسمه حسام الدين تمرتاش ، ولأنه لم يكن مستعدا ، وكان سليمان حاضرا هو الذي أدخله إلى ميفارقين وقبره ، ولذلك ملك هناك ، وملك أخوه تمرتاش في ماردين ، وكان هذا في سنة ست عشرة وخمسمائة للعرب . وهذا الفصل يجب أن يسبق الذي قبله لأنه ملك بعد نجم الدين على حلب بلك (١١).

أحداث ملطية ١٤٣٥ - ١٤٤٦ يونانية ١١٢٤ - ١١٣٥ م .

نتابع في مطلع هذا القسم الحديث حول حصار ملطية لأننا إلى هذا الزمان تحدثنا في المقالة المتقدمة عن موت ملك الذي كانت باسمه تحفظ ملطية بأيادي ابن السلطان ، ثم انقسمت بلاد ملك بين حكام عديدين : مدينة حلب أخذها حسام الدين تمرتاش ، وقلعة زياد أخذها سليمان، وسلطان ملطية أخذ مسرا وجرجر، ولأجل هذا وقع خصام بين حكام قلعة زياد وبين حكام ملطية ، وبهذا انفتح الباب أمام الأمير غازي ابن دانشمند حاكم سبسطيه الذي أراد أن يأخذ ملطية، وعقد عهدا مع السلطان مسعود الذي كان ختنه، فجمع شعبا كثيرا وهجم على ملطية يوم الجمعة في ١٣ حزيران سنة ١٤٣٥ وسبى قراها، ونزل على المدينة شهرا، ثم مضى غازي وترك ابنه محمد في قرية ساحان التي هي قريبة من المدينة ومعه عسكر عظيم وأمرهم أن يحرسوا أبواب المدينة ولا يتركوا أحدا يدخل أو يخرج منها، حينئذ جلب المأساة لسكانها من الجوع والمرض حتى وصل قفيز الحنطة الى ستة وثلاثين دينار وأخيرا فني القوت كليا، وصار السكان يأكلون ورق الأشجار وقشور الشجر الرطب وأينما وجدوا قططا أو حميرا ميتة كانوا يأكلونها ويلعقون الدم أيضا، وكانوا يأكلون الجلود والأحذية وما شابه ذلك ، لقد تسلط على المدينة ثلاثة سيوف : سيف من الخارج كان يسقط على رقبة كل من يريد أن يهرب ، وسيف الجوع الذي لا يطاق، وسيف الحكام الأشرار داخل المدينة الذين ما فتنوا يعذبون الناس ويرمونهم بالسجون لأجل جمع الذهب، ومن هنا صارت تحدث مناظر بشعة فقد كان الأولاد يبادون أمام عيون أهلهم من الجوع وهم عاجزون عن مساعدتهم سوى البكاء عليهم، ثم أخذهم للقبور، أما العجائز والمشايخ فكانوا مطروحين بالأسواق متورمين يننون لأنهم لا يستطيعون الصراخ،

حتى أن الناس لم يعودوا يتكلمون سوى بالبكاء، أما الحاكم فقد خرج بالليل ومضى فاستأجر الأفرنج بثلاثين ألف لكن بعد أن وافقوا معه لم يأتوا لأنهم كانوا متوجهين إلى حلب . حينئذ جمعت أم السلطان ايزابيل الثانية كل الأحرار ومن كانت تظن أن لديه مالا وألقت بهم بالسجن، وكانوا يعذبونهم بغير رحمة ويأخذون الذهب وقد استعدوا ليقتلوا بالسيف كل المسيحيين ويذهبون . لكن الرب لم يترك أهل المدينة في هذه الضيقة طويلا فارتحلت هذه الملعونة خاتون وابنها، وكان ذلك ليلة الأربعاء ١٠ كانون الأول سنة ١٤٣٦، ودخل الأمير غازي ولما نظر المدينة فارغة من السكان والذين بقيوا بدوا وكأنهم قائمين من القبور شجعهم، وأعتق الأسرى الموجودين والذين يجتمعون ويأتون. وأعطى قمحا للفلاحين يزرعوا، وأحضر البقر والثيران والأغنام، وأخذت المدينة تنتعش . وفي تلك السنة مات سليمان بميفارقين وملك عليها حسام الدين تمرتاش حاكم ماردين وهو أخوه، ولما كانت قلعة زياد لسليمان المكنى شمس الدولة ذهب الأمير غازي نحوها أيضا لكي يملكها، لكن الأمير داود من أسرة ارتق كان قد سبقه فقام الأمير وسبى أهالي بلاد هنزيط. وأحضرهم إلى بلاد ملطية، ثم ذهب مرة ثانية وسبى كل مابقي، وأخذ قلعة مسرا . حينئذ أتى داود ليتحارب مع الأمير غازي ، ولما عرف بأنه لن يستطيع أن يقاومه هرب وأخذ يحرق القرى التابعة له .

وفي تلك السنة (١٤٣٦) يونانية مات الخليفة المستظهر في بغداد (١٢) وقام ابنه المسترشد ، واتفق الأمير العربي المسمى صدقة (١٣) مع الأراقة ، أما الخليفة في بغداد فقد دخل إلى بيوت أبيه وطرد آلاف المغنين ، وجمع كل أنواع آلات الطرب وأحرقها أمام الباب ، وأخرج ثلاثة آلاف امرأة من المغنيات والزانيات وكان الناس يقولون لأن رؤوساء الدين يبدؤا ينحرفون عن طريق الإيمان الصالح زالت السيطرة منهم ومن العرب .

ثم أن الأمير صدقة تمرد وأعلن العصيان على الخليفة .
أما الترك فكانوا يساعدون الخليفة ويطاردون دبيس ابن الأمير

- ٢٠٧٢ -

صدقة ، فترك المسلمين والتجأ الى الأفرنج وقادهم ضد حلب ليأخذوها له ، أما البرسقي (١٤) حاكم حلب فجمع عسكرا ليهاجم الأفرنج، حينئذ رجع الأفرنج الى بلادهم ، فدخل البرسقي حلب واطمان وظن انه كسر الأفرنج فسار ضد أعزاز ليأخذها ، حينئذ أتى ملك القدس وجمع الأفرنج وشنوا حربا على البرسقي فهزمه وقتل عساكره ، وخلص هو مع قليلين ، وهرب لحلب وظهر بهذه السنة كوكب عظيم من اليمين الى الشمال طوله كثير وعرضه بعمق بلاد الفرس ، وبقي يظهر مدة شهرين ، وفي سنة ١٤٣٥ ظهرت كواكب متناثرة من بداية الهزيع الثالث من الليل الى الصباح ، وفي سنة ١٤٣٦ صار جوع عظيم في كل المشرق .

وخرج البنادقة الذين هزموا المصريين من عكا تحت لواء رئيسهم الدوقس، وتوجهوا بحسرا الى مدينة صور المبنية في قلب البحر ، وشرعوا بحصارها ، وكان هؤلاء البنادقة يعملون لصالح بطريك القدس الفرنجي .

وبهذا الزمان خلاص بلدوين الملك من أيادي الترك ، وقد افتك بمائة ألف دينار .

وفي سنة ١٤٣٧ قتل الأفرنج حاكم حماه عند كفر طاب ، واحتل الأفرنج جبلة من ابن عمار ، ونزل ملك القدس يساعد البنادقة لاحتلال صور، لكن المصريين سلموا صور لحاكم دمشق ، ولما أتى حاكم دمشق أي طغتكين ليتحارب مع الأفرنج لاقوه في مرج النحاس وقتلوه وكسروه وخلص قليل من عساكره ، وذهبوا الى دمشق ، بعد ذلك اخذ الأفرنج يضايقون صور بكل أنواع الحرب بالبر والبحر ، وأخيرا أخذوها في سنة ١٤٣٧ .

وفي تلك السنة صعد البرسقي مرة ثانية ضد الأفرنج فانكسر ، وهرب ثم أتى للمرة الثالثة فأتى عليه بلدوين ملك الرها فكسره وقتل اثني عشر ألفا .

- ٢٠٧٣ -

وبعد ان اخذ الأمير غازي ملطية جمع الملك عرب ثلاثين ألفا ، واتى ليحارب أخيه مسعود لكونه لم يمض يساعدا أخاه في ملطية ، فتركها لغازي ، وهرب مسعود الى القسطنطينية والتجأ الى يوحنا ملك الروم .

فأما الملك عرب فنزل على قونية مدينة مملكة السلطان مسعود أخوه ، وأما الملك يوحنا فتقبل مسعود بالفرح ، وأعطاه ذهباً كثيراً ، ولما خرج أتى الى عند الأمير غازي ، وانطلقا معا ضد عرب فهرب الى طوروس الأرمني في قليقلا .

وفي سنة ١٤٣٨ بالصيف جمع عرب الترك والأرمن ووضع كميناً وأمسك محمد بن غازي ، وأتى الأمير يونس على عرب ، وانتصر عرب وأمسك يونس ، لكن غازي أتى سريعاً ولما التقوا مع بعضهم انكسر غازي في البداية ، ثم صعد الى مكان مرتفع ونصب خيام معسكره وأمر أن يضرب بالأبواق أن عرب قد انكسر ، فاجتمع عسكر عرب على أصوات الأبواق وراوا خيام غازي ، وكان قد حل الظلام فتبددت عساكر عرب ، حينئذ طاردهم غازي ، وأخذ خيامهم وخيولهم ووصل الى قومان وانقرة وقاتلها بشدة حتى تملك عليها ، وأخرج ابنه محمداً الذي كان معتقلاً هناك ، وبعد هذا جمع عرب أيضاً العساكر وبدأ يضطهد الناس ويحتل القرى ، وقد احتل قلعة وجد فيها ولد من أولاد غازي اسمه يمن فقتله ، فغضب غازي جداً ، وجمع جيشاً ومضى ضد عرب ، فانكسر عرب وهرب، وأخذ الأمير غازي يخرب القرى بغير رحمة، ثم جمع عرب عسكراً وزحف أيضاً نحو الأمير غازي فانكسر ثانية عرب وهرب ليمضي الى بلاد اليونان فهلك .

كل ذلك صار بين الترك الذين في غضبتهم على بعضهم بعضاً كانوا يحتمون بالمسيحيين .

في سنة ١٤٣٨ خرج من رومية بوهيموند بن بوهيموند الذي كان أبوه أميراً نطاكية وحمل الاسم نفسه وكان واحداً من الأوائل الذين

- ٢٠٧٤ -

خرجوا وملكوا ، فأتى هذا متكبرا متغطرسا ، فأراد ان يستعبد الأفرنج فانقسموا على بعضهم ، وحدثت بينهم حروب ، فاستغل ذلك جوسلين ، وغزا ضواحي انطاكية وسبى كل شيء وجدده ، فغضب بطريركهم واغلق البيع وابطل القرايين والصلوات والنواقيس ، وامر ان لا يقبروا الأموات، ولما تضاميقوا اصطلحوا ورد جوسلين كل ماسباه .

وفي سنة ١٤٣٩ اجتمع الترك والأفرنج في منطقة حلب للقتال ، ولما خاف الترك تعهدوا ان يعطوا لجوسلين كل سنة اثني عشر ألف دينار ، وعقدوا صلحا معه ، وبعد ذلك دبر الترك مؤامرة مع اناس من أعزاز فسقوا جوسلين سما هو وستة من فرسانه فمات أولئك الستة ، أما جوسلين فبوساطة الأطباء وبغناية الرب نجا فقتل الذين اعطوه السم هم وأولادهم .

ودخل في تلك السنة يوحنا ملك اليونانيين الى بلاد الأونجريين واستعبدهم .

وفي تلك السنة خرج السلطان الذي كان في ملطية، وسبى أطراف البلاد البرانية، ومضى ولم يتراءى .

وايضا في شهر آب نهب الترك العصاة بلاد ملطية، فلحقهم داود من قلعة زياد وضربهم وخلص الأسرى وردهم .

وفي تلك السنة مات السلطان الكبير غياث الدين وكان هذا حسن السيرة عادلا وشريفا في انتصاراته ، وكان في أيامه امن دائم في بلاده ، ثم ملك أخوه سنجر بن ملك شاه وابنه محمود .

وفي سنة ١٤٤٠ دخل جوسلين الى بلاد آمد وقتل الترك والأكراد الذين في الجبل الأسود ، ونهب القرى حتى باب المدينة لأنه لما دخل الترك الى بلاد الرها كان جوسلين بأنطاكية، دخلت مع الترك عساكر آمد الى بلاد الرها .

- ٢٠٧٥ -

وفي هذا الزمان كان عند حسام الدين حاكم ماردين فارسين
افرنجيين : واحد اسمه بررنول ، والآخر جلارن ، ولم يرد ان
يقتلها لكن الزمه البرسقي واقسم ان لم يقتلها ففسوف يخرب
بلاده، ولما قتلها اتى خبر ان البرسقي ضربه بينما كان يصلي يوم
الجمعة في المسجد اسماعيلي بسكين ، فما دخلت به لانه كان لابس
زردية ، فامسك الاسماعيلي ، ولما تضايق صرخ لرفاقه الاثني
الذين معه وقال : اضربوا من تحت فضربا البرسقي تحت بطنه
فمات ، عند ذلك ندم حسام الدين على قتل الافرنجيين *

كمل هذا الخبر بعون الرب .

وفي سنة ١٤٣٨ كان الشتاء شديدا ، افنى الحيوان
والبهائم ، وحدثت ايضا زلازل في شباط .

وفي سنة ١٤٣٩ في تشرين الثاني حدث زلزال مرتين بالنهار
ومرتين بالليل، وبقيت الارض ترتج اربعين يوما واربعين
ليلة ، وتراعى كوكب مضيء في ثامن ساعة من النهار ، واخيرا انتفخ
كالتنين وسقط .

في سنة ١٤٤٠ تراءت نار في ناحية الشمال في كانون الثاني ، وفي
اذار ، وفي نيسان وكان يظهر على شكل اعمدة شبه منفصلة في
ناحية الجنوب .

في سنة ١٤٤١ اجتمع الافرنج وخيموا حول دمشق لان حاكمها
طغتكين المعروف بفضائله قد مات ، وملك ابنه تاج الملوك ، وامسك
اهل بانياس لكي لاتدخلها قوات الافرنج، فأرسل الافرنج الوفا من
الفرسان والمشاة ليحضروا ما يحتاجون من
القوت ، والتموين ، فصنع الترك كميناً فتضايق الافرنج واخذوا من
حاكم دمشق عشرين ألف دينار ، وعقدوا صلحا ، وعادوا الى
بلادهم على ان يعطوا كل سنة للافرنج خراجا .

ثم مات طوروس الارمني حاكم قليقلا في تلك السنة وقام بعده
اخوه ليون فبدأ القتال معه بوهيموند حاكم انطاكية .

فأما الأمير غازي لما كسر جميع الترك الذين في كبدوكية ملك وحده ، ووصل الى ساحل البحر ، وكان هناك يوناني اسمه قيساندس حاكم ذلك البلد ، فخرج هذا من تلقاء نفسه الى الأمير غازي وسلمه جميع القلاع التي في بحر بنطس ، وأعطاه مكان في بلاده ، واعتبر نفسه من عداد جنوده ، فلما قويت شوكة الأمير غازي في ذلك الزمان سمع بأخبار طوروس فأرسل عساكره الى قليقلة، وكان بوهيموند ايضا والأفرنج قد وصلوا من الجانب الآخر، لكن لا الأفرنج كانوا عارفين بوصول الترك ولا الترك كانوا عارفين بوصول الأفرنج ، ولما وصلوا الى منطقة عين زربة رأى الترك انه مع بوهيموند قليل من الفرسان ، فاستغلوا هذه الفرصة وهاجموا فصارت معركة حامية وطويلة انسحب على اثرها الأفرنج الى تل عال ، فأحاط بهم الترك من كل جانب وقتلوهم جميعهم بما فيهم بوهيموند لأنهم لم يعرفوه أولا ، ثم أخذوا رأسه واسلحة الأفرنج ايضا وخرجوا عاندين ، أما ليون فظل قابعا لم يتدخل لصالح اي من الطرفين ، وقتل معظم الفرنجة ، وبعد ما توقف القتال امر الأمير غازي بسلخ رأس بوهيموند وأرسله مع كثير من الهدايا والخيل الى الخليفة في بغداد فقابله الخليفة بالرضا ورفعته الى مكانة عليّة خاصة .

وفي تلك السنة اعطى سلطان خراسان الموصل لابن البرسقي ، وقد قيل عنه انه كان ماهرا جدا في الحكمة والعلوم وعارف بتكوين السمج والبنيان، وكذلك شجاع وجبار في الحروب ، لكنه لم ينجح لأن النجاح والنصر هو من الله ، وقد عاش ثلاثة اشهر فقط في السلطة ، ولما وصل الى الرحبة ادركه الأجل ومات ، ويظن انه قتل بالسم .

وزحف بعده ضد الرحبة مسعود بن أق سنقر ، وأقام وحاربها حربا قاسية ، وهذا مات بالسم ايضا .

أما جوسلين فقد هاجم رأس العين ، وقتل عددا كبيرا كان أغلبهم من العرب مات أكثرهم خنقا والباقي سباهم رجالا ونساء .

ولما مات مسعود بن البرسقي حاكم الموصل كان بها والي اسمه جاولي من غلمان السلطان الكبير ، فاشاروا عليه ان يأخذ مال من خزانة حاكم الموصل ، فأخذ مالا جزيلا وأرسله الى السلطان مع القاضي بهاء الدين الشهرزوري ومعه الأمير صلاح الدين محمد بن أيوب، وأرسل يقول للسلطان اني انا امير لكم ههنا لأنني من عبيدكم ، ولما دخل الرسل الى بغداد وقبل ان يواجهها السلطان التقى بهما رجل اسمه نصير الدين جقر بن يعقوب ، وكان من جنس صلاح الدين فأعلماه سبب مجيئهما فأشار عليهما ان يطلبوا عمار الدين أتابك زنكي قائلا : بهذا يرتضي السلطان لأن أتابك من جنسه ، وكان جبارا ومشهورا وتليق به السلطنة فقبلا مشورته ، واجتمعا أولا مع زنكي فحلف لهما اذا انتصب فسوف يلبي لهما كل ما يطلبان ، فطلب ذلك القاضي ان يكون قضاء الموصل له ولنسله من بعده مادامت ثابتة في مملكة بيت أتابك ، وأن يكون كلهم قضاة ولكافة البلاد التي تحت حكمه فتأمر بأمره وأمر أولاده ، فحلف لهما على ذلك وثبته بكتاب .

وطلب صلاح الدين منه ان يكون حاجبه الخاص ونصير الدين نائبا عنه بالموصل، وأن يكون أمره على كل الرعية .

وعندما تقدا الى السلطان كانا قبل قد غمرا كل الذين حوله بالهدايا ، فأعطى السلطان الولاية لزنكي، وكذلك فعل الخليفة، ثم خرج من بغداد ، وخرج معه عسكر ، ولما اقترب من الموصل سبقه القاضي بهاء الدين والأمير صلاح الدين ودخلا على جاولي وقالوا له : لم نقدر ان نأخذ لك البلاد فأخذنا لك امرا ان تكون واليا بهذه القلعة ، وأمر في كل البلاد ، وأمر السلطان ان يكون زنكي هذا هو واتباعه امامك رئيسا للعسكر ، ولما طأوهم دخل زنكي الموصل (١٥) وقد فتحوا امامه ابواب المدينة والقلعة وملاك في سنة ١٤٤٢ ، وحينئذ صعد واخذ الجزيرة ، وملاك رويدا رويدا كما يقولون ، ويحكون أنه حفظ على تسلسل الزمان عهد بهاء الدين وصلاح الدين ونصير الدين وزين الدين بتمامها ولم ينقض منها شيء قط .

وفي تلك السنة قتل بوهيموند حاكم انطاكية فأتى الملك من القدس وأتى جوسلين من الرها ليمتلكا على انطاكية ، فأغلق أهل المدينة الأبواب وتركوهما خارجا ، وبعد أن بقيا عدة أيام يتشاوران وأخيرا سلم الانطاكيون المدينة لجوسلين لكي يحفظها حتى تتزوج ابنة بوهيموند فتعطيها الى زوجها ويصير حاكما لانطاكية .

عندما كان الأفرنج متوجهين الى باب انطاكية أتى زنكي حاكم الموصل ونهب بلاد تل باشر وبلاد انطاكية ، وضرب الفرنجة وقتل اتباعهم وبعد ذلك دخل الى بلادهم وقتل منهم أعداد كبيرة وأخذ قلعتين .

وفي تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونانيين ليتحارب مع الترك وبنى مدينة على شاطئ البحر، ولما استعد ليلاقي الأتراك غدر به أخوه وجماعة من عظمائه ، ولما أرادوا أن يحبسوه هرب الى الأمير غازي ففرح به جدا، وأكرمه كثيرا، وأرسله الى عند جيراس الى طرابزون .

لكن لما رجع الملك الى القسطنطينية أرسل الذين غدروا به الى المنفى .

أما الأمير غازي فقد نزل على سمندو التي كانت مع اخته وأخذها حربا ، ومن هناك دخل الى بلاد قليقلا على ليون الأرمني ، وأخذ القلاع، أما ليون فقد أقسم أنه لن يدخل أو يرسل لصوصا الى بلاد الأمير غازي ، وكذلك أن يعطي كل سنة جزية لغازي فصدق كلامه ، وتركه وخرج ، أما ليون فكذب ولم يعطه شيئا، ثم أتى الأمير غازي الى ملطية ، فأتى اليه السلطان مسعود ختنة واسحق أخو ملك اليونانيين الذي رجع من عند جيراس ، وبقوا كل فصل الشتاء، ثم مضى اسحق الى ليون فأعطى ليون ابنته لابن أخي الملك مع مدينتي المصيصة وأذنة ، لكن وقعت بعد ذلك مشاجرة بينهما ، وأخذ ليون من اليونانيين كل متاعهم وهرب اسحق وابنه الى عند السلطان مسعود .

- ٢٠٧٩ -

وفي سنة ١٤٤١ ولد اربعة اطفال من بطن واحدة ، وبعد عشرة ايام مات جميعهم فجأة في يوم واحد.

في سنة ١٤٤٢ في تشرين الثاني تراءت نار في ناحية الشمال كانت تلتهب كالجبال ، واخيرا صارت كالأعمدة ، وفي ذلك الوقت سقط كوكب واحد عظيم ومخوف جدا ودوى اثناء سقوطه كصوت الرعود الشديدة.

في سنة ١٤٤٣ تراءى قوس كالغمام بالليل ، وفي هذه السنة اصببت الكلاب بداء الكلب في اكثر البلاد ، وقد اصابوا الناس والبهاائم واحدثوا فيهم ضررا فادحا ، وقال المنجمون : إنه عندما يرى الكلاب الكوكب المدعو (كلب الجبار) سيكلبون .

وتجرا في هذا الوقت رجل فارسي من اهل ملطية ، وخطف الصليب من يد أحد المسيحيين ووضع على احليله ، حينئذ ثار المسيحيون واجتمع اهل المدينة وذهبوا الى الوالى واخبروه ، فأمر الوالى باعتقال ذلك الفارسي وتسليمه للمسيحيين لينتقموا منه كما يريدون ، حينئذ شحروا وجهه واركبوه حمارا ودوروه بالأسواق ، وبعد هذا سمع غازي أيضا ف ضرب الفارسي وطرده من ولايته.

وفي سنة ١٤٤٤ يونانية حدثت زلزلة في ليلة الثالث من شباط ، وفي اليوم الثاني من اب خسفت الشمس ، وفي ايلول حدث زلزال في وضع النهار ، وبعد هذا تراءت اية مخيفة تشبه النار ، وحدث بعد هذا لمدة سنتين قلة بالمطر وجوع في بلاد كثيرة لا سيما في جزيرة قبرص ، ومن شدة الجوع اكل المسيحيون لحما في الصوم الكبير .

وفي الوقت الذي به خسفت فيه الشمس مات اربعون فارس من الاربنة ومعهم اربعمئة رجل مسيحي وابن توما الشماس .

وفي تلك السنة أيضا ولد بملطية أربعة اطفال في بطن واحدة ثلاث ذكور وفتاة واحدة ، فمات الذكور وعاشت الفتاة .

وفي ذلك الشهر ولد خنزير له جثتين ورأس واحد ومات للحال.

وفي هذا الزمان مات اربعمائة تاجر فارسي ، واربعة رجال مسيحيين كانوا قد خرجوا من القسطنطينية ، ماتوا كلهم بالثلج وحدث ذلك في عيد مارتا ودورس.

ومضى جوسلين الى القلعة التي بين حلب ومرعش ، وكان فيها عرب يغيرون في تلك البلاد ، وقد حفروا تحتها نفقا ، فدخل جوسلين ليراه فانهدم عليه للحال ودفن تحت التراب فأخرجوه وهو على آخر رمق ، ثم حملوه الى تل بآشر ، ولما سمع الأمير غازي جمع الأتراك ليدخل لبلاده فأمر جوسلين ان يجتمع الأفرنج وحملوه على حماله وخرجوا ليقاتلوا الأتراك ، وفي الطريق مات جوسلين الثاني ، ولما سمع غازي ان جوسلين قد مات أبدي موقفا نبيلًا ، فأوقف الحرب وأرسل وفدا للتعزية وكتب الى الأفرنج قائلا :

اليوم لن احاربكم لئلا يقال إنني قد انتصرت عليكم بعد ان مات ملككم ، فالآن اذا تدبروا أموركم بكل هدوء،واقيموا لكم رأس وفق نواميسكم،ودبروا بلادكم بالأمن،ولا يكون لكم فكر من ناحيتي ولا من ناحية عساكري.

اما ملك اليونانيين فقد خرج حانقا على الترك وعلى الأرمن ، وقتل عددا كبيرا من الترك على شاطئ البحر وأخذ قلعتين ، ثم مكر به أيضا عظماءه وأرسلوا ليأخذوا أخاه ويملكوه ، ولأجل ذلك رجع عاجلا. اما الأتراك فقد اجتمعوا ودخلوا الى زوسو بولس ولما نفذ زادهم ، وعضهم الجوع ، ولم يستطيعوا أخذها نهبوا البلاد ورجعوا.

اما الأمير غازي فأخذ معه السلطان مسعود ودخل الى شاطئ

البحر فحلا على قلعة اسمها زينين فحاربها لكنهما لم يستطيعا ان يأخذاها، غير انهما اخذا من الروم الذين فيها اربعة الاف دينار واصطلحا معهم.

في هذا الزمان ارسل خليفة بغداد وسلطان خراسان رئاسة لغازي ليكون ملك الشمال ودعي الملك غازي.

فأما جوسلين الثاني فقد مكر به الأفرنج و استعدوا ليمسكوه ، وصارت بينهم فتنة ، ثم اصطلحوا مده قليله ، لكنه لما لبث ان انفجر بينهم خلاف لأن جوسلين الثاني اراد ان يملك على انطاكية مكان أبيه، لكن اهل المدينة وبطريركهم لم يسلموه بل كانوا يحتفظون بها لابنة بوهيموند .

في سنة ١٤٤٤ يونانية (١١٣٣ م) صعدت عساكر زنكي حاكم الموصل على الرها، فخرج الأفرنج فانكسروا وهربوا .

وايضا في هذا الزمان اتى امير يسمى محمد شمس الملوك كان يبغض المسيحيين، فطلب من حسام الدين حاكم ماردين موصعا فأعطاه بلد شخبختان ليحارب الأفرنج، وكان دائما يدخل الى بلاد الرها ويسبي ، فصادفه ستوت فارسا من الأفرنج وحدثت معركة قتل فيها الف تركي ثم امسكوه واحرقوه على باب الرها بعد هذا أخذ جوسلين قلعة شخبختان وهدمها كليا .

وكان الترك مجتمعون في بلاد حلب فدخل عليهم جوسلين ، اما هم فانسحبوا ودخلوا الى بلاد تل باشر فسيبوها فخرج عليهم سبعون فارسا كانوا يتولون حفظ البلاد ، لكن الترك كمنوا لهم وامسكوا بهم كلهم .

وايضا دخل بلاد الترك الأفرنج وسبوا، ولم يوجد احد يقف في وجوههم ، لان الأفرنج كانوا مختلفين مع بعضهم .

وايضا خرج يوحنا ملك اليونانيين وأخذ قسطنطينة بالصليح والقلعتين القريبتين اليها، أخذهما بالقتال ثم هدمهما . (١٦)

- ٢٠٨٢ -

أما غازي الملك فقد أخذ قلعة اليونانيين المدعوه البرا بالحرب وأحرقها بالنار وجعل الشعب عبيدا.

وفي سنة ١٤٤٥ دخل الترك بلاد انطاكية فلاقاهم جوسلين وقتل أكثرهم، وحينئذ اصطلحوا.

وفي كانون خرج حاكم طرابلس نحو قلعة اسمها بارين فحاصرها الترك حالا واستطاع بصعوبة أن يعود الى القلعة ثانية ، فاجتاح الاتراك البلاد الى جبل لبنان ، وشددوا الحصار على القلعة ثانية ، فتضايق الأفرنج الذين بداخلها من الجوع والعطش ، حينئذ وصل ملك بيت المقدس فهرب الترك ، ونزل الملك على قلعة القصير قرب انطاكية وأخذها بالحرب ، ومن هناك توجه الى عم واجتمع هناك الترك كالجراد ففزع منهم الملك أول الأمر ، فطلب جوسلين فأتى وكان مبتعدا لأنه كان يخاف من مواجهه الملك ، فلما أتى جوسلين أخذ يشجع الملك، واشتعلت الحرب فنزل الاثنان عن فرسيهما وطلب الغفران الواحد من الآخر على المشاجرة التي صارت بينهما ، وحينئذ حاربا الترك وغلبوهما وطاردوهما الى القلعة، ولما رجع الملك من الحرب وصوتت الأبواق طلب جوسلين فلم يجده فصرخ الملك وكل الشعب صرخة عظيمة، لكن جوسلين أتى في منتصف الليل.

أما الملك غازي فرجع الى قسطنطينية وأخذها بالحرب وقتل اليونانيين الذين وجدوا بها ، فتألم كثيرا يوحنا الملك وخرج بحدة ، ولكن حدثه لم تغير شيئا لأنه ورد عليه خبر موت امرأته وابنه الذي كان خليفة له ، وكان مريضا أيضا لذلك رجع سريعا الى مدينته.

في سنة ١٤٤٥ أتى جرار مثير الى الرها وبلادها فسالتجا المسيحيون بالمنتجب ماربرصوم ، وأرسلوا وأخذوا يمينه، وفي حال وصولها صارت اعجوبة وارتحل الجراد ولم تتضرر البلاد أبدا.

فأما اليونانيون كعادتهم الرديئة فقد التهبوا حسدا ، فحرضوا بطريك الافرنج ليفتح الصندوق لكي يروا اليمين ، فرفض الراهبان ان يفتحوا الصندوق وقالوا : إذا فعلنا فسوف يحل الغضب على هذه البلاد ، فصاروا يستهزئون بهم قائلاين لا يوجد شيئا في الصندوق ، عند ذلك اضطر الراهبان ان يفتحوه في بيعه الافرنج ، وللحال ارعد الجو وخيم على السماء سحب مظلم ، ونزل برد هائل امتلات منه الاسواق ، وصار الشعب كله يصرخ باكيا : يارب اشفق ، ايها القديس ماريصوم تحزن .

اما الافرنج من الكهنة والشعب والبطريك فقد خروا امام الصندوق باكين، اما اليونانيون فقد هربوا واختفوا، ولما هدا البرد اجتمع الشعب واقاموا الصلوات لمدة ثلاثة ايام.

اما اهل حران العرب فانهم لما سمعوا بهذا الاعجوبة اتوا وطلبوا من الراهبان ان يأتوا بالانذيرة الى عندهم فلم يفعلوا ، ولما رجعوا الى الدير مضى اهل ملطية وجلبوا رفات القديس ، وخرج كل الشعب بالدعوات والصلوات ، وفي ذلك الوقت لجم فم الجراد ولم يعد يؤذي الزروع قطعاء بل خرج الى الاراضي البور والمفلوحة والتهم القش فتعجبت كل الشعوب وكل لسان مجد الله حين راوا هذه الاعجوبة، وازداد مجد الله بقديسيه ، فأما الشعب فبقي يصلي وكان يفرق الصدقات ، ورجع عدد كبير الى طريق البر ، وقد صنع الرب اعجوبة اخرى وهو انه كان يدخل الجراد الى حقول القطن ويأكل القش ، ولا يضر بالقطن ، وهكذا كان يفعل في حقول الحبوب والسمسم وغيرها.

في سنة ١٤٤٦ خرج من ايطاليا فرنجي اسمه دي فوتيرس واخذ ابنة بوهيمند الذي قتل وملك على انطاكية.

وفي تلك السنة مات بلدوين ملك القدس.

وفي تلك السنة اتى زنكي حاكم الموصل الى سورية وحل على حلب، وكان بها والي عربي فأغلق الأبواب ، لكن اهل المدينة كانوا

يعرفون والد زنكي الأمير أقسنقر ، وكان قد ملك عليهم وكانوا يشيدون باستقامته وعدله في احكامه ، وكانوا يعرفون زنكي ايضا لانه ولد بالمدينة وتربى، فتوجه الشعب بحماس وفتح الأبواب وأدخله. (١٧)

أما الوالي فقد هرب الى القلعة فحاربها وأخذها ، وأمسك بالوالي وقلع عيذه وأرسله للموصل، وبالمقابل صنع مع أهل المدينة خيرا ، وأصطلح مع الأفرنج ، ثم رجع الى الموصل بسبب مشاجرة بينه وبين الأمراء.

وفي تلك السنة أرسل خليفه بغداد وسلطان خراسان للأمير غازي حاكم ملطيه أربعة أعلام سوداء وطبولا تضرب أمامه كالملك ، وطوق أيضا من ذهب يوضع في عنقه وصولجان من الذهب ليضرب به بين أيادي الرسل لكي تثبت له المملكة ولزنيته من بعده، فلما أتى الرسل وجدوه مريضا فمكثوا ينتظرون ، لكن ما لبث أن دنا موته ، وأعطيت الرئاسة لابنه محمد فالبس الذين أتوا الهدايا محمدا ونادوا به ملكا.

وكان الأمير غازي هذا رجلا سفاكا قاتلا يقتني النساء ويحب الجواري، وكان قبل موته بفترة وجيزة قد أتوا له بامرأة ، فأمر أهل ملطية أن يزينوا لها الأسواق ، لكنه كان شجاعا جبارا وصاحب حيله وذكاء وفطنة ، وقد فتح بلاد الروم ، وقتل الأتراك العصاة الذين كانوا بها ، وقد نشر الأمن في بلاده ، وقد حارب وقضى على اللصوص وقطاع الطرق ، وكان يحب الجنود، وكان في وقت موته يزار كالأسد.

ولما ملك ابنه محمد بدأ يسلك ناموس العرب، فكان لا يشرب، وكان يكرم المسلمين ويحكم بالعدل والقسطاس، وكان متفهما جدا ، لكنه كان يهدم البيع. وقد جدد بناء مدينة قيساريه كبدوكيه التي كانت قد تهدمت من مدة طويلة ، وقد بناها بنيانا جميلا بحجر من الرخام الأبيض كان يأخذه من الهياكل الجميلة التي كانوا يهدومونها ، وقد

- ٢٠٨٥ -

اتخذها عاصمة له ، ثم انتقل في تشرين الاول الى ملطية اي في السنة التي ملك بها، وهي سنة ١٤٤٦ وكان أهلها يتوسلون أن يخفف عنهم المظالم التي وضعها أبوه .

لكنه ما لبث أن مضى في تشرين الثاني وقد استعجله في ذلك السلطان مسعود ، وخاصة عندما أخبره بأخبار ملك اليونانيين ، ولم يصنع خيرا لأهل ملطية، بل على العكس أخذ معه أولاد الأحرار رهائن.

وفي هذه السنة عصى ابن داود أرسلان طغميش في قلعة زياد ، وامسكه أبوه ووضعوه في السجن ، كذلك عصى على الملك محمد أخواه : يجن ودولت، فقتل يجن، أما دولت فقد نهب بلاد ملطية.

في هذه السنة أخذ زنكي من الأفرنج دارا وزردنا بمعا هذه سلام ، لكنه أخذ فيما بعد بضايقهم ليعلموا إسلامهم ، وتزوج بابنة حاكم القلعة (١٨) ، ولما أتى الأفرنج هرب زنكي.

وفي تلك السنة دخل أترك ملطية الى بلاد الأفرنج وسبوا ورجعوا

كان في دمشق بهذا الزمان حاكم يسمى تاج الملوک بسوري بن طغتكين وكان له وزير يسمى أبو علي (١٩) من طائفة الاسماعيلية وبسبب هذا صار للاسماعيلية دار في دمشق تدعى دار الدعوة ، وقد قوا بوساطتها لأن كل من كان يدخل إليها ويتفق معهم كان لا يدفع الجزية ، وكان فيها مدبر من القدموس ، وهذا أيضا كان اسمه أبو علي ، ويدعى الشيخ ، فعرض فجأة أن واحدا من عظماء المدينة اسمه أبو الذواد ، أو ابن الصوفي أن قتل الوزير بالاتفاق مع الأمير، فغضب الاسماعيلية كثيرا ، واجتمعوا في دارهم واستلوا سيوفهم وبدأوا يقتلون ويذبحون ، ثم اجتمع أهل المدينة وكل الشعب بلا استثناء في ذلك اليوم وكان عددهم سبعين ألفا من العرب ، وقد تمكنوا من إفناء سائر الاسماعيلية ، ثم دخلوا سرا وقتلوا الأمير بوري، وأخيرا بقي رجلا من الاسماعيلية .

وفي سنة ١٤٤٦ سار من مصر بهذا الزمان ملك إلى دمشق ، وكان من العرب ، وكان يملك في مصر، لكن هذا مكربه ابنه وأراد أن يقتله ويملك مكانه ، ولكن لما وجد هذا الملك أن شعب العرب يتبع ابنه ويجله استنجد بالأرمن الموجودين في مصر وكانوا قد دخلوها منذ أن صعدوا لسورية ، وقد كثروا وصار لهم في أرض مصر جاثليق واساقفة، وكان اسم الجاثليق هذا بهرام ، ولما اجتمعوا عند الملك اشتبكوا بحرب مع التابعين لابن الملك ، وفي رشق السهام انكسر العرب وقتل منهم الوف، وأمسكوا ابن الملك وقتلوه بموافقة والده . (٢٠)

وفي هذا الزمان أيضا تحارب زنكي عماد الدين حاكم الموصل مع أمراء ماردين وحصن كيفا تمرتاش وداود ، ولما كان حسام الدين تمرتاش بين دارا ونصيبين في موضع يدعى سرجه أتى إليه ركن الدولة ابن عمه، فحاصروا زنكي بجيش عظيم، فخاف منهم لأنه علم أنه لن يقدر أن يقاومهم ، فأمر أن يلبس كل واحد من عساكره درعه ، ويسل سيفه ويقف في باب خيمته، فوقفوا كلهم مثل سور حديدي وبقوا من الصباح إلى الغروب ، حينئذ وفجأة حدث خلاف بين حسام الدين وابن عمه، عند ذلك أخذ ابن عمه عساكره وصعد إلى ناحية الجبل فتبددت العساكر ، وقوي زنكي وطارد حسام الدين ، فهرب الفرسان إلى ماردين وهلك من الرجال خلق كثير، وبعد هذا اصطلحوا بوساطة الرسل (٢١) ، لأن زنكي احتاج أن يمضي إلى سورية ، لأنه كان هناك الأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة ، وكان هذا منذ زمن بعيد يريد زنكي أن يمسكه ، لأن هو وحده فقط بقي من العرب ، ثم اعتقل هذا في أرض فلسطين ، فأرسل زنكي وأحضره إلى الموصل وأقام عليه حراس (٢٢) .

وفي هذا الزمان اختلف الخليفة المسترشد بالله مع زنكي لأنه رفض أن يرسل له دبيس بن صدقة ليقتله ، لأنه كان يبغضه ، فجمع عساكره والتقى الجانبان مع بعضهما فانكسر زنكي وهرب فطارده عساكر الخليفة حتى سور تكري ، لكنهم رفعوه من السور بالحبال

وخرج ليلا من تكريت ومعه فارسين فوصل الموصل ، وخرج الأمير دبيس من الحبس وأعطاه مالا وأرسله ليجمع العرب ، وكان زنكي يجمع الترك ويتأهب ليزحف نحو الخليفة ، ولما اجتمعت العساكر جمع الخليفة قواته أيضا ، وبعد حروب متفرقة انكسر أيضا زنكي وهرب دبيس الى سلطان خراسان ، اما الخليفة فصعد الى الموصل ليخرج زنكي من المملكة ، اما زنكي فقد حصن المدينة وأقام فيها نائبه نصير الدين جقر ، ولم يستطع الخليفة قهره ففعل راجعا (٢٣) .

وبعد هذا بينما كان الخليفة المسترشد راقدا بالخيمة وقت الظهر عند باب مدينة مراغة وسط معسكر مسعود سلطان خراسان ، دخل عليه عشرة رجال فقتلوه ، فقام الراشد بعده (٢٤) .

في سنة ١٤٤٦ صار زلزال عنيف في بداية تموز وايضا في نصف تموز ، وفي منتصف الليل شوهد كوكب يمضي سريعا فوصل الى القمر وبدا وكأنه قد شقه وجاز في وسطه .

وفي شهر آب ظهر أيضا كوكبان مثل هذا النوع ، وأخيرا سقطا .

وفي ٢٣ ايلول جاء مطر غزير وبرق فأحرق سبعة ثيران وصبي ، وقد أحرق هذا البرق في بلاد سمنو في تركيا واحدا ، فتركه الأتراك ولم يقبروه ، إذ كانوا يعتقدون أن الذي أحرقه الله لا يستحق الدفن .

وفي تلك السنة صار زلزال في أرمينية الكبرى ، وخسفت بها مدينة اسمها بوكوف .

وفي تلك السنة حدث شتاء قاس ، ونزل في بلاد ملطية ثلج أحمر وكان عجيبة جديدة .

وفي أيار جاء جراد لكنه لم يفسد شيئا .

وفي ٢١ تموز نزل نور في منتصف الليل كالقنديل وانتقل من

المشرق إلى المغرب واختفى ضياء القمر والكواكب ، وبقي إلى أن انبلج الصبح .

وفي هذا الشهر في بلاد خراسان كان المسلمون في مدينة اسمها كاشغر مجتمعون يوم الجمعة ليصلوا كعادتهم في المسجد الكبير ، فصارت فجأة زلزلة ، وانفتحت الأرض ، ونزل فيها كثير من الأحياء ، وقد هلك في هذه الحادثة أكثر من عشرة آلاف إنسان .

وفي سنة ١٤٤٧ كان الشتاء معتدلا ، وكان طير الحجل يدخل مع طيور أخرى إلى داخل البيوت ، وكان الناس يتعجبون من ذلك ، لكن بعد ٢٦ كانون الثاني أخذ الشتاء يشتد ، وتجمد الفرات وبقي الأنهار ، وأتى ثلج كثير ، وفي أمد دخلت الطيور والحيوانات إلى داخل المدينة ، فأمر السلطان بأن لا يؤذيها أحد وصاروا يعطونهم قوتا إلى نيسان ، ويقولون إن الطيور التي أكلت من المدينة والقري لما صعدت إلى الجبال اضمحلت في أوكارها .

بمثل هذا عرفنا بأن هذا قد حدث بأمر من عليين ، وذلك لتأديب كل جنس حي، ولا أحد يستطيع أن يمنع ذلك .

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سنة ١٤٣١ يونانية ، وفي ٢٦ نيسان منها توفي ديونوسيوس ابن المعترف ، وسجي جسده في بيعة ملطية الكبيرة ، وقد خدم رئاسة الكهنوت خمسين سنة منها اثنتين وثلاثين سنة اسقفا ، واثنى عشرة سنة مطرانا في ملطية ، وست سنوات بعد ان اخذت منه

في هذه السنين عاشت بيعتنا المستقيمة المجد بهدوء وراحة لان اليونانيين والخلقيديونيين كانوا محصورين داخل بحر بنطش وملك بني ماجوج ، ولم يعودوا يستطيعون ان يضايقوا المستقيمين المجد ، ولا ان يفسدوهم بهرطقتهم ، وعلى الرغم من كون اليونانيون القساة كما قلنا كانوا محصورين داخل البحر فقد كانوا يرسلون رجالا للأفرنج اي الرومانيين الذين كانوا مسيطرين على انطاكية والقدس كما قلنا من قبل رؤساء كهنة في منطقة حكمهم ، وكان رعاتنا بينهم بغير اضطهاد، وبغير حذر لان الأفرنج ، ولو أنهم متساوين مع اليونانيين بازواجية الطوائع لكنهم متميزين عنهم بانواع كثيرة، وبعيدين عنهم كليا في الأمانة وفي العادات ، وكان الأفرنج في هذا الزمان مسيطرين على بلاد فلسطين وسورية ، وكان لهم رؤساء كهنة في كنائسهم ، ولم يطلبوا من اي طائفة قط ان تلتزم بايمانهم لانهم اعتبروا كل من يسجد للصليب مسيحيا.

وعد الاتراك، الذين كانوا ضابطين لأكثر البلاد ، المسيحية عقيدة ضلال ، ومع هذا لم يميزوا قط بين المذاهب ، ولم يكن شرعهم ينص على الاضطهاد بسبب الايمان كاليونانيين الشعب الشرير المهرطقين.

وعندما لم يعد امام اليونانيين الاشرار فرصة ليضطهدوا

- ٢٠٩٠ -

المستقيمي المجد كما كانوا يصنعون من قبل ، لم يتوقفوا مع هذا عن قساوتهم ، بل كانوا في انطاكية ومصر يقيمون لشعبهم بطريك في اراضي المسلمين ، وكانوا يتحركون لكي يشقوا السريان والقبط والارمن كالحية الرقطاء المضروب رأسها ، لكنها تحرك ذنبها ، فلما كانوا بسورية وارمينية وفي فلسطين ومصر مع بطريكننا واساقفة شعبنا واخوتنا الارمن والقبط كان اساقفتهم اليونانيين والخلقيدونيين يعملون بقدر استطاعتهم على تمزيق هذه الشعوب الثلاثة ، وكان اليونانيون الذين في القدس وانطاكية يداومون على الشرور ، وكان رؤساء الكهنة الفرنج يميزون بين كهنة الطوائف الثلاث ويرعون المستقيمي المجد ، وكانوا يقومون ضد اليونانيين ايضا.

اما على حدود الأتراك فكان بهذه الأيام جميع المستقيمي المجد مرتاحين من ضرر الخلقيدونيين ، وكانت البيعة هادئة.

اما عن فتنة البطريرك مع ابن صابوني ومع المطارنة الشيوخ الثلاثة وهم: ابن المعترف الذي أخرجه من ملطية واسقف قليسوره واسقف طور عبيدين الذين حرّمهم البطريرك ، ولم يكونوا من اصحاب البدع ، ولم يجاوزوا القانون وانما فعل ذلك لانهم حقروه ، وكان قد توسط لهم اناس كثيرون ولم يقبل ، فقد مات اولئك المطارنة وهم محرومون ، ولهذا السبب ضعفت الأمانة بين كثيرين

وكان اثناستوس السادس بطريك السريان (١٠٩١ - ١١٢٩) وهو المعروف بابي الفرج بن كامرا قد غضب على ابي غالب باسيل بن صابوني مطران الرها وحرّمه وأبطل الصلوات والطقوس في كنائسه من نصف الصوم الكبير حتى أحد العنصرة ، وأعاد جميع الرسومات التي أجراها المطران ، فحنق المطران باسيل على بطريكه وسار الى انطاكية ورفع الدعوى عليه الى بطريك الفرنج واساقفتهم وأربابهم فأوفدوا في طلبه من دير اللاقشر في كوره قاسينا ، وأدخلوه الى كنيسة القسيان مرحبين به

وسألوه أن يغفر لمطرانه ويصلي عليه ، فأبى ، فثقل ذلك عليهم واستوضحوه السبب بواسطة ترجمان فقال لهم أن المطران مذنّب ومجرم ، غير أن الترجمان نقل اليهم كلام البطريرك على غير صحته فقال : لقد نعته بالمجرم لأنه مديونا له بذهب وافر ، فقال الفرنج إن كانت المسألة مسألة مالية فتلك شيمة سيمون الساحر ولا يحق للبطريرك أن يتشبه بها ، وبعد أخذ ورد طويل وعدهم البطريرك بأن يصلي على مطرانه ويغفر له ، فألح عليه رؤساء الفرنج أن يكتب له صكا بذلك ويطلقه ، ودفعوا اليه قرطاسا ليكتبه حالاً دون توقف ، فلما أخذ البطريرك القلم التفت الى ابن صابوني وكان واقفا بالقرب منه وقبل له : انظر يا أبنا غالب الى أي ذل أوصلتني ، فقال له أبو غالب منتقما : إن كنت أنا أبو غالب فأنت أبو الفرج ، فما كان من البطريرك إلا أن ألقى القرطاس ومد عنقه ، وقال للحضور اقطعوا هامتي فإنني لن أحله ، فتأثر أحد الاساقفة وقال لأعضاء المجلس : دعوا البطريرك ومطرانه وشأنهما ، فأرفض ذلك المجمع دون جدوى ، وخرج البطريرك اثناسيوس من الكنيسة وخرج معه جميع الملتزمين وانطلق الى كنيسة والددة الرب ببيع السريان في انطاكية.

أما رؤساء الفرنج فأرسلوا يخرجون عليه مغادره انطاكية قبل أن يعقدوا مجمعا ثانيا لاعادة النظر في تلك الدعوى ، فظل البطريرك محجورا مدة خمسة ايام لا يسوغ لأحد أن يفتحه في المسألة قطعا. غير أن بعض الكهنة السريان قصدوا عبد المسيح الفيلسوف الرهاوي الملكي صديق البطريرك ، وسألوه أن يسعى في حسم تلك المشكلة فصار اليه وتفاوضا مليا ، ثم ان البطريرك قصد الملك رجير صاحب انطاكية في تحف وتقادم واستأذنه في العودة الى دبره ، فأطلق له الحرية في ذلك بموافقة البطريرك الانطاكي.

لكن البطريرك اثناسيوس بعد أن خرج من انطاكية بالتهديد لم يعد يرضى أن يبقى تحت حكم الافرنج فترك بلاد انطاكية ، ومنى الى مدينة امد التي بين النهرين التي كانت مرعية مخصصة لكرسي

البطركية . ولما جلس في دير قنقرت (٢٥) زادت الضغوط على الرها فأغلقوا بيعتها ونزعوا ناقوسها بسبب ابن صابوني ، ولذلك صار فساد كثير بين الرعية في الرها وتمرد الكهنة وقاموا ضد بعضهم بعضا ، وصار الشعب يترك بيعهم ويمضي الى الكنائس المخالفة لنا في الايمان ، ومن هنا اعتاد الرهاويين ان يعمدوا اولادهم في كنائس الافرنج دون ان يتألموا او حتى يهتزوا بل لم يخطر على بالهم هذا قط ، وقد تضررت كثيرا بيعة مستقيمي المجد بهذا الاضطراب الذي صار بين الرعايا..

اما مار اثناسيوس فقد ظهر له في امد عدو شرس ، فقد كان في رعية امد اناس معروفين يدعون بني قريبا يسكنون في قرية قنقرت، وكان اباء هؤلاء في الماضي قد اختلفوا مع ابوي البطريك ، وكانت عشييرتهم تدعي بني كامرا وكان لبني قريبا هؤلاء دور وحقول ، وكانوا متسلطين بالمكان ، ولما مضى البطريك وجلس في دير قنقرت صار بينهم وبين البطريك خلاف حول بعض الحقول وصاروا يذمون البطريك امام الحاكم ، فطلب الحاكم من البطريك ان يغفر له فرفض، فاستشاط الحاكم غضبا وامره ان يلزم دير قنقرت والا يخرج منه ، فما كان من البطريك الا ان حرم الشمساس ابن قريبا الامدي فاحتدم الشر ، وكثر الاضطراب بينهم ، وامتد ايضا الى امد وباقي نواحي الأبرشية ، فتضايق كثيرا البطريك كما سنوضح هذا فيما بعد، وفرص الحاكم على البطريك اثناسيوس بسبب حرمانه لاسحاق ابن قريبا ان لا يخرج من امد لانه طلب منه مرارا كثيرة ان يفك حرمانه ، ورفض كذلك عندما اتى ايضا الامير بنفسه الى دير قنقرت وسأل البطريك ان يفك حرمان اسحاق ، فلم يقبل لكنه اطفأ غضب الامير بالذهب الذي اعطاه له ، وحينئذ اشار اسحق الشمساس على الامير ان لا يترك البطريك يخرج من امد قائلا ان البطريك رجل شيخ وسوف يموت قريبا هنا ، فتأخذ انت متروكاته ، فبقي البطريك مقيما في امد كانه مسجون ، لكن البطريك اثناسيوس استغاث بجوسلين حاكم الرها وطلب منه ان يتوسط عند امير امد ، فأرسل جوسلين عاجلا الى حاكم امد يقول:

- ٢٠٩٣ -

ان لم تطلق سراح البطريرك فإنني سوف اخرب بلادك ، فأذن للبطريرك ان يمضي فخرج من أمد ، وذهب مباشرة ليشمكر جوسلين ، ومن هناك صعد الى دير مار برصوما ، وكان يوم أحد الغنطيقوسي ، فابتدا بالقداس ولما وصل الى دعاء الروح القدس اضطرب ، وتغير وجهه ، وذهب عقله فلجلسوه على الكرسي ، واكمل مطران جرجر القداس، لكنه مالبث ان عاد الى وضعه الطبيعي ، فرسم مطرانا لشبختان ، غير أنه مالبث ان مرض فبقي سبعة ايام ثم دنا وقت انتقاله، وكان ذلك يوم السبت ٨ حزيران سنة ١٤٤٠ في الساعة الثالثة حيث توفي فجئز وسجي جسده في بيت خزانة الدير .

وفي السنة التي توفي فيها مار اثناسيوس البطريرك توفي ايضا مار قربوس بابا الاسكندرية .

ولما وصل خبر موت البطريرك اثناسيوس الى الرها اجتمع الكهنة بحسب القانون لجنازته ، وفيما كان يشمارك ابن صابوني بالخدمة سقط وذهب عقله فحملوه لقلايته ، وبعد ذلك استعاد رشده، ولما اجتمع المجمع في كيسوم اتى ابن صابوني الى سميساط ليذهب الى المجمع فوقع هناك عن الفرس الذي كان يركب عليه ، فحملوه وأرجعوه الى الرها ومات وتوفي وهو محروم .

وكان رأس المجمع في ذلك الزمان ديونسيوس اسقف كيسوم، ولما اجتمع الاساقفة واقاموا قرعة وقعت القرعة على المعترف رئيس دير الدوائر الذي في نواحي انطاكية ، ثم مضى اسقفان ليأتيا بالمدعو، فتوفي خلال ذلك ديونسيوس اسقف كيسوم واتى بعده الشيخ ديو نسيوس المفريان ، فمضى كل الاساقفة مع المفريان الى تل باشر بعناية جوسلين الذي احاطهم بالخيالة ، ورسموا ماريوحنا المعترف راعي الدير بطريركا وذلك يوم الاثنين من الأسبوع الثاني للصوم في ١٧ شباط ، ووضع عليه اليد ديونسيوس المفريان في بيعة الأفرنج الكبيرة ، وكان جوسلين وعظماءه واقفين بالخدمة ، وبوساطة جوسلين صنع البطريرك والمجمع حلا لابن

- ٢٠٩٤ -

صابوني وايضا لمطران شبختان الذي كان قد ترك رعيته فحرمه
البطريك بمرارة ، وأمر أن لا ينقبل في البيعة ، وقد عاد وقبلوه بعد
توسط جوسلين ، وأعطوا له كرسي سمندو الذي كان راعيه قد توفي
فانقبل هناك مدة قليلة ، لكنه مالبث أن طرد من هناك فمكث بغير
رعية كل زمان حياة ماريوحنا ، وبعد موت هذا البطريك ايضا
اشفقوا عليه فأعطوه سميساط في رسامه البطريك الذي صار بعد
ماريوحنا ، وهناك ايضا انقبل مدة يسيرة ، لكنهم مالبثوا أن
طردوه تائها من مكان الى مكان ، ومضى الى القدس لكنه لم يستطع
البقاء في ديرنا هناك ، ثم مضى الى الأفرنج المدعويين
داوية ، واخيرا سقط في تنور النار واحترق ، وصار عبرة كيف
تكون اخرة الذين يدوسون قوانين البيعة المقدسة ، ويحرمون الرعية
من الرعاية لأن البطريك قال له ان تترك رعتك في شبختان فلن
تستحق الا المقبرة .

فصل آخر حول أخبار البيعة في هذا الزمان

بعد رسامة ماريوحنا البطريك وقّع شجار بين الأساقفة في المجمع لأن ديو نيسوس المفريان كان يريد زيادة على رعيته ، فقام كل الأساقفة في وجهه عند ذلك خرج غاضبا ، ووصل الى آمد واراد ان يقيم بطريركا آخر ويعزل الذي قام ، لكن الرب المهتم ببيعته في كل وقت ومزيل الأفكار الأثمة أوحى الى حاكم آمد في ديار بكر ان يطلب اعتقاله، وبصعوبة استطاع ان يفلت ، ولما رجع الى رعيته بقي صامتا لا يأتي بأي حراك .

أما في كرسي الاسكندرية ومصر وبعد قسريوس قام مقاريوس ، وبعد ان توفي هذا في تلك السنة التي توفي بها ماراثناسيوس ارتسم تاودوروس ، لكن هذا وجد بعد مدة انه هرطقي تابع للاشقي يولياني الخيالي ، ولأجل هذا نفي وصار ميخائيل بطريركا لكرسي القبط ، وبعد هذا أصبح جبرائيل بطريركا لكرسي الاسكندرية ، وكان هذا متعمقا بالعلوم وماهرا جدا في الخط واللغة العربية ، لكونه رأى ان كل الشعب القبطي يتكلم اللغة العربية ويكتب بالخط العربي ، لأن مملكة العرب تثبتت في الزمن الذي تقدم في كل تلك الأرض ، فاهتم وتعب ونسخ كتابي العهد القديم والجديد وباقي الكتب ، ورتب الخدمات الكهنوتية في الخط العربي لكي يفهم السامعون ، ويقرا كل الشعب الكتب المقدسة .

وأما البطريك ماريوحنا فقد مضى الى دير مار برصوما وجمع الأساقفة وحرم المطران ماريوحنا بن اندراوس لأنه لم يقبل البطريك لما مر في رعيته ، لكن كل الناس اجمعوا ان هذا السبب لا يوجب الحرم الذي قطعه عليه .

ترك بهذا الزمان بسيليوس بن السمنة أسقف كيسوم رعيته ، بعدما أبدى شكوكه حول صحة حرمان ابن

اندرائوس ، وامتنع من الرعاية ، كان ليس بالناموس واجب تدبر
امور البيعة ، ومضى الى دير المتوحدين الذي على شاطئ الفرات
المدعو دير القنابة وجلس هناك بالخلوة،وعندئذ اشار اناس على
البطريك ان يجعل من كيسوم كرسي البطريكية عوضا عن امد
لكونها في حكم المسيحيين ، وبعد ان صارت كيسوم باسم البطريك
خمس سنين،وبعدما رسم البطريك لامد مطران هو
بسيلوس ، رجع ابن اندراوس الى رعيته ، وبناء عليه رجع ايضا
بسيلوس بن السمنة الى كيسوم،وفي هذا الزمان ارتسم للرعا
مطران اسمه باسيل ، وكان رئيسها وقد دعي باسم اثنا
سبوس ، وبعدما استقام بها سبع سنين توفي في سنة ١٤٤٧ ، وفي
تلك السنة توفي ايضا اياونيس مطران ملطية ، وهو المعروف باسم
اليشع ، ووقع بعد موته خصام كبير بين جماعة الاكليروس حول
انتخاب راع لها ، لأن باسيلوس اسقف جيحان ، الرجل الماكر
الكثير الحيل ، والذي كان دائما من قلاية البطريك جالس لاجل
امور الكتابة وتدابير البيعة ، كان يمانعهم لئلا يرسموا مطرانا
لملطية ، لانه كان مصاب بمرض الشراية،وطمع ان يأخذها زيادة
على رعيته ، وكان البطريك القديس في وداعته ينجذب خلف
باسيلوس وتدابيره ، وهكذا بقيت ملطية ثلاث سنين بلا
راعي ، لان كل من روي اهلا للمنصب ورشح لكي يصير
مطران ، كان ينقصه اسقف جيحان عند البطريك ويسمه بكل نوع
من انواع المذمة ، والبطريك كان يصدق كلامه ، حينئذ اختار اهل
ملطية ان يرعاهم المطران الربان يشوع الشمس المعروف بابن
قطرة من المدينة، وارسلوا رسالة اتفقهم وعمموها ، فلما نظرها
اسقف جيحان كتب على لسان البطريك حرمانا كبيرا على يشوع

مقتل دبيس بن صدقة

هرب الامير دبيس الى عند السلطان ، لكنه لما احس أنهم
يريدون ان يقتلوه تحيل ليفلت ولم يقدر ، ثم قال كلمة محزنة الى

متى اتشرد واطارد ، ليس هناك افضل من الموت ، وذات يوم بعد ان اكل خبزا من مائدة السلطان ودخل السلطان للبيت الداخلي ، خرج أحد الخصيان وقال له ان السلطان يأمرك بان لاتمضي بل اجلس واقرا هذه الرسائل ، ولما بدا يقرأ الرسائل قام احد الواقفين خلفه فضربه وقتله .

في سنة ١٤٤٧ ابتدا الخصام بين الارمن والافرنج ، وكان ميخائيل الارمني قد خرج بايام بلك من قلعة جرجر وتركها ، ثم عاد بعد مقتل بلك ايضا فسرقتها وسكن بها ، وحينئذ وقفت بوجهه الطائفة المدعوة سيبرك وصار ينهب قراهم وهم ينهبون قراه ، وفي احد الاوقات ادركه الترك في كور زيزونا وهو على شاطئ الفرات فأحاطوا به من كل جانب، ولما لم يجد سبيلا للخلاص طرح نفسه من اعلى الصخور الى النهر ، وكان يلبس درعه ويمسك ترسه في يده فغرق بالماء ، لكن ماليت ان انقذه زورق كان حاضرا هناك ونجا ولم يمت ، حينئذ اعطى جرجر لجوسلين ، واخذ سفرس ، لكن جوسلين باع جرجر لباسيل اخي جاثليق الارمن بخمسمائة دينار ، ثم ندم ميخائيل واراد ان يرجع اليها ، ولما رفض ان يعطيه اياها جوسلين جمع عسكرا ودخل ونهب بلاد كيسوم ، فخرج عليه الافرنج ، وقتل بغير قصد بل عرضا .

- 156 -

العاصي فصادوا سمكا واكلوا منه فمات في الحال اكثرهم وقد صارت هذه اما بفعل ما ، او بضربه من العلي ، اما الذين بقيوا على قيد الحياة فأسرعوا بالهرب خوفا من الموت وتركوا المنهوبات .

مصرع الخليفة الراشد

بعد ان اتفق مسعود سلطان همذان مع داود السلطان ، ولما سمع الخليفة انهما اتفقا فزع ففرقهما بالسرا ، واتى ليحارب مع مسعود ، ولما نظر ان داود ختنه لم يأت ليساعده علم ان الخليفة وعده ان يعطيه المملكة وحده ، فتحارب مسعود مع الخليفة اولا وكسره وامسكه وربطه بالحديد ، ثم طارد داود وهنا صار كما هو مكتوب ان الخليفة قتل في معسكر مسعود على باب مراغه وقام بعده الخليفة الراشد ، ثم طارد مسعود داود لانه هرب الى ارمينية وسبى ، وخرج الى الموصل الى عند زنكي ، اما هذا فلكونه ند لمسعود حمى داود ، ونزل معه الى بغداد وارسل الخليفة ان تعطي السلطنة الى داود اما هو فكان يخاف من مسعود ، وظل يعدم من وقت الى وقت مدة عشرة اشهر ، حينئذ امتلأوا غضبا ونهبوا بغداد الشمالية كلها ، وعند ذلك التزم الخليفة واوجب السلطنة لداود ، فسمع مسعود وصعد ، اما الخليفة فقد ترك بغداد واتى مع زنكي الى الموصل ، ولما وصلوا وسمعوا ان الوالي الذي في نصيبين تمرد على زنكي وصار مع حسام الدين حاكم ماردين ، اتى زنكي على نصيبين وكان معه خليفة بغداد والسلطان داود ، فأصلح نصيبين ورجع الى الموصل ، اما الخليفة فنزل الى بغداد واصطلىح مع مسعود بوساطة الرسائل ، ونزل الخليفة الراشد الى خراسان وانتهت مملكة العرب كليا وصار الخليفة مستعبدا للأتراك .

اخبار البيعة لهذا الزمان

انتقل بهذا الزمان باسيليوس بن السمنة من كيسوم الى الرها وكان يلام لانه لم يكن مأمورا بذلك ، وقد كتب مقاله دافع فيها عن نفسه ، ونفى ان يكون قد صنع ذلك حتى كتب له البطريك والمجمع ، وانه لم يفعل ذلك تنفيذا لامر الاسلطان او الرهاويين - كما قال - . والحقيقة ان الرهاويين كانوا ضد البطرك ومختلفين معه وكانوا يرفضون ان يعترفوا به او يرفعوا رئاسته في البيعة اذا لم يصبح باسيليوس مطرانا فاختار البطريك امون الشرين وثبت ابن السمنة مطرانا للرها ، فاسكتهم بذلك ، ولما رجع جوسلين من القدس بعد ان شارك في تتويج ملك جديد ، ذهب البطريك وكل الاساقفة اليه وقابلوه فأعطاه انية الكنيسة وجرة الميرون وهي الذخائر التي كان قد خطفها من دير مار برصوم من قبل .

في سنة ١٤٤٨ هاجم يوحنا ملك اليونانيين بعنف قيليقية غاضبا على لاون الارمني واخذ مدائن طرسوس واذنة والمصيصة وغيرهم وبعد ان اخضع كل البلاد امسك لاون وامراته وبنيه وارسلهم الى القسطنطينية حيث مات لاون هناك ، اما امراته وبنيه فقد خرجوا فيما بعد وملكوا ايضا على تلك البلاد.

اما ملك اليونانيين بعد ان ملك في قليقية وارسل لاون الى القسطنطينية ، زحف نحو انطاكية وهاجمها لكنه لم يقدر ان يأخذها لذلك اتى اليه جوسلين واصطلحا على شروط: ان اخذ الملك بلاد سورية ، اعني حلب وغيرها ، يعطيها للافرنج والافرنج يعطوه انطاكية ، كما سلف ووعدوا ابيه الكسيس ، وعلى هذا العهد خرج اليه ريمند حاكم المدينة وبخل الملك يوحنا الى انطاكية ، وفيما بعد لما نظر انهم يريدوا ان يضللوه رجع الى قليقية ، فمضى اليه الافرنج واتفقوا ايضا واتى الملك معهم ، ونزلوا الى حلب واخذوا قلعة بزا عا

- ٢١٠٠ -

ووضع المجانيق ضد شيزر ، حينئذ خرج السلطان مسعود من قونية وبذل الى قيليقية واستولى على اننة بالحرب ، وسبى كل سكان البلاد وكذلك الاسقف واحضرهم الى ملطية ، فلما سمع الملك احرق المنجنقات ورجع الى قيليقية ، واصطلح مع السلطان وبذل القسطنطينية.

وفي تلك السنة هجم بدمشق رئيس العسكر البغش ايضا على سيده شهاب الدين وقتله (٢٧) . وجمع زنكي عسكرا وبذل ناحية طرابلس ، ولما خرج حاكمها ابن صنجيل نصب له الترك كمينا وقتلوا جميع الافرنج ، وقتلوا معهم ايضا ابن صنجيل واحرقوا طرابلس العالية بالنار ، وسبوا كل البلاد ، وحلوا على طبريه ونهبوها ووصلوا الى نابلس التي هي السامرة ونهبوها وخربوها ، فخرج ملك القدس على صوت الضجيج واتى الى رفيه ليطرد منها الترك الذين كانوا يقاتلوها ، لكن هاجم زنكي معسكره بالليل وقتل اكثر رجاله ، اما الذين نجوا فكانوا الملك وقلة من الفرسان ، وقد دام القتال اربعين يوما ، فاما الملكة فارسلت تتضرع الى ريمند حاكم انطاكية وجوسلين ، ولما سمع زنكي انهما يستعدان لياتيا اليه اصطلح مع الملك ورجع .

بهذا الزمان طرد الملك محمد ايضا اخاه دولت واخذ منه ابلستين وبلاد جيحان وبذل دولته لهزيط ، ومن هناك الى امد الى عند جوسلين ، وبقي يجول من ناحية الى ناحية .

وفي سنة ١٤٤٩ كانت الرها سجنينة الاتراك الذين كانوا يسبونهم دائما ، وكانوا لا يتركون سكانها يدخلون ويخرجون بسهولة ، فاجتمع في سميساط عدد كبير من الناس ليدخلوا اليها قوت ونخيرة ، وكان معهم نحو ثلاثمائة فارس من الفرسان الافرنج المسلحين بالرماح ، وكانت جملتهم نحو اربعة الاف نفر ، وكان معهم ابو سعد الشماس الطبيب وفيلوس ، وبينما كانوا ماشين خرج عليهم الترك من كمين بالليل بقيادة حسام الدين حاكم ماردين ، فقتل اكثرهم

- ٢١٠١ -

واخذ الباقي عبيدا ومعهم ابو سعد وميخائيل ابن السمنة وابنه ، ولم يقدر ابو سعد ان يدرك من خلال صناعة التنجيم الباطلة ماذا سيحدث في ذلك اليوم ، واخيرا اخذ حسام الدين تمرتاش من الافرنج ايضا قلعة كسوس .

وفي هذا الزمان دخل السلطان مسعود الى بلاد كيسوم ونهب وسبي وخرج ، وبعد قليل دخل ، ولما رأى ان الجميع هاربون احرق القرى وتركها رمادا ، ومن هناك مضى الى مرعش .

في هذا الزمن تعرض للخطر دير مار ابحاي الذي هو دير السلالم ، فقد كان في قلعة سويرك اناس من الارمن مالكين بها ، وكان جدهم بو غوص قد مضى في ابتداء خروج الترك الاول الى بغداد وخراسان واسلم ، واخذ رسائل من سلطان الترك الكبير ، ومن الخليفة ان يبقى ذلك الموضع ميراثا لولاده ، وقد صارت كل اجيالهم بالتسلسل مسلمين .

وفي هذا الزمان كان هناك امير اسمه عيسى من بني بوغوص ، وكان دجالا وشريرا ويغض المسيحيين بغضا شديدا ، وكان يحقد على ميخائيل وقسطنطين الارمنيين اللذين في جرجر ، وكانا يسرقان ويخربان بلاده ، وهو كان بالمقابل يسبي وينهب بلاد جرجر .

ولما رأى ان الافرنج قد ضعفوا جمع الاتراك ودخل ونهب كل بلاد جرجر، فلما لم يجد في كل البلاد ما يكفي للاتراك من العلف والذخائر ، لان البلاد كلها كانت خرابا توجه الى الكنائس والاديرة لكي يؤمن حاجته منها ، فاتى اولا على دير مار ابحاي ، ولما لم يقدر عليه من ناحية شاطئ الفرات اصعد بعض الرجال الى اعلى الصخور ، ومن هناك نزلوا بالحبال ، وكانوا يقذفون حجارة كبيرة حتى كسروا جانب الهيكل ، وحينئذ خاف الرهبان فخرجوا اليه ، ولما تسلط كليا على الدير نهب واستولى على كل مقتنيات الدير من كؤوس وصواني فضة وصلبان ، وباقي الاشياء الموجودة هناك من زمان مار يوحنا بن عبدون .

- ٢١٠٢ -

وكذلك استولى ايضا على دير القناة واجلي المتوحدين الذين به الى دير شيرو ، وهم الربان داود ورفاقه ، ولم يبق سوى ابو غالب في دير مائده الملك .

لما مات محمود سلطان خراسان ملك اخوه مسعود الدجال القاسي ، وهذا حالما تملك خرج الى بلاد اثور وجعل طريقه على انربيجان ، ودخل الى مابين النهرين، ولما وصل الى دارا نصب خيامه عند البصرة .

وفي سنة ١٤٥٠ ملك محمد وجمع عساكره ودخل الى بلاد قيليقية واخذ من اليونانيين قلعتين: قلعة هاجاني وقلعة جينو فيرت، ثم دخل الى بلاد قاسمينوس التي على شاطئ بحر بنطس ونهب وسب كل الشعب وباعهم عبيدا، وفي تلك السنة صعد زنكي الى دمشق وضايقها جدا ، فالتجأ الى ملك القدس ، وزاد له الخراج فجاء لمعونته فهرب زنكي .

وفي سنة ١٤٥٢ في تشرين اول دخل اترك ملطية الى اديرة زوبر وهي اديرة بيت قصب ونهبوها وخرجوا ولم يوجد من يردهم .

وفي شهر ايار اتى الافرنج لينتقموا لنهب الاديرة من اهل ملطية ، فوصلوا الى زبطره وعرقه فنهبوا ممتلكات المسيحيين لانهم لم يلتقوا بالترك ، وبعد ان مضى الافرنج دخل الترك في إثرهم فنهبوا وخرجوا ، وهكذا كان المسيحيون ينهبون من الطرفين .

ودخل الافرنج الى ابلاستين ونهبوا ممتلكات المسيحيين ، وقتلوا كل من صدقوه من الترك ، او اخذوهم اسرى ، فخرج الترك من هنزيط الى بلاد الافرنج فالتقوا بعشرين مسيحيا منهم القديس مطران قليسورا ، وكان يعبد في جبل ابدهور ، ولكثره حنقهم على المسيحيين ضربوا المطران ومن معه وربطوهم ليقتلوهم ، لكن فجأة سقط عليهم الخوف فهربوا وتركوهم مربوطين ، لكن المطران ومن معه استطاعوا ان يحلوا اربطتهم وهكذا نجوا ، اما الترك فلما

دخلوا الى تلك البلاد قتلهم الافرنج جميعهم بالسيف ، وكان الافرنج منتصرين في تلك الايام لانهم كانوا متفقيين .

وفي سنة ١٤٥٢ ايضا خرج ملك اليونانيين ليتحارب مع الترك ، فخرج للقاءه الملك محمد وبقيت عساكرهم وجها لوجه ستة اشهر ، ثم ابتدا الملك يتقدم نحو نوقيسارية ، عند ذلك غضب الاتراك على المسيحيين الذين في بلاد مملكتهم ، فكان كل من يتلفظ باسم الملك ، حتى ولو بدون قصد ، كان يقتل بالسيف هو وبنيه وبناته وكل اهل بيته ، وكانوا يمارسون ذلك في باقي البلاد في ملطية ، الى ان عاد الملك الى مكانه ، لكنه لم يصنع لا قتالا ولا صلحا ، اما الملك محمد فقد دخل الى مرعش ونهب .

وفي تلك السنة خرج زنكي حاكم الموصل وصنع صلحا مع حسام الدين حاكم ماردين ، وقد تلاقى زنكي وحسام الدين وهما يركبان فرسيهما فنزل زنكي اولا عن فرسه ، ثم نزل حسام الدين وتحالفا وثبتا الصلح واستعدا للحرب مع داود حاكم حصن كيفا وطارياه ، فوجدها متوجهة الى امد ، ولما احس بهما احتمى بسور المدينة ، فاتيا من جنوب المدينة اولا ثم هجما عليه ، ونشب القتال من الصباح الى الغروب ، وفي وقت المساء انكسر داود وهرب، اما عساكره فبعضهم قتل ، وبعضهم اسر ، وبعضهم هرب ، اما ابن داود سليمان فقد اعتقله زنكي واعطاه الى حسام الدين فارسله حالا الى ماردين ، ثم عادا من باب امد ونزلا على قلعة الصور (٢٨) قرب ماردين تحت حكم داود ، فاستعملا المنجنيقات الثلاث وصنعا بهما ثغرة ، وبدءا الحرب فضعف الذين في الداخل ، وطلبوا عهدا للاسلام ، لكن الحاكم رفضا حتى اخذوها حربا ، فقطع الوالي وعبيده كل واحد الى اربع اجزاء ، واعطى زنكي تلك القلعة لحسام الدين ، ثم زاد فاعطاه سيجا وذو القرنين وسكاكن ، ومن هناك توجهها لبرعية، ولما علم بهما حاكم برعية خاف كثيرا وسلم القلعة الى حاكم امد ، ولما اتيا ونظرا حصانه الموضع الذي اعتصم به ، وكان كثيرون قد هلكوا في تلك الحرب تركوه وحلوا على امد واقسما ان

- ٢١٠٤ -

يخربا كل البلاد إن لم يسلموا القلعة، ولما تضايق حاكم آمد سلمه
لحسام الدين ومضى كل واحد لمكانه (٢٩)~

في سنة ١٤٥٠ في تشرين اول تراءت آية حمراء في السماء
ناحية الشمال ، وفي ذلك الشهر صار زلزال ضرب ابراج بزاعا
وابراج حلب ، كذلك كان الشتاء قاسيا من كانون الاول الى شباط ،
وتجلد الفرات وصار الناس يمشون عليه وماتت البهائم والطيور من
البرد في المدن. وفي برية الرقة كان اربعون فارسا يمشون فانخسفت
الارض وابتلعتهم وبقي واحد لانه كان قد خرج لقضاء حاجة
التغوط ، فلم يهلك معهم وبقي صوت صراخهم يتعالى وقتا ، وبهذه
الزلزلة انشقت بيعة حارم ايضا وقرية الاثارب التي في تخوم جبل
قورس ، انشقت في وسطها فخرج سكانها ، ثم انهارت .

وفي تلك السنة لم يات المطر الى نصف ايار ، فصارت الغلة
متاخرة ، وقد صار في يوم احد العنصرة برق شديد ، قتل امرأتين في
ملطية واحدة كانت على السطح والاخرى في وسط السوق وطائري
حر وذلك في تسع ساعات ، وفي ليلة ٢٢ حزيران ظهرت نيازك حمراء
من الجانب الشمالي الى الجانب الغربي .

وفي سنة ١٤٥٢ في ٢٩ تشرين اول صارت زلزلة وكان في العاشر
منه قد كسف القمر ، وحصل موت في ملطية ففني الدجاج اولا ، ثم
الطيور ، واخيرا صار الاطفال يموتون بمرض الجدري .

وفي شهر ايار في عيد مار برصوم اتى برد صعب في هنزيط وفي
قلعة زياد ، كسر الاشجار والكروم ، وفي ذلك اليوم احرق البرق
صبي وبغل .

وفي حزيران من تلك السنة هبت ريح صرصر قلعت الاشجار ،
وسقط في بلاد ملطية في ذلك الوقت برجان في قراها

وفي ذلك الشهر وقعت زلزلة في شاطئ البحيرة في مدينة قيليقية
الصغيرة التي تدعى كالينج ، وفي باقي الاماكن من تلك البلاد ، وفي
كل ساحل البحر ،

- ٢١٠٥ -

وفي سنة ١٤٥٢ يونانية منذ منتصف شهر آب الى بداية شهر
ايلول كانت تتراءى اشعة نورانية من الناحية الشمالية ، وفي الليلة
الثانية من ايلول خرج نور من الشمال الغربي ، وبرق كالشمس ،
فطن الناس ان السماء قد انشقت ،

وفي سنة ١٤٥٤ حرق البرد سميساط كلها

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سنة ١٤٥٤ يونانية اوفد البابا الروماني اونوريوس (٣٠) الثاني (١١٢٤ - ١١٣٠) احد كرادلته الاثني عشر الى بلاد المشرق للنظر في احوال الكنائس والاديرة في البيت المقدس وغيرهما ، غير ان ذلك الكردينال ما ان وصل الى القدس وباشر البحث والتفتيش حتى ادركته المنية ، وقيل انه قتل بالسم ، فغضب البابا واوفد بدلا منه احد مندوبيه الاربعة الكبار، فاصلى ما اصرح، وعزل البطريرك الانطاكي، واقام بطريركا اخر عوضا عنه وتوفى في الحصول على رغباته .

بيد ان الروم اللثام المعتادين على المساوىء والشرور قصدوا مندوب البابا المذكور ، واتهموا السريان شعبنا والارمن مدعين انهم هراطقة ، فارتحل المندوب البابوي الى دلك وزار غريغور جاثليق الارمن واستحضره الى القدس ، وعقد مجمعا صباح الاثنين اليوم الثاني لعيد القيامة بحضور وليم بطريرك القدس واساقفه الفرنج والجاثليق واساقفة الارمن واغناطيوس مطران السريان وفئة من الرهبان ، وجوسلين وسائر الامراء والاعيان وارسلوا يستدعون اساقفة الروم ويقولون لهم انكم قد ادعيتم ان السريان والارمن هراطقة فهلما اثبتوا لنا دعواكم ، فكتبوا لهم الجواب اننا لانحضر المجمع لان ملكنا غير موجود فيه ، لكن الفرنج ارسلوا ثمانية وثلاثة يطلبون حضورهم فابوا وبذلك ابدوا بطلان مزاعمهم .

ثم ان الارمن كتبوا دستور ايمانهم ، وكتب السريان ايضا دستور ايمانهم ، وعرضوهما كليهما على المفوض البابوي وعلى اباء المجمع فنقلوهما الى الايطالية وتلوهما على مسامع الحضور اجمع ، فاثنوا عليهما ، واعلنوا انهما يشتملان حقيقة على دستور الايمان الارثوذكسي ، ولم يكتف الفرنج بذلك بل سألوا الارمن

والسريان ان يبرموا القسم بانهم لايعتقدون قلبا اعتقادا مخالفا لما ورد في ذينك الدستورين ، فالسريان ايدوا ذلك اما الارمن فلامتزاجهم بالخياليين والسييمونيين رفضوه ، وهكذا ارفض المجمع .

في سنة ١٤٥٣ صعد البطريرك ليصلي بالقدس فقام الترك ونهبوا كل البلاد بشمكل فظيع فحربوا واحرقوا قرية حارم .

وفي تلك السنة مات حاكم قونية وملك عليها الملك محمود وفي سنة ١٤٥٤ في كانون الاول مات الملك محمود في قيسارية وامر ان يملك ابنه ذي النون ، فقامت امراته واحضرت اخاه يعقوب ارسلان وتزوجته وملك على سبسطيه، فهرب ذو النون إلى سمنندو وصارت له قيساريه وملطيه، فأما دولته الأخ الأكبر فأتى واتفق مع يونس حاكم مسارا ، وهاجما ملطيه فلم يفتحوا لهما لكي يدخلوا ، ولم يكن لهما القدرة على القتال فرجعا إلى عرقة ، وعند ذلك أرسلت الخاتون أرملة الملك محمود بألفي رجل لكي يحفظوا ملطيه ، ولما عرف الذين بها ان مع هؤلاء أمر بأن يخرجوهم ويخرجوا أولادهم من بيوتهم ويجلوهم إلى سبسطيه ويستوطنوا موضعهم غضبوا وتسلبوا بالسيوف ، وبينما هم يتجمعون في الأسواق خاف المسيحيون كثيرا ، واخذوا يختبئون في الآبار وتحت الأرض لأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يجري ، وكان يوم الأربعاء الأول للصوم في ١٧ شباط ، فاجتمع الأتراك الذين في المدينة أمام القلعة وطلبوا من الوالي مفاتيح الأبواب لكي يخرجوا ويحاربوا القادمين ، فرفض الوالي أن يعطيهم المفاتيح ، حينئذ هجموا وكسروا قفل الباب بالعؤوس وكان يسمى الباب بوريديه ، أما الذي كسر القفل فكان اسمه (بوري) ، وقد تزعم الذين ذهبوا ، أما الباقي فقد وقفوا يحرسون الباب ، فمضوا وأحضروا دولت في اليوم عينه ، ولما نظر الذين في سبسطيه هربوا ، وخرج الوالي وسجد لدولت الذي دخل وملك المدينة فاصطلحت واستراح الأهالي .

وبعد مدة مضى دولت إلى أخيه يعقوب ارسلان واتفقا ، وأتى اخذ

ابلسيتين وملك ايضا على بلاد جيحان ، ولما سمع السلطان زحف غاضبا ضد يعقوب أرسلان ، فخاف ذاك وهرب إلى الجبل اما السلطان ، فخرّب سبسطيه ، ورجع وأرسل دولت لكي يأتي فيقدم طاعته فيعطيه بلادا أكثر ، لكن دولت لم يذهب وأرسل زوجته التي هي بنت أخي السلطان ، وتضرعت إليه ، لكنه لم يقبل ونزل على ملطيه في ١٧ حزيران ، وبعد أن نصب عدة أبراج للحرب سقطت ، فتردد وفتّر عزمه ولم يحارب بشدة ، وبقي ثلاثة أشهر ، كان دولت خلالها يصادر أهل المدينة وخاصة الرؤساء ويعطي جنوده ، وحدث فجأة في ليلة عيد الصليب في ١٤ أيلول أن أحرق السلطان المنجديات ، وارتحل فشعر أهل المدينة بالراحة .

في نيسان من تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونانيين إلى قليقية ليصطاد كالعادة وأخذ سهما مسموما ليضرب به خنزيرا في الغابة فأخطأ في ضربته ، ودخل بيده ففسار السم في جسمه ومات .

وبعد مدة خرج ايضا ملك الأفرنج الذي بالقدس ليصطاد فطارد أرذبا فسقط من عزم الضربة عن الفرس ، ومات، وعندما لحقوا به وجدوا رأسه داخل جثته .

وفي هذه الأيام مات داود حاكم قلعة زياد ، فهؤلاء الأربعة ماتوا في تلك السنة : ملك اليونانيين ، وملك الأفرنج ، والملك محمود ، وداود .

لما توفي يوحنا ملك اليونانيين في قليقية كان ابنه الكبير بعيدا عنه في مدينة المملكة ، فأمر أن يملك ابنه الأصغر فملك منويل ، وكان ذلك في نيسان سنة ١٤٥٥ يونانية .

ولما دخل القسطنطينية قبله أخوه وسجد له وثبتت له المملكة ، وفي تلك السنة مات ايضا ملك القدس وملك ابنه بلدوين لكنه كان طفلا فأخذت أمه تدبر المملكة .

وفي هذا الزمان توفي داود الأمير حاكم قلعة زياد وقام بعده ابنه

الأصغر قرا أرسلان ، وكان ابنه الأكبر عند زنكي فلما سسمع زنكي قدم ومعه أرسلان طغميش بن داود وقدم السلطان مسعود فأخذ حاذي ، ثم تحرك فأخذ أبلستين وكل بلاد جيحان ، وبعد هذا حل على ملطيه ، وجاء معه يعقوب أرسلان ، ولما كان السلطان متوجها إلى ملطيه أتى إليه قسرا أرسلان بن داود وطلب منه أن يساعده لمواجهة زنكي الذي توجه نحوه ، فأعطاه السلطان عشرين ألف فارس ، فمضى للقاء زنكي ، ولما سسمع زنكي أن عسكر السلطان متوجهين نحوه رجع إلى أرضه ، ورجع كذلك قرا أرسلان فاسترجع بلاده التي كانت انتزعت منه فجلس السلطان في ملطيه ثلاثة أشهر دون أي قتال .

وفي منتصف آب ليلة عيد انتقال والدته الرب أمر عساكره أن يستعدوا للرحيل ، فجهز كل واحد حاجاته ، ورحلوا صباحا بعد أن نهبوا البلاد بأسرها ، وخلال هذا الصيف ، عندما كان السلطان متوجها إلى ملطيه ، أتى جوسلين إلى دير مار برصوم ليصلي ، فرأى شعب بلاد قلوذيه هاربين من أمام جحافل السلطان ، فلما سسمع بكثرة عساكره رجع مسرعا إلى أرضه .

وفي سنة ١٤٥٥ في ٢٦ من تشرين الأول ليلة الجمعة صار زلزال فتشقق البيوت في مدينة قونية القريبة من مملكة القسطنطينية ، وخاف السكان وجف النهر الداخل إلى المدينة ، وبعد ثلاثة أيام وبينما كان يجتمع ماتبقى من الشعب ليصلي صار زلزال وفاض النهر وعاد للجريان .

وفي تلك السنة في ٢٣ أذار ليلة خميس الأسرار تراءت آية مخيفة في الغرب بعد غروب الشمس شبه الرمح ، ومكثت نحو ثلاث ساعات وقد تراءت سبعة أيام ، وقيل إنها تدل على الدم .

انتزاع الرها من يد الافرنج

حول زمان المحنة الأليمة التي نزلت بالمدينة الواقعة بين النهرين ، مدينة المسيحيين المجيدة التي ضربها سيف الترك ، وقد سمحت العدالة بذلك لأجل خطايانا .

لما طرد زنكي حاكم قلعة زياد ذهب إلى جوسلين وأعطاه قلعة بابولا (٣١) لكي يعينه على زنكي كما ساعده السلطان مسعود ، لكن جوسلين لم يحسب أنه ليس من مصلحته أن يعادي الترك لأجل هذا ، وأرسل عسكرياً لمساندة قرا أرسلان فحقد عليه زنكي .

ولما مضى جوسلين إلى أنطاكية وصار بعيداً ، أعلم أهل حران زنكي أنه لا يوجد عسكري في الرها ، فجمع زنكي جيشاً عظيماً ، وأقبل سنة ١٤٥٦ يونانية يوم الثلاثاء في ٢٨ تشرين الثاني على الرها بالوف ، وأقاموا معسكراتهم عند باب السماعات بجانب بيعة المعترفين ، وأرسل إلى أهل المدينة قائلاً : سلموا حتى لا تهلكوا لأنه ليس لكم مهرب، وكان بها رئيس من قبل بابا الفرنج فأجابه إننا لانسلم ، وقد قال ذلك لأنه كان قد أرسل رسلاً إلى أنطاكية والقدس ليأتوا ويخلصوا المدينة المحاصرة .

فأما زنكي فقد بدأ حربه في أول كانون الأول بعد أن هيا سبعة منجنيقات يلقيون الحجارة والوف وربوات من العساكر يرمون الأسهم كسقوط حبات المطر ، وكان أهل المدينة والشيوخ والصبية والرجال والنساء ورهبان الجبل يقفون على السور ويقاثلون ، ولما رأى زنكي أن الشعب يقاوم بكل جبروت أمر أن يحفروا تحت الأرض نفقا يصلهم بالسور ، وحفر أهل المدينة نفقا مقابلاً من الداخل واشتبكوا داخل النفق وتكومت جثث القتلى ، فعزف زنكي عن ذلك وعاد الرهاويون وبنوا سورا داخلها ثانياً وخاصة حول الحفرة التي حفروها ، أما الأتراك فقد حفروا حفرة تصل بين

- ٢١١١ -

البرجين وملأوها بالخشب ثم أرسل الأتابك من يقول للرهاويين خذوا منا رجلين وأرسلوا لنا رجلين ينظرا الحفرة تحت البرجين اللذان اخذا يتداعيان ، وانصحكم أن تسلموا المدينة قبل أن أخذها بالسيوف .

أما هم فقد هزئوا وسخروا به لأنهم كانوا مطمئنين إلى قدوم الفرنج لنجدتهم ، عند ذلك أشعل الأتراك النار بالأخشاب ، فتداعى البرجان ، وحدث معركة طاحنة امتلأ فيها الجو بالدخان ، واختلط فيها صليل السيوف بصراخ الرجال والنساء والأطفال .

ولما اكتمل احتراق الخشب وسقط السور والبرجين وظهر السور الجديد اندهش الأتراك لكنهم وجدوا أنه قد بقيت فجوة بين السور الجديد والسور العتيق ، فاجتمع عسكر الترك حول هذه الفجوة يريدون الدخول منها فتصدت لهم جموع المدينة مع الأسقف والمطارنة من الداخل وحدث معركة طاحنة امتلأت فيها الثغرة بجثث القتلى المهاجمين من الخارج والمدافعين من الداخل ، وبينما كان الشعب كله مشغولا في الدفاع عن الثغرة بقي السور فارغا من المقاتلين ، فنصب الأتراك السلالم وصعدوا ، وكان أول المتسلقين مقاتلا كرديا ، ولم يشعر الناس إلا والأتراك في وسطهم فوهنت عزائهم وولوا هاربين إلى القلعة الداخلية .

وهنا وقعت المجازر ، ولست أدري كيف يستطيع اليراع أن يصف هول وفضاعة ماجرى خلال ثلاث ساعات من يوم السبت ٣ كانون الأول ، لقد كانت مذبحه شرب فيها الأتراك دم الشيوخ والصبيان والرجال والنساء والكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات والأطفال والمرضعات والعرائس . يالخطب المرعب لقد استولى الخنزير الأثوري على الرها وداس العنب الحلوى ، ياللفاجعة الكبرى ويا للهول المؤلم ، لقد كانت فاجعة مروعة المت بمدينة أجر خليل المسيح ، داسها العدو بسبب أثامنا ، فقتل الكهنة وذبح الشمامسة ، ولقد تهدمت الهياكل والبيع . وكانت بالحق فاجعة سي

- ٢١١٢ -

فيها الأبناء الأبناء ، والأمهات الأطفال أمام السيف الذي كان لا يميز أحدا ، ولقد كانت الأمهات يجمعن أولادهن كما تجمع الدجاجة فراخها انتظارا للموت أو السبي ثم العبودية ، أما بعضهم الآخر فقد فر إلى رؤوس الجبال .

أما الكهنة فكانوا يتراكمون مرددين قول ميخا النبي : إنني احتمل غضب الرب لأنني أخطأت إليه (ميخا ٧ : ٩) ولم يوقفوا صلواتهم وابتهاالاتهم حتى أسكتهم السيف ، ومن ثم وجدوا وقد ضرج الدم ثيابهم وصناديق عظام القديسين بين أيديهم .

أما الذين هربوا إلى القلعة فلم يستطيعوا الدخول لأن الحراس الأفرنج أغلقوا أبوابها وقالوا لن نفتحها حتى نرى الأسقف لكن الأسقف لم يستطع تخطي الناس ، فمات عدد كبير من الناس بين الزحام وتحت الأقدام وتكومت جثث القتلى الذين قضوا بها تلالا عند باب القلعة ، وعندما وصل الأسقف أنفتح الباب لكنه لم يستطع الدخول بسبب الجثث المكومة أمام الباب من كثرة الزحام فاصطاده أحد الأتراك بسهم وقتله .

ولما رأى زنكي تلك الفظائع أمر أن يتوقف القتل ، حينئذ أحضروا المطران باسيلوس وهو حاف وعار ، ويجره تركي بحبل ، ولما رأى زنكي أنه شيخ وقور سأل : من هذا ؟ فأعلموه أنه مطران فأخذ يعذبة لأنهم لم يسلاموا المدينة ، أما هو فأجاب بشجاعة . لقد كان لك شرف غلبتنا ، لكن يجب أن يكون لنا شرف عندك لأننا لم نغدر ولم نحدث بأيماننا ، وكما حفظنا عهدنا مع الأفرنج فإننا الآن سنحفظ عهدنا معك بعد أن صرنا عبيدك ، ولما رأى جراته وهو يتكلم باللغة العربية الفصحى أمر فالبسوه قميصه وأدخلوه الخيمة وجعله مستشاره لاعادة بناء المدينة ، ثم أخرج مناديا يقول على كل من نجا من السيف أن يرجع إلى بيته .

وبعد يومين طلب الأمان كل من كان بالقلعة فأعطى لهم الأمان ، لكن فقط لمن بقي على قيد الحياة من شعبنا ومن

الارمن ، اما الافرنج فقد قتلوهم كلهم ، اما ما تبقى من قصص تلك الكارثة فلن نرويها ، بل نترك لارميا النبي ولامثاله الذين افاضوا في المراثي ان يعودوا وينوحوا على ذلك الشعب الذي يستحق كل شفقة ورحمة.

وفي الوقت الذي استولى فيه زنكي على الرها كان الوالي على نصيبين اسمه تمرتاش، فلما انتصر زنكي هذه الانتصارات وقوي كثيرا خاف هذا الوالي ان يهاجمه زنكي ، وياخذ اراضيها ، فأمر بهدم كل قلعة لم يستطع ان يحميها ، فتهدمت في هذا الزمان قلعة جرجر وقلعة تلبسمه ، وقلعة تل شيخ والقلعة التي بقرب دير مار حنانيا ، والمدعوة قلعة المرأة.

وحاول ان يخرب سرجه عند نصيبين فلم يستطع ابدا وذلك لقوه ومثانه بنائها العتيق ، فهدم فقط البناء الجديد الذي كان قد بناه هو ثم تركها خاليه .

في هذا الزمان تمردت قلعة تدعى الهتاخ ، وهذه القلعة لم تكن بأيدي الترك بل كانت بيد واحد من سلالة بني مروان الذين كان لهم اسم مملكة ، وكروسي بميافارقين ، وقد حدث بين حكامها خلاف تلتته حروب اذ شقوا فيها على بعضهم، فلما رأى حسام الدين ان ليس لديهم اكراد يحاربون في صفوفهم ، وهم في الوقت نفسه مذقسون على بعضهم بعضا حاصر قلعة الهتاخ لمدة سنة واربعة اشهر ، ثم طلب احمد بعض الاراضي ، فأعطاه تمرتاش ذهباً وقرى من اقطاعاته مع القلعة، لكن هذا الكردي مالبت ان ندم فالتجأ الى حاكم امد لكي يعيد له القلعة ، لكنه لم يفلح.

وبعد ان سقطت الرها خرج ارسلان طغميش بن داود صاحب حصن زياد من عند زنكي ، وحل على تل ارسانايوس طالبا ان يسلموه له ، لكنهم رفضوا لان اولادهم كانوا رهائن في قلعة زياد ، وقد نسيوا ما حدث لاهل الرها عندما عاندوا الترك وجابهوهم دون ان يكون هناك من يساعدهم فصاروا جميعهم

عبيدا ، وهكذا حارب اهل ارسانيوس واستعبدتهم وباعهم وكانوا نحو خمسة عشر الف، بعضهم اجتمع خارج البلدة وبعضهم الآخر مع اسقفهم، وكان اسمه طيماتاوس.

وفي تلك السنة عندما اخذ الافرنج يتجمعون لنجدة مدينة الرها ، وصل اليهم خبر خرابها ، فحزنوا جدا عليها ، لكنهم مضوا نحو تل اعذى (تلعدا) (٢٢) فاجتمع عليهم الترك هناك ومنعوا عنهم القوات ، فتضايقوا من الجوع وهربوا، وحينئذ ترك اهل سروج المدينة وهربوا فدخل اليها الترك.

اما زنكي فبعد ان احتل الرها توجه الى البيرة ، واما جوسلين فقد ذهب الى القدس ليجمع جيشا ، لكن فتنة اشتعلت بالموصل واخرجوا الصبي ابن السلطان الذي كان محبوبا وقتلوا نصير الدين نائب زنكي ، ولما سمع زنكي تسرك البيرة ومضى الى حلب ، واصطلح مع الافرنج ، وبذلك نجت البيرة منه. وبعد هذا ارسل زنكي رئيس عسكره زين الدين واصلح الحسالة بالموصل ، ووضع ابن السلطان بالسجن مره اخرى فعاد وتقوى مركز زنكي ثانية.

لما ظهرت صحيفة مطران ماردين لتوضح ان خراب الرها لم يكن بأمر الله ، قام اياونيس اسقف كيسوم وابن اندراوس وعدد كبير اخر كتب كل واحد كتابا رد فيه على كلام مطران ماردين ، ولما وصلت الصحيفة التي كتبها مطران ماردين الى ملطية تصدى لها القسيس صليبا ايضا ، وهو معروف بأدبه وطلاقته ، وكان علما في جيله ، وضع كتابا رد فيه على مطران ماردين ، وكان قد ورد في كلام مطران ماردين ، انه ليس كليا بإرادة الله تأتي القربات والألطاف فيلقني عنايته الكل ، واذا علينا ان نفهم ان الارادة لها انواع ، والأمر له انواع والسماح له انواع ، وهذا كلام باطل يثبت بطلانه بشهادات الآباء الالهيين الذين يقتدي بهم.

إن السبيل المقصود لنا في هذا الكتاب ليس هذه الأمور بل لنوضح

فقط ماذا صار وماذا حدث في كل زمان حتى لا يكفر القارىء إن انتقل الضمير من خبر الى خبر ، وهذا ما قصد ايضاحه.

اما من يريد ان يفهم الصحيح حول هذا الخبر فليقرأ الكتاب الذي جمعه البار مار ديونسيوس مطران آمد ، أي يعقوب بن الصليبي ، لأن كل شيء مفصل فيه بشكل جيد وموضح بالتحقيق وفقا لرأي المعلمين الحقيقيين.

وكتب ديونسيوس المطران ، وكان بعد شماسا للطية قصيدتين بلحن مار يعقوب حول سقوط الرها.

وكتب ايضا باسيلوس مطران الرها ثلاث قصائد عن الرها لأنه كان حاضرا بها في المحدثين ، وقد كتب بالتفصيل حول ذلك ، وكل من يريد أن يتعرف على ما حدث فليقرأ هذه الميامر الخمس.

ويوم الخميس في ١٣ كانون ١٤٥٦ أي في الشهر الذي سببت فيه الرها وقعت نار في دير القراريط في بلاد خرشنة، واحترق بها شيوخ راهب، أما البقية فقد نجوا من هذه النار .

وفي ذلك اليوم ايضا احترقت قرية في بلاد مرعش.

كذلك يوم الجمعة من الشهر عينه ايضا وقعت نار في دير مار برصوم فأ احترقت فيه ثلاث غرف.

وفي اول ايار تراءى كوكب مذنب في الساعة الحادية عشر من الليل ، وكان ذنبه تجاه اليمين ، وبقي سبعة ايام ثم تراجع وعاد فترأى في المغرب سبعة ايام أخرى ، وفي ٢٤ ايار يوم عيد الصعود وقع زلزال شديد.

وابتدا في هذا الزمان بلدوين الفرنجي حاكم كيسوم ببناء سورها بحجر وكلس ، وكان من قبل مبنيا بالطوب المجفف والطين ، وقد أثقل نير الظلم على المسيحيين ، حتى أنه حول الكهنة الى عبيد ، وقد بنى نصف السور فقط ، ثم قتل فأوقف البنيان.

مقتل زنكي

في سنة ١٤٥٧ لما رأى الفرنج انهم ضعفوا مضى ريموند حاكم انطاكية القسطنطيني الى منويل ملك الروم اليونانيين وطلب الغفران عن الخطيئة التي اخطأها مع ابيه ، لأنه سمع ان أباه أمره ان ينتقم من الأفرنج ، ولما أظهر التذلل والندم أكرمه وأعطاه ذهباً ، وأغدق عليه الهدايا الكثيرة ، وأرسله الى مدينته ، لكنه طلب من الملك ان يهب لمعونه المسيحيين .

أما زنكي فقد جاء الى الرها ومكث يومين احتفى بالسريان الذين بها ، وعامل المسيحيين المجتمعين فيها بكل محبة ورحمة وشفقة ، ثم مضى الى قلعة جعبر على شاطئ الفرات ، لكن المولى العالي سخط عليه ، وحكم عليه بما لا يعرف ، فقام أحد عظماء عسكره مع اثنين من الخصيان المقربين اليه وقتلوه بعد ان أكثر من شرب الخمرة ونام ، وكان ذلك ليلة الأحد في ١٥ - ايلول بعد أن ملك في الموصل وفي البلاد الأخرى تسع عشرة سنة وملك على الرها سنة وعشرة أشهر ، فأما الذين قتلوه فدخل واحد منهم الى قلعة جعبر ، ونجا ، وهرب الآخر الى قالينيقوس ، أما العساكر فتفرقوا .

أما اولاد زنكي فقد تفرقوا وتولى كل واحد منهم ناحية : حيث ملك محمود المدعو نور الدين مدينة حلب ، وملك الآخر المسمى غازي سيف الدين مدينة الموصل .

وقد صارت فوضى في البلاد ، فخرج لصوص الأتراك في كل مملكة زنكي ونهبوا بغير شفقة كل ما وجدوه .

وبهذا الزمان سبى دير قسرتمين (٣٣) وقتل منه أربعة رهبان ، ودخل بهذا الزمان قرا أرسلان صاحب قلعة حصن كيفا

- ٢١١٧ -

الى طور عبين (٣٤) لانها كانت فيما مضى لاييه ، ثم انتزعها منه
زنكي ، فعاد وتسلط عليها بعد ان قتل بها خلق لا يحصى عددهم
وقام في الموصل اناس اجتهدوا ان يملكوا بها لان ابن السلطان
كان محبوسا بها ، فقام زين الدين بكل عنف وكسرهم وقتل
اكثرهم ، وعاد فحبس ابن السلطان ، وملك بعد وفاة زنكي سيف
الدين غازي ابنه •

واقعة الرها الثانية

لما عرف الأفرنج بمقتل زنكي عام ١٤٥٨ اجتمع جوسلين وبلدوين حاكم كيسوم في تشرين الأول وارتحلوا إلى ناحية الرها ، فتلسق رجال الأفرنج ليلا على سلالم كانت مع رجال من الأرمن كانوا يحرسون السور ، ودخلوا المدينة فلما فوجئ الترك هربوا والتجأوا إلى القلعة الداخلية ، وفي الصباح فتح الباب المسمى باب الماء ، ودخل منه جوسلين ، وكان ذلك يوم الاثنين في ٢٦ تشرين ، لكن الأتراك سرعان ما أرسلوا يطلبون النجدة من حلب والموصل ، ولم تمض ستة أيام كان الأفرنج فيها ما زالوا يفكرون كيف سيقحمون القلعة الداخلية ، حتى أطبق عليهم الأتراك من كل ناحية وصوب كالجراد الذي لا عد له ، فلما رأى الأفرنج ذلك خافوا وارتعدوا ، لقد ابتعدوا عن طريق الرب واندفعوا في طريق الخطيئة ، فصار الله خصمهم ، فجمعوا كل شعب المدينة الشقي وساقوه أمامهم ، وكان ظنهم أن يفلتوا من براثن الترك الذين كانوا يحيطون بهم في كل مكان ، ولقد كان شعبنا الذي لا يعد ولا يحصى يساق سوق الأغنام والدواب ، وفجأة لم يروا إلا الأتراك حولهم ، فعندما كانوا وراء الأسوار وخلف المتاريس لم يستطيعوا أن يقاوموا التترك ، فكيف سيجابهنهم في وسط الصحراء؟ لقد قسيت قلوب الأفرنج فجروا هذا الشعب المغلوب في الساعة الثانية بعد منتصف الليل بعد أن أشعلوا النار في بيوتهم ومدينتهم ، وعندما شاهدوا ذلك أخذوا يصرخون ويبكون ويترحمون أو يحسدون الذين ماتوا في المرة الأولى ، لأنهم لم يروا تلك النار التي أشعلها الأفرنج لتحرق أرزاقهم وأموالهم والسيوف المسلط فوق رؤوسهم ، ومات العديد منهم دهسا تحت خيول الأفرنج في قلب الظلام ، أما الذين لم يخرجوا بسبب ضعفهم أو شيخوختهم ، وكذلك الذين اجتمعوا في البيع وفي الأقبية والدهاليز فقد انقض عليهم الأتراك الذين في القلعة الداخلية وأخذوا يعملون السيف في رقابهم ، فلم يبق منهم أحد ، أما

- ٢١١٩ -

الذين اخذهم الفرنج الى الخارج فقد تركوهم وهربوا ، فأحاط بهم الأتراك ، وبالهول ما حدث وفضاعة ما جرى ، كانت الدماء تسيل كالأنهار والصراخ يعلو حتى يشق عنان السماء ، ولقد كانت ليلة ليلاء ألت بالرهاويين ، لقد بقيت السهام تخرق أجسامهم وحوافر الخيل تسحقهم ، والسيوف يقص رقابهم طوال الليل ولمدة ست ساعات .

اه يا اخوتي من لم يبك اذا سمع ، لقد هرب فرسان الافرنج الاشقياء وتركوا هذا الشعب الأعزل بعد أن ساقوه الى حتفه ووضعوه في جحيم المعركة ، والتجأوا الى قلعة خربة مهجورة تدعى حصن كوكب ، واستطاع أن يهرب معهم ألف رجل من الذين استطاعوا الركض ، حينئذ وبعد أن تعب الأتراك من القتل وملوا أوثقوا الباقين بالحبال بعد أن نزعوا عنهم ثيابهم — وأسلحتهم ، أوثقوهم حفاة عراة رجالا ونساء بأذيال الخيل والعصى فوق رؤوسهم ليسرعوا مع الخيل ، أما من كان يقع على الأرض فكانوا يشقون بطنه بالسيوف .

لقد قسا الزمان على المسيحيين فتكومت جثث الكهنة والشمامسة والراهبان والراهبات والفقراء والأغنياء ، وعلى الرغم من أن موتهم كان مريرا لكنهم لم يتعذبوا كالذين بقوا على قيد الحياة ، لقد ملأت الجثث البراري حتى انتن الجو ، وصارت مأكلا للحيوانات المتوحشة وللطيور الجارحة ، وامتلات بلاد آشور بالأسرى ، أما بلدوين حاكم كيسوم فقد قتل ولم توجد جثته ، أما جوسلين الأثيم فقد فر الى سميساط ، ونجا ، وكذلك هرب المطران باسيلوس ونجا ، أما مطران الأرمن فقد قبض عليه مع عدد كبير من جماعته .

وكان الافرنج قد التجأوا الى قلعة كوكب كما قلنا ، فلاحق بهم الأتراك لكن السماء كان قد أدركهم فتركهم الأتراك وتوجهوا للنهب والسبي لأن هذه البقعة كانت مملوءة مالا وذهباً ، ومقتنيات منذ أجيال كثيرة ، حملها أصحابها من تلك المدينة المذكورة التي كانت تتعرض باستمرار للغزو .

- ٢١٢٠ -

وعندما عاد الترك الى القلعة الخربة كان الأفرنج قد خرجوا تحت جنح الليل في الليلة نفسها ، ووصلوا الى سميساط ونجوا.

وقد كان تعداد الذين قتلوا في المرة الأولى والثانية ثلاثين ألفا تقريبا ، وكان تعداد الذين أسروا ستة عشر ألفا ، والذين نجوا ألف رجل وامرأة واحدة ولم ينج أي ولد، وقد تبدد أهل الرها في طول البلاد وعرضها ، وبقيت هذه المدينة خالية خاوية تروع الناظرين وتقص عليهم ما جرى لها ، ثم أصبحت مأوى للوحوش وباقى الحيوانات ، ولم يدخلها سوى الذين كانوا يأتون اليها من أهل حران بحثا عن الخزائن المطمورة والمتاع والمقتنيات التي كان لها أصحاب يوم ما.

الحملة الصليبية الثانية

لما سمع من في ايطاليا اخبار الفظائع التي وقعت بالرها اجتمع
الافرنج وتوجهوا الى المشرق بأعداد كبيرة لا تحصى ، وكانوا بقيادة
ملكين كبيرين وبعض القمامصة ، فأقبل ملك الألمان (٣٥) مع
تسعمائة الف فارس وملك فرنسا مع خمسمائة الف فارس مع
شعوب أخرى مختلفة الألسن.

فلما سمع بهذه الحملة الكبيرة ملك اليونان منويل خاف اذا دخلوا
البحر وملكوا أن يطيحوا بمملكة اليونانيين ، فاتفق مع الاتراك على
أن يعيق قدومهم ، واستطاع أن يؤخرهم سنتين لكنهم في سنة
١٤٥٩ يونانية هاجموا القسطنطينية بعد ما عرفوا باتفاق اليونانيين
مع الاتراك وحاولوا تخريبها غير أن ملك اليونانيين أعطاهم ذهباً
كثيراً ، وعاهدهم أن يرسل معهم مرشدين يدلونهم على الطريق
فكفوا عن قتالهم له ، بيد أن ملك اليونانيين غدر بهم فساقهم أدلاؤه
في طرق جبلية وعرة قاحلة لا ماء فيها ولا خضراء ، ثم تركهم
اليونانيون وانسحبوا ، فتاه الافرنج وبقوا خمسة أيام يسسرون
دون أن يعرفوا الى أين ، فهلك الوف منهم عطشاً مع خيلهم
ودوابهم ، ولما عرف الاتراك بهم وبحالتهم انقضوا على شتاتهم في
تلك المسالك الوعرة ، وأخذوا يفتكون بهم جمعا وفرادى حتى تعب
الاتراك من كثرة القتل ، وقد امتلات بلاد الاتراك من ثياب الافرنج
ومتاعهم ومقتنياتهم ، حتى بيعت الفضة بملطية بسعر الرصاص.

أما الفرنج الذين هربوا من المعركة فقد وصلوا الى شاطئ البحر
منهكين جائعين ، فأخذ اليونانيون يخلطون القمح بالكلس ويطعموه
لهم ، وسرعان ما كانوا يسقطون أمواتاً ، وقد قتل اليونانيون الوفا
منهم بهذه الطريقة.

وقد صار ما جرى حكاية للأجيال القادمة تحكي أن شعباً عظيماً
وكثير العدد قد غلبه شعب أقل منه عدداً وعدة بواسطة الحيلة.

- ٢١٢٢ -

أما ملك رومية فقد مرض ومات ، ونجا ملك الألمان مع ثلاثة من القمامصة فذهبوا الى القدس ، وبعد أن أقام هناك عدة أيام زحف إلى دمشق فأرسل معين الدين أنر صاحب دمشق وأهل دمشق إلى

ملك القدس سرا يقولون: اتظن أن هذا الملك الكبير إذا استولى على دمشق سوف يتركك في القدس “ نحن أخبر منك بهؤلاء ، خذ منا هذا الذهب وادفع بهؤلاء إلى البحر لتتخلص منهم ، وتصون نفسك ومملكتك ، ثم أعطوه مائتي ألف دينار ، وكذلك أعطوا حاكم طبرية خمسين ألفا ، فلما أخذوا الذهب ورجعوا إلى القدس وجدوا الدنانير نحاسا مطلايا بذهب مصري فحزنوا وندموا على فعلتهم ، أما ملك الألمان لما نظر أنه وقع ضحية حيلة فاضحة رجع إلى بلاده يجر أذيال الخيبة والافخاق ، وهكذا لحقتهم لعنة نهاية الرها التي خربوها ضد إرادة الرب.

قصة دمار الرها حسبما كتبها البار دونسيوس مطران

أمد

قال : لقد حل بها الخراب والفناء بسبب المسيحيين أنفسهم ، لأن الله أراد أن يؤدبهم ، لأن الأعداء لا يمكن أن يقهروا المسيحيين بدون سماح الرب وموافقته ، وقد يقول بعضهم إن هذا تجديف ، لأن الرب لا يسمح بهلاك جبلته ، ولا يسمح للأعداء أن يسبوا العذارى ويقتلوا الناس ، لكن الصحيح إن الرب أمر بذلك لأننا تركنا طريقه التي هي تجلب لنا ما نستحق ، فإن أردنا الخير يعيننا الله العلي العظيم ويمسك بيدنا على كماله ، وإن أردنا الشر فيقودنا الشيطان إلى هلاكنا مثل أهل الرها الذين نكبوا في المرة الثانية نكبة أشد وأفظع من المرة الأولى ، فيا أيها البشر لاتظنوا أن هذا قد حدث بسبب خطيئة شعبها فقط ، وإنما بسبب خطايا كل الناس في كل مكان، مثل عكار الذي أخطأ وحده فأتى العقاب على كل قبيلته، وأولاد عيلي الذين قتل بخطاياهم أسباط بني إسرائيل ، فعندما يخطيء القليلون الحقيرون ينسحب عقابهم على كل الشعب ، فكيف بالحري في هذا الزمان الشرير الذي كل واحد انحرف عن الحق ، وعمل الآثم وابتعد عن العفة ، لذلك أدبه الله ، ولذلك يا أخوتي علينا أن نخاف ونفزع ونطرح عنا الخطيئة ، ونفكر بالروح ، وليس بالجسد وإن ما حدث من الغضب يكفيننا الآن .

قصة الرها من تاريخ باسيليوس مطرانها

بعد الطوفان الذي صار في أيام نوح بنى الرها الملك نمرود ، وكان في بني كنعان ودعاها « اور » اي القرية ثم زاد الكلدانيون بها اللاحقة - «ها» فصارت تعني قرية الكلدانيين مثل اورشليم التي تتألف من اور وشليم ، أي قرية شليم .

وقد ازدهرت الرها وأخصبت وبقيت زمانا طويلا هكذا ، ثم خربت وانتهت ، يقول يعقوب الرهاوي عن خرابها : على حسب الظن ان الرها خربت في أيام صعود سنحاريب الى دمشق ، وبقيت مهجورة الى أيام الاسكندر ، حيث أعاد بناءها العمال الذين صعدوا معه من مكدونية وسموها « اديسا » اي المحبوبة على أسم مدينتهم التي في « مكدونيا » .

وبعد ثلاثمائة سنة ملك فيها الملك ابجر بن معنو الذي آمن بالمسيح ، وبعد ابجر وأولاده حكمها ملوك رومانيا ، وكانوا بعد وثنيين يسجدون للأصنام ، وقد بقيت تحت حكم هؤلاء سبعين سنة أخرى وبهذا الزمان استشهد المعترفون المتشرفون شموه وجوره وحبیب وقزمان ودميان .

ولما ملك الملك قسطنطين عظمت بالمسيحية ، وبنوا بها هياكل عظيمة ، وحين ملك يوليان الوثني لم يستطع ان يستعبدتها ، لاهو ولا أويس الهرطوقي ، وبعد هذا عاشت الرها في سلام أبان الفترة المسيحية وحتى عهد مرقيان الهرطوقي .

وكثر الاضطهاد في أيام يوسطنيان والذين بعده .

وفي أيام هرقل صارت في أيدي العرب منذ أيام عمر بن الخطاب ، ثم انتقلت الى أيدي الترك وبقيت نحو من أربعين سنة .

وفي أيام العرب تهدم سورها الحصين الذي بناه سلوقس ، وقد وصفه مار أفرام ، أما سبب هدمه فهو لما بنى المنصور الدوانيقي ، قصرا في الرقة ارسل فطلب من الرهاويين اعمدة صغيرة من الرخام من بيعة الخبيزة ، فرفضوا ان يعطوه فحقد عليهم ، لكن هؤلاء من خوفهم عصوا عليه ، فزحف ضدها وخرب هيكل مار سرجيس ، وحينئذ ذهب بعض اهاليها سرا اليه ، اما هو فأقسم أنه لن يقتل او يسبى او يغير اي شيء ، لكنه سوف يأخذ من المدينة حصانا ابيض ويذبحه علامة للانتقام فقط ، أما هم فلم يفهموا ماذا كان يقصد بكلمة حصان حتى دخل وتملك ، حينئذ أخبرهم أنه قصد بالحصان الحصن الذي اسمه حصان فهدمه ، وكان سورا عجيبا ، ولم يترك سوى نبعا واحدا تخرج منه مياه الطواحين .

وبعد اربعين سنة في ايام المأمون أعاد بناءه ابو شك الجوني الذي عصى على المأمون .

وبعد مدة ملكها اليونانيون بواسطة رجل اسمه سالمون ، خان الأمير وسلم القلعة العالية التي كان يناوب بها الحراس الى رجل يوناني اسمه مانيج ، ولما أخذ العرب الذين بها اولادهم وهربوا ، أخذ المسيحيون اولادهم وخرجوا معهم لأنهم كانوا معتادين على العيش معهم ، فهم يتكلمون لغتهم العربية ويكتبون بخطهم العربي ، وكان ينفرون من اليونانيين بل يخافون منهم لأجل هرطقتهم وشرهم ، وبعد ان خرج العرب والمسيحيون فرغت المدينة وبقيت خالية بيد اليونانيين تقريبا بعد ان رجعت اليها شذمة قليلة من الشعب والباقي تبددوا الى حد تكريت ، وبعد فترة يسيرة قام فيها مدبر من مملكة اليونانيين كان شريفا ومؤمنا واسمه ابو كنعب ، وقد ارسل هذا الى مار بونسيوس البطريرك ورسم مطرانا للرها هو اثناسيوس ، وهو يشوع راعي دير مارابحاي دير السلام .

وبعد هذا ملك فيها فيلاردوس ، وقد ازدهرت الرها في أيام هذا

المدير لأنه كان يصفي يوما الى المطران ويستترشد بأرائه ، وقد جمع سكانها من كل الأمكنة التي تشنتوا بها ، كذلك مضى المطران الى ارمينية وحتى منبع نهر الفرات وجلب خشبا وبنى بيعة مريم والدة الاله وبيعة مارثاودروس الكريمتين .

وبعد هذا ملك فيها فيلارديوس ، ولما قوي الأتراك في تلك الايام مضى فيلارديوس الى سلطان خراسان واعلن اسلامه ، ولما سمع بنو هرون ان فيلارديوس قد اسلم عند سلطان خراسان قتلوا واليه وكان اسمه فارجيكاكس ، وبعد هذا ملك بها بوزان ، ولما قتل تتش بوزان ضبط تادروس بن هاتيم الحكم فيها سنتين في أيام اثناسيوس المطران بن يسي .

ولما خرج الأفرنج ونظر ابن هاتيم انه لن يستطيع ان يحفظها سلمها للأفرنج ، فملكها الأفرنج وكان اول من ملك بها الكونت بلدوين الذي قتل ابن هاتيم ، ولما مات أخوه غودفري ، عندها صار الكونت هذا ملك القدس وصار بلدوين بالرها ، ولما مات ملك القدس استلم مكانه بلدوين فأخذ الرها جوسلين ، وبعد موته ملك فيها ابنه جوسلين الثاني وفي ايام هذا اخذها زنكي ، وفي ايام زنكي خربت كليا سنة ١٤٥٨ يونانية

تملك توماس الأرمني

لما مات لاون الأرمني في القسطنطينية كما أوضحنا من قبل صار آنذاك قسم من بلاد قليقية مع اليونانيين ، وقسم مع الترك ، ولما مات الملك يوحنا ، هرب احد اولاده واسمه توماس مشيا على الاقدام لايحمل شيئا معه ، ومضى سرا الى مار اثناسيوس مطران البلاد ، لأنه كان يؤمن ببركة هذا الشيخ الجليل منذ أيام أبيه ، فطلب صلواته ليرد له الله بلاد أبيه فمنحه بركته والدموع تتساقط من عينيه ، وأعطاه فرسا ، ولما اقتنى مركوبا تبعه اثنا عشر رجلا أرمنيا ، وتوجه الى القلعة المسماة قلعة عامودا ، ولما احس سكانها ان ابن سيدهم القديم قد اتى اعتقلوا اليونانيين الذي بداخلها ، وسلموا القلعة لتوماس هذا فذاع صيته وبدأ الجميع يحسبون له حسابا ، من اليونانيين ومن الأتراك معا ، وقد ملك بلادا كثيرة في مدة وجيزة ، وتبعه شعب عظيم من الأرمن والأفرنج .

ثم ذهب توماس هذا الى رعبان عند سيمون الأفرنجي حاكمها ليتزوج ابنته ، فصدف ان هاجمه الأتراك لينهبوا البلاد ، فهاجمهم توماس وقتل نحو من ثلاثة آلاف وخلص المسيحيين وأنقذ كل البلاد ، فعظم في ذلك وتشرف ، ولما رجع الى قليقية ترك اليونانيين والأتراك المدن والقلاع وهربوا من امامه ، وملك على عين زرية وباقي مدن قليقية .

وفي السنة التي تملك فيها توماس ١٤٥٩ يونانية غزا نور الدين ابن زنكي بلاد انطاكية ، وكان جوسلين حاقدا على ريموند حاكم انطاكية لأنه لم يساعد الرها ، وكان فرحا بهلاكه وهلاك بلاده ولما عرف بذلك نور الدين حاكم حلب فرح كثيرا ، وأرسل رسلا وعقد صلحا وعهودا مع جوسلين ، والتقوا في البقعة التي بين حلب

وأعزاز واتفقا وثبتا العهد واختلط الأفرنج والأتراك وأكلوا وشربوا سوية بالفرح ، وقد صار هذا لسقوطهم ، فبهذه السنة حنق ملك جزيرة صقلية على ملك اليونانيين لكونه خدع الأفرنج وأهلكهم بالحيلة فانتقم لشعبه ، فهاجم مدينة تاباتس وقتل اليونانيين وهدمها واحتل أدنة وفيلبة ، وخرج منويل ملك اليونانيين لينتقم من الرومان ، ولما نزل على إحدى القلاع أرسل ملك صقلية عساكر كثيرة من السفن في البحر ، فنهبوا وارتكبوا كثيرا من الفظائع باليونانيين ، ووصلوا حتى القسطنطينية وهاجموا القصر المبني على شاطئ البحر ، وأخذوا يرشقونه بسهامهم ، ولما سمع ملك اليونانيين ، ترك القلعة ورجع فالتقى اليونانيون والأفرنج وجها لوجه ، وصارت حرب عظيمة في البحر ، وقتل أناس كثير من الجانبين ، وأخيرا رجع الأفرنج إلى بلادهم ، ورجع اليونانيون وملكهم إلى القسطنطينية .

كمل هذا الخبر وأرجو من كل من يقرأ في الكتاب أن يدعو لي في صلاته لأنني خاطيء وذليل وضعيف ، وله أجر من صاحب الجزاء .

في سنة ١٤٥٩ يونانية قل المطر في كل مكان وشحت مياه الينابيع ، ووقع الناس في شدة عظيمة ومجرت أماكن كثيرة ، وفرغت من السكان الأماكن التي نضبت فيها الأنهار والعيون وفي السنة التي تلتها لم ينزل المطر حتى نصف كانون الأول ، ومر شتاءان كالصيف ، وقد وقع الناس في شدة عظيمة من العطش ، حينئذ أشفق الرب ، وأرسل المطر فشبت الأرض وارتوت ، وصار شتاء طيب ورطب وخصب كالربيع .

في ٢٥ كانون الثاني تراءى كوكب مذنب في نصف السماء قبل المغرب ، وبقي مدة شهر ، وفي ١٦ شباط تراءى آخر غيره من الشرق وقت السحر ، وبقي خمسة أيام وصار قلة في المطر حتى جفت أكثر الينابيع .

وفي تلك السنة ولد بالقسطنطينية ولد من جارية ، له في مقعده عيون وفم وأسنان وذنب .

وفي هذه السنة نبعت بالقسطنطينية بدعة رديئة جدا كانوا يسمونها فوجو ليموس ، وقد تبعها جملة رهبان وبعض الشعب حتى بطريركهم ، فنفي وصار غيره مكانه ، وكانوا يعتقدون أن المسيح إنسان ساذج توكل للعناية على هذا العالم ، ويقولون إن الشياطين يبنون لهم بيوتا ويعدهم بمال وسلطان أيضا ، وكانوا ينفرون من السجود للصليب .

وقد انطبق على الخلقيدونين ما قاله الرسول الالهي : لما ظنوا أنفسهم أنهم حكماء ، عندها جهلوا لأنهم مآلوا عن الحق وسقطوا في وحل نسطور ، ومزجوا الحق بالاثم ليضللوا البسطاء ، فسمع الله بهم وسقطوا في أباطيلهم ، وصارت مدينة قسطنطين البار مقرا للشياطين ، واتسعت هذه الضلالة حتى أسقطتهم في وسط الجفرة ، وهكذا تمت عليهم كلمة صفنيا النبي القائل : من القدم إلى الرأس ليس فيهم موضعا صحيحا .

بعد مصرع الرها المروع ، هرب مطرانها باسيليوس إلى سميساط فأتى بعض من أهل الرها إلى جوسلين ، واتهموا المطران الشيخ قائلين: لقد طاب له حكم الترك ، وحالما سيشرع بالضيق عندك فانه سيمضي راجعا اليهم ، فأجاب جوسلين: من الخير أن يموت لئلا يعيد الذين بقيوا على قيد الحياة إلى الترك ثانية ، عند ذلك أمسكه جوسلين وحبسه في قلعة الروم مع الأسرى العرب وبقي هناك ثلاث سنوات ، وقد كتب فيها ميامره مع أمور أخرى ، كذلك كتب ضد الذين قالوا : من الآن انتهت البركة التي وهبها المسيح سيدنا للملك الأبرج ، وبعد أن خرج من الحبس كان يتجول ويجمع الصدقات ليفتدي أهله وقبيله في سجون الأتراك ووصل إلى أنطاكية وإلى القدس ، وقد استقبله بترحاب الملك والبطريرك الإفرنجي ، ولما رجع ووصل الموصل وتواجه مع زين الدين الحاكم خليفة زنكي والذي كان يدبر الأمور مع ابن زنكي ، أيضا أكرمه ومنحه عطاء يكفيه لمعيشته ، وبعد أن بقي هناك مدة توجه نحو ماراثنا سيوس البطريرك الذي كان مقره في ذلك الزمان في آمد التي بين النهرين ،

- ٢١٣٠ -

وطلب منه أن يعطيه رئاسة مرعش وسيبارك (سويرك) والشمال
وكانت منذ زمن تتبع لمطران الرها .

وفي سنة ١٤٥٨ يونانية نزل تمرتاش حاكم ماردين على دارا
وأخذها ، حينئذ صعد غازي بن زكي ونهب كل ما بين النهرين ،
وعندما تواجه الجيشان وشعر الجميع أن لابد من المواجهة اجتمع
قضااتهم وتوسطوا بينهم ، فأرجع حاكم الموصل المنهوبات وأخذ
المدينة .

وبعد ذلك قوي الاتراك كثيرا ، وأخذوا يدخلون بلاد الافرنج من
كل جانب ودخل قلع أرسلان بن السلطان مسعود الى بلاد جيحان
ونهب مرعش ، ثم عبر الاتراك الى بلاد كيسوم فخرج الى لقائهم
رنجر الذي حكم كيسوم بعد مقتل أخيه بلدوين .

وفي هذا الزمان خرج منويل ملك اليونانيين ليقابل السلطان
مسعود ، فجمع السلطان أمراء الاتراك والعساكر من بغداد ومن
خراسان ، وفي باقي البلاد ولما تدانى العسكران للحرب علا صوت
الفرنج فجأة ففزع الجانبان وخافا فاصطلحا ، ورجع ملك
اليونانيين ليحصن بلاده ورجع السلطان الى أرضه .

« نهب جوسلين دير سيدنا مار برصوم في
سنة ١٤٥٩ يونانية »

دخل جوسلين الدير في يوم السبت ١٨ حزيران
سنة ١٤٥٩ يونانية ، وأخرج منه الرهبان يوم الاثنين في العشرين
من الشهر نفسه ، ووصلوا يوم الثلاثاء إلى حصن منصور وذاع
الخبر ، وغضب الشعب وهاج ، ونصحه بعض المقربين أن لا يترك
الدير بدون رهبان لأن الشعب يهتم بالدخول إليه ، فطلب أن يعطيه
الرهبان عشرة آلاف دينار ليعيد لهم الدير ، ومضى أناس من جماعة
جوسلين وأحضروا الصندوق الموضوع به يمين القديس وأثاث
ومقتنيات الأديرة الأربع ، والذين كانوا مخزونين في الدير نفسه ،
وهم دير مار أبحاي ودير سرجيسيه ، ودير مانيق ، ودير البارد ،
وبقي في الدير بعض الرهبان والعمال ، وصار راعيا للدير شيخ
راهب اسمه مودعل ، ووضع جوسلين بالحصن العالي عشرين
جنديا أرمنيا ، ومعهم آخرين ، لكن أولئك استولوا على كل
ما وجدوه بالدير من حنطة وخمر وزيت وعسل وثياب وأواني .

ولما أخذ جوسلين بدون رحمة أو شفقة القديس والرهبان إلى تل
باشر كان ضمنهم هناك أناس من الأفرنج ، ومن السريان ومن
الأرمن وقد دفعوا ذهباً لخلاصهم ، وكان جوسلين قد أمسك أيضاً
مع الرهبان والقديس ثلاثة مشايخ هم : داوود ويعقوب وسرجس .

لكن في شهر آب رجع الباقي إلى الدير ، وغادره الأرمن الذين
أتى بهم جوسلين وكان رئيس الذين رجعوا عازار الشيخ ، ومعه
قسطنطين وأحضروا معهم مارايوانيس أسقف كيسوم ، ولما دخلوا
الهيكل وجدوا أن المائدة المقدسة مقلوبة والدير كله مدمس ، فأجهش
الجميع بالبكاء بأصوات شجية كل ذلك اليوم ، وبعد هذا طلب
الجنود من الرهبان بأن يحلفوا لهم إذا جاء جوسلين مرة أخرى أو

ابنه أن لا يغلقوا الباب في وجهه ، وكان عدد الجنود مائة وخمسين ، فرفض الرهبان أن يحلفوا لهم ، لذلك بقي الأفرنج والأرمن سبعين يوما في الدير وأوقفوا الصلوات والخدمة وأطفأوا المصابيح ، ثم أرسلوا خبرا إلى البطريرك في آمد ، فأصدر أمرا إلى مطران كيسوم بأن يقوم هو بالصلاة في هذه الأماكن المقدسة ، ثم أكمل التطهير والتجديد حسب الناموس وأقاموا راعيا للدير اسمه عازر بأمر البطريرك ، ووضع صائغ ومدير وأناس لباقي الخدمات كالعادة وبحسب ناموس الدير المتبع منذ الأجيال الأولى ، وأعطى كل واحد من الرهبان والعمال ما عنده من الذهب إلى جوسلين وذلك لافتداء هذا المكان المقدس .

وهكذا رجع دير سيدنا مار برصوم بقوة الله الذي سمح بأن يكون هذا تأديبا لنا ، وأمر بهلاك الطاغية جوسلين الثاني بن جوسلين ، الكافر العاتي الذي احتقر الكنيسة المقدسة والمذبح والأواني القدسية ، فضرب الله جوسلين في ذلك الوقت وأهلكه عقابا عادلا له كما أوضحنا القول .

إن ما كتبناه كاف لأن يوضح كيف ومتى سبي دير القديس مار برصوم ، ويجب أيضا أن نوضح ما حدث في ملطيه .

كان بذلك الزمان يملك في ملطية دولت التركي ، وكان يضع خراجا على الدير يعطيه لملطيه ، وقد وضع هذا الخراج بالقوة الأمير غازي دولت ، لكن لما سمع دولت أن جوسلين دخل الدير ظن للوهلة الأولى أن الرهبان سلموا القلعة لضيقهم من الخراج الذي زاد عليهم ، وكان يعرف أنهم كانوا يتشكون ويتضجرون من ارتفاعه ، لذلك صب الأمير غضبه على المسيحيين الذين في ملطيه قائلا لهم : إن أهل إيمانكم سلموا القلعة إلى الفرنجة ، وأخذ ينتقم منهم ، وكان أهل ملطيه حزانى على سبي الدير من جوسلين ، فأتى الضيق والاضطهاد ليزيد عليهم فوق الحزن شدة ، فأبطلوا الصلوات وأوقفوا قرع النواقيس في البيع لمدة ثلاثة أيام إلى أن تحقق الأمير أن الرهبان لم يسلموا القلعة إلى جوسلين ، لكنه دخلها بالحيلة

والخداع ، فأوقف اضطهاد أهل ملطية ، واستعد جمع من العسكر ليذهبوا ويخرجوا الافرنج في القلعة ، وفي تلك الفترة تدخل التدبير الالهي فتطوع إثنا عشر راهبا وخمسين متعبدا كانوا قد أتوا من بلاد قلوذية إلى ملطية ، ومعهم ثيران وأواني ومتاع ومقتنيات يستتروا بها ، وقد أطفأ موقف الراهبان هذا غضب الأمير ، وكان معهم شيخ تقي يدعى ابراهيم ويكنى سورديم استطاع أن يدخل إلى عند الأمير ويقنعه قائلا : ربما لن نستطيع أن تأخذ القلعة بالحرب ، لكن أعطنا الفرصة ونحن نحتال ونأخذ الدير ، فحسن كلامه عند الأمير وأخذ يفرق الخيرات والعطايا على أولئك الراهبان الذين أتوا ليستقروا عنده ، وأخيرا ساعد الدير وكل من فيه ، وأعفاهم من خراج تلك السنة ، ثم طلب منهم عهدا فأقسموا له ، وبعد ذلك أرسلوا طلبا إلى البطريك المقيم في آمد ليغفر لهم بالعهد الأول الذي أقسموه بالقوة والغضب لجوسلين ، وإثر هذا أرسل جوسلين يقول للأمير بولت : لقد أخذت أديرة زوبر وهي لي وخربتها ، وأنا أخذت دير مار برصوم وهي قلعة تتميز عن كثير من القلاع عالية كعلو الذسر عن بقية الطيور وها أنا أردتها الآن لك وبهذا يكون قد بطل القسم الذي أعطاه للراهبان ، لأنه طلب الصلح من الأمير .

فرد عليه الأمير بولت بما يلي :

بما أنك طلبت الصلح فنحن نرضى به ، لكن قل لي : كيف ستحقق هذا الصلح وقد تبين لنا أنه ليس لك أمانة ، لأن المسلمين يحلفون بكتابهم والمسيحيون يحلفون بالصليب والانجيل ، فأما أنت فمزقت الانجيل وكسرت الصليب وبالتالي لم يعد لك أمانة كالمسيحيين ، فأوضح لي إيمانك هل أنت يهودي أم حنفي لكي نثبت معك القسم بحسب إيمانك ، وبهذا الكلام أفحم التركي ذلك المسيحي الكذاب وأخزاه ، وبعد ذلك سقط جوسلين ، وعاد الراهبان والقديس للدير المقدس وصارت استقامة الجانبين بالعناية الالهية .

لقد صنع جوسلين مثل سليمان بن داود ، ترك إله آبائه المسيحيين (كذا) ، وسلم ذاته لخدمة الشياطين ، حين اجتراً على

القوة القادرة على كل شيء والمحلوله بالقديس ، وحين دفعه عقله
المزبول ولم يحسب حسابا أن العظماء الذين معه هم مسيحيون ،
وسوف يخبرون الرهبان بغشه ، فجمع عسكره وأظهر وكأنه يريد
أن يتوجه إلى بلاد الترك لينهب ، فأتى حرتان ، وبعد ثلاثة أيام
صعد هناك الجبل الأبيض وتوجه إلى العين المسماة إيزا في رأسه
العالي في بلاد قلونيه ، وبقي هناك إلى أن سمع الشعب به فهربوا
خوفا منه ، فأخذ يتهم الرهبان بأنهم هم الذين خوفوا الشعب ثم
قال لمن معه : إذا ضللتنا طريقنا ندخل إلى الأديرة القريبة نصلي فيها
ثم نرجع .

في صباح السبت ٨ حزيران سنة ١٤٥٩ دخل جوسلين الدير
فجأة ، ففرح الرهبان لاعتقادهم أنه أتى للصلاة ، لكن الأغبياء لم
يعرفوا أنهم سقطوا في فخ محكم لأن جوسلين ظن أنه سيجد ذهباً
كثيراً ، والرهبان ظنوا أنه أتى يحمل ذهباً ، فاستقبلوه يحملون
الصليب والأناجيل ، وخرجوا لملاقاته عند الباب الرئيس ، ولما رأى
الصليب نزل عن فرسه بكل غش وخداع وأظهر خشوعاً ووداعاً ،
حين دخل إلى داخل القلعة حينئذ أرسل بعض حراسه وجنوده
ليفتقروا القلعة ، فشك بعض أهل الدير بما يجري ، لكنهم لم
يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ، ثم صعد خمسة من رجال جوسلين
فوجدوا راهباً شيخاً واثنين من المتنسكين فأمسكوهم ، ثم جمعوا
كافة الرهبان وحبسوهم داخل الهيكل ، واستدعى جوسلين الشيوخ
وأخذ يعنفهم ويلومهم قائلاً : لقد أخبرتم عنا بلاد ملطية ، فهرب
الأتراك ، فأندهشوا وقالوا : ليس لدينا علماً بذلك فأضاف إن كان
حقاً لا تعلمون ولم تساعدوا الترك ، فأعطوني كل ما يخص الترك في
هذا الدير فقد سمعت أن مالا كثيراً من بلاد الترك ، ومن الترك مخبأ
هنا ، يجب أن يعطى هذا المال للمسيحيين ليتقوا به وينتقموا من
الترك الذين نهبوا أديرة زوبر ، فأجابوه قائلين : إن فعلنا ما تريد
كيف يمكننا أن نتمكن في هذا المكان ؟ حينئذ صرخ بـودحشية
وأخرجهم من الهيكل وحبسهم في ذلك اليوم في بيت شبا المدعو
قاعدة ، وأرسل قساوسة الأفرنج فدخلوا إلى الهيكل وأخرجوا كل

ماوجدوا به من صواني فضية وقوارير نحاسية وصلبان ومباخر وقنايل وإيقونات معدنية وأناجيل وكتب ، وبعد هذا توزع الجنود وأخذوا يفتشون بيوت الكهنة والرهبان وجمعوا كل ماوجدوه من ذهب وفضة ونحاس وحديد وثياب وأسترة ، حتى أنهم أخذوا من الهيكل أثاثه ، وكان معه أناس من الداوية الأفرنج ، فلما رأوا ذلك قالوا له : إننا أتينا معك لنحارب الترك ونساعد المسيحيين لالغلب البيعة والأديرة ، فتركوه ومضوا ولم يأكلوا خبزا أو يشربوا شيئا ، أما الشقي وأتباعه فقد مكثوا كل يوم السبب ينهبون ، وحملوا كل مايسطيعون حمله بعد أن فتشوا كل شيء تفتيشا دقيقا ، وفي المساء ، وكان اليوم التالي هو الأحد ، أخرجوا الرهبان وكافة الشعب وأنزلوهم وقضوا الليل عند الكرم المدعو الفيل عند شاطئ النهر ، ووضعوا في الدير جملة من الحراس الأفرنج والأرمن ، لكن الشيطان عاد فعلمه أن يرجع للدير المظلوم ، فعاد وعاد معه الرهبان ، وعادوا يفتشون عليهم نسيوا شيئا لم يأخذوه ، ثم صعدوا إلى المعصرة ، ودخلوا إلى أكواخ النساك ونهبوا كل شيء وجدوه ، ثم حملوا كل شيء على الجمال والبغال وخاصة أثاث الهيكل ، وحلل النحاس ، ومتاع من كل جنس وكان بينهم صليب ذهبي فكسره جوسلين الطاغى داخل الدير ووزعه على الذين كانوا معه ، ولم يكتف بذلك بل أخذ بغال الدير ، وكانوا إثني عشر بغلا ، وأخذ معه الرهبان الذين حضروا وكانوا نحو خمسين ، ويوم الاثنين وصلوا إلى جوتي .

فصل حول دير مار برصوم

صحيح ان القديس مار برصوم سمح بسبب خطايانا ان ينهب ديرہ ، لكنه لم يهملنا ولم يسمح ان نهلك كليا ، كذلك لم يسمح للطاغي ان يمر دون درس ، حتى اذا ما اراد ان يرجع للتوبة يستطيع ان يخلص ، فقد رأى ثلاثة من جنوده حلما في ليلة واحدة ، حسبما هو مكتوب عن رواية شاهدين او ثلاثة ، فقد روى ان ثلاثتهم شاهدوا في الحلم ان دير القديس يبرق ، وأن القديس واقف على رأسه بمنجل لا يوصف ، وقد دعاهم وقال لهم : امضوا وقولوا للملكم ان غضبت على رهباني لانهم اخطأوا واغضبوا مولاي فقد نجيتهم ، انني نجيتهم من يديه حتى يندمو ويتوبوا ، وقد أمرت الآن ان تتركهم ليرجعوا إلى ديرهم .

واجتمع هذا الجندي مع زملائه الاثنين الآخرين اللذان شاهدا الرؤيا نفسها وقصوا على بعضهم بعضا رؤيتهم ، ثم تشجعوا ودخلوا الى جوسلين الشقي وقصوا عليه الحلم ، فوعدهم فرعون الثاني بعدما سمع هذا الحلم ان يعيد الرهبان ، لكنه مالبث ان غير رأيه وبذل ان يعيدهم اخذ يعذبهم ليأخذ منهم بقية الذهب ، فقد كان قد استولى من قبل على خمسة الاف ، لكن الله مالبث ان دعاه مرة أخرى الى التوبة ، وهذه المرة بوساطة أهل بيته ، فقد رأوا الصندوق الذي يضم يمين القديس برصوم يشع ويضيء كالشمس ويخرج من قلبه سيف نار ، ثم انبعث منه صوت يقول باجوسلين ان لم تتركني وتترك رهباني فإني سوف أهلك أنت وكل بلادك بهذا السيف ، فلما أخبره أهل بيته بهذه القصة ترك الرهبان والشيوخ ، وعاد داوود ويعقوب إلى الدير في ١٥ ايلول سنة ١٤٦٠ لكنه اخذ الصندوق الذي يحوي يمين القديس سيدنا مار برصوم ، وحجزه في بيعتهم في تل باشر حتى يحضر له الرهبان الالاف الخمسة الاخرى كما طلب منهم ، وحينئذ سقط عليه سيف الغضب من عساكر

- ٢١٣٧ -

الترك ، أن ذلك عند الله فقط سهل ، وبقوته غير المحدودة القادرة
على الكل يصنع من عظام وأوصال قديسيه وأحبائه متى يشاء وكما
يليق قوة لأجل خلاص أنفسنا

مقتل ريموند أمير أنطاكية وريجر أخو بلنوين حاكم كيسوم

في كانون الثاني من سنة ١٤٦٠ دخل نور الدين حاكم حلب إلى بلاد أنطاكية ونهب كل البلاد ونزل على الشجر ، لكن ريموند حاكم أنطاكية لم يكن موجودا فيها ، ولما سمع أنى مسيرعا ولم يدخل لأنطاكية بل جاز عليها ، وكان معه علي بن وفتام ، البسوي الذي انشق عن نور الدين ، وكان هذا مع عسكره قد ساعد الافرنج كثيرا حتى كسروا الاتراك وجعلوهم يهربون بحالة سيئة .

دخل في هذا الزمان قرا أرسلان حاكم قلعة زياد إلى بلاد آمد بوساطة الحيلة ، إذ اتفق سرا مع أناس من داخل القلعة على أن يسلموها له لكنه أخفق في ذلك ، وعندها أخذ يسبي أهل البلاد وقد ساقهم مسيرة يوم كامل ، لكنه عندما رأى حالهم التعميسة على الطرقات المملوءة ثلجا وجليدا حزن عليهم ، وتساءل ماذا خطاهؤلاء فأعتقهم ورجعهم إلى سيارهم .

أما جوسلين فقد جمع عسكرا ودخل لينهب في بلاد الرها وجران ، ثم عاد الاتراك وأقاموا كمينا وقتلوا عددا كبيرا من جنوده .

وعندما كان نور الدين حاكم حلب يتقد غيظا ويحتال ويجمع عسكرا ، كان الافرنج المتكبرون والمتعطرسون ، لايبالون بما حولهم ، وربما دفعهم الله إلى هذا الموقف جزاء لأعمالهم الشريرة ، فاستهتروا بأعدائهم الاتراك الذين أخذوا يتجمعون حولهم ، كما يتجمع الذباب حول الجثة ، فتركوا قراهم وكرومهم بغير سراج ، وكان شأنهم في ذلك كالذي يترك بيته بدون أبواب ومضوا إلى بلاد العرب كما يمضي الغزال إلى النخ ، والليل إلى السهم الذي سوف

ينغرس في كبده ، وكان معهم علي بن وفاء العربي ، ولما رأى انهم دخلوا الى اواسط اراضي اعدائهم قال البدوي : إلى أين أنت ماض ايها الملك واعدائك يحيطون بك من كل جانب ، ابق في مكانك وتجمع أنت وعسكرك حتى يتفرقوا ويذهبون ، فإن أرادوا أن يدخلوا بلادك فحينئذ تلاقىهم ، اما هو فاحتقر كلامه ورفض نصيحته ومشورته ، ماكاد يهبط الليل حتى وجد نفسه في وسط الاتراك فأطبق الترك على الافرنج الاشقياء من كل جانب ، حينئذ قال له علي بن وفاء ثانية : إنك لم تسمع مني ، وهاهو نحن الان في الفخ ، لكن اسمع مني الآن وتعال نهرب ، فعسانا نستطيع انقاذ ما أمكن ، لأن الاتراك يحيطون بنا بعسكر عظيم ، واذا أشرق الصباح ونحن مازلنا هنا فسوف يهلكونا ، وعندما انبلج الصبح وقبل أن تشرق الشمس هجم الاتراك هجوما عنيفا ، وكأنهم جبل من الماء ، وأخذوا ينبحون الكبار والصغار وكانوا يتساقطون كالاشجار عندما تقطع من أسفلها ، وقتل ريموند حاكم انطاكية الاسد الشديد ، وسقط رنجر حاكم كيسوم شبل الاسد ، ولم ينج واحد منهم لينقل اخبار ماجرى ، وتحولت هذه العساكر الى اكوام من القتل ، وفي ذلك اليوم نزلت ضربة قاصمة بالمسيحيين ، إذ لم يشعر اهل انطاكية الا والاتراك قد غنموا كل البلاد وسبوا اهلها ، وحل نور الدين على المدينة وارسل رأس ريموند إلى بغداد ، وهنا وقع انشقاق بين اهل انطاكية ، فقسم منهم كان يرضى بالاتراك ويتحمس لوجودهم ، وقسم هرع الى ملك القدس مستنجدا ، ولما أتى ملك القدس أبقي على الشرائع التي كانت سائدة وأقام بطريكتهم رئيسا .

اما جوسلين فانه لما سمع بمقتل حاكم كيسوم أتى وملك عليها وعلى القلاع التي هناك فلما من هذا الشقي أن كيسوم يجب أن تبقى لزوجة المقتول والتي هي ابنته ، وبهذا الزمان تحارب جوسلين بعقله المرنول مع قلج ارسلان بن مسعود حاكم أبلستين وبلادها ، وحل على مرعش ، وبعد أن نهب البلاد وقتل اهلها وعدوا قلج ارسلان بتلبية مايريده ثمننا لنجاتهم ، فملك السلطان على مرعش ، أما

الافرنج الذين كانوا بها والفرسان والاساقفة والقساوسة فقد تركهم يمشون الى أنطاكية حسب ما نصت الاتفاقية ، لكن الترك ارسلوا من يقتلهم في الطريق وفي نهبه لمرعش هذه المرة تبدد اثاث بيعتها : جرة الميرون ، والصواني والكاسات والمباخر الفضية ، واغطية المذبح والاستار ، اخذها العصاه على اسقفهم من ايادي القساوسة.

وفي هذه السنة لما رأى الأمير قرا أرسلان حاكم قلعة زياد أن الاتراك صاروا يدخلون من كل ناحية وتملكوا بلاد الافرنج الذين تولى عنهم الرب لأنهم هجروه ارسل عساكره وأخذ الجبولة على شاطئ الفرات فخاف أهل بلاد جرجر وهربوا ليحتموا بجبل ماربرصوما وتحلقوا حول الدير رجالا ونساء مع أولادهم ومقتنياتهم ، وبدا عند ذلك عدد كبير من الرهبان المعتزلين والمتفرغين لعبادة الله يتضرعون ويدمدمون ، ولم يستطيعوا أن يطردوا هؤلاء اللاجئين لأنه كان بينهم رهبان اقرباء لهؤلاء.

ولما دخل الترك لبلاد جرجر ونظروا ان القرى فارغة وسمعوا ان الشعب في جبل مار برصوم ، توجهوا الى ذلك المكان ، يوم الاحد في ١٥ اب وكمنوا في ثلاثة اماكن ، وفي الصباح هجموا وسرقوا الدواب والثيران وقتلوا ثلاثة من المتعبدین ، وقتل اثنان من الترك ، وحينئذ ارسل الاتراك رسلا يقولون اننا نكرم هذا القديس ونقدم له النذور ، وإننا لانضمم شرا لهذا الدير ، وإنما اتينا وراء الذين توجهوا الى هنا من بلاد جرجر ، فان تعطونا اياهم نرد لكم ما اخذناه ، وإننا نعد بان لانرسل الشعب الذي نأخذه الى العبودية ، بل نأخذه الى قراه ، حينئذ انقسم اهل الدير الى فرقتين : منهم من قال يجب ان نسلم هذا الشعب ، ومنهم من كان يصرخ رافضا تسليمه وكادت الحرب تقع فيما بينهم ، لولا حكمة احد المشايخ الذي اصلحهم بحكمته ، فقد اخذ مجموعة من الفريقين وخرج الى الاتراك وقال لهم : إن كنتم فعلا لاتريدون ان تسوقوا هذا الشعب الذي ستأخذوه للعبودية فلتأت معنا مجموعة من رؤسائكم ونمضي

- ٢١٤١ -

سوية الى قلعة زياد ، ونثبت هذا العهد عند الامير ، لكن الترك كانوا في الحقيقة يريدون ان ياخذوا هذا الشعب الى العبودية ، ولما اتضح ذلك في تردهم ، صرخ الجميع بقم واحد : كلنا شيخوخة واحد ولن نسلم ولو متنا كلنا ، وعند ذلك احرق الترك كل ما هو موجود خارج الدير من بيوت ومعاصر واسيجة للكروم ، واخذوا الغنم والثيران ، ومضوا ، اما الرهبان فقد مضوا الى قلعة زياد ، وبوساطة المؤمنين الذين هناك استطاعوا ان يواجهوا الامير قرا ارسلان ، فاعاد كل شيء للناس حتى الثيران والغنم ، وصار فرح عظيم في كل مكان ، ومجدوا الله كثيرا .

كمل هذا ايضا على يد عبد عبيد الله ، وخادم الخدام ابراهيم الاخرس من قرية صيد - خمس سنة ٢٠٧٥ يونانية (١٧٦٤ م) في شهر حزيران المبارك .

سقوط جوسلين

في هذا الزمان نهبت العدالة السلطان مسعود فجمع عددا كبيرا من الجنود الاتراك واستعدوا لاقتحام بلاد الافرنج الاثقياء ، فدب الخوف والهلع في قلوب الافرنج الذين يدعون ان الواحد منهم يهزم الفا ، فصاروا يرتاعون من صورة على الورق ، لانه حلت عليهم لعنة الكتاب ، وصارت كل الشعوب تصرخ بفرح واحد : بامر من الله تجمع الاتراك ليبيدوا هؤلاء المسيحيين الذين تجاسروا على مار برصوم ، ولما رأى جوسلين ان الترك قد حاصروه واصبح سجينا في تل باشر احس بذنبه واعترف ان هذه ضربة من الله ، فوعد بالتوبة والتجسا الى سيدنا مار برصوم ، حينئذ تغطف عليه الرب الذي بعث السلطان ، فحلف جوسلين للسلطان بانه سيمير تحت طاعته ، وجاء هذا التدبير كله من عليين ، فارتحل السلطان الى بلاده ، وارسل جوسلين القديس مار برصوما (اي يمينه) الى الدير ، لكن ما لبث جوسلين هذا ان رجع الى اعمسالة الرديئة مثل الكلب الذي يرجع الى قيئه ، فلم تهمله العدالة ولم تحتمله ايضا ، لانه تافق ، فصارت نهايته على ايادي الترك الذين تبعهم ، لان جوسلين الذي كان قد تعاهد مع نور الدين حاكم حلب بدخل الى بلاده وقتل وسبي عددا كبيرا ، واخذ قلعتين

وفي سنة ١٤٦١ ارسل قرا ارسلان حاكم قلعة زياد واحدا من قادته واسمه الضياء فنزل الى بلاد جرجر ، وفي احدى الليالي هجم فجأة على القلعة التي يقرب الدير والمدعوه تجنكر واخذها بالقتال ، واخذ منها خمسمائة شخص كعبيد ، ووجد هناك اواني وملايس كان قد سرقها جوسلين من الدير الذي سباه ، ومن هنا كشف لكل منهم انه بامر الله صار الغضيب ، وكل موضع دخل به مسروقات من الدير جرفه طوفان الغضب ، ثم اجتال اليونانيون والافرنج ليدعموا الذين في جرجر فاجتمع مع باسيل حاكم (حصن منصور) وكيسوم

ومع جوتاي وغيرهم نحو خمسمائة فارس وكثيرا من المشاة ومعهم الوف من احمال الحنطة يريدون الدخول لقلعة جرجر، ولما وصلوا لقرب القلعة اكتشفوا ان الترك لم يعلموا بقدومهم ، فتركوا احمالهم خارج القلعة ونزلوا ليهاجموا معسكر الترك ظنا منهم انهم سوف يهزمون الترك ، لكن الله كسرهم ونصر الترك عليهم ، وكان الترك يفوقونهم عددا فقتلوهم وبددوهم، واسر باسيل حاكم جرجر وكيريكور حاكم جوتاي ، وما هي الفرنجي حاكم كيسوم ، ولم ينج من الفرسان احد واستولى الترك على الحنطة ، وعندما انتصر الاتراك هذا الانتصار العظيم قام الامير قرا ارسلان بعمل يدل على عظمة نفسه ، وكرم اخلاقه ، فاعتق كل الاسرى وارسل كل واحد الى بيته ، واعطى حكام القلاع اماكن في بلاده ، فاخذ من باسيل جوتاي واعطاه سجمان .

وهكذا ملك الاتراك جرجر وجوتاي وحصن منصور، اما جوسلين فخرج الى انطاكية ومعه مائتي فارس ، كان يظن انهم يقاومون الوفاء، وبينما كانوا سائرين عند اعزاز بالليل التقى بهم قليل من التركمان فهرب هؤلاء الفرنج من الصوت فقط ، لانه قد ابتعدت عنهم القوة ، اما جوسلين فقد هرب واحتتمى بشجرة فالتقى به رجل تركماني ، لكنه لم يعرف انه جوسلين ، وقال له انه يريد بيعه للمسيحيين ، ولكن التقى بهم رجل يهودي في احدى قرى المسلمين ، فاخبرهم ان هذا جوسلين ، فاخذوه بفرح الى حلب فاشتراه الوالي من التركماني بالف دينار ورماه بالسجن وهناك اكمل حياته بالعذاب .

وعندما دخل الى حلب مقيدا صار فرح عظيم وسرور لكل المسلمين ، وبقي في السجن تسع سنين ، وكانوا دائما يرغبونه ويهدونه بكافة الوسائل ويقطعون عنه الطعام لكي يعلن اسلامه ، لكنه كان دائما يرفض ، فحكموا عليه بالعذاب وكان دائما يجاهر بإيمانه وكان يعترف قائلا : لاجل خطاياي اذلني الله ، وارسل الى الدير والى باقي كنائس المسيحيين طالبا ان يصلوا لاجله ، ليقبل مع

- ٢١٤٤ -

التائبين ، ولما قرب موته وهو داخل البئر الذي كان مرميا فيه طلب ان يجلبوا له اسقف المدينة ، فجاء الاسقف وقبل اعترافه وشاكره الاسرار المقدسة ، ولما توفي اعطوه للمؤمنين فجنزوه وقبروه في البيعة ، واجتمع على دفنه اكثر اهل المدينة من المسلمين والمسيحيين وكانوا يتعجبون مما حدث له .

تم هذا الخير ايضا .

كيف رجعت يمين سيدنا مار برصوم الى الدير

بعد ان ترك جوسلين الرهبان يعودون الى الدير ، ولم يرسل يمين مار برصوم زاد عليه غضب العدالة ، فارسل الرب من الشمال شعب ياجوج (الاتراك) واحاطوا بتل باشا ، حينئذ صرخ الافرنج والسرمان والارمن بصوت واحد ، فخاف جوسلين الاثيم ، وامر فاخرجوا القديس ، واخذوه للجبل وكانت رؤوس كل الناس مكشوفة وهم يبكون ، ثم احتفوا به امام معسكر الاعداء ، ومضى الرهبان والمشايخ واتوا بالقديس مع تبجيل عظيم ، وكانت جموع الناس في كل مدينة وبلدة تسعى امامه وهم فرحين مسرورين ، ومجدين ومزمارين بالالحان والشمع المضاء ، وعطر البخور ، وانتهى طريقه كله بالتبجيل العظيم ، ثم وصل الى الدير في راس كانون الاخير يوم عيد المعلمين القديسين

استيلاء الترك على البلاد بعد سقوط جوسلين

في ٢٩ كانون الاول سنة ١٤٦١ يونانية وقع زلزال جعل الارض تهتز ، وفي ١٥ آذار كسف القمر من منتصف الليل وحتى الفجر ، وفي ٢٣ آب صار مطر وسيول جارفة اخذت اماكن كثيرة ، وخصوصا في قلعة زياد حيث احتنق صبي في وسطهم وكذلك بفلان وحمار .

في هذا الزمان ارتسم للخلقيونيين بطريك شيخ كان في صباه اسقفا لكن حب الرئاسة اغراه فاحفى ذلك وارتسم ثانية ، لكن بعد قليل انفضح وخزي ونفي هو والذين رسموه .

في سنة ١٤٦٢ يونانية صار شتاء قاس وثلج كثير ، وكان ابواب السماء انفتحت ونزل كل ما فيها من ثلج حتى في الاماكن التي نزل فيها ثلج قليل جدا صار نحو ذراعين .

وفي آذار ايضا اتى ثلج احمر ، وقد قال الطبيعيون : ان الرياح تحمل الغبار الاحمر الناشئ عن التربة الحمراء التي الغمام فيترأى كلون الدم ، وعندما يسقط الثلج يختلط معه وكل هذا يصير لاجل تأديبنا .

وفي آذار صار بملطية ثلج كثير لم يسمع وينظر مثله قط .

وفي ٢٣ آذار ايضا ظهرت اية ، وهي عبارة عن شعاع ناري في الناحية الشمالية وفي تلك السنة في قليسورا (٣٧) كان جبل تحت قرية فسقطت فجأة منه صخرة عظيمة ، وسحقت القرية مع سكانها وبهائمها .

وفي تلك السنة كثرت الامطار في كل الاماكن وافسدت الزروع وكل الغلال ، وخصوصا في شواطئ الانهار ، ومات الزرع كله ، ولم يبق شيء .

ولما سمع السلطان مسعود بسقوط جوسلين دخل يوم احد العنصرة وحل على كيسوم ، وكان بها افرنجيا اسمه رنجر ، وفي تل باشر اقاموا ابن جوسلين حاكما ، وكان بعد صبيا وكان ايضا يدعى جوسلين ، ولما رأى الذين في كيسوم كثرة عساكر السلطان مسعود ذهبوا فاربسوا مطرانهم ايونيس الى القلعة ، واخذوا تعهدا من السلطان بشأن الافرنج ، سمح بموجبه لهم ان يصلوا الى عينتاب وهكذا صار ، وتملك السلطان على كيسوم وعلى القلاع ، وعلى رعيان وفرزمان ، وحل على تل باشر ، فقدم عليه نور الدين حاكم حلب ، فاعطاه السلطان ابنته التي كانت مخطوبة لابن اخي ملك اليونانيين ، واعطاها تل باشر ، ولما ترك السلطان تل باشر ورجع الى بلاده ، اتى ملك القدس واخرج من تل باشر امرأة جوسلين واولاده وجميع الافرنج وحملهم معه الى القدس ، واقام في البلدة اناس من مملكة اليونانيين ، وقد استطاع هؤلاء ان يضبطوا تل باشر وعينتاب واعزاز ، ثم حل عليها الاتراك واضطهدوا سكانها كثيرا - اعتقد كان ذلك بسكل نوع من انواع العذاب - ولما لم يستطيعوا المقاومة سلموا كل هذه الاماكن صلحا الى نور الدين ، وملك حاكم حلب هذا على تل باشر وعلى عينتاب واعزاز والبلاد التي بينها ، وبقي مع السلطان مرعش وقلاع فرزمان ورعيان وكيسوم ، وبقي مع قرا ارسلان ببولا وجرجر وجوتاي وحصن منصور

اما تيموتاش حاكم ماردين فقد اخذ البيرة وسميساط وقورس وكفرسوت ، وهكذا تملك الاتراك على هذه البلاد ، اما قلعة الروم ، فقد كان جوسلين قد وضع فيها ارميني اسمه ميخائيل ، لكن هذا لما سمع ان جوسلين قد سقط ارسل امرأة جوسلين وابنه ، لانهما كانا في تل باشر ، وذلك ليقولا لكريكور جاثليق الارمن الموجود بهوزب ، اي البخيرة ، ليأتي الى القلعة ويساعد ميخائيل ، لكن كريكور هذا لما اتى اجتال وامسك بميخائيل وعذبه ، واخذ مقتناه وطرده ، وجلس كريكور الجاثليق في قلعة الروم .

وفي سنة ١٤٦٢ يونانية دخل يعقوب ارسلان الى بلدة اليونانيين
المسماة فابرا وسبهاها وخرج .

وفي هذا الزمان هزم منويل ملك اليونانيين وانكسر من قبل
الافرنج وهرب واستطاع ان يصل الى القسطنطينية بصعوبة بالغة .

وفي تلك السنة خنق حاكم ايزنجي بلد الارمن من قبل ابنته (٣٨)
بوتر القوس ، واتت بأخيه مخديباريجي فتزوجها وتملك .

وفي تلك السنة كان في دير اليونانيين المدعو سيريكاف في بلاد
بنطس ، صليب ذهبي كبير ، وكان فيه جزء من خشبة الصليب ،
وكان يفعل عجائب في تلك البلاد ، فوضع الحاكم في ضميره ان ياخذ
الصليب ، فتهيا له واحد اثيم من اليونانيين ، ودبر حيلة عصى فيها
بالبلد ، فأتى الامير واخذ الصليب وكل شيء وجده ، واخرج الرهبان
ووضع فيه الاتراك ، واخيرا ذكره بعض عظمائه ان اباءه كانوا
يكرمون هذا الدير ، فقام بعدة وساطات كثيرة وبعدما اخذ من
الرهبان ذهبا ضمانا بانهم سوف يعطوه خراجا ، فسمح لهم ان
يرجعوا الى ديرهم ، وقيل لنا ان اليونانيين المجدفين لما سبى
جوسلين دير سيدنا مار برصوم ، كانوا يصهلون كالخيل او كما
صهل اليهود على مولانا عندما كانوا يستهزئون به ويجدفون عليه ،
ولما تشرف خبر مار برصوما عند كل الشعب ورجع منتصرا على
الذين سبوه فرح المؤمنون في كل مكان ، كما فرح الرسل بقيامة
سيدنا ، ولذلك يجب ان يقال لهم : ياهؤلاء كفوا السمـنتكم عن
التجديف على القديسين واذعنوا للحق فلولا اننا اخطأنا وارادت
العدالة ان تضربنا لم يستطع جوسلين ان يسببه من دير مار
برصوما ، كذلك لم يستطع أحد ان يسرق الصليب المكرم من دير
سيريكاف ، ويهزأ به .

وفاة دولت حاكم ملطية

في سنة ١٤٦٣ يونانية خرج الافرنج من رومية غاضبين على اليونانيين يريدون الانتقام منهم لاجل ما صنعوه بأخوتهم ، فنهبوا وخربوا ووصلوا حتى باب القسطنطينية واحرقوا ثم خربوا كثيرا في مملكة اليونانيين ورجعوا .

ووصلت فرق منهم إلى فلسطين لينتقموا من العرب ايضا لكنهم لم يتفقوا لعدم وجود قائد لهم ، فقتلوا الذين وجدوه في قرى عسقلان من العرب بالسيف واحرقوا القرى ، ثم عبروا في البحر وخرجوا إلى ارض القبط ، وهناك في نواحي مصر الغربية احرقوا المدن والقرى والسكان بالنار ، ثم رجعوا الى بلادهم .

وفي تلك السنة في ١٢ حزيران يوم الخميس مات دولت حاكم ملطية وملك ابنه ذو القرنين ، وفي ذلك اليوم خاف المسيحيون جدا وكثرت عليهم الشدائد ربما ليعودوا الى تسببتهم ، اما اخو دولت يعقوب ارسلان فارسل يعزي ابن اخيه ووالدته طالبا ان يحتفظا بالمدينة ولا يعطوها للسلطان فاعتمدا عليه وارسلا مواشيها الى بلاده لتكون في امان .

لكن لما سمع السلطان انهم اتفقوا ان لا يعطوه المدينة ، اتى غاضبا على يعقوب اولا فلما رأى ذاك كثرة العساكر استسلم سريعا ووعد ان لا يساعد ابن اخيه فتوجه السلطان ضده ، لكن نزلت صاعقة في ٢٤ تموز احترقت الالوف من الاتراك ومن باقي الشعوب ، واحترقت القرى الجميلة وحولها البهية بالنار ، وكانت عساكر السلطان تخرّب البلاد من الخارج ، ومن الداخل كان الحكام والجنود يعذبون بغير شفقة سكانها بكل الانواع ، وكان المؤمنون محصورين بين هذين الوحشين ، ولما نظروا ان الكأس قد مزج

بالعلقم ، والسيف قد استل تذكروا خطاياهم وبدأوا بالادعية الدائمة فاتى خلاص الرب المتعطش للرحمة ، وهكذا بشفاعة والدة الاله في عيد انتقالها صار الصلح ، عندما خرجت ام الصبي وهي ابنة اخي السلطان وتوسلت اليه وركعت عند اقدامه ، فقال لها السلطان : ان ياتي الصبي الي خاضعا اترك له المدينة ، عند ذلك خرج الصبي فقبله وثبت له الرئاسة .

وعندما كان السلطان نازلا على ملطية ، دخل الترك الذين معه ليسبوا بلاد قلوذية ، فوجدوا الرهبان والمتبرئين الذين في دير بيت حنيش فاخذوهم اسرى ، حينئذ مضى الرهبان الى السييلطان فاعادهم ، ولما رجعوا لياتوا الى جبل التفاح التقى بهم لصصوص ، وتحاربوا معهم ، فقتل ثلاثة من اللصوص ، وقتل من المتبرئين طفل ومضى الباقي الى الدير .

ولما تثبت الرئاسة لذي القرنين بن دولت ، ملكت ام الصبي المدينة وكانت تعذب المسيحيين ، الاغنياء منهم والفقراء بغير رحمة بالخراج والضرائب المتنوعة ، ولم يستطع احد ان يتوسط عندها ، وكانت تقول ان المدينة لها ليس لان السلطان قد قبل تضرعها فقط ، بل لانها حفظت المدينة بوساطة السحرة والعرافين ، ثم اجتمع اليها جملة من النساء العرافات الفاحشات تنبأن لها بطول العمر مثل ولينيوس في زمانه ، وانها سوف تملك ، ولذلك حاولت ان تقتل ابنها وتملك هي لتتبع هواها ، حينئذ اشفق الرب على صراخ المساكين ، وقام غضب العدالة على ايزابيل الثانية ، فظهر مكرها وانكشفت لزعماء المدينة ، فطردوها ، وخرجت ماشية هي والنساء الفاحشات اللواتي كن يخرننها بالسحر والشعوذة ، وقد انطبقت عليها اية النبي « امكثي على رقاك وانواع سحرك الذي عنيت به منذ صباك ، وقد اعيتت من كثرة مشوراتك » (اشعيا ٤٧ : ١٢ و ١٣) .

ولقد لبثت عدة ايام على باب المدينة ثم طردت اخيرا من هناك حافية عارية وثبتت الرئاسة لابنها الذي سارع وقتل كل السحرة

والعرافين الذين جمعتهم امه ، ونهب بيوتهم ، ووضع قانونا يحرق بموجبه كل من يتعاطى السحر ، فهرب اكثرهم .

ثم شاذي بالصلح والسلام لاهل المدينة ، وابطل الضمانات والجوائز ، وصار فرج للمتضايقين ، وفرح لكل المسيحيين ، واكتشف ان بعض افراد حاشيته كانوا متفقين مع امه على هلاكه فطردهم زويدا رويدا ، ونهب بيوتهم حتى لم يعد احد منهم في مملكته .

انتهت هذه المقالة حول نحو من عشر سنين ، واربعة عشر فصلا ، وقام بها ملكين لليونانيين والافرنج وملكين للترك ، وخليفة واحد للعرب .

في تشرين الاول سنة ١٤٦٣ يونانية صار مطر كثير بالليل واتلف كل الغلال التي كانت على البيار واختنق كثير من الناس والبهائم في ذلك السيل لاسيما في بلاد قلعة زياد وبلاد سميساط ، وقد جرف السيل كثيرا من التراب والصخور العظيمة حتى انه سحب احجار الطواحين وانزلها الى الوادي ، اي الغدير الذي بين قرية ابدهار وبين قرية خرشنة ، وامتلا نهر الفرات مما نزل به من الجبل وتوقف مجراه ثلاث ساعات ، وقد نظرت الموضوع بنفسي ورأيت الناس الذين سعوا ليأخذوا السمك من ذلك المكان الى ان امتلا بالماء ففتح مكانها في طرف جبل قلونية وجري .

في هذا الزمان بنى قسيس ارمني اسمه يوسف من بلاد هنزيط في قرية برغيش بيعة ، وزينها وصنعها وجعلها مشعشعة من الخارج بالبياض ، وذات يوم خرج الامير قرا ارسلان ليتنزه كعادة الملوك فراهى هذه البيعة تبرق ، فغضب وكان بعض الاتراك يبغضون ذلك القسيس ، فأغروا صدر الامير وقالوا له : كلما بنيت بيعة جديدة في بلدة يموت حاكم تلك البلدة ، عند ذلك امر فقلعوا هذه البيعة من اساسها بغير شفقة ، وحبسوا القسيس المظلوم في السجن ،

- ٢١٥١ -

فاجتمع مسيحيو اهل قلعة زياد ليتشفعوا له ، لكنه كان قد امر بصلبه قبل ان يواجهوه ، وكان ذلك يوم عيد الصليب في ١٤ ايلول .

وبسبب هذا ومنذ ذلك الزمان صدر امر في كل بلاد ما بين النهرين بأن لاتبنى بيعة جديدة ، وان لاتتجدد بيعه عتيقة ، وصار حزن بين المسيحيين لهذا السبب ، لكن بعد موت الامير اجتمع المسيحيون وذهبوا الى ابنه وقدموا له ذهباً كثيراً ، واخذوا امرا ليجددوا كل جزء وبيعة عتيقة محتاجة الى تجديد ، وقد اثلج صدر المسيحيين في كل مكان لهذا الامر .

كل من نظر وقرا وتأمل يرسل لي قليل من صلاته ، لعلي اجد فرحا وسرورا امام الديان العادل ، واجره على المسيح .

في سنة ١٤٦٣ يونانية (١١٥٢ م) صار في ايلول برد ومطر وثلج فافسد الكروم والزيتون والقطن والسمسم ، وبدوا وكأنهم احترقوا بالنار ، وصاروا كالشجار الاسود ، ولم تكن هذه النازلة فقط في اثور وبين النهرين وإنما في بلاد فارس وارمينية وفلسطين وملطية ، وصارت كل المسكونة كالقش الذي اكلته النار ، حيث تحولت الى رماد ، لقد كان منظرا مخيفاً ، ويجب ان يلحق اصحاب هذا الجيل الفاسد درساً لانه اصبح لا يحس ولا يشعر بالخطايا والآثام التي يقتربها ، ولأجل ذلك صار هذا الغضب .

اخبار البيعة في هذا الزمان

في سنة ١٤٥٥ سرق اسقف مرعش في كورة ملطية بيعة جرجر فطرده البطريك وحرمه ، ورسم المرعيث اسقفا لجرجر .

وبعد مدة يسيرة تقدم الاسقف الذي كان قد خرم بطلب استرحام وشفاعة وكان اسمه باسيلوس فأعطاه البطريك اديرة زوبر ، فبقي هناك زمنا قليلا ثم طرد من هناك لاجل علة السرقة نفسها ، ثم اشفق عليه البطريك فأعطاه مرعش سيبابرك ، وبعد ان بقي هناك ثلاث سنوات عاد فطرده من هناك لاجل علة السرقة ، وقد قال البطريك وبعض الناس انه مظلوم اما الصحيح فهو عند الله .

اما باسيلوس الذي انتقل الى الرها لما هاجمها زنكي واخذها بالسيوف ، فقد خلص هذا المطران من القتل عندما تقابل مع زنكي ، ولأنه وجده حكيما وشجاعا ويتكلم اللغة العربية الفصحى كرمه وسلمه المدينة لكي يعيد بناءها وادارتها ، وترتيبها وقد خلص عددا كبيرا ، وبقي المطران بهذا المنصب الى ان قتل زنكي ، وقد نجح كثيرا بهذا المنصب .

وفي محنة الرها الاولى قتل العديد ، وكان منهم البار باسيلوس ابن عباس الذي كان اسقف ماردين ، ثم ترك الرعية وذهب ليسكن في جبل الرها حيث توفي هناك .

وصار في ماردين مطرانا ماريوحنا ، الذي هو ايضا ارتسم في ايام مار اثنا سيوس ابو الفرج سنة ١٤٧٦ ، وكان هذا شريفا ومستقيما ومتعلما يقرأ كثيرا في الكتب ، اختص بالمعرفة الطبيعية ، وكان يكشف الاسرار ويعرف الخفايا ، وكانت هذه المهنة مرغوبة ومطلوبة جدا ولاسيما عند الملوك ، وقد اشتهر عند الملوك ، وتكرم من كل الحكام ، ولاسيما حكام ما بين النهرين واثور ، وكانت له يد عظيمة تفيض بالرحمة على المساكين والمحتاجين ، فبعدما اخذ

- ٢١٥٣ -

زنكي حاكم الموصل الرها ، وصار اهلها عبيدا ، ظهرت حركة بين الناس فأخذوا يشترون اهل الرها ويعتقونهم كل واحد قدر ما يستطيع ، وكان هذا يتجول ويشجع افراد الرعيه على تخليص المسيحيين من العبودية، وبهذه الاعمال اشتهر عند الجميع ، وذاع صيته في بلاد كثيرة ، وخاصة عند المسلمين .

ذكرى الربان توما المتوحد والمطران عبدو

الربان القديس توما المتوحد ، ومعلمه المطران السعيد عبدو اللذان كانا في هذا الزمان في جبل زوبر .

لقد ذاع صيت الربان توما هذا بين رؤساء الكهنة ، واشتهر فلنعرف من هو هذا الربان ، انه من قلعة تدعى سامره في بلاد سود المجاورة للطيبة ، ولما اشتد الجوع في ايام بوزان التركي ، خرج هذا الصبي المسمى توما واتى الى دير زوبر عند خاله الراهب ولما رأى عيشه الرهبنة المقدسة احبها وانخرط فيها ونسي اهل جنسه .

وكان بهذا الزمان رجالا فاضلين بالدير ، احدهم البار مار ياونيس اسقف خرشنة ، وهو عبدو هذا ، وكان هذا شيخا فاضلا سلك من طفولته طريق الصلاح وتعلمذ وتساب عند الرجال المؤمنين وامتد وبقي يعيش وحيدا حتى بلغ سن الشيخوخة ، ثم تقدم الى درجة الاسقفية بالتزام عظيم وبمباركة الروح القدس ، وكان ذلك على يدي ماريوحنا ابن عديون البطريك ، وبعد مدة سلمه الرعية على الرغم من ارادته ، وبعد ان تضرع كثيرا اعفوه منها ورسوموا غيره ، اما هو فرجع الى خلوته ، ولما رأى هذا الصبي توما ، وتوسم فيه ملامح الروح القدس ، كان دائما يتفقده بعد ان اصبح راهبا متوحدا متبتلا يسكن خصا بعيدا ، وكان يعلمه المزامير وطرق وقواعد الرهبنة ، فبدأ يصارع الشياطين ، وكان هذا البار يقويه في صراعه مع الشياطين ، وقد قبل توما كل النصائح والتوجيهات

كالارض الجيدة القابلة للزرع الصالح التي تعطي الاثمار مضاعفة ،
اعني التدابير الصالحة له .

وبعد ان خدم هذا الشيخ مع الربان توما انتقل الى الحياة غير
الرائثة ، فبقي توما يعيش وحيدا في مكانه مدة اربع وستين عاما ،
في الصنيف كان يصعد الجبل حيث زرع دالية له ، فيعتني بها ،
ويقطف ثمرها ويصنعه زيبيا ، وكان يقايض الزبيب بالحنطة حتى
لا يأخذ شيئا من احد ، اما في الشتاء فقد صنع له في قلب الجبل
مغارة بعيدة كان يعتزل فيها ، وقد وصل هذا الشيخ الى درجة عالية
من القداسة حتى صار يشفي المرضى ، ويكشف اسرار الناس ، وقد
سمعت انا الضعيف ميخائيل من عمي مار اثناسيوس مطران عمن
زربه ومن منار ايوانيس مطران كيسوم بأنهما شاهدا وسمعا لما جاء
زنكي الى الزها ، وقبل ان يأخذها ، ان الربان توما قال : ان الله
قد اعطى الزها الى الترك ، فقال له المطارنة اشفق علينا ولا تقل
هذا ، لكنه عاد وكرر القول وزاد : نعم نعم ايها المطارنة ان الله قد
سلم الزها ، وان عددا كبيرا من المسيحيين يقتلون بها ، وبعد ان
سببت في المرة الاولى ، انا سمعت من فم عمي المطران يقول للجمع :
ان الربان توما قال لي بعد سنتين من الان ستشرب الزها كأسا مرا
امر من الكأس الاول ، وكذلك قال لي : ان دير مار برصوم سوف
يسبني حج اديرة زوبر ، فقال الحاضرون وماذا بقي من الزها ؟ فقال
للحاضرين : انا لا اعرف ، الربان توما قال لي هذا .

كل هذا سمعته بنفسي من ذاك البار ، وقبل زمن من حدوثه ، لكن
بعد ان صار ذلك ، تحقق كثيرون ان الاكتشافات والتنبؤات التي
صارت على يدي الربان توما هي من عند الله ، ولما دخل الترك الى
دير زوبر استشهد ذلك الشيخ بالسيف يوم الاربعاء ٢٧ تشرين
الثاني ، في يوم عيد مار يعقوب سنة ١٤٥٨ يونانية ، لتكن ذكراه
وصلاته وبركاته دوما معنا آمين .

في سنة ١٤٥٩ مضي ايضا مار اثناسيوس البطريرك الى امد

وجلس هناك ، ويوحنا اسقف منبج بن اندراوس ايضا غير رعيته بدون اذن ، فعندما كان البطريرك في تل باشر مع الاساقفة وقّع خلاف بين اندراوس وطيموثاوس اسقف خرشنة ، وبعد جدل كثير انتقل ابن اندراوس الى خرشنة ، واتى ذلك الى تل باشر ، ولما مضى البطريرك الى آمد وابتعد ، رجع ابن اندراوس لعادته وتخاصم مع فيلاردوس حاكم تلك البلاد.. وكان هذا ارمنيا في الجندس وافرنجيا في التداير ويونانيا هرطوقيا في الايمان ، لكن ابن اندراوس عاد فترك ايضا مرعش وخرشنة ومضى الى دير المتوحدين على شاطئ الفرات لكي يتوحد ، فرجع مطران خرشنة الى موضعه.

في هذا الزمان اسلم اهلون الشبختاني اسقف الحديثة ، وكان هذا قد خرج من بلده وسكن في دير مار متى ورسمه اغناطيوس المريان اسقفا لتلك الرعية ، ثم اسلم ، لكنه مال بئ ان رجع ، ولما لم تقبله الرعية ولم تعط له درجة الاسقفية ، ذهب الى القسطنطينية ، وصار خلقيدونيا ، لكنه رجع ايضا واتى يطلب التوبة فقال له بطريركنا مار اثناسيوس : نحن لانرد التوبة على طالبها ، فأذن له حينئذ تشاجر البطريرك مع المريان ، فصار المريان يلوم البطريرك لانه قبله قبل ان يكمل قانون التوبة ، وبالمقابل كان البطريرك يتهم المريان لانه كان قد رسمه دون ان يفحصه .

لكن مال بئ ان رجع الى المسلمين بغير سبب ، وبقي مع الفقهاء عدة اشهر ثم عاد فندم ايضا ومضى الى ابناء طائفتنا في القدس ، لكن ابناء طائفتنا لم يقبلوه هناك ، فمضى الى الموارنة في جبل لبنان وبقي هناك حتى مات .

في شهر ايار سنة ١٤٦٠ يونانية تراءت في السماء حربة طويلة في ناحية الشمال ، وبعد ساعتين في حلول الليل اختفت ، وبعد وقت قليل ايضا تراءت في ناحية المغرب سيميون اي آية شبه الصليب ، وبعد وقت قليل اختفت ، وفي يوم الاربعاء قبل عيد الصعود نزل في القدس ونواحيها مطر غزير ممزوج بقطرات من الدم ، وكانوا قد

اخبروا عن الدم الذي صار في البلاد الافرنجية بهذا الزمان ، وحدث هذا في شهر ايار وقد صار ايضا عوض الفلك المرسوم على الارض دما ، وهذا يؤشر على كثرة القتل وسفك الدم .

بهذا الزمان سقط اساقفة في بيعتنا وكان واحد منهم اهلون الشبختاني الذي ذكرناه من قبل اذ كان قد رسمه المغريان اسقفًا للحديثة فأسلم ثم صار يونانيا ثم مارونيا ، والآخر من قلعة زياد ، المتكني ابن الترك ، وهذا كان قد رسمه مار يوحنا البطريرك اسقفًا لرعية تل باشر ، لما خرج منها ابن اندراوس ، لكن لما عاد فقبل ابن اندراوس ، ارسلوا ابن الترك هذا الى سمندو ، لكنه مالبث ان طرد من هناك فأرسلوه الى بلاد خابوراء ، لكنه ايضا اخطأ هناك وزنى فطردوه فمضى لبلاد ارمينية الكبيرة ، حيث خلع ثوب الكهنة وارتدى ثياب الجندي ، وصار يخدم عند واحد من الاكابر ، وعشق هناك امرأة زانية ، ولما نظر انه لن يستطيع ان يطعم نفسه والزانية التي تبعته من خدمته في الجندي ، وكقول الكتاب الالهي ، كان مشتاقا ان يملأ بطنه من الخروب الذي كانت الخنازير تأكله ، ولما تعرقل من شر الى شر ، عاد فلبس ثوب الراهب المقدس ، واخذ يدور في الاماكن التي لا يعرفه احد ويجمع صدقة باسم الديره والقديسين ، وكان يأكل كل ما يجمعه مع زانيته ، وكان يعيش عيشه بزخ وفسق وفجور ، فقام ضده اناس من المؤمنين وفضحوه ، كذلك كان رجل اسمه جبرائيل من مرعش ، يكنى غاماكير ، ومعناه في اللسان الارمني « مبتدىء بالصلاة » كان قد رسمه مار اثناسيوس اسقفًا على سروج ، ثم قيل عنه انه سقط في دنس الزنا ، فأشفق عليه البطريرك ، وتعامل معه بطول الروح ، لكن انغمس في الشرور وارتكب الاتام الفظيعة كما سنوضح القول فيما بعد .

فصل عن الاعجوبة التي صارت بانطاكية والبيعة التي بنيت بها لسيدنا مار برصوم

نقص هنا خبر الاعجوبة التي صنعها القديس مار برصوم بكورة
انطاكية : في سنة ١٤٦٢ يونانية صعد صبي من نبلاء الافرنج الى
شجرة تين ، لان الاشجار في المدينة كانت كثيرة ، وكانت المدينة تبدو
كالفرديوس ، فحدث ان وقع وكسر حوضه فعالجه الاطباء كثيرا ،
لكنهم لم يستطيعوا ان يشفوه ، فتحول الى مقعد ، وقد تألم والداه
جدا عليه لانه كان وحيدا لهما ، وخافا ان تنقرض سلالتهم من
شجرة نسب النبلاء والملوك ، وقد انفقوا عليه ذهباً كثيراً ، وتعبا من
كثرة التجول به على الاطباء ، لكنهما لم يذتفعا شيئا في هذا ، وبعد
حوادث جوسلين اشتهر الطوبائي مار برصوم باعتباره قديسا
يصنع العجائب وسرى اسمه على افواه الناس ، وكانت ام الصبي
تقضي كل وقتها بالصلاة والذنور ، وتسأل الطوبائي شفاء لابنها
فحضر راهب من الدير يحمل ايقونه القديس كالعادة ، فدخلته الى
البيت باحترام وتباركت من الايقونة ، وبعد يوم تراءى القديس
للمرأة وهو يشبه الملك بمجد عظيم ، فسألت في حلمها : من هذا
الملك ؟ فقال لها الجمع مار برصوم وسمعت الطوبائي يقول هذا اريد
ان تبني لي بيعة ، وكذلك كان الراهب قد رأى القديس يقول له : قم
امض لدار هنري الافرنجي ، وفي بسنتانه اقم لي بيعة ، وجعله يرى
ثلاثة مذابح ، ثم عاد فرأى الرؤيا عدة مرات ، ثم هدده : حينئذ
خاف الراهب واعلم المطران باسيليوس رئيس الرها بما رأى وبما
قيل له لانه كان في تلك الفترة في انطاكية ، فتشكك الاثنان ، لكن
سرعان ما اتى والدا الصبي ، واعلمنا بما رأت الام ، حينئذ اخذ
الراهب المطران معه واخذوا ايقونة القديس ، ومضى الجميع الى
بيت اولئك الافرنج ، ووقفوا يصلون فوق الصبي المريض ، ولما
اكملوا الصلاة ، ورجعوا ، وبينما كان ابو المريض وامه يتضرعان

حوله ويطلبان له الشفاء ، نام ذلك المريض ، ثم بفته صرخ بصوت عظيم ، وقفز واقفا على رجليه فخاف ، وفزع الابوان وكل اهل البيت ، ونظروا فراوا يد الصبي منبسطة وكان واحد قد امسك بها ، فعلموا انه رأى رؤيا ، وعند ذلك سألوه فلم يجب لكن مضى وقت طويل ويده اليمين ممتدة ، وهو ينظر الى فوق ، وكان مبتهجا ، فقام ابواه بسرعة وهينا المصابيح واحرقا البخور ، واجتمع جمع كبير ، حينئذ اعلمهم الصبي قائلا : انه قد ظهر لي الطوباني مار برصوم ، وكان يمسك بيده صليب عظيم من ذهب يبرق كالشمس ، وامتلا كل البيت نورا منه ، ومعه جمع من الرهبان ، ثم امسك بيدي واقامني وقال لي قم لاتخف لاجل ايمان ابويك وتضرعهما ، هاقد اتيت ، فقلت له : كيف اقدر ان اقوم وها انذا كسميح؟ عند ذلك مس مكان الكسر فشفي ، وقمت .

وهذا صار فعلا ، ولا يقدر احد ان يشكك ان ليس المسيح ربنا هو الذي حل بسميدنا مار برصوم ، كما قال : ان من يحفظ وصاياي يعمل الاعمال التي اعلمها ، ويعمل اعظم منها ، لان الرب قد حل بقديسيه ، وهو يجعلهم يفعلون مايشاء ، وحينئذ اخذه ابواه وهما ممتلئان فرحة ، ماشيا ، والجموع تتبعه ومضوا الى البيعة الكبيرة ومن هناك الى عند الملكة ، واجتمع عندهم نبلاء الافرنج وباقي الجموع من أرمن وسريان وافرنج ، واتوا الى المكان الذي صارت به الاعجوبة ، حيث دل الصبي على المكان الذي ظهر فيه القديس ، فسترت الملكة وجهها ، واخذت تبكي ، وصارت الجموع تتبارك بالتراب ، ثم اخذوا من هذا التراب بركة الى كل الاماكن ، ثم ابتدأوا ببنيان البيعة ، وصار الراهب صليبا وكيلا ، اما العجائب التي صارت اثناء بنائها فلا يمكن ان تذكر هنا ثم مضينا لتكريسها مع رهبان الدير ، وكان هذا يوم الاحد ٩ كانون الاول سنة ١٤٦٨ يونانية ، وكان ذلك في ايام رنجر حاكم انطاكية وبلدوين ملك القدس وهمفري بطريركهم ، ومار اثنا سيوس بطريركنا ، وحضر تكريسها حاكم قيليقية طوروس والملكة وهنري وامراته ديما يزيل ، اعني اليمصابات ، وباقي نبلاء الافرنج وشعوب الأرمن

والسريان ، وعدد كبير من كهنتنا وشما مستنا ، وكهنة الأرمن والافرنج، اما اليونانيين المبغضين فقد احترقوا بجسدهم ، وبمحمد الله في قدسيته ، الذي له المجد الى الابد امين .

ذكر المشاجرة التي نشبت بين اغناطيوس المفران وبين رعيته

خرج من امد البطريك اثناسيوس وتوجه الى قلعة زياد ، وبهذا الزمان مات الاسقف الذي هناك ، وحينئذ مكث البطريك في ذلك الموضع ثلاث سنوات ، ورسم بها اسقفًا تلميذه سرجيس ، الذي دعي ايوانيس وبعد مارسمه ارسله الى امد ليتفقدوها .

ولما كان البطريك في قلعة زياد اتى اليه اغناطيوس المفران رئيس اساقفة تكريت والمشرق ، وكان مجيئه لهذا السبب : قضت شريعة المشاركة منذ زمن قديم مضى ان يرسم مطران تكريت - اي المفران - مطرانا لنيوى والموصل ، لكن ما ان يرسم هذا ويختب ويصير مطرانا لهذه الرعية الكبيرة يتوقف عن الخضوع للمفران كباقي رؤساء الكهنة في تلك الناحية ، لكن يصير معه بالمرتبة نفسها ، ولهذا السبب كانت تحدث دائما خصومات في ناحية المشرق ، ويوضح كتاب دانيسسوس التلمحري ان هذه العادة بدأت منذ عهد قرياقس البطريك ، ولما ضعفت في هذا الزمان تكريت ، وازدادت رعية نينوى وقويت اراد هذا المفران ان يوحد رعية نينوى وتكريت ، وان لا يضع مطرانا لنيوى ، فوقع خلاف بين المفران وبين اهل تكريت ، ولذلك اتى اغناطيوس المفران الى اثناسيوس البطريك في قلعة زياد ، لكنه وجد ان البطريك لم يرض بهذا الاقتراح ، فتركه وانتقل الى ملطية ، ومن هناك ذهب الى دير سرجيسييه ولما صعد البطريك من قلعة زياد الى دير مار برصوم ، اتى ايضا المفران وحاول ان يقنع البطريك ان يصنع اتحسادا بين الموصل وتكريت ويصير المفران راعيا للآثنين ، وبقي المفران

- ٢١٦٠ -

جالسا في الدير كل الصيف دون ان يستقبله البطريرك ، وعند ذلك تركه في تشرين الثاني ومضى الى رعيته ، وبقي يكافح لانجاز هذا المشروع حتى حان الوقت المناسب ، واستطاع ان يحقق ما يريد كما سنوضح ذلك فيما بعد .

اما البطريرك فامضى في ديرنا - اي دير سيدنا مار برصوم - بقية حياته .

تنصيب اثناسيوس بطريركا

بقيت بيعتنا نحن المستقيمي المجد بدون رئيس عام مدة سنة وثلاثة اشهر ، وكانت خلال هذه الفترة تتم المراسلات لعقد مجمع وانتخاب بطريرك ، فقام من المطارنة المشايخ مطران كركر ، ومطران صمحا ، ومطران قلوذيه ، ومطران جيحان الذي انتقل الى ملطية، واجتمع هؤلاء الاربعة وحدهم ، وصنعوا قرعة كما قالوا ، وكتبوا اسماء ثلاثة كالعادة ، وفاز الربان يشوع الشماس ، فارسلوا اسقفين في طلبه ، فأما هو فخالفهم بالاسرار المقدسة ، فاثبتوا له ان اسمه كان بالقرعة ، وحينئذ مضى معهم الى دير المقرونة فالبسوه اسكيم الرهبنة ، واتاهم خبر ان المقريان وصل الى نواحي امد ، وان حاكمها يريد ان يجتمعوا في المدينة ، ولما وصلوا الى دير قانقرت رسمه مطران كركر قسيسا ، ثم صارت رسامته في امد يوم الاحد ٤ كانون الاول في عيد القديسة بربرة ، ووضع عليه يده ديونسيوس وكان معه من المطارنة والاساقفة اثني عشر وجمع غفير من الرهبان والقساوسة والشماسه ، ودعي مار اثناسيوس بطريرك انطاكية ، وفي يوم رسامته اقام والي المدينة وليمة لكل المجتمعين ، وكان بينهم مؤيد الدين بن نيسان الرجل العربي ، ويعقوب الرجل المسيحي اخو اسحق الشماس الذي كان قد تحصم قبل مدة مع اثناسيوس البطريرك وكان هو الان يصرف بكل سخاء على هذا المجمع ، وبعد ذلك بيوم امر البطريرك ان يخرج

مطران جيحان من ملطية ويمضي الى رعيته وان يخرج باسميلىوس من امد ، واعطاه قلعة جعبر لكي تبقى امد كرسيا للبطريك كما كانت في الماضي ، ومن ههنا تسرب الشك الرديء الى بيعة الله فقام باسميلىوس ومطران جيحان وقالوا للبطريك : انك لم تضيغ بطريكاً بانتخاب صادق بل بالحزن والالام ، وقالوا : ان مطران جرجرجش ، لانه قال له بانه لن يخرج من ملطية ، ولاجل هذا كتب ثلاثة اوراق باسم واحد .

ولما انتشر هذا الخبر بين الناس تشككوا ، كذلك تشكك المطارنة الذين في بلاد غربي الفرات فاستعدوا ليقوموا بخبر غيره ، وكان اخرون يقولون لانه طرد باسميلىوس مطران جيحان كذب الانتخاب ، وكادوا يحرموه لاجل الشكوك التي زرعتها . اما هو فتوجه الى ملطية ، وجمع القساوسة والشعب وظهر لهم الاوراق التي كتبها ومضى الى جيحان .

ثم خرج البطريك من امد واتى دير مان برصوم وباسم مطراننا ملطية ابن اخته تاودورس الذي دعي اغناطيوس .

وفي يوم احد العنصرة في تلك السنة في تشرين الاول سنة ١٤٥١ رسم للقدس رومانوس الذي من دير القدس ، وكان ميلاده في ملطية وهو ايضا دعي اغناطيوس .

وفي سنة ١٤٥٢ اجتمع مطارنة المغرب مع ابيس اندراوس وابن السمنة والباقي في حصن منصور ، وهناك كتبوا صحيفة القوانين وارسلوها الى البطريك قائلين : ان تحفظ هذه القوانين يقبلوك ، عند ذلك وعد ان يحفظها ، ثم اتوا اليه في دير مان برصوم ووضعوا تواقيعهم برضاهم في المنشور وصار الصلح .

لما وصلت رسالة الحرمان التي صنفها مطران جيحان الى ملطية ، وقرئت على المنبر تقدم الربسان يشوع الشمماس العنيف واخذها ووضعها على راسه ، فلما سمع البطريك فرح لاتضاعه

- ٢١٦٢ -

ونكائه ، وفي ذلك الوقت كتب له صلوات النجبل ، ويقضي أمر ملطية حتى توفي يوحنا البطريك ، وكانت وفاته في ايلول سنة ١٤٤٨ في دير الدوائر ، وبه سجي جسده المقبرين ، اما مطران جيحان الذي كان كتب كما قلنا من قبل فقد احتال بغير الناموس ، وكتب دستوراً ثبته وختمه بختم البطريك المتوفي ، موضحاً انه يصفقه البطريك قد ثبت قبل موته ملطية لباسيليوس مطران جيحان ، وحينئذ دخل اليها بحماية الحكام ، ورسم بها قسيسين وشمامسة ولم يكن للبيعة بطريك ، ولما صار هذا المذكور باسيليوس مطراناً كانت معه مرعيث جيحان ايضاً فصار جميع مسيحيين نيقانيا والكثير الاساقفة متشبكك بسبب افعال هذا المطران

اما الذين لم يعرفوا كيف رويوا ختم البطريك ، فكانوا يلومون البطريك ، اما الذين كانوا يدركون ويفهمون ماذا جرى ، كانوا يعذرون البطريك المتوفي ، لكن اخرون كانوا يسوغون فعل مطران جيحان قائلين انه صنع ذلك بغيرة الالهية ، ولاجل تثبيت اركان البيعة .

وفي سنة ١٤٤٣ توفي مار كيريل بطريك مصر ، وارتسم مار اياونيس ، وحلّس البطريك منار اسكندريوس فقيد اتقى الى ملطية ، والتقى بمحمد الملك ، وجلس بالمدينة في بيعة مار ماماس واقام مراسيم الصلاة في البيعة الكبيرة ، وحينئذ طلب الى دير مار اهرن (دير اليطم) واعطى النحيق لمطران مياقارقين ليدير امد ، ولمطران طرسوس ليدر الطاكية .

وفي تلك السنة نزل ديونوسيوس القريان الى بغداد يتداوى من مرض المية ، وتوفي هناك ، وقد حضر اهل تكريت جسده المقدس وسجى في بيعة تكريت .

وفي تلك السنة خنق العرب اسقف حمص وطردت الرعية اسقف حمدين ، واما اسقف الجزيرة فاشتراه السلطان بالذهب ، وتخاصم

- ٢١٦٣ -

اهل دمشق ورعيتهما مع اسقفها ، ثم ذهبوا الى البطريك فاصطحب
بين الجميع .

وفي سنة ١٤٥٤ في تشرين الاول ارتسم مفران لتكريت هو عازر
من دير سرجيسيه ، وكان اصله من قرية العبر ، وقد درس في ملطية
وارتسم في دير مار ابراهيم ، ودعي اغناطيوس ، وقد اشتهر هذا في
البيعة شهرة كبيرة .

وفي تلك السنة رجع اثناسيوس البطريك الى ملطية ، وكان فيها
لما ملكها دولت بن غازي ، وحين زحف ضدها سلطان
مسعود ، وبعد هذا مضى اناس الى جوسلين الوالي وقالوا له : إن
هذا البطريك صار بغير حق ، واما جوسلين فلان البطريك لم يأت
اليه فقد اصدر امرا ان لا يذكر اسمه في الكنائس في كل الأراضي التي
يحكمها قطعا ، واحضر طيمثاوس مطران جرجر الى سميساط
وسأله كيف صارت القرعة في سميساط ، لكن مطران جرجر لم يقل
إن كان مطران جيحان صادقا ولم يبين ذلك هو أو غيره من الذين
تكلموا .

وخرج البطريك من ملطية وذهب الى دير مار برصوم لما سمع ان
جوسلين قد نقل باسيليوس اي ابو الفرج بن السمينة الى
الرها ، ورسم لكيسوم ايليا الراهب المعلم الكفو في جبلة ، والذي
دعي اياونيس ، وهو مشهور في البيعة .

استيلاء الفرنجة على عسقلان من المصريين

في هذا الزمان أصدر الأمير حاكم قيسارية الكبدوكية أمرا بتخريب البيع.

في سنة ١٤٦٤ يونانية (٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) كان بلدوين الافرنجي ملك القدس طفلا صغيرا ، وكانت أمه تحكم بالوصاية عنه وكأنها الملكة ، فلما بلغ بلدوين سن الرشد وأراد أن يملك فعلا تمردت أمه وتحصنت في برج داود ، فتوسط أعيان الافرنج ، فأعطوا لابنها قياده الجيش وحكم جميع المدن بينما أعطوها القدس فقط .

عندئذ توجه الى عسقلان وكانت تحت حكم العرب المصريين ، وأقام المنجنوقات وأحدث فجوه دخل منها أربعمئة من الداوية. فهاجمهم العرب وكانوا يفوقونهم بالعدد ، إذ كان عددهم عشرين ألفا وقتلوه عن بكرة أبيهم.

فيئس الملك وأراد أن يترك المدينة ، لكن شجعه من حوله ولم يتركوا العرب يسعدوا الفجوه ، وفي الصباح حمل الملك صليبا ، وتوجه نحو المدينة صارخا من لم يتبعني لن يكون مسيحيا بعد الآن ، فهاجموا على المدينة وقتلوا خمسة عشر ألفا من العرب ، وعند ذلك ركب ما تبقى من العرب السفن وانهزموا الى مصر .

....(٣٩) قد صف المنجنوقات ونصب برجاً من الخشب وصفحه بالحديد ، ولم يتوقفوا كل النهار وقد هلك عليها شعب كثير ، وكان فيها أمير تركي ، لكن عنده وزير يدعى ابن نيسان ، وكان كل شيء بيديه حتى الأمير جمال الدين الشيخ الوبيع كان يطيع ابن نيسان ، الذي كان يعطيه خبزا ليأكل ، قد استطاع هذا الوزير بدهائه ونكائه

أن يتغلب على الجيش الجرار الذي كان يحاصر المدينة ، وكان يشجع من بداخل المدينة بالكلام المعسول والمواعيد الخادعة والعطايا الكثيرة ليدافعوا عن السور ، ويستمتيتوا بمحاربة الأعداء وكان يضع من الداخل جنودا أقوياء يلقون بالقاليع والسهام على الجنود الذين كانوا يحاصرون المدينة .

واقام مقابل المنجنيقات الخارجية منجنيقات أعظم منها وأقوى وأضخم ، وقد أرسل ليلا ثلاث ممرات دوريات تنقض على المحاصرين وتهرب ، أما الأبراج فكانوا يهدمونها بضربها بالحجارة الضخمة في الوقت الذي كان يدعم الأسوار من الداخل بيلا عمدة الرخامية الكبيرة المدعومة بالكلس .

لكنه على الرغم من هذه المقاومة الشرسة ، كانت يرسله تقابل كل واحد من الأمراء في الخارج ، وكان يهدف من وراء هذه الاتصاليات السرية أن يوضح نار الغياء بينهم ، ويعمل على انشقاقهم ، وأخيرا استطاع أن يكسب واحدا منهم إلى صفه وهو يعقوب أرسلان حاكم كبدوكية ، وكان حموقسرا أرسلان ، ولكن لما وصلت الرسالة والرسائل من أمه ، ورأي التعهدات وما يتبعها من قسم عظيم ، ثم الطاعة العمياء التي كانوا يقدمونها له ، ثقل على قلبه أرسلان ، وأراد أن يخلص أمه من يديه ، لينتقم منه على الذي صنعه معه في ملطية ، فعندما دخل إلى بلاده أخذ يسبي وينهب ، وترك قرا أرسلان الأمير وانتقل كسير القلب بعد أن تعذب خمسة أشهر ، وصرف نفقات كبيرة ، ولما وصل إلى بلاده وقلعته دعاه يعقوب أرسلان للصلح ، فلم يرض وسبى كيزان وقورين وتسل بطريق ، وأخذ قلعة شوموشكي بالحرب ، وسبى مئائته ألف نسمة ، وساقهم رجالا ونساء وبهائم ، وترك القرى خالية خربة وأخذ في جملة من سبى البار اغناطيوس أسقف تل ارسيانوس فأعاده من قماح إلى ملطية ، كذلك أخذ أيضا مطران حصن زياد لكنهم تركوه بعد يومين

في سنة ١٤٧٦ يونانية صارت قلة بالحنطة في كل مكان ، وخاصة

- ٢١٦٦ -

في نواحي انطاكية وقيليقية ، وصار نصف الكيل من الحنطة يباع
بدينار ، واخيرا فقدت الحنطة تماما.

وفي تلك السنة قتل جمال الدين الوزير الذي كان في الموصل ، وقد
ذكرنا انفسا انه ارسل المفسريان الى ملك الكرج ، لكنه كان
فارسيا ، وكان قد اقامه اتابك زنكي مدبرا في الموصل ، وكان يعطيه
من كل دخوله ، وقد غني جدا وعظم كثيرا.

هروب أمير ملطية مع زانية

وفي تلك السنة ١٤٨١ يونانية (١١٧٠ م) كان أمير ملطية محمد ما يزال صبيا ولا يستطيع التمييز بين الخير والشر ، فسقط في بؤره الفجور والجنس ، وتبع زانية ساحرة ، وكانت هذه تدفعه مستعمله كل شرورها ليضطهد اهل المدينة ، وجنده الأتراك ، لذلك أخذ العظماء يتململون ويدمدمون قائلين الى متى نحتمل مثل هذه الامور .

اما هو فزاد على سوء تدابيره ، وحسب كل شيء وجدته في خزائن ابويه ملكا له ، فأخذه وأخذ معه تلك الزانية وأتباعه وخرج من المدينة ، وأما رؤساء العساكر والجنود واهل المدينة فإنهم لما نظروا إلى ما قد انتهى اليه محمد الأمير الشقي ، أسرعوا فأقاموا أخاه أبا القاسم رئيسا ، وقد اصطلحت المدينة على أيامه ، وبقي ذلك يتجول من بيت الى بيت ، أما آخرته فسوف نوضحها فيما بعد .

... (٤٠) الذهب الذي كانوا قد تعودوا أن يعطوه منذ زمن ، وقد سلموا رهائن لكي يضطروا أن يدفعوا في كل سنة الذهب ، ولما أخذ الرهائن رجع الى القدس وبقي اليونانيون في حالة من التعاسة ثم أتى الشتاء ليهلك العديد منهم ، وبعد صعوبة بالغة استطاع أن يرجع قليل منهم الى بلادهم .

إضطهاد مليح الأرمني للمسيحيين

ولما سمع في سنة ١٤٨١ ملك القدس أن مليحا الأرمني حاكم قلبية يضطهد المسيحيين بكل الوسائل ويلحق بهم الشرور في كل _____ كان ، _____ خ _____ رج ملك القدس ضده ، وزحف نحوه فاحتفى ذاك بالترك الذين أتوا

لمعونته ، ونشبت حرب ، فالرب بمعونته أعان الملك
وكسرهم ، وهرب الأتراك ، أما مليح فدخل الى قلعته ، ولما حل الملك
على القلعة ، وبدأ يقاتل تضايق مليح ، وندم وطلب الغفران ، ووعد
أنه سيصير تحت طاعة الملك.

وفي تلك السنة مات عز الدولة حاكم قلعة أكل (٤١) ، وقام ابنه
أسد الدين ، ونشبت بينه وبين عمه حاكم أمد خصام ، وصارا
يسببان الفلاحين والقرى ويبيعانهم للعبودية.

زلازل عنيفة

في يوم الاثنين في ٢٩ حزيران حدثت زلزاله قوية ، وكانت الأرض
تهتز كما تهتز السفينة في البحر الهائج ، وانتشر الخوف والهلع
والذعر بين الناس.

وقد حدث عندما كنا واقفين في هيكل دير مار حنازيا نتلو صلاة
الصباح يوم عيد القديسين بطرس وبولس أن سمعنا بغيته صوت رعد
قوي ، وسقطنا على وجوهنا أمام المائدة المقدسة وتشببنا
بها ، ونحن نميل هنا وهناك وبعد مدة طويلة أفقنا كمن يفيق من
القبر، وتذبهنّا انتباه من ينهض من رقاد ، وتدحرجت الدموع من
عيوننا لا سيما لما سمعنا وتحققنا أن ما حدث لم يكن في الدير فقط
وإنما عم البلاد كلها ، وقد صارت فظائع عمت البلاد والقرى، وعندما
علمنا ذلك أطلقنا الألسنة بالشكر والتسبيح لله تعالى الذي أشفق
علينا نحن غير المستحقين.

في هذه الزلزلة سقطت مدينة حلب وصار بها خراب كالخراب
الذي حل على سدوم وعمورة ، وقد نظرنا بأعيننا الظلم الفظيع الذي
كان يحل فيها على الأسرى المسيحيين ، فقد كان فيها
الوف ، وكانوا يأتون بهم يوم الأحد الى البيعة والحديد بأرجلهم
واعناقهم ، وكان صراخهم يتعالى ليشق عنان السماء ولا يستطيع

اللسان ان يتكلم عن الآلام التي كانوا يقاسونها ، وإذا أردنا ان نروي عن ذلك فاذنا نحتاج الى أوراق كثيرة ، وقد جدد كثيرون على الله عندما نظروا وسمعوا عما يحدث ، وقد تهدم في حلب سورها ودورها وانتن الفضاء وتلوث المياه من الجثث ، وتشققت المدينة وصارت شقوق وسرايب سرايب ، وصارت كلها تلا واحدا خرابا ، ولم يصر بغيرها كل هذه الفظائع ، كذلك سقط سور انطاكية على شاطئ البحر وبيعه اليونانيون الكبيرة كلها سقطت، وبيعه مار بطرس الكبيرة سقط مذبحها وبعض البيوت وسقطت بعض البيع في عدة أماكن ، ومات نحو خمسين من الناس في انطاكية، أما جبلة فقد سقطت كلها ، وفي طرابلس سقط قسم كبير منها بما فيها البيعة الكبيرة ، وأحدثت الزلزلة أضرارا في باقي مدن ساحل البحر وفي دمشق وفي حمص وحماة ، وفي القرى ، لكن الشبيء الذي صار في حلب لم يكن له شبيهها قط ، ولم نسمع به في أي مكان .

وفاة أمير ملطية

وفي هذا الشهر كان عمر أمير ملطية خمس عشرة سنة فقط - هذا الذي ترك أخوه المدينة بطريقة مهينة ومذلة كما أشرنا من قبل - فأحضروا له ابنة قرا أرسلان حاكم قلعة زياد زوجة ، وبينما كانوا يحتفلون بالعرس ، خرج العريس يرقص على ظهر الخيل حسب عادة الاتراك ، لكن الحصان قفز عاليا فجأة ، فانقلب سرجه وطرح الأمير أرضا ومات للحال ، فانقلب العرس الى ماتم ، وفكر الناس ان يعيدوا أخاه الأكبر والذي كان قد طرد ، لكن الترك رفضوا ذلك ، كذلك اجتمع المسيحيون ورفضوا ذلك فأقاموا عند ذلك الأخ الأصغر رئيسا وكان اسمه فريدون وزوجوه أمراه أخيه بدون رضاها.

• • (٤٢) أما حاكمها فرينز فقد قص شعره ، ولبس المسوح ، وجمع

- ٢١٧٠ -

الشعب وصعد الى القصير وطلب الغفران من بطريركهم ، وتوسل إليه ليدخل المدينة لكنه رفض أن يدخل حتى يخرج البطريرك اليوناني ، فلما ذهبوا وجدوا ذاك مهشما بالزلزلة فحملوه وكان به بعد رمق من الحياة ، فأخرجوه من المدينة لكنه مات في الطريق، حينئذ دخل همفري إلى أنطاكية وبنى أسوارها وبيعها ، وكذلك بنى نور الدين حاكم حلب أسوارها ، وحاكم سمي سميط بنى أسوارها ، وكل واحد من الحكام الأتراك والأفرنج بنى أماكنه ، وقد أشفق الرب على شعبنا الموزع في كل المدن والذي لم يعد له ملك أو حاكم منه .

وفي حلب سقطت المدينة لكن بيعتنا حفظت ولم يسقط منها حجر واحد ، وهكذا أيضا بيعه مار برصوما ، وفي جبلة حفظت بيعتنا ، وفي أنطاكية حفظت بيعتنا الثلاث ، وهن بيعة والددة الرب ، وبيعنة مار جرجس ، وبيعنة مار برصوما، وفي طرابلس وفي اللاذقية ، وذلك حفاظا على شعبنا المستقيم المجد .

حملة نور الدين على الموصل

عندما وصل نور الدين الى محيط الموصل ونصب خيامه هناك ، كان فيها اولاد اخوته الخمسة ، وكان القيم عليهم ومدبرهم خصي كانوا يسمونه فخر الدين عبد المسيح ، اصله اسير من انطاكية ، وكان يساعد المسيحيين سرا مثلما كان مردخاي يساعد ابناء شعبه ، وكان يبغضه العرب حسدا ، مثلما كان هامان يبغض مردخاي.

اما نور الدين فقد قال : لاجل هذا اتيت الى الموصل ، اما عبد المسيح فكان يسوس المدن بالحكمة والدهاء ، لكن عندما وجد ان العرب بأجمعهم يحبون نور الدين ويريدونه خرج اليه واخذ عهدا منه ان لا يأخذ المدينة من ابن اخيه سيف الدين ، فوعده بذلك ، حينئذ دخل نور الدين وصعد الى القلعة ووضع بها شحنة يدبر امورها ، وهو خصي اسمه سعد الدين ، ثم ترك المدينة والبلاد تحت إمرة ابن اخيه . اما الذهب والمقتنى الذي وجدته في خزائن اخيه فقد وزعه على جميع ابنائه ، كذلك وزع البلاد على الاخوه.

اما في بلاد ماردين وكل مكان توجد فيه قلعه فقد اتبعها به ، ووضع عليها واليا من قبله.

وانقل نور الدين كثيرا على المسيحيين فزاد عليهم الخراج ، وسن قانونا منعهم بموجبه ان يربطوا احزمه في وسطهم ، او ان يسدلوا شعر رؤوسهم ليهذا بهم العرب ، كذلك امران يضع اليهود رقعه حمراء على اكتافهم لكي يعرفوا.

وفي هذا الزمان مضى عموري ملك القدس الى القسطنطينية ، وقابل ملك اليونانيين فأعطاه زهبا كثيرا ، وسلاحا ، ولما سمع نور الدين قفل راجعا بسرعة ومعه عاد عبد المسيح كي لا يبقى ويصير

عونا للمسيحيين ، ولما ارتحل ناحية حلب نشب صراع بين المسيحيين الموجودين في أثور وبين مسيحيي ما بين النهرين ، وقد حدث ذلك في شهر أيار سنة ١٤٨٣ يونانية .

وكما سلف وتكلمنا عن نور الدين ، لقد أسكره المجد والقوة والسلطان حتى بدأ يحسبه بعض العرب نبي ، وقد حاول نور الدين بشتى السبل أن يذل المسيحيين لكي يظهر أمام المسلمين أنه يحافظ على الشريعة ، ويسهر على تطبيقها ، وقد استطاع أن يملك بلاد اشور بالاضافة الى سورية ومصر ، فأسكره الغرور ، واعتقد أن باستطاعته أن يتسلط على كل المسكونة ، فحاول أن يمحي المسيحيين من الوجود ، فقام وكتب رسائل الى الخليفة ، وأرسل رسلا بهذا الشأن الى الخليفة في بغداد يردد القول الوارد في القرآن: أن النبي محمد قد تنبأ أن المسلمين سيملكون خمسمائة سنة لا يؤنون المسيحيين بها ، أما الآن وقد كملت هذه السنين فيجب أن يباد المسيحيون من كل البلاد الواقعة تحت حكم المسلمين ، وكل من لا يعلن إسلامه يجب أن يقتل ، وقد كتب في إحدى رسائله الى الخليفة أنه مستعد أن يأتي اليه ، فارتاب الخليفة وعرف أن نور الدين يريد من كل ذلك أن يأتي اليه ليخلعه كما خلع خليفة مصر وجلس مكانه ، أضاف الى ذلك فقد كان الخليفة يحتقره لأنه يسمى نفسه نبي (٤٣)

في سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) في شهر آب توفي أتابك قطب الدين حاكم الموصل وكل أثور ، وحينئذ جمع أخوه نور الدين حاكم حلب أسكرا ونهض بسرعة ، وأخذ نصيبين بغير قتال ، وفرح فقهاء العرب لأنه كان يكرمهم جدا لأنه كان مؤمنا متدينا لا يشرب خمرا ، ويؤدي كل فروض الصلوات ، وكان المسلمون يسمونه « نبيا » ، وقد أحسن الى العرب ، وغضب على المسيحيين ، وأمر أن يهدم كل بناء جديد في البيع والأديرة ، فهدموا أساسا عظيما كان قد بني في بيعة مار يعقوب الكبيرة في نصيبين التي كان يتسولاها النساطرة من زمان برصوما المهراطق ، ونهبوا أوانيها ، وكان بها

- ٢١٧٣ -

الوف من الكتب ، وقد صنعوا الشيء نفسه في أماكن كثيرة ، وقد أقام فقيها يبغض المسيحيين من سلالة يدعى ابن عصرون ، ووكله أن يتجول ويهدم كل بنيان جديد يوجد في البيعة التي قد بنيت في أيام أبيه وأخيه ، لكن ذلك القاسي الذي أرسله كانوا يرشونه ، فكان يحلف على الموضع الجديد أنه بنيان عتيق ، وعندما كان لا يجد من يرشيه ويدفع له كان يهدم ويخرب ، إلى أن سمع بهذا نور الدين فأقاله.

وبعد ذلك حل نور الدين على نصيبين ، ووصل إلى جبل سنجار واحتله بغير حرب ثم حل على الموصل في كانون الأول سنة ١٤٨٢ يونانية.

وفاة الخليفة المستنجد

وفي تلك السنة توفي الخليفة المستنجد ، وخلفه ابنه المدعو المستضيء ، وقد أوقف الخليفة الجديد اضطهاد المسيحيين لأسباب سوف نوضحها فيما بعد.

قصة جر المياه الى دير القديس برصوما

كان المسلمون الترك والأكراد وشعوب من أهل السنة أخرى ، تجتمع وتأتي لتزور دير القديس مار برصوما ، في كل وقت ، خصوصا في عيده ، لأنه كان يتفقد كثيرين بنعمته ، وكان يبرئهم ، لذلك كان يتجمع الناس اليه من بعيد ، وكانوا يبقون شهرا ، لذلك كانوا يجلبون الماء على ظهور البغال ، لكن مطران ماردين الذي سكن الدير من قبل ، كان يعرف طريقا قصيرا لجلب الماء ، فكان يأتي به بسهولة ، لذلك أراد هذا المطران أن يصنع خزانة بهذا الموضع المقدس ، ويجر الماء للدير بقنوات ، لكن الرهبان رفضوا وقالوا : لا يمكننا ونحن محاصرين بالأتراك من كل ناحيه أن نقوم بهذا العمل العظيم ، لكن في الحقيقة لم يصدقوا أنه يمكن أن تمر أنية عبر هذا الجبل الوعر المسالك والمليء بالصخور والأحجار ، وقد قالوا له : إن الأولين كانوا أحكم منا وأعرف بأضعاف ، ولم يقدروا أن يصنعوا هذا ، فكيف نحن إذا ؟ وبعد فترة دعيت أنا الحقير ميخائيل ، وأقاموا راعيا للدير فدفعني الرب الموضح قوته بالضعفاء أكثر من الأقوياء أن أكتب للمطران ماريوحنا عن ذلك ، فأتى ببشاشة وزار المكان وقدر أنه يمكن أن يدخل الماء للدير ، حينئذ بدأنا العمل بحفر الأرض واستقدام اللوازم ، ثم أتى الشتاء فعاد المطران الى رعيته ، ليعود في نيسان.

وفي هذه الفترة بدأ الاخوه الرهبان والشيوخ والصبيان يصرخون

ويولولون بدافع الجسد قائلين: لقد خرب هذا الدير وضاعت
أمواله ، لكنني صمدت بمعونه سيدنا مار برصوم ، حتى دنا
الربيع ، وأتى المطران كما وعد ، حينئذ عوض الجسد الذي كنا
نلقاه من المحيطين بنا صار معونات ومديحا من المسيحيين
والمسلمين ، وعند ذلك تشجع الرهبان وابتدأوا برضاهم يعملون
بقوة سيدنا مار برصوم ، فكانوا يتسابقون ليكون كل واحد
أولا ، وخصوصا كانت تظهر علامات تشير أن القديس يريد أن يتم
هذا العمل ، وقد تراءى القديس لبعض الرهبان والمبتدئين الذين
كانوا ضد اكمال هذا العمل ، وهو يحمل عصا ويشير بها قائلا: الى
هنا أريد أن أتي بالماء ، وهذا ما صار فعلا لأنهم بينما كانوا
يحفرون في الصخور ، وقعت صخره عظيمه جدا فوق رجل ، وكان
اسمه برصوم فبدل أن تسحقه عاد واقفا ، وهذه كلنا نظرناها
بعيوننا ولمسناها بأيدينا.

واعجوبه أخرى أيضا صارت عند انتهاء العمل ينبغي لي أن
اكتبها، عندما اقترب الماء من باب الدير ، وكان الصخر عاليا وقفنا
في حيره ، لكن ما لبث أن تراءى القديس لراهب غريب ، وقال
له: امض وقل للفعلة ولراعي الدير : في المكان الفلاني تجدون مسلكا
للماء ، فلما قال هذا لم يصدق أحد لأن كل الجبل كان في ذلك المكان
كله صخر صلب ، فأخذ الراهب وحده يحفر حيث دله
القديس ، فوجد الجبل مشقوقا نحو خمسمائه قدم ، فتعجب جميع
الناس ، ومجدوا الله ، وقال بعضهم: إن الثقب قديم ، لكن آخرون
قالوا: إن الرب شقه من جديد ، فأما أنا أقول : إن كان في الأصل هو
مشقوق أو أنه انشق الآن بقوة الله الحالية بسيدنا مار برصوم
أوضحت لنا أنه هو صنع هذا الفعل وليس نحن ، أما أنا الشقي
الذي رويت باقي الأمور التي جمعتها في هذا الكتاب لأحد يظن بي
أنني كتبت شيئا غير صحيح بل قد تركت أشياء كثيرة لئلا تطول
الرواية ، فليعلم القارئ أنه في سنة ١٤٧٤ يونانية في ٢٤ آب كمل
هذا العمل .

تمت هذه القصة .

• • • • (٤٤) وبلادها ، وأخذ الدار التي لبيعتنا في مارددين
وأعطاهما للعرب ، فأضافوها الى مسجدهم ، وقد سبب هذا كآبة لنا
ولكل الشعب ، حينئذ أخذ بعض المكفوفين يجذفون على القديسين
بذل أن يوبخوا أنفسهم •

إن الله سمح بذلك لأجل خطايانا ، وصار الشعب يعيرنا نحن
الكهنة ، ويتجاسر على القديسين ، بل من الواجب أن يقول
القديسون لنا : إن الشعوب تفترى على اسم الله لأجلكم.

وفي الحقيقة الويل للعبد الذي يحتقر اسم سيده من أجله ، وبعد
ذلك سقط ذلك الخصي عن حصانه وندم ، لكنه لم يستطع أن يرد
الدار لأنه خاف من العرب.

وفي السنة التي مات بها مطران سميرساط مات ايضا يوسف
الذي كان موضوعا بغير شريعة في تل أرسانيوس وانعتق منه
المؤمنون الذين كانوا هناك ، لأنهم كانوا يشكون به كثيرا.

وفي هذه السنة ارتسم ابراهيم وكيل ديونسيوس ، وفي تلك السنة
حفرنا في دير ماربرصوما وبنينا مساكن للبطاركة ولراحة
القاصدين ، وفي تلك السنة تجددت بيعة ملطية الكبيرة المدعوه
الساعي ، وكانت قبتها قد تداعت على مر الزمن ، وشارفت على
السقوط ، وقد حاول المؤمنون أن يرمموها ، لكن الرعاية لم
يسمحوا لهم مدعين الخوف من الحكام ، لكن الصحيح كانوا
يخافون اذا بداوا بالاصلاح ان لا يستطيعوا أن يكملوه لأسباب تعود
اليهم ، وليس للحكام كما يدعون ، لذلك أهملت الى الآن ، وقد
أخبر بعض المؤمنين بطريك انطاكية بتشقق بنيان
الكنيسة ، فأرسل الينا اسقف طرسوس وقسيسا من عنده وطلبا
منه أن أمضي معهما الى الكنيسة لأجل هذا الأمر ، ولما مضينا
وشاهدنا الجدران المتداعية أعطوني خمسين دينارا لأبدا
العمل ، فأحضرت العمال حيث هدموا القبة والبابين القبلي

والشمالي ، وابتدأوا بالبنيان ، لكن اقترح اثنان من مساعدي هما ابو الحسن الارشيد ياقون (٤٥٠) ، ورومانوس الوكيل المتكني كوجان بهدم البنيان كله ثم اعاد بنائه ، وهكذا كان ، فهدمت الكنيسة ، ثم أعيد بناؤها رويدا رويدا ، وقد اشتركت المدينة كلها ، فكانت التبرعات تأتي من الأرامل والمساكين بمقتنياتهم سرا الى رومانوس الوكيل .

وكان أول بناء لهذه الكنيسة عام ١٤٨٠ يونانية برعاية ماراغناطيوس المطران المدعو الساعي .

أما هذا التجديد فقد بدأ عام ١٤٨٣ يونانية وطال ستة سنوات وتكمل في سنة ١٤٨٨ وانفق عليه ألفي دينار .

وفي هذا الزمان سقط أناس من الأفرنج ، كانوا في تلك الأرض مشهورين بالرحمة على الفقراء والمحتاجين ، بتأثير الشياطين في الهرطقة فكانوا يقولون انه لا يمكن للخبز والنبيد ان يصيرا جسد الرب ودمه ، وانه لافضيلة سوى الصدقات والرحمة على المحتاجين ومحبة الناس واتفاقهم مع بعضهم ، وقد تبعهم كثيرون حتى صاروا الوفا وربوات ، وصار لهم اساقفة وولاة ، واتحد معهم حكام البلاد ، ثم زادوا على ناموسهم نوع كرية من الدعارة اذ اشاعوا نساءهم للجميع ، وبذلك لم يعد للرجل امرأة واحدة ، ولا للمرأة رجل واحد ، ولما انتشر هذا النفاق قام بابا رومية فجمع مجمعا مسكونيا ، وأمر بايقافه وكانوا يسمون البابا افوسطوموس، وأما نحن فوضحنا بطرق متعددة ان لا مكان لنا في هذا المجمع ولا نريد ان نمضي الى تلك الناحية ، وقد كتبنا صحيفة كبيرة ووضحنا بها كيف ومتى اوجد الشيطان مثل هذه الأمور .

الخليفة المستضيء بأمر الله

بعد ان توفي الخليفة المستنجد بالله ، خلفه ابنه المستضيء بالله وقتل هذا الخليفة الوزير لأنه لم يرض به مكان ابيه ، وكان هذا الوزير القتل يكره المسيحيين جدا ، ولذلك اخذ الخليفة الجديد يحب المسيحيين ربما ، بسبب حقه على الوزير ، فأخرج رؤساءهم المؤمنين اولاد توما من السجن ، وأعاد لهم بيوتهم وبيعهم واعتبارهم ، فأعلموه كيف احتقر والده الخليفة السالف رسل نور الدين لأنه اكتشف حيلته ، وأنه أرسل له تائيبا يعنفه فيه ويقول : لايجوز لك ان تسمي نفسك نبيا ، وتضع نواميس كالاله لأنك لم تفهم كلمة النبي محمد حول السنين ، وان الله لم يأمر ان تقتل الناس بغير ذنب ، وحينئذ خزي وكف عما كان يقوم به .

وبعد ان تولى الخليفة الجديد طلب نور الدين الان للقدوم ، وزيارة قبر الخليفة المتوفى ، فتيقن الخليفة الجديد ان نور الدين اختلق قضية المسيحيين ليأتي بحجتها الى بغداد ، ويملك ولذلك رد جوابه بتهديد شديد ، ومنعه من القدوم الى بغداد .

لذلك علينا ان نفهم ان الرب لم يتركنا من رحمته ، ولم يهملنا في اي زمن من الأزمان ، وهو دائما يحفظنا برحمته ، ويحفظ بيعته من كل مبغضينا

في سنة ١٤٨٣ يونانية سمع السلطان قلايغ ارسلان بالانشقاق الذي حدث في ملطية بعد ان توفي الأمير الصغير إثر وقوعه عن صهوة جواده ، فاستعد للتوجه اليها ، لكن الناس سارعوا الى قلعة زياد مستنجدين ، فأتى الخصي سعد الدين ، وهو رجل مدبر حكيم وشجاع ، فوجد كلمة العساكر وثبت خطبة ابنته سميدة على الأمير الصبي ، وصار الجميع كلمة واحدة ، فلما جاء السلطان لم يستطع ان يستولى على المدينة ، لكنه أخذ اثني عشر الفا من شعب البلد

ومضى ، وقد حث نور الدين كافة الأحرار ليذهبوا مع عساكره وعسكر الموصل وماردين وقلعة زياد وعسكر الأرمني وغيرهم كثيرون حيث تجمعوا عند اسماعيل في سبسطية .

لكن السلطان الذي بقيسارية كان يماطلهم ويعددهم بالغزو ، ثم يؤخر من وقت الى وقت حتى انقضى وقت الصيف ، ولما نظروا انه قد قرب الشتاء ، وعرفوا انه كان يخادعهم توجهوا الى الباب الرئيسي لقيسارية يريدون الخروج للغزو والسبي ، لكن السلطان لم يطاوعهم ولم يخرج معهم للحرب ، وحينئذ طلبوا منه ان يعطيهم مقتنياتهم وأموالهم التي كانوا قد غنموها في بلاد ملطية ، وكانوا في حالة من الغضب والهياج ، ثم أخذوا يجمعون أسلحتهم وثيابهم .

أما الشرزمة التي كانت مع صلاح الدين فقد وصلوا الى مصر ولبسوا السواد وبقوا في حالة من الحزن .

وفي هذه الأيام لما علم الوالي التركي المتسلط على قلعة الروم ان حاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله عصى وتمرد والتجأ الى الأفرنج فوعده فرينز ان يدعمه ويساعده للبقاء في القلعة ، ولما جعل نفسه عبدا للأفرنج عاداه الأتراك ، وصاروا ضده ، لكن الأفرنج أخلفوا عهودهم ومواثيقهم معه ، وداسوا على اليمين الذي أقسموه له ، فأتوا من القدس ومن كل ساحل البحر : كونت طرابلس ، ورافان حاكم قيليقية ووالي فلظ ، ومضوا مع فرينز وكانوا جمعا كبيرا جدا ، وهاجموا حارم وحاصروها أربعة أشهر ، وأخذوا يضايقون البر كله والمدينة ، وقد أوقعوا خسائر كبيرة ، وقتلوا عددا كبيرا من الخلق ، لقد حلفوا بالصليب والانجيل كذبا ، وظنوا ان الغلبة تكون بقوة البشر ، ثم أخذوا يهاجمون القلعة كرا وفرا ، فضعف الترك الذين كانوا يدافعون عن القلعة وأرسلوا يستنجدون بحاكم حلب ، وأعطوه عهدا ان يسلموه القلعة ، اذا رد الفرنجة عنهم ، فأعطى حاكم حلب عشرين ألف دينار الى فرينز حيث قفل راجعا الى انطاكية .

... (٤٦) وقد جمع البلاد التي اخذها من اخيه شاهنشاه والذي كان قد اخذها من ذي النون ، وكذلك اخذ اولاد اخيه الذين كانوا في السجن اما هو فأرجع شعب ملطية وأعطى لأخيه كل سنة عشرة الاف دينار ، لكنه لم يعط مكانا لأحد قطعاً .

اما عن اخباره مع اولاد اخيه فقد كان معهم متوحشاً الى أبعد الحدود ، فذبح واحداً منهم وشواه بالنار ، ووضع على طبق وأرسله لأبيه وأرسل معه خبزاً وأرفقه برسالة تقول : إن كنت تريد ثلاثة آخرين مثل هذا فأنا على استعداد أن أرسلهم فوراً لك ، فلما رأى الترك هذا المنظر هلعوا وارتاعوا وتصلحوا ، وعاد كل واحد الى بلده لأنه كان قد دنا فصل الشتاء ، وكانت بلادهم خالية من العساكر .

ولما اذيع خبر موت نور الدين بين العرب والترك ثاروا على بعضهم ، ووقعت بينهم حروب شرسة اقتتلوا فيها كثيراً ، وسقط منهم الوف ، وقد خاف المسيحيون أن يفتنوا بعضهم بعضاً ، وقد خلت القرى من الرجال والطرق من المارة في سورية ومابين النهرين وأشور .

وفي تشرين رجع الأمراء والعساكر من كبدوكية الى بلادهم ، كذلك تعافى نور الدين من مرضه وظهر أمام الناس فعرفت الشعوب أنه حي ، فتبددوا وتفرقوا ، ثم اصطلحوا ، وخلال هذه المعارك التي صارت بين العرب والترك سبي من كيسوم نحو من ألف شخص ، وقد اشتراهم أهل ملطية وتاجروا بهم وربحوا أموالاً طائلة .

في سنة ١٤٨٤ يونانية قتل اسماعيل حاكم كبدوكية ، فالجوع الذي طال أمره في كل البلاد ، والشتاء الصعب الذي أتلف كل شيء ضايق الناس كثيراً ، فتجمهروا وطلبوا منه قوتاً بعد أن علموا أنه يختزن الحنطة ويمنعها عنهم ، ثم أعطاهم قليلاً وطردهم بل وأخذ يهزأ بهم ، وحين تضايقوا من الجوع حاولوا أن يقتلوه ويأخذوا

الحنطة ليقتاتوا بها مع اولادهم ، فتحالفوا مع بعضهم ، وهجموا عليه وقتلوه هو وامراته اخت السلطان مع خمسمائة من انسيبائه ، ورموهم على الثلج دون ان يدفنوهم ، ثم تسلطوا على كل الطعام الذي خزنه واكلوه ، اما اخبار مصرعه فلم تعلم حتى شهر شباط لان الطرق كانت مقطوعة بسبب تراكم الثلوج ، واخيرا انتشر الخبر في كل مناطق حكمه ، لكن الثلج الكثيف شل حركة الناس ، فلم يستطع ان يتحرك اللصوص او قطاع الطرق ، إنما سرعان ما ندم قاتلوه واتفقوا ان يقيموا مكانه احد انسيبائه ، فاتصلوا بعمة ذي النون ، الذي كان السلطان قد اطلق سراحه من قيسارية ، فسكن في دمشق ، والآن لما استدعي للسلطة اهتم به نور الدين ، اما ذي النون فقد اتى سيرا على الاقدام لان الثلج كان قد غطى الطرقات ، وعندما وصل امام ديرنا خرج اهل الديروكسحوا الثلج امامه ورافقوه مسيرة خمسة ايام ، الى ان وصل سبسطية ، وعندما تملك هناك احضروا له القتلة فقتلهم ، لكن بعد هذا ظهر نور الدين بعد ان ظن الجميع انه قد مات وخرج لملاقاة السلطان ، وكذلك الأمير قلج ارسلان في كيسوم ، وهو خال السلطان ، ولما عرف ان السلطان مغتاض منه ترك وعاد الى كيسوم من خوفه ، ومضى الى نور الدين ، ولما ملك ذو النون في كبدوكية زحف ضده السلطان ، وحينئذ جمع نور الدين ، وجاء فأخذ كيسوم وقلاعها ومرعش ، ودخل الى بلاد جيحان ، ثم ترك السلطان سبسطية واسرع ليحارب نور الدين ، وقد نصب القائدان خيامهما وجها لوجه في بلاد جيحان ، لكنهما كانا خائفان لأنهما كانا متعادلين بالقوة تقريبا ، واخيرا انتشر الجوع في كلا المعسكرين ، وفني منهم عدد كبير ، ولهذا السبب توسط المصلحون فيما بينهما فوافقا على الصلح ، فرد نور الدين كيسوم وكل المواضع التي اخذها من السلطان ، وبالمقابل سمح السلطان ان يملك ذي النون على كبدوكية ، وأن يطيع نور الدين ، واصطلاحا ، ورجع كل واحد إلى بلاده .

واباد الثلج الذي انهمر بغزارة في هذا الزمان الناس والبهائم

- ٢١٨٢ -

والطيور ، وقد قرر الجميع ان هذه الضربة الثلجية التي اتت في شهر ايلول وتشرين واتلفت الغلال ، كانت غضبا من الله لانها اتت في غير اوانها ، وقد التجأ الناس الى التنجيم والضرب بالغال ليكتشفوا سر ماجرى ، فقد لف الظلام الجو ، وصار نور الشمس يظهر كنور القمر ، أما الثلج فكان يتساقط بغزارة عظيمة ، فامتلات الجبال والبقاع حتى ان الاقوياء من الشباب كانوا يذهبون من قرية لقرية بصعوبة عظيمة ، بل ومن بيت الى بيت ، وهكذا امتلات الأسواق والمدن والقرى بالثلج ، وكان الناس داخل بيوتهم وكأنهم في قبور ، وقد تجمدت الأنهار والعيون وكل الينابيع حتى ان الناس والبهائم والطيور كانوا يموتون من العطش كما يموتون من الجوع .

واي انسان يستطيع ان يصف الشدة التي حلت بهذا الزمان على كل مايعيش على الأرض من الحيوانات والطيور التي كانت تلتجئ الى البيوت ؟ أما الثيران والحمير والخيول فقد ماتت داخل زرائبها ، بينما نفقت الأغنام والماعز تحت الثلج ، وانتن الجو من رائحة الجثث ، وهذه الكارثة لم تقتصر على بلاد الشمال فقط بل صار هذا في الهند ايضا .

وقد بقي الثلج يتساقط اربعة عشر شهرا وحيث لم يكن معتادا ان يأتي قط ، أما القبائل العربية التي لم تتعود السكنى في البيوت فقد غمر الثلج خيامها فبادوا ولم يبق من ينقل الأخبار من قبيلة الى اخرى ، وقد بقي الثلج يطمر كل شيء حتى شهر نيسان وبصعوبة كبيرة جدا عرف الناس الذين كانوا يسلكون في الطرقات فطمرهم الثلج ، وبقوا كل هذه الفترة تحته، أما الملوك والرؤساء فقد التجأوا الى المنجمين الذين أخذوا يكذبون ويقولون ان هذه الشدة سوف تنتهي قريبا ولن تعود ، لأن الملوك هكذا يريدون ، ومثل هذا الكلام صدقه عدد كبير من الناس ولكن الله قد فضح كذبهم فصار في السنة التي بعدها ماكان قد صار نفسه ، وامتد من اذار الى نصف حزيران ، فاعترف حينئذ الطالبون الذين يقرأون في عدد الكواكب ان

- ٢١٨٣ -

كل ما يشاء الرب يصنع ، وقد كتبنا ذلك ليتعظ الناس ويعتصموا
بالإيمان .

وفي هذا الزمان سبى العرب بيعة الأربعين شهيدا في
ماردين ، وقد سمح الله تعالى أن نعتبر بهذا ، لكن رجعت البيعة
بعناية الله فيما بعد .

موت نور الدين

في عام ١٤٨٥ يونانية كان سلطان نور الدين يمتد من اشور وبين النهرين الى سورية ومصر ، وكانت كل هذه البلاد وكل امراء الامارات التي بها تخضع لامره كالعبيد،فانتفخ غطرسة وجبروتا عندما خضع له ايضا الذين في كبدوكية وقيليقية،فتأهب في هذه السنة ليحتل المملكتين دفعه واحده ، مملكة الأفرنج في القدس وانطاكية ، ومملكة الأتراك في بلاد حران ، وكان رسله يجوبون كل مكان ساعين في تجنيد الرجال لهذه الحرب حيث كانوا يجمعونهم في دمشق بعد ان يأتوا بهم من داخل بلاد العرب ، وبلاد اشور ومن بين النهرين وارمينية وكبدوكية وسورية وقيليقية ، وكانوا جموعا تفوق العدد والتصورة وعم الخوف والفزع والهلع كل مكان ، ولاسيما بين المؤمنين المظلومين ، لكن الرب المتسلط وحده على ممالك الأرض حكم فجأة على نور الدين وانتهت حياته وطموحاته وافكاره ، فعم الفرح ليس بين المسيحيين فقط بل وبين الأمراء الذين كانوا متضايقين جدا ، فقد منعهم ان يشربوا الخمر في معسكره ، وكذلك منع الفناء والرقص ، وكان يغلب على معسكره الطابع الديني ، فكان دائما يستمع الى القرآن والحديث ، لانه كان يعتبر نفسه نبيا، وكان يدعي ان الله يتكلم معه مثلما كان يتكلم مع موسى .

اما العرب فقد اعتبروا ان ما يدعي به هذيانا وخروجا فاضحا على الدين ، غير ان بعض المرائين والمنتفعين كانوا يقولون له : لقد رايناك في مكة او في المسجد الفلاني ، وكان يتقبل كلامهم بفرح وسرور

وملك نور الدين ثمانية وعشرين سنة ، وملك بعده ابنه الصالح في حلب ودمشق

الملك الصالح اسماعيل

بعد موت نور الدين ملك ابنه الملك الصالح فقام الملك عموري ودخل الى بلاد دمشق وسبهاها ودخل على بانياس ، وخاف المسلمون كثيرا خصوصا انهم كانوا يستعدون ليطردوا الأفرنج ، واذا بالأفرنج اتوا ليملكوا على بلادهم ، لذلك أرسل أهل دمشق رسلا لهذا الملك طالبين ان يؤدوا له الجزية كما كانوا فيما سلف، لكن الملك رفض ذلك ولم يقبل ان يعقد معهم صلحا قط ، بل تهيأ ليشن الحرب عليهم لكنه مالبث ان مرض ، ولما علم ان أجله قد دنا أسرع وأخذ الذهب من الدمشقيين وعقد معهم صلحا، ورجع الى عكا ومات هناك في أول تموز سنة ١٤٨٦ يونانية، أي بعد أربعين يوما من وفاة نور الدين .

وقد أحدث موته حزنا للمسيحيين الذين كانوا يأملون ان يعيشوا أفضل بعد موت نور الدين ، فخاب أملهم بالموت الأليم لهذا الملك الذي كان في بداية الشباب .

ملك عموري اثنتي عشرة سنة ، وقد خلفه ابنه المسمى بلدوين باسم عمه المتوفى وكان عمره خمس عشرة سنة، ولما ملك ثبت الصلح الذي كان قد عقده والده مع ابن نور الدين .

في صيف هذه السنة أي ١٤٨٦ يونانية لما سمع قلعج أرسلان بوفاة نور الدين هاجم بلاد الدانشمديين فخافوا كثيرا وتم فيهم قول أرميا النبي : « ملعون هو كل من اتكل على الإنسان وصنع ابن اللحم ساعده، ويبعد من الرب اتكاله فيكون مثل الجذر الذي ليس له ماء»، واستطاع السلطان ان يتسلط عليهم ويقتلهم وأخذ سبسية ونوقيسارية وقومانا وباقي مدن كبدوكية وكل قلاعها ، وقد عظم السلطان قلعج أرسلان هذا فهرب كل الأمراء من وجهه

- ٢١٨٦ -

واختبأوا ، أما رئيسهم ذو النون فقد التجأ الى القسطنطينية ، واستنجد بملك اليونان ، فلم يقبله ، وانتهت عند ذلك زعامة بني دانشمند التي ابتدأت مع بداية خروج الأتراك لهذه البلاد ، والاستيلاء عليها من اليونانيين سنة ١٤٦٢ يونانية ، وقد ملكوا مائة واثنين وعشرين سنة قام خلالها ستة رؤساء من سلالتهم .

وبهذا الزمان انتهت زعامة بني دانشمند في كبدوكية .

وبهذا الصيف ابتدا ينبت العشب وحسنت الغلات بعد أن صار جوع عظيم لمدة أربع سنين في كل من سورية وفلسطين ، وفي أثور وأرمينية وبلاد فارس ، ووصل الى سجستان ، وأيضا وصل الى الهند الكبيرة ، فالآن قد بدل الرب القادر على الكل ، فصار شبع لاسيما في أرض مصر حيث كثرت الغلال وخصوصا الحنطة فصار حملان من الجمال بدينار واحد .

بعد موت نور الدين خرج ابن اخيه سيف الدين من الموصل، وأخذ نصيبين، ونقض النواميس التي وضعها عمه ، وكسر الحجر التي كان قد كتب عليها النواميس ، وكانت موضوعة بالمسجد وأمر بشرب الخمر علانية ، وأتى اليه أمراء ماردين وحصن كيفا ، كذلك مضى الى حران وملك عليها وأخذ سروج وقالينيقوس ، وخضع له ابن عمه حاكم حلب ودمشق ثم رجع الى الموصل .

وفي تلك السنة ملك صلاح الدين الذي كان يملك بمصر أيضا على بلاد العرب الداخلية وعلى أماكن من ممالك النوبة ، ونجح نجاحا عظيما .

وفي هذه السنة قام الأرمن أصحاب جبل ساسون الذي كانوا يملكونه منذ عدة اجيال بالتخلي عن قلاعهم الى شاه أرمن صاحب اخلاط، وذلك نتيجة لما تعرضوا له من ضغوط ومضايقات من أمير ميافارقين. وفي هذه السنة انتزع الأتراك من الفرس مدينة أني.

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية في ١٥ كانون الأول قتل في قلعة مساردين الطواشي امين الدين مدبر البلاد ، وقد قتله الأمير قطب الدين ، وأخذ رأسه بيده ، ودخل على أبيه الشيخ وقال : لقد أراد ان يقتلني فقتلته ، فأما الشيخ أبوه فقد أصيب بصدمة شلت لسانه فلم يجب .

وفي تلك السنة عصت على مليح حاكم قبليقية عساكره لمعاملته السيئة النجسة ، وحاولوا قتله ، ولما أحس خرج من المعسكر ليلا وهرب الى إحدى القلاع، لكن حراس تلك القلعة كانوا متعاطفين مع العساكر فأمسكوه وقطعوه عضوا عضوا ، وأعطوه للكلاب فأكلته ثم أحضروا روفين ابن أخيه اسطفان من طرسوس ، وكان مختفيا هناك خوفا من عمه وملكوه عليهم ، حينئذ قتل الذين قتلوا عمه لأنهم رموه للكلاب .

وفي هذه السنة صار في بغداد تمرد على الخليفة المستضيء من عبده قطب الدين ، فجمع عسكرا وحاصره في داره طالبا منه ان ينصبه سلطانا، فلما تضايق الخليفة صعد الى سطح داره وأخذ يصرخ بأعلى صوته بأكيا متضرعا مستنفضا همه الشعب الموجود داخل المدينة ليجتمعوا وينجوه من أيادي هذا المتمرذ ، فاجتمع اليه الاف ، وبعد قتال عظيم هرب العبيد ومعه ثلاثون الف فارس ، وتوجهوا الى البرية لينجوا فصاروا خمسة أيام لم يجدوا فيها ماء ، فتضايقوا من العطش، فأرسلوا رسلا الى حاكم الموصل الذي وعد ان يصلح الأمر بينهم وبين الخليفة ، ولما توجهوا لكي يمضوا للموصل أدركتهم ريح حارة ومحرقة ، فبيسوا وصارت الناس والبهائم كالخشب الأسود حتى ان الحيوانات عافت ان تأكلهم لأن رؤوسهم متصلبة كالحجارة ، ثم استطاع ان يصل الى الموصل مائة رجل منهم ، لكن الأطباء لم يستطيعوا ان ينقذوا أحدا منهم فماتوا جميعا وصاروا عبسرة لمن اعتبر .

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية ، يوم الأحد ١٥ شباط ، قتل امير

ملطية أخيه الذي كان قد ملك أولا ، ثم ترك الملك والمدينة وهرب بحالة من الذل ، وبقي متشردا خمس سنوات يعيش عيشة بئس وفسق وفجور ، فأمسكه نور الدين وحبس له لكنه ما لبث أن هرب وأتى انطاكية وتبع الافرنج ، لكنه لم يجد هناك راحة فعاد وهرب من هناك ورجع إلى الترك ، وجاء إلى عند السلطان فأعطاه هرقلية ، وكان يريد ملطية ، وعندما أصر على ذلك عاد فأخذ هرقلية منه ، فتوجه إلى الأتراك الذين في ناحية الشرق فأمسكه نور الدين وزجه بالسجن في مدينة البيرة على شاطئ الفرات ، وعاش هناك في ضيق حيث كان يقتات من الصدقة ، وقد تجاسر رهبان دير مار برصوم وأرسلوا له صدقة مع رسل من الرهبان أنفسهم، لأنه عندما كان حاكما كان يحب الدير ويكرمه ، وقد استفاد الدير من هذا كما سنوضح القول فيما بعد .

ولما مات نور الدين خرج من السجن وسمع أن امرأة أخيه تركت ملطية بسبب بغضها لبعليها ، ورجعت إلى قلعة زياد عند أبويها ، فتوجه إلى هناك حيث شجعه هؤلاء كثيرا ، فأخذ سرا ماخف حمله وتوجه إلى دير مار برصوم ونذر له نذورا كبيرا إذا رجع وملك ملطية ، وأقسم أيضا أن يعتق الدير من الخراج ، وبعد ذلك توجه إلى المدينة بزي مسكين شحاذ وقت المساء ، ولم يعلم به إلا رجلين كانا معه فقط ، وقد أخذاه إلى أحد الأتراك وكان يحبه منذ زمن ، واختفى في بيته مدة يومين ، ثم خرج ليلة الأحد المذكورة مع رفيقيه مخاطرين بحياتهم ، ووصلوا إلى الدار ودخلوا البستان دون أن يعلم بهم الحراس ، فوجدوا هناك سلما مطروحا على الأرض فوضعوه على الحائط ودخلوا البيت الذي كان ينام فيه ذلك الشقي مع المرأة العجوز مربيته ، وفجأة استيقظ الصبي والعجوز خائفين ، مذعورين يرتجفان فبادره بضربة على رأسه قتله على الفور ، وأخذ مفاتيح أبواب المدينة والقلعة ، وحمل رأس أخيه بيده وأخذ يجول على قواد العسكر ، وكان قد مضى أولا عند الذين يعرف أنهم مؤيدوه ، وكان الناس يستيقظون في نومهم ويرون رأس الأمير المقطوع فيسلمون فورا له ، ثم أخذ مائة رجل تقريبا وصعد عند

انبلج الفجر إلى القلعة ونصب أميراً جديداً ، وقد خاف الجميع ، أما المؤمنون فقد التزموا بيوتهم ، وأما الأتراك فقد امتطوا خيولهم وامتشقوا سيوفهم وتجهروا أمام باب القلعة وأخذوا يخاصمون معتقدين أن أميرهم لم يقتل ، لكن لما رمي رأسه من أعلى السور وتدحرج بينهم تأكدوا أنه هو ، حلفوا كلهم لمحمد هذا ، وكذلك حلف هو لهم أيضاً ، ولما تنصب وملك ألغى الخراج عن دير سيدنا مار برصوم كما وعد ، لكن الرهبان قالوا له إنهم سيعطوه باختيارهم كل سنة ثلاثمائة ديناراً على أن يلغى مازاده عليهم الأمير غازي لأنه قبل الأمير غازي لم يكن يتقل على الدير، وكان الأمير غازي قد وضع على الرهبان سبع مائة دينار كل سنة، لكن الأمير عاد فألغى الخراج عن الدير وذلك وفاءاً لنذره، أما الرهبان فلم يرضوا وأصرروا أن يدفعوا الخراج وذلك حتى لا يستعدوا المسلمين عليهم، فما كان من الأمير إلا أن زار دير مار برصوم ووهبه مالا .

وفي سنة ١٤٨٧ يونانية يوم الأحد الثاني للفصح في ١١ نيسان عند الصباح، وبعد قراءة الأنجيل، أي عند انتهاء الخدمة تقريباً اظلمت الشمس كلياً وصار ليل، وظهرت الكواكب في السماء وبدأ القمر بقرب الشمس وكان مشهداً محزناً ومفزعاً لكثير من الناس فأجهشوا بالبكاء، أما الغنم والبقر والخيول فقد تشابكت مع بعضها من الخوف، وبقي الظلام ساعتين ثم أضياء، وبعد ١٥ يوماً في نيسان ليلة الاثنين مساءً انكسف القمر في الموضع الذي به اظلمت به الشمس .

المجد لعارف الكل .

وفي هذا الربيع قل المطر وصار حر شديد فيبس الزرع وبساقى الحبوب، وصار عطش عام وقد فرغت قرى كثيرة كلياً من السكان لاسيما في القدس وفلسطين وسورية العميقة، وبلاد نصيبين، وفي طور عبيد وفي بلاد الموصل، ولم يحصدوا الزرع أبداً وقد فقد الماء تماماً حتى لم يعد يشرب الناس والبهائم .

« قدوم صلاح الدين إلى دمشق »

وفي سنة ١٤٨٧ يونانية خرج صلاح الدين الذي كان يملك في مصر واتى إلى دمشق لأنه سمع أن حاكم الموصل قد أخذ من ابن نور الدين حران والرها، فأتى بحجة ابن سيده، وبهذه الحيلة تملك على دمشق ونواحيها ، أما الصبي ابن نور الدين وأمه ومربيته الذين كانوا في حلب فقد خافوا منه، لكنه أرسل رسلا يقول لهم بأنه ماهر إلا عبد وقد جاء ليعخدم الصبي ويصير له مربيا ويحارب أعداءه ويطردهم، فلم يصدقوه ولم يفتحوا له الأبواب، ولما نظر ذلك كشف عن نيته الحقيقية فأخذ حمص وحماء حربا وأحضر من مصر ذهباً كثيراً وصار يلقيه كالتراب ويجمع العساكر ، وأخرج الفرنجة الذين كانوا محبوسين في دمشق منذ بداية حكم نور الدين وصنع صلحاً مع الأفرنج .

أما سيف الدين حاكم الموصل فقد أرسل عساكره ليطردوه، فعندما وصلوا أخذوا يهزؤون به ويحقروه ويدعون الكلب المكشّر على سيده ، أما هو فكان متواضعاً جداً فأرسل لهم رسلاً يقول لا يجوز لنا ونحن بيت واحد أن ننقسم، لكنهم شتموا رسله وهجموا عليه مسرعين لئلا يهرب ويفلت من أيديهم ، لكن الله الذي يكره المتكبرين والمرتفعين أضعفهم ورمى في نفوسهم الخوف والهلع فهربت العساكر على كثرتها ، فأمسك أكثرهم وأخذ فيلهم وجمالهم وسلاحهم ، وهنا وقف موقفاً يستحق الذكر إذ لما راهم أنهم بدأوا يهربون صرخ بصوت عال وطرح قبعته أرضاً وقال : لا تقتلوا أحداً فهم أخوتنا ، وأخيراً حتى الذين كانوا أسرى أعطاهم زاداً وخيلاً وأرسلهم بسلام .

وقد كان لسلوكه هذا وقع حسن في نفوس المسلمين .

أما الذين في حلب فإنهم لما نظروا انتصاره خافوا جداً وأرسلوا

هدايا لحاكم انطاكية ليكون مساعدا لهم ، وفتحت الأبواب لبيع في حلب الملوك الذين كانوا مسجونين فيها منذ زمن طويل ، وقطع رجاؤهم من العودة ، فبيع كونت طرابلس بثمانين ألف، وجوسلين بن جوسلين بخمسين ألف، ورنجر فرينز بمائة وعشرين ألف، وكانوا قد أرسلوا عدة مرات ذهباً من القسطنطينية لأجله فكان يدفع ثمننا لغيره ويبقى هو ، أما الآن فقد خرج مع كل الباقين .

عاد سيف الدين حاكم الموصل بعد أن انكسرت عساكره، فجمع عسكرا أضعافاً مضاعفة، ومضى معه حاكم ماردين وحاكم حصن كيفا وكان مجموع الجيش ستين ألفاً، وكان بإمرة صلاح الدين إثني عشر ألفاً فقط، فأرسل إليه قائلاً : لا تطلب حرباً لأنني إن انكسرت فأنا عبد لا أتعير من أولاد ساداتي ، أما أنت فإنك ملك إذا انكسرت فسيكون هذا عار عظيم عليك ، لكنه استخف به وشتمه، ولما اشتعلت الحرب رشا صلاح الدين رؤساء العساكر الذين كانوا يقودون جيش سيف الدين بمال كثير وذهب وافر فانسحبوا وتركوه وحيداً على جمل ، فرجع إلى الموصل يجر أذيال الخزي والعار ، أما صلاح الدين فقد مضى إلى منبج فسلمه إياها العرب الذين بها واعتقل الأمير الذي بها ، وكان هذا فيما مضى حاكماً للرها واسمه قطب الدين ينال بن حسان ، أخذوا مقتناه ظلماً ، لكن بعد خمسة أشهر أخرجه صلاح الدين فمضى إلى الموصل ، وبعد هذا أتى إلى طاعته الأمراء الذين في تل باشر وعين تاب وباقي بلاد سورية ، ثم مضى نحو أعزاز فهناك هجم عليه المدعوين بالحدشيشية وضربوه بالسكاكين لكنه لم يمت ، وعندئذ قتل مهاجميه وأرسل عساكر سبوا بلادهم ، وبعد ذلك أخذ أعزاز بالحرب وحل على حلب أيضاً فالتجأ أهل حلب إلى الأفرنج فأرسل أولئك إلى رنجر الذي كان قد خرج من الأسر فانتصر وقتل عدداً كبيراً من العساكر ، ثم دخل الأفرنج إلى بلاد دمشق أيضاً وقتلوا هناك شعباً كثيراً وسبوا ، ثم أرسلوا أيضاً عساكر إلى مصر وسبوا تلك البلاد ، ولما تضايق صلاح الدين من الأفرنج رد أعزاز إلى حاكم حلب وصنع معهم صلحاً ، ورجع إلى مصر مسرعاً.

« حرب بين الأمير منويل وقلج أرسلان »

لما سمع منويل ملك اليونانيين أن ابن اخته قتل على باب نوقيسارية هجم غاضبا على الأتراك يريد الانتقام ، لكن السلطان أمر عساكره أن لا يحاربوا ، بل أن يعضوا مجموعات حول معسكره من اليمين واليسار والخلف ، وينهبوا القرى وكل أنواع القوات للبشر والبهايم ، وكذلك أن يسمموا مجاري المياه والعيون والآبار بجثث الكلاب الميتة والحمير وبكل أنواع النتانة والنجاسة .

وأمر أيضا الذين في القلاع أن لا يحاربوا بل أن يقاوموا قدر الامكان وإذا ضعفوا فليحرقوا البلدة كلها وينتقلوا ، أما السلطان فقد صعد إلى جبل عال ووعر وكان ينتقل فيه من مكان إلى مكان ، حينئذ دخل الملك بقوات إلى عمق بلاد الأتراك مسيرة خمسة أيام ، ولما راه التركمان سكان تلك البلاد خرجوا كالذباب الذي ليس له عدد على ملك اليونانيين ، وأخذوا يحرقون ويخربون ويقتلون كل من وجدوه خارج معسكر اليونانيين ، ولما وصل اليونانيون إلى قرب قونية ، وصارت تفصلها عنهم مسافة يوم ، بينما كان يفصلهم عن المكان الذي يختبئ فيه السلطان مسيرة ثلاث ساعات دخلوا بين الجبال في موضع ضيق ليس فيه ماء ، وكان برفقتهم خمسة آلاف عربة تحمل المؤن والأسلح وخشب المنجنيقات ، وذهب البيع والصلبان ومقتنيات أخرى متنوعة ، فانتظر التركمان حتى ابتعد الملك وعساكره عن قافلة العربات هذه ، فهاجمها نحو خمسين ألف رجل فسيبوا ونهبوا كل المعسكر ، فلما سمع الملك وعساكره أن متاعهم ومؤنهم وأسلحتهم قد سببت ، كذلك هاجمت القوة التي كانوا ينتظرونها خافوا وارتبكوا ، ولما علم الأتراك بخوفهم أخذوا يدحرجون عليهم الصخور الكبيرة من رؤوس الجبال ، وقد دهست وهشمت هذه الصخور الناس والحيوانات ، وكان الجنود يتدافعون للالتجاء في الخنادق وهم مزعورين من ملاقات الترك ، وقد وصل

- ٢١٩٣ -

الأتراك إلى مسافة قريبة منهم ، حتى أنهم استطاعوا أن يرموهم
بالسهام ليلا ، حينئذ وفي منتصف الليل أرسل الملك إلى السلطان
طالباً الصلح ، أما السلطان فكان بدوره خائفاً ، لذلك قبل سريعاً ،
وكانت الرسل تأتي وتروح بالمصابيح طوال الليل ، وأعطى الملك
للسلطان المدن الثلاث التي بناها ، وفي الصباح نادوا بالصلح ،
فتحلق الترك حول السلطان وأخذوا يصيحون كافر ، كافر من قبل
الصلح، واضطر الملك أن يصطحب معه ثلاثة أمراء من أمراء
السلطان حتى لا يتجاسر عليه التركمان ، أما الترك فلم يلتزموا إذ
عندما بدأ اليونانيون يرحلون كان الترك يهاجمونهم من كل جانب
ويقتلون اليونانيين ، وحينئذ قال الملك للأمراء الذين عنده: لماذا يحدث
هذا بعد تأكيد الاتفاق بالايمان؟ فأجابوه: هؤلاء ليسوا تحت أمرنا ،
عند ذلك صنع الملك كمائن للترك ، فقتل منهم عشرين
الفا ، لكن لما دخل الملك القسطنطينية أرسل ذهباً كثيراً إلى
السلطان ، وأخذ الصليب الذي يحتوي على قطعة من الصليب الذي
صلب عليه المسيح ، وبعد ذلك أرسل السلطان إلى الخليفة في بغداد
وإلى كل الأمراء وإلى سلطان خراسان عدداً كبيراً جداً من العبيد
والسلاح ورؤوس اليونانيين وشعورهم، محمولة على رؤوس الرماح،
أو مربوطة في أذناب الخيل ، وهكذا كانت نهاية اليونانيين ومن
لا يستطيع أن يعترف أن كل هذا يصير بأمر الله وأحكامه غير
المعروفة؟!

« موت نجم الدين حاكم ماردين »

في عام ١٤٨٧ في ٢٧ تموز مات نجم الدين حاكم ماردين ، وذلك بعدما ملك اثنان وعشرين عاما ، وكان عهده عهد خير ورفاهيه لشعبه عامة وللمسيحيين خاصة ، كذلك كانت البيع والأديرة .

ملك بعده قطب الدين فاضلهد أعمامه وضايقهم كثيرا ، مما دفع حاكم الموصل وحاكم حصن كيفا أن يتوسط لهم حيث صاروا بعدها تحت طاعته كما كانوا أيام أبيه ، ثم أتى أثناءها حاكم حاني وحاكم دارا ودخلا قلعة ماردين وسجدا له وتصالخوا ، وبعد هذا أذيع خبر أنه مات وأن الخراب عم بلاده ، لكن تبين أنه كان مريضا فشفي وعاد كما كان ، ثم تحارب مع العرب وقتل منهم الوفاء وأخذ من جمالهم إثني عشر ألفا من الجمال ، وهرب الباقي ثم تصالخوا واصطلحت البلاد .

وفي هذا الزمان خرج ملك اليونانيين للصيد فضربه خنزير بري وذاع خبر أنه مات ، فقام السلطان وسبى بلاده ، لكن الملك الذي تعافى اكتشف أن السلطان لم يحفظ الجميل الذي كان قد أسلفه إياه فغضب جدا ، وزاد نار غضبه الأمراء أولاد داندشمند الذين هربوا من أمام السلطان ، الذي سارع فأخذ بلادهم ، فالتجأوا إلى القسطنطينية إلى الملك ، فأخذ السلطان بلادهم لقمة سائغة ، لذلك جهز الملك جيشا غطى وجه الأرض ، وسير أمامه أولاد داندشمند ، وعندما وصل هذا الجيش إلى حدود الأتراك أخذ يضايق السلطان ليعيد أولاد داندشمند إلى بلادهم التي كان السلطان قد أخذها منهم ، وكذلك لكي يتنازل لأخيه ، لكن السلطان رفض ، وعندئذ افتتن الجانبان ، وقام الملك ببناء مدينتين كانتا مخربتين منذ زمن بعيد ، ووضع بهما عسكرا أخذ يهاجم الأتراك ، ثم أرسل الملك جيشا فنهب وسبى شعب التركمان وقتل منهم الوفاء وحينئذ توجه

التركمان الى ناحية الشمال ودخلوا إلى بلاد اليونانيين دون أن يعلموا أين هم فسبوا مائة ألف من الناس ، وقتلوا الرجال والنساء ، أما الاولاد فقد باعوهم إلى التجار ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا إلى فارس ، وحينئذ هاجم الملك السلطان فهرب من وجهه وأخذ ينتقل من جبل إلى جبل ، والملك يطارده ، وكان في الحقيقة لا يريد أن يتحارب مع الملك .

ثم أرسل الملك مع الأمير ذي النون ثلاثين ألفا من العساكر ليملك نوقيسارية، فحاصروها وعندما أرادوا أن يقتحموها احتال الأتراك الذين في داخلها ، فكتبوا رسائل على لسان المسيحيين الذين في داخلها إلى رئيس عسكر اليونانيين يقولون فيها : إن الأمير ذي النون الذي وضعت ثقتك فيه ماهر إلا إنسان مكار ، ويريد خداعكم ، وهو متفق مع الأتراك أبناء جلدته وعشيرته ، ويستعد لاهلاككم ، ووجهوا الرسالة بواسطة سهم إلى معسكر اليونانيين ، فارتعد اليونانيون وخافوا ، وأخذوا يهربون وحينئذ خرج عليهم الأتراك من ضمن المدينة وهم يصرخون : لقد مات منويل الملك ، وبدأوا القتل فيهم ، فقتل رئيس العسكر ابن أخت الملك ، وهرب ذو النون إلى الشمال فأمسك به اليونانيون وأرسلوه إلى الملك .

وبهذا الزمان أمر الرب فعبرت أيام الجفاف ، وعاد المطر فجرت الينابيع ، والعيون عانت متفجرة ثانية ، ونجا البشر والبهاائم من العطش ، لكن الأرض لم تنتج غلالها .

وفي عام ١٤٨٧ غضب الله فأجذبت الأرض وعم الجوع وصار المساكين يتوسلون في كل مكان ، وصار بالقدس ودمشق وحلب وبريه المليحة كيل الحنطة بثلاثة ذهبيات ، وبعد مدة فقد لم يعد يوجد ، وفي هذه الفترة أتت قوافل العرب بجمالها الكثيرة ليأخذوا حنطة ، وصار يباع الذهب الأحمر في بلاد سورية بنصف ثمنه ، وارتفع سعر الحنطة في هذه البلاد حتى صار المد بدينار .

وفي هذا الزمان تراءى في السماء في ناحية المغرب شيء يشبه

- ٢١٩٦ -

نصف القمر ، وقد صعد إلى ناحية المشرق ، وكلما كان يصعد كان
يكبر حتى صار بحجم القمر ثلاث مرات ، ثم استقر في وسط
السماء ، وانفجر إلى ثلاث قطع وسقط ولم يعد يظهر أبدا ، ولما
انكسر ملك اليونانيين عرف كل واحد أن هذا كان إشعارا بذلك .

« فرار صلاح الدين عند عسقلان »

في تشرين ١٤٨٩ يونانية خرج صلاح الدين من مصر وأخذ معه ثلاثة وثلاثين ألفا من الفرسان ماعدا المشاة وغيرهم واثنين وخمسين ألف جمل يحملون السلاح والنخيره لبلاد القدس ، وقد قتل بيده أول أفرنجي أسروه ، وغسل ثيابه بدمه فارتاع الأفرنج ، وكان ملكهم مصاب بمرض الجذام ، وكان كل واحد يخاف أن يقترب منه ، لكن الله الذي يظهر قوته في الضعفاء نفخ الشجاعة في قلب الملك المريض فخرج نحو عساكره ، فاجتمعوا حوله وحينئذ ترحل عن صهوة جواده ، وسجد أمام الصليب وأجهش بالبكاء وأخذ يتضرع ، فهاجت حمية الجنود وأقسموا على الصليب أن يحاربوا حتى النهاية ، وإذا كسرهم الأتراك فكل من يهرب قبل أن يموت يعتبر كافرا ، أما الأتراك فقد استهانوا بهم بعد أن علموا بانهم حاليهم المعنوية ، لكن الأفرنج لما رأوا الأتراك بأعدادهم الهائلة يغطون التلال ويتموجون كالبحر نزلوا من مراكبهم ، وجذوا شعورهم وتعاهدوا مع بعضهم ، وصلوا الصلاة الأخيرة ، وبدأوا الحرب ، وفي ذلك الوقت أرسل الرب ريحا قوية كانت تجرف التراب من ناحية الأفرنج وتلقيه على الأتراك ، وحينئذ علم الأفرنج أن الله قد قبل توبتهم ففرحوا وتشجعوا ، أما الأتراك فقد هربوا من ساحة المعركة ، فلحق بهم الأفرنج وكانوا يقتلونهم ويذبحونهم طوال النهار ، وبعد هذا نهبوا أمتعتهم وأخذوا جمالهم ، وأخيرا تبذرت عساكر الترك وتاهت وبقيت خمسة أيام على هذه الحالة ، وعسكر الأفرنج يلاحقونهم بعد أن تحولوا إلى شراذم أنهكها الجوع والعطش والاعياء فقتلوهم ، وجمعوا أسلحتهم وثيابهم ، أما صلاح الدين فقد هرب إلى مصر مع ثلثة من حرسه يجرون أذيال الخيصة والحزن ، وأما الأفرنج فقد وصلوا إلى أنطاكية فرحين يصيحون في الشوارع مبتهجين بهذا الانتصار ، وقد كنت في أنطاكية وقت ذاك .

وفي هذه الأيام عندما علم والي قلعة حارم التركي أن حاكم حلب يستعد لاعتقاله وقتله تمرد عليه ، فالتجأ إلى الأفرنج فأقسم له فرينز أن يساعده ليبقى في قلعته ، ولما عقد هذه المعاهدة مع الأفرنج صار حينئذ عدوا للأتراك ، لكن الأفرنج سرعان ما تخلوا عن عهودهم وداسوا قسمهم ، فأتوا من القدس ومن ساحل البحر وأتى معهم والي طرابلس وروفين حاكم قيليقية وكونت فلنط (٤٧) مضى مع فرينز حشد كبير وحلوا على حارم أربعة أشهر كانوا يحاربون فيها بشراسة ووحشية ، وقد قتلوا العديد من الشعب الأعزل ، وقد انتصروا على الرغم من أنهم تجاوزوا يمينهم ، وحلفوا كذبا بالصليب والانجيل ، لكن الأتراك الذين كانوا يدافعون عن القلعة لما أحسوا بالتعب أرسلوا إلى حلب وأخذوا قسما من حاكمها وسلموه القلعة فأعطى لفرينز عشرين ألف دينار ، فرجع إلى أنطاكية خائبا حزينا كسير القلب لأنه لم يستطع أن يحقق ما يريد .

« احتلال قلج أرسلان ملطية »

بعدها صنع السلطان قلج أرسلان صلحا مع منويل ملك اليونانيين ، حل على ملطيه وكان بها أمير من أسرة دانشمند هو الذي قتل أخاه ، وكان هذا مع جنوده أشرار المسلك ، وقد خرج أكثر المسيحيين منها هربا من الجوع الذي كان منتشرا في كل مكان وخصوصا فيها ، أما الذين بقوا في المدينة فكانوا يعيشون بحالة من الشقاء ، وكان قسم منهم يرقد في أعماق السجون ، والآخر في المعتقلات يتعرض للتعذيب والجلد ، فلما حاصرها قلج أرسلان خاف أمير المدينة أن يقتله الشعب ويسلموا المدينة ، لكثرة الشقاء الذي يعيشون فيه ، فأرسل سرا إلى السلطان وطلب الأمان لحياته طالبا مغادرة المدينة بالذهاب إلى قلعة زياد ، فدخل السلطان ملطيه يوم الأربعاء ٢٥ تشرين الأول ١٤٨٩ يونانية وقد عم الفرج والراحة الجميع بعد أن كان قد حاصرها أربعة أشهر كان فيها الجنود يقيمون في بيوت انتزعوا حجارتها من المقابر ، وينوها بسرعة من اللبن إلقاء لبرد الشتاء ، وهكذا أراح الرب الاله هذا الشعب المظلوم .

وفي هذا الزمان ألب الرب أيضا الأرض فمنع المطر لأجل آثامنا فبيست الغلال ، وحدث جوع في سورية وفلسطين وأشور ، وبين النهرين وأرمينية وصار كل كيل من الحنطة بدينار إن وجدت .

أما في دمشق فقد فقدت الحنطة وكذلك باقي الحبوب ومات بسبب الجوع أعداد كبيرة وأعداد أخرى هربت إلى بلاد بعيدة جدا وكان المسيحيون في كل مكان يصلون ويطلبون من الله أن ينزل المطر وقد تصدق عدد كبير من الملوك الذين عندهم حنطة على المحتاجين .

كما أن همفري بطريرك الافرنج في انطاكية وهب حنطة وحبوبا أخرى بكثرة وفي كل مكان ، ثم أشفق الباري تعالى فنزل المطر في

- ٢٢٠٠ -

نصف فصل الربيع ، وارتوت الارض وابتهج الجو وصار البشر
يسبحون الله ، وصار خير ورفاه في كل البلاد .

خروج صلاح الدين من مصر وانتصاره على الافرنج

في تشرين الاول اجتمع مع بدوين الملك جميع الافرنج على شاطئ الاردين في الموضع المدعو مخاضه يعقوب وابتدأوا يبنون مدينة يستطيعون بها أن يحاصروا دمشق ، كذلك خرج صلاح الدين من مصر وأتى إلى دمشق لأنه تمرد عليه الأمير شحنة مدينة بعلبك - هيلوبولوس أي مدينة الشمس - ولما حاصرها وأخذ يهاجمها بدأ أميرها يرسل الافرنج ويرسل لهم الهدايا متعهدا أنه سوف يطيعهم ، ولما لم يتجاوب معه الافرنج وخاب أمله منهم رجع إلى صلاح الدين وأخذ عهدا منه وسلمه المدينة ، حينئذ دخل صلاح الدين إلى أرض فلسطين لكن عادوا فجمعوا قواتهم ، وعندها انسحب صلاح الدين إلى دمشق فما كان من الافرنج إلا أن سبوا البلاد مسافة مسيرة يوم ورجعوا ، لكن صلاح الدين مالبث أن ارتد عليهم وهاجمهم وأمسك منهم مائة من المقاتلين وكذلك مقدم الرهبان الداوية ، وقد تألم المسيحيون جدا أما صلاح الدين فقد قوي ورجع مسرعا إلى الموضع الذي بنوه حديثا وحاصره وكان به خمسمائة من الرهبان الداوية ، لكن بعضهم رمى نفسه بالنار واحترق وبعضهم الآخر القى نفسه في الاردين ومات غرقا خوفا أن يقعوا في أيدي العرب ، أما الذين وقعوا بيد العرب فقد قتلوا جميعهم بالسيف .

في هذا الزمان خرج من جزيرة العرب حشد كبير من الناس هربا من الجوع ، ولما وصلوا إلى شاطئ الفرات أمرهم الأمراء أن يرحلوا لأنه ستكون مجاعة بسببهم لأنه لا يوجد طعام يكفي لهم ، وإذا بقوا فسوف تحل المجاعة ، لكنهم رفضوا ، فهاجمهم الاتراك وقتلوا منهم ثلاثين ألفا وعندئذ عبر ما تبقى منهم الفرات ، ولما دخلت جمالهم ونساؤهم ورجالهم وأولادهم الماء جرفهم التيار فماتوا ثم عادوا وطفوا على وجه المياه كالقش .

في ايار عام ١٤٨٩ يونانية كنت في أنطاكية فنزل مطر شديد

وتكونت سيول بداخل المدينة فجرفت البيوت والدور ، فاختنق العديد من البشر والبهاائم ووصل السيل الى ابواب المدينة وكان غزيراً لدرجة لم نستطع معها ان نفتح الابواب ، وقد نب الزعر والهلع في قلوب الناس •

وفي السنة التالية ، وكنت في انطاكية ايضاً ، كان الشتاء لطيفاً مثل الربيع ، لكن في شهر اذار سقطت نار في المدينة واحرقت بيوتاً ودوراً كثيرة قرب بيعه مار بطرس الكبيرة ، وقد حفظ الله تعالى الناس ، ولم يتضرر احد .

في تلك السنة وكنت في انطاكية ارسل بابا روميه رسلاً للبطريك الانطاكي والمقدسي للافرنج يستدعيه لاجل بدعة ظهرت هناك فأرسل الينا بطريك انطاكية اسقف طرسوس وقسيسين من قبله ، وطلب مني ان امضي معه ، اما انا فقد بحثت عن السبب فوجدت ان مجموعة من الافرنج في تلك الارض كانوا مشهورين بتقواهم وصلاحهم فأضلهم الشيطان فقالوا : لا يمكن للخبز والخمر ان يصيرا جسد الرب ودمه ، وان التطبيق العملي للدين هو التصديق على المحتاجين والرحمة بالمساكين ، ومحبة البشر واتفاقهم مع بعضهم ، وصار لهم اساقفه وقضاة ، واتحدت معهم بعض البلاد ، واباحوا نساءهم عندئذ دعا افسومولوس بابا روميه الى مجمع مسكوني ، اما نحن فقد رفضنا ان نذهب معهم لكننا كتبنا رأينا في مثل هذه البدع ، وذكرنا امثله لبدع مثلها انتشرت فيما مضى ، وقد حرمتها كنيستنا • (٤٨)

وبهذا الزمان اقمنا بنعمة الله في ماردين المطران مار اثنا سيوس وارتحلنا الى انطاكية وهناك ارتسم ديونسيوس لمدينة حلب .

وبهذا الزمان تحدث بعضهم الى السلطان الذي ملك ملطية ان رهباننا واهل الدير انهم ساعدوا الامير الذي كان فيها من قبل ، ولأجل ذلك اعفاهم من الخراج ، فقام عندئذ ذلك السلطان ووضع عليهم خمسمائة دينار ، وضعهم من مقابلته ، ثم طرد من ملطية ، ومن كل بلادها الترك الذين تعاونوا مع اسرة الدانشمند .

وبهذا الزمان حدثت بيني وبين مار يوحنا المفريان مشاجرة بسبب الحصييين في بلاد تكريت ، اولئك الذين كانوا منذ ايام قوريا قوس البطريك (٤٩) وقد انشقوا عن البيعة لاجل لفظة : « نكسر خبز السماوي » والان ارادوا ان يعودوا الينا ولما جاؤوا الي وارانوا ان ارسم لهم اسقفا ، قلت لهم : ان المفريان هو الذي يرسم لانه رئيس اساقفة تكريت ، وينبغي الا تكونوا منشقين عن اخوتنا الذين هناك ، فامامهم فاعتبروا ان هذا اهانة لهم ، فطلبوا منا ان نرسم اسقفا وهم يقبلون بعد ذلك ان يكونوا تحت طاعة المفريان ، فاستمهلتهم لاتشاور مع المفريان وذلك حتى لا يقع شقاق بيننا ، فكتبت للمفريان ، لكنه لما عرف ان الحصييين قد اتوا الي اعتقد انه اضاع كرامته ، فأخذ ينادي بين رعاياه بحرمان الحصييين وحرمان كل من يقبلهم ، ولما سمعنا اندهشنا واخذنا الامر بطول الاناة ، وارسلنا له رسلا ورهبانا ليشرحوا له الوضع ، وانه كم عانى الالباء القديسين امثال قريا قوس وديو فنوس ، وكذلك اقرار مجمع خلقيدونية بقبول عوبتهم والان لهم بقول تلك اللفظة ، لكنه رفض ان يستقبل الرسل ، وكان يلوح بالعصيان ، لكن بعد ان عاد الرسل وبخه بعض الحكماء على فعلته ، فأتى الينا نادما ، اما انا فرفضت مواجهته وقلت : ان هذا الامر يجب بحثه في المجمع فرجع الى رعيته ثم جمعنا مجمعا في دير مار برصوم ، واتى هو واساقفته فاوضحنا له كيف وكم تجاوز من القوانين ، عند ذلك طلب الغفران بالطاعة ووعد بالناموسية ، فصلينا عليه ، وصار الصلح والسلام .

وفي تشرين الاول سنة ١٤٩٠ ارتحلنا من انطاكية ، وقابلنا الملك الصبي بلنوين في عكا ، وعرضنا عليه كتاب ابيه ، فلما راه معنا فرح جدا واکرمنا ثم زاد واعطانا كتابا منه مع عهد ، وحينئذ وصلنا الى القدس ، وهناك اتى الينا الرسل في مصر الذين ارسلهم مار مرقص بطريك الاسكندرية ، واعلمونا عن الانشقاق الذي وقع بهذا الزمان بين اخوتنا القبط ، وكان رجل اعمى يدعى ايضا مرقص ، ومشهور بابن قنبر ، وكان حانقا جدا بالكلام ، فبدأ يسحر الناس بكلامه

- ٢٢٠٤ -

المعسول كقول الرسول الالهي القائل : كما ان الشيطان يتجاسر ان
يتشبه بملاك النور فهكذا أيضا خدامه يتشبهون بخدام الرب .

لذلك حرمنا ابن قنبر هذا كما حرمه مار مرقس لنفاقه ، وكتبنا
صحيفه مستفيضة للشعب ، بعد هذا تبع الخلقيونيين واخيرا
انجرف وارتمى في بحر الشرور .

مرض منويل ملك اليونانيين وموته

في سنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) مرض منويل ملك اليونانيين ، وشعر بدنو اجله فالتجأ الى احد الاليرة ، وترهب ونصب ابنه الكس ، وكان صبيا لايتجاوز الثانية عشر ربيعا من عمره والبسه التاج ، كذلك صنع زوجته ، اي ام الصبي راهبه ، ووكلها على خزائن المملكة واقام اثني عشر شيخا من النبلاء ليدبروا امور العسكر ، وكان منويل قد حكم سبعا وثلاثين سنة ، ونجح كثيرا في حكمه ، لكن بعد موته عم الفساد المملكة لان ام الصبي الراهبه ارتكبت الزنا مع واحد من الاثني عشر الذين كان قد نصبهم الملك للاشراف على الجيش فقام الاحد عشر الاخرون وارادوا ان يخلعوها ويخلعوا ابنها ، ويقيموا ابنة منويل الملك من المرأة الاولى ، ويبايعوا زوجها ملكا ، لكنهم لم يوفقوا في هذا المسعى ، فلقد انكشف امرهم ، فخافوا والتجأوا الى البيعة الكبيرة ، ثم حدثت مواجهة دامية في وسط المدينة كانت بمثابة حرب حقيقية دامت سبعة ايام ، وقد صوب جماعة الملك المنجنيقات نحو كنيسة ايا صوفيا حيث كان يعتصم المتمردون ، وحينئذ توسط ثيودوسيوس الذي ضمن سلامةالذين التجأوا الى البيعة بعد اخذ عهدا من الملك وامه ، فخرج الجميع الى السراي لكن الملك وامه داسا يمينها والعهد الذي قطعاه للبطريك وامرا باعتقال الزعماء الاحد عشر وقلع عيونهم وقتل اتباعهم، وحينئذ اندلع القتال من جديد ، فقام بطركهم وحرّم المدينة كلها ، ووقف الصلوات في البيع ، وابطل قرع النواقيس في البيع والاليرة من اول شباط الى تشرين الاول حتى انه رفض ان يصلي على موتاهم ، ثم اعتصم في دير قريب من المدينة .

هجوم السلطان قلع ارسلان على مدينة رعبان

في هذه السنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) ارسل السلطان قلع ارسلان جيشا الى رعبان ، لكن اميرها التابع لصلاح الدين المصري ذهب الى دمشق ، واحضر منها جيشا ، ولما رآته عساكر كبدوكية هربت وعانت الى مدينتها ، صحيح ان الفريقين اتراك لكن الذين من حلب كانوا اكثر خبره في القتال وفنون الحرب نتيجة صراعهم وكرهم وفرهم الدائم مع جيوش الافرنج .

وفي تلك السنة ارتسم لقلعة زياد يشوع الكاتب في طور عبيدين ، وقد تجاوز منذ البداية الناموس وترك الكرسى الذي ارتسم عليه ليستولي على طور عبيدين ، فالتجأ الى سعد الدين الوالى الذي سارع فكتب لي بأن انقل اسحق مطران طور عبيدين ، اي ايونيس ، الى قلعة زياد وان اعطي طور عبيدين ليشوع الكاتب ، فأجبت الحاكم قائلا : ليس لنا في ناموسنا ان ننقل الاسقف في مكان الى اخر ، ولذلك لايمكنني ان اصنع هذه قط ، اما يشوع فقد حرمته .

في سنة ١٤٩١ يونانية (١١٨٠ م) قدمت من انطاكية الى دير مار برصوم ، ووضعنا الاساسات لبنى هيكل بالدير ، فقام ضدنا تادروس ربما بدافع الحسد ، وبقي اثني عشرة سنة يعرقلنا ، ويضع المصاعب في طريقنا ، وسوف اكتب ماحدث معي بالتفصيل والله يشهد انني صادق في روايتي وكذلك يشهد معي عدد كبير من اخوتنا الاساقفة والرهبان والشمامسة والعلمانيين ان ما اكتبه حق ، هذا على الرغم من انني لن استطيع ان اتكلم عن كل افعالهم الرديئة التي فعلوها ، بل سنروي امثلة منها ليتضح كيف بدأت الحكاية وكيف انتهت .

ففي هذا الزمان اتفق خمسة اتفاقا شيطانيا ليشقوا بيعة الله ،

فقد حاول اسقف ارزون (٥٠) ان ينتقل الى ميافارقين بطريقة غير قانونية معارضة ، فامتلا بغضا وحقدا علي ، كذلك يشوع الكاتب الذي ارتسم لقلعة زياد احتفى بالحاكم لينتقل الى طور عبيدين ، ولما انحرم ناموسيا اتحد مع شمعون سرا ، ومضى كلاهما الى آمد الى ابراهيم الذي كان اسقفا هناك ، وكان محروما لاجل جهالته ، وجرف هؤلاء الثلاثة معهم مطران سيبارك المظلوم ، الذي كان قد حرم ايضا لانه داس القانون وأخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا واخذ رشوة على الشرطونية التي صنعها ، فاتفق اربعتهم ورفضوا الحرم الذي وضع على كل منهم ، واذاعوا ان من لايقوم ضدي يكون غريبا عن رئاسته ، وليس له سلطان ان يصنع شرطونية وان تجاسر وصنع فتكون باطلة من الروح القدس ، ثم اتى اليهم ابن الشيطان ورأس الطغمة ، بلاير الثاني ، وكان هذا قد طرد من ملطية بلده ، وانفضح في الرها ، ونفي من القدس ، ثم تجول كثيرا وكل مكان حل فيه كان يطرد منه ، واخيرا التجأ إلي فسامحته لظني استطيع ان اصلحه واحوله الى انسان صالح ، لانه متعلم درس في الكتب ، وقد ابقيته سبع سنوات في قلايتي متحملا غشه وخداعه ، فقد كان جالسا على باب قلايتي مثل ايشالوم يتصيد كل واحد يختلف معي ويصفه الى جانبه ، وهكذا سرق هؤلاء الأربعة واقنعهم ان يصنعوه بطركا ، مقابل ان يعطي لكل واحد منهم رعتين بدل الرعية الواحدة ، ثم تجمعوا وذهبوا الى السلطان حاكم آمد ، ووعدوه بذهب كثير اذا ساعدهم بتنصيب بطريك ، يكون مقره في مدينته ، وبالتالي يقوم ويجمع من كل مكان ويعطيه . لكن ذاك لم يكن سهلا عليه ان يهدم نواميس ، ورتب بيع المسيحيين لاجل الذهب ، بل وكذلك نواميس المسلمين ، واعطاه كتابا للمدعو ابن وهبون من ابي القاسم ابن نيسان ، ولما اخذ ابراهيم اسقف آمد الكتاب خلع ثياب الكهنوت ، ولبس كسوة الترك ، وركب فرسا كالجندي لكي لايعرف ، ومضى الى ابن وهبون ، لكن الرب انزل غضبه على ذلك الحاكم الذي في آمد في تلك الفترة ، فمات فجأة ، اما هم فلكونهم قد

بفعوا الذهب تقدموا الى ابن الذي مات ، وزادوا له الذهب واظهروا له كتاب ابيه ، فاذن لهم ان يصنعوا ما يريدون ، لكن هذا الخبر سرعان ما انكشف في آمد ، فهاج الشعب وماج ليس في المدينة ، وانما في كل البلاد واجتمع القسس والرهبان والشعب وضجوا على الحاكم قائلين : اننا لن ندع ان يهدم ايماننا ، فقال السلطان للشعب ، اذا اتى بطريركم الينا سنطرد هذا ، فقال الشعب : سنحضر بطريركنا ، وحينئذ امر ان لا يرسم ذاك وللحال اتى الي قسس آمد ورهبانها والعلمانيين المكرمين ، وخرجت معهم من دير مار برصوم ، لكن اولئك الاشقياء احتلوا ليلا البيعة واغلقوا الابواب ورسموا تايروس المنافق بطريكاً ، في الصباح غيروا اشكالهم وغطوا رؤوسهم وخرجوا من باب المدينة وتوجهوا الى الموصل الى عند المفريان ، فلما سمعت بما صار حزنت على البيعة التي لم يحدث ما حدث فيها الان منذ اجيال ، وقررت ان اعتزل من الخدمة التي ربما لا اكون اهلاً لها ، فلما عرف المجتمعون بذلك اجهشوا بالبكاء ، وقالوا : ان تركت منصبك فسوف يهدم كل شيء ، فخاف قلبي فقررت ان ادعو الى مجمع وذهبت معهم الى آمد ، فابتهج الحاكم جدا وفرح ووعدنا خيراً ، فاعتزل كل شعب المدينة والبلاد والتحموا واتوا من كل مكان اساقفة وقسس ورهبان وعلمانيون ، حيث توجهنا الى دير مار حنينا ، (٥١) لكن اولئك الاشقياء مضوا الى الموصل لكي يظهر ان المفريان متفق معهم ، وخصوصاً بعد المشاجرة التي صارت بيني وبينه قبل مدة ، فلما نظروا ان المفريان لم يقبلهم بل اتى الينا مع مطارنة كل ابرشياته ، ثم ان شعب المشرق قد تبرأ منهم اخنوا ينتقلون من مكان الى مكان محتارين ، ولما وصلوا الى مدينة دارا امسكهم زعماء المؤمنين واخبرونا ، وكنا في دير مار حنينا ، حينئذ خرج المفريان واساقفة وجملة رهبان واتوا بهم موثوقين ، حينئذ اقروا امام المجمع باخطائهم وحرموا افعالهم كتابة .

لكن لما ارتحلنا جميعاً لنمضي الى دير مار برصوم ونعقد هناك مجعاً مسكونياً ، عاد فدخل الشيطان بهم وهم في الطريق فكفر

تأبوس بالامانة وداس القسم الذي كتبه بيديه على نفسه ، واعطى ذهباً لانس ذهبوا واتوا بالاكراڊ ليلاً فآخذهم الاكراڊ واخفوهم ريثما نرحل ، ولما عرف ذلك المطارنة والمفريان حنقوا على قائلين : لماذا لم تدعنا نربطه ، ثم خرج كل واحد الى ناحية ، فسوجدوه متخفياً ، فامسكوا به ثانية وسقناه معنا الى دير مار برصوم ، فاجتمع المطارنة ومعهم شعب كثير ، وافر الجميع ان يخلع لباسه الكهنوتي ، وهكذا صار ، وتمت باقى الامور ، ورجع كل واحد من الاساقفة الى رعيته ، وهكذا حرم المجمع المنافق ابن وهبون الذي مكث عندنا فى الدير واصل ندمه وطلب الغفران ، اما انا فقبلته كما امرنى الانجيل والبسته اسكيم الرهبانية على رجاء التوبة ، واعطيته حاجة من المتاع وقلالية لسكناه ، وقلت ان تبت فان المجمع الذى حرملك سوف يعيد لك اعتبارك ، لكن عليك ان تعلم انك تحت التجربة الان ، وعلى الشرط تركته فى دير مار برصوم ، ورجعت الى دير مار حنينا ، لكنه كعادته كفر بوعدده وتبع الاشرار مثله فهرب ليلاً من اعلى سور الدير بواسطة الحبال ، وذهب الى دمشق مع رفاقه وكتبوا كتاباً باللغة العربية وقسموه الى صلاح الدين ملك مصر ، ووعدوه ان يعطوه ذهباً ان وجه كتاباً يقبل بموجبه هذا بطريرك فى كل الاراضى التابعة له ، كذلك طلب ان يصدر السلطان صلاح الدين امراً بقتلى بعد تلفيق كثير من التهم ضدى ، فلما قرىء كتابهم امام السلطان صلاح الدين ، استفسر السلطان عنهم فحضر مسيحيون مؤمنون كانوا يعملون كتاباً عند صلاح الدين ، فشرحوا له الحقيقة ، فما كان منه الا ان طرد المنافق ابن وهبون ، فمضى الى القدس ، واخذ يخرّب على اخوتنا الذين تحت حكم الافرنج هناك وخاصة على البار اثنا سيوس مطران القدس ، ولاسيما بعد ان عرض بطريرك الافرنجة الذى هناك عليه ان يعطيه الف دينار ، وياخذ دير مريم المجدلية الذى كان لنا فى القدس ، ورفض فكان ان ابتلينا مع البيعة بكثير من التعب والمشقة ، وخاصة رعيتنا التى كانت تسكن القدس ، وقد بقي هذا الظلم والاضطهاد علينا وعلى بيعتنا حتى دخل العرب الى القدس.

وبعد ذلك توجه هذا الى الشرق لانه سمع بموت مار يوحنا
المفريان فزرع سمومه هناك في الموصل وماردين ، وكان يدخل على
الأمراء الترك فيعدهم بالذهب ، وبذلك اعتاد الحكام الاتراك ان
يطلبوا الذهب من كل رعية ، فقد اوقعنا هذا ووقع اخوتنا جميعا في
المشرق في حرج عظيم ، لكن هذا الفاسد هرب من هناك كما هرب من
فلسطين واتى الى قلعة الروم الى عند جاثليق الارمن ، ووعده
كعاقبته الشريرة اذا ساعدة واقامه بطريكاً فانه يجعل كل الشعب
يطيعه ، وكان قد قال الكلام نفسه لبطريك الافرنج في القدس
وتوصل بهذه المواعيد الكاذبة الى ان يصير مساعده الى ان اكتشف
امره فطرده ، وهكذا صنع بجاثليق الارمن ، فقد صدقه هذا في
البداية ، لذلك جابهني بكل الاسلحة التي عنده ، بل ارسل ذهباً
كثيراً ، وهدايا عظيمة الى الامراء الاتراك في سورية وبين النهرين ،
واخذ يوغر صدورهم ، وكان يهدف من وراء ذلك ان يحرمني ويقيم
مكاني ابن وهبون بطركاً على شرنمة اليعاقبة لكي تصير تحت إمرة
الجاثليق ، كما كان قد وعده وكذلك حاول كثيراً مع الحكام العرب ،
لكن الله كان ضده ، ثم خرج الجاثليق من قلعة الروم برفقه ابن
وهبون ، ومضيا الى قيليقية الى ليون الارمني حاكم تلك البلاد ،
وهناك طلب من الحاكم ان ينصب ابن وهبون بطريكاً في بلاده ، ثم
اعطى ابن وهبون كتاباً من الحاكم ومن الجاثليق ، فخرج هذا
يتجول في البلاد ، وكان كل راهب اوقسيس او أسقف لا يقبله او
يرفع رئاسته في صلاته يأخذ ماله ويطرده من بيعته ، وقد اذاق
المسيحيين عذاباً يفوق العذاب والاضطهاد الذي شنه الوثنيون ولم
ينج منه حتى رؤساء الكهنة ، والكهنة والرهبان الموجودين في تلك
الناحية ، وعندما وصلت الامور الى ذلك المدى ، جمعت مجعاً عاماً
وطلبت منهم اعفائي من الخدمة ، لكن المطارنة كلهم رفضوا ،
واتفقوا ان يذهبوا الى هذا الجاثليق الظالم ويضعوا حداً لتجاوزاته
علي ، ثم سيذهبون الى ليون الحاكم ويضعونه بصورة الوضع كله ،
ولما رأيت اجماعهم علي قلت : يا اخوتي دعونا نصلي قبل ان نلتجأ
الى السلطان لانه مكتوب : « ملعون من يتكل على انسان ويجعل

- ٢٢١١ -

ابن اللحم نراعه ، بل هلموا نلتجأ الى الله وقديسيه وخاصة مار برصوم ، وابتدأنا بالصلاة والطلبات ، وقد شارك معنا كل من حضر عيد القديس مار برصوم ، ثم طقنا بيمين القديس ، وقلنا : ياربنا يسوع المسيح بصلاة مار برصوم اشفق على بيعتك ، واجعل عجائبك بمن هو سبب خراب وانشقاق هذه البيعة ، ان كنا نحن ام غيرنا ، وفي ذلك اليوم عينه ، وما كانت صلاتنا تنتهي في دير مار برصوم حتى سمعنا ان الجاثليق قد سقط عن حصانه في قيليقية ، وانكسرت اصبع رجله فقطعوها ، ثم مات بعد عدة أيام ، ثم إن اثني عشر أسقفاً أرمنياً كانوا اتفقوا مع ابن وهبون ، كل منهم ضرب بنوع من الضربات ، ومات ، وسبعة رهبان سريان كانوا يتبعون ابن وهبون احترقوا بالصاعقة ، وبعد أربعين يوماً تاودورس بن وهبون سقط عليه غضب الله ومات ، وقد صار هذا عبرة عظيمة لكل واحد ، وخصوصاً للشعب الذي في تلك البلاد ، حتى أن ليون الحاكم خاف أيضاً وأرسل نذراً وهدايا لسيدنا مار برصوم ، ولي أيضاً وصار صلح جميل في بيعة الله ، وفي كل مكان ، ولأدعي لنفسه شيئاً . وانما الله هو الذي صنع كل شيء باسم مار برصوم ، وكذلك لأجل محبته لشعبه المستقيم .

أخبار البيعة في هذا الزمان

الغضب الذي عم علينا بسبب خطايانا لم ينج منه دير مارمطي في كورة الموصل ونيوى ، وذلك عندما توفي الأتابك قطب الدين ، وتملك ابنه سيف الدين سنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) بعد هذا تحمس نور الدين حاكم حلب وانتصب قائلاً يجب أن أتولى تدبير أبناء أخي ، فغادر حلب وأخذ يخضع البلاد ، ثم حاصر الدير ، ولما علم الأكراد بمحاصرته للدير فرحوا وأخذوا يعيرون المسيحيين ، ثم قرروا أن يخربوا الدير ، وأخذوا يترصدونه في الليل ليسرقوه ، لكن الرهبان كانوا متأهبين لذلك ، وقد كسروا سلالهم مرات كثيرة ، وذبحوا وقتلوا منهم ، حينئذ اجتمعوا وأتوا غاضبين على الدير وهاجموه لكن لما سمع أهل قرى بلاد نينوى اجتمعوا عاجلاً وصعدوا واسعفوا الرهبان ، وكسروا الأكراد ، فاحتال الأكراد وصنعوا صلحا كذبا مع الرهبان وأعطوهم ثلاثين ديناراً عربون محبة ، وقد صدق الرهبان صلح الأكراد الكاذب ، فصرفوا أهل القرى إلى بيوتهم لكن الأكراد عادوا فاجتمعوا وأتوا ، وكانت هناك صخرة عظيمة في رأس الجبل فزعزعوها ودحرجوها بعنف فضربت السور وأحدثت فيه ثغرة ، فاجتمع الرهبان وأحضروا كلسا وحجرا ليسدوا الموضع ففاجأهم الأكراد وأخذوا يرمونهم ، ثم استلوا سيوفهم وهجموا بصرخة واحدة على الرهبان ، فقتلوا بعضهم وهرب بعضهم الآخر إلى قلعة الدير العالية فنجوا ، وقد قتل في هذه الموقعة متى الراهب ودنحسا الحبيس ، وكان الأكراد ألف وخمسمائة ، ولما استولوا على الدير حملوا على خيلهم كل ما نهبوه لأن الدير كان مخزناً يحفظ فيه كل مقتنى البلد ، وبعد أن مضى الأكراد أخذ الرهبان الكتب وكل ما وجد في القلعة العالية ، ونزلوا إلى الموصل وبقي الدير خالياً من السكان والخدمة ، وكان منظراً حزيناً كثيباً يعيرنا ، وأما أهل البلاد فقد استأجروا جنوداً

- ٢٢١٣ -

ليحرسوا الدير ، لكي لا يهدم الأعداء البنيان ، وكانوا يدفعون لهم في كل شهر ثلاثين ديناراً .

أما حكام الموصل فحين سمعوا بما فعل الأكراد بالدير أرسلوا عسكرياً ، وقتلوا عدداً كبيراً منهم ، وحينئذ خرج الأكراد وخربوا في بلاد الذساطرة خمسة قرى ، وقتلوا سكانها وسبوا البهائم والمقتنيات وأحرقوا البيوت

في هذه السنة ١٤٨٢ يونانية (١١٧١ م) أسلم حسن الراهب والقسيس ابن كميب في ماردين بسبب الخلاف الذي صار بينه وبين أخوته الرهبان ، وقد أخذ العرب ديرهم المدعو دير الأبكار في جبل ماردين وصنعوه مسجداً للأكراد .

وفي تلك السنة ابتداء المطران ديونسيوس المعلم بتجديد بيعة والدته الرب في آمد ، وأقام بها شماساً اسمه إبراهيم كان وكيله ، وقد جمع هذا صبياناً كي يتعلموا القراءة ، وكان هو يتعلم من المطران ويعلم المتعلمين ، وهو أيضاً جدد أرض البيعة بتبرعات جمعها منه ومن باقي المؤمنين .

وفي تلك السنة بنينا البيعة التي في دير أبي غالب في بلاد البيرة نواحي جرجر .

وفي تلك السنة جمعنا مجعاً في دير مار حنانيا ، وارتسم من الأساقفة اغناطيوس لتل أرسانيوس واوانيسيس سييا برك ، وجلب كلاهما من ملطية من دير سرجيسية ومن دير القناة .

يا أيها القراء صلوا على الكاتب الضعيف الخاطي

وفي أيلول سنة ١٤٨٢ يونانية طرد جبرائيل الشيخ رئيس دير مار برصوم رفاقه ، وأتى إلى عندنا إلى دير حنانيا ، فجننا إلى الدير لأجله ، وجاء معنا البار ايانيس مطران كيسوم ، وكان بحالة صحية سيئة ، وقد توفي يوم السبت ٢٤ تشرين في دير مار

برصوم ، وكان هذا علامة في التعاليم الكهنوتية ومتكلما ماهرا
ومعروفا في البيعة .

وبعد شهر ، أي في تشرين الثاني سنة ١٤٨٢ يونانية تزايد
الحزن على شعبنا ، فقد انتقل من بيعتنا نحن المستقيمين المجد
ديونيسيوس ابن الصليبي مطران آمد ، أي يعقوب المعلم المنطقي
وكوكب عصره هذا الذي يليق له أن يكنى بالمجاهد مثل يعقوب
الرهاوي ، لأنه جاهد كثيرا في التعليم ، وجمع وكتب تواريخ
صحيحة ومعتمدة ، وفسر كل كتب الانبياء أي كل العهد
القديم ، وصنع أيضا تفسيرا جديدا للإنجيل والرسائل والرسائل
والرؤيا ، وكذلك لكتب تعاليم غريغوريوس النوسي وكتب
سويريوس ، وكتاب بطرس القلونيقي وحياة ابوجريس
المتوحد ، وصنع كتابا في الجدل ضد كل المذاهب والعقائد التي
تخالف إيماننا المستقيم المجد ، وصنع أيضا كتاب تفسير لمنطق
براهين أرسطاطالوس وغيره ، وصنع كتاب منطق
اللاهوت ، وكتابا على الأزمان وكتاب رسائل ، وكتب أيضا ميامر
وجمع وكتب كتابا عظيما تضمن كل الحان بيعتنا، وقد أغنى البيعة
بكل هذه المؤلفات وأغنى نفسه بحفظ القوانين المقدسة ، وقد كتبنا
مقالة على كل تدابير ومحاسن وشرفه كلها تفي بالغرض وتفهم
القارئ مرتبته العالية ، وقد سجي جسده في بيعة والدته الرب في آمد
في الجانب القبلي عند قبر البطريرك ابن عبسودن وابن
شوشن ، ليرحمه الرب ويغفر لكل من يقرأ ويصلي أيضا على
خطيئتي (٥٢)

وفي سنة ١٤٨٣ يونانية في شهر تموز اخذ العرب بيعة مارتوما في
ماردين ، أما السبب فهو أن شخصا اسمه برصوم من ماردين
ضبط يزني مع امرأة مسلمة ، فأمسكوه وعذبوه لكن نجا من
الموت ، فحكم عليه الوالي حسام الدين أن يأخذ أمواله ومقتناه
ويرحل ، وفي هذا الوقت كان المسيحيون يجددون بنيان بيعة مار
برصوم ، فاحتال بعض العرب وقالوا للوالي : أن برصوم هذا قد

بنى بيعة من ماله الخاص وسماها باسمه ، فأصدر الوالي أمرا بهدمها فهدموها ثم بنوها مسجدا وقد عم الحزن القوي جميع المسيحيين الذي جاهدوا كثيرا ليخلصوا البيعة من الهدم ، لكن عملهم هذا انعكس عليهم سلبا فتجمهر الشعب واشتكى للوالي وحاول المسيحيون ان يقابلوا الوالي ليزيلوا من امامه اللبس الذي صار ، لكنه رفض استقبالهم ، بل غضب عليهم وكان هو في الأصل ناقما على المسيحيين بسبب حسن بن كميب الذي ذكرناه من قبل . الذي كان راهبا وقسيسا وكان له اخوان من رهبان الافرنج ، فاختلفا معهما ، فالتجأ الى المسلمين واعلن اسلامه لكنه مالبث ان هرب الى القدس وعاد فتنصر ، ولما سمع الوالي بذلك أمسك اخوته وجملة من الرهبان غيرهم وقتلهم.

وبهذا الزمان انصب اهتمامنا على كتب دير سيدنا مار برصوم فجددنا الكتب العتيقة بمعونة الله ، وهيأنا ورقا وكتبنا فذهبتين (٥٣) للدير لتذكارة المطران اثنا سيوس اي زكي عمي ، والريان ايليا ابي الجسداني (٥٤) .

وفي هذه السنة ايضا اصلحنا عين الماء التي للدير ، وفي هذه السنة طرد العرب اسقف الجزيرة ، واخذوا الدير بمكاتيب ليست صحيحة وحبسوه في الموصل ، فمضى اهل رعيته الى بغداد واقتدوا الدير بمبلغ كبير ونجا هو ايضا .

وكان في هذا الزمان مجموعة من ارمن الرها مع قسيس يدعى كرابيت وراهبان يدعيان بروك واوسيج يشتمون جاثليقهم كثيرا ، ويتهمونه بأنه يبيع الكهنوت ، فأمرسكهم غاضبا وحلق نقونهم وعند ذلك تزعموا انشقاقا وابتدعوا هرطقة فتبعهم نحو اربعمائة بيت من الارمن وكانوا يدعون اوسيجونيين فاغتاظ الجاثليق جدا ، وارسل رسلا وهدايا الى الحاكم وطلب منه ان يطرد هم من مدينته فقبل الهدايا منه ، وانن للارمن ان يضايقوهم فتوالت عليهم الضربات، عندئذ قدم الاوسيجونيون هدايا للأمير

- ٢٢١٦ -

فأعطاهم أمرا أن يتدبروا كما يريدون ، فتبعوا الخلقيدونيين، وكان
الأرمن كلهم وجماعتنا أيضا ييغضونهم ، لكن لما تضايقوا وجدوا
رجلا إسكندرانيا كان يعرف اللغة العربية وكان داهية ومتكلما
فمضى إلى نور الدين واتهم الجاثليق وبطريقنا والرهاويين بتهم
شتى ، وقال لقد أتى رسل مع رسائل من ملك اليونان إلى الأرمن
والسريان ليسلموه الرها ، وعند ذلك سيق المطران اثناسيوس إلى
حلب ومعه الأرمن وغيرهم من أهل الرها ، لكن لما انفضح الأمر ،
ووجد أن الإسكندراني كاذبا طردوه ، فهرب إلى بلاده ، ورجع أهل
الرها بسلام.

زيارتنا لأمد وموت الجاثليق نرسييس

بعد هذا أتى إلينا قسيسان من الأوسيجونيين ، ومعهم راهب من أتباعهم ليشتكوا على الجاثليق ، فاكتشفنا أنهم يفهمون كلام اثناسيوس وكيرلوس والآخرين بطريقة خاطئة ، وقالوا ان هذين القديسين قد قالوا : ان للمسيح طبيعتين وفي بعض الأوقات طبيعة واحدة .

فأخذنا نشرح لهم قول القديسين من كتبهما ، وحينئذ تخلوا عن غضبهم على القديسين ورجعوا الى استقامة المجد وكتبنا معهم رسائل الى الجاثليق ليغفر لهم ، ولما مضوا وجدوا نرسييس الجاثليق قد توفي في تلك الأيام ، ثم ان هؤلاء الرهبان اتوا وسكنوا في أديرتنا، أما أوسيج رئيسهم فعزى الى انطاكية وصار خليقيديونيا كليا وتبدد الباقي .

وبعد ديونيسيوس ارتسم لأمد إبراهيم تلميذه ، لكنه مالبث ان توفي بعد ثلاثة اشهر ، وأما الحاكم فقد أمسك بالقساوسة ليأخذ المائة دينار الذي فرضها عليهم أبو سعد العاصي ، وكتب إلينا اذا كنا لن نرسل من يعطيه في كل سنة مائة دينار فسوف يخرب البيع ، وعند ذلك سلمت نفسي للرب ، ومضيت الى هناك ، ولما سمع الحاكم اندهش وأكرمنا كثيرا ، وادخلنا بترحاب عظيم ، فوجدنا البيع البهية ممنوع الدخول اليها وقلاية (مقر) البطريك المتوفي قسم منها خرب كليا وقسم حوله الحاكم الى مستودع لقطنه ، وقد تعبنا كثيرا وصرفنا أموالا وأموالا لاصلاحها ، ثم اننا بمعونة الله تعالى اصلحنا ايضا البيعة التي في بير قنقرت (٥٥) وكانت مبنية من اللبن والخشب وشبه مهدمة ، وبقوة الرب اجتهدنا في بنائها بحجر وكلاس.

اما اولاد قربة الذين بالسجن ، وكان يطلب الحاكم منهم الف دينار فقتلنا لهم فباعنا اياهم بثلاثمائة دينار ، فاطلق سراحهم ، ثم مكثنا هناك كل فصل الشتاء ، ولما انتهت الاعياد ورسم ايليا الذي دعي اياونيس لكيسوم ارتحلنا في الاسبوع الثاني للعيد الى ماردين .

لما توفي نرسيس جاثليق الارمن يوم الخميس في اب كان احد اولاد اخيه راهبا ، والآخر اسقفا ، وعندما توفي لم يكن الكبير حاضرا فاعطى خاتمة للصغير وكرزه جاثليقا ، ثم اتى الاخ الاكبر بسرعة لكن الصغير لم يتركه يدخل فالتجأ الى ختته مليح حاكم قيليقية الذي قدمه الى نور الدين ، فأتى ومعه امر من الاتراك فخاف الارمن ان يسلم نور الدين البلدة الى مليح ، فأتى جماعة من الارمن واقتادوا الصغير قسرا الى قلعة الروم ، فربطه ابن عمه ووضعوه في السجن وارسم هو جاثليقا ، وكان ذلك يوم الاحد ٢٥ ايلول سنة ١٤٨٤ يونانية ، وهكذا افتضح امر هؤلاء المسيحيين لان رئاسة كهنوتهم لم تكن بحسب الشرائع والنواميس الالهية ، وانما هي كالمملوك الطفافة ، واما الجاثليق الجديد المدعو كريكوروس فدعا الى رسامته اثنان من مطارنا القريبين منه وهم غريغوريوس مطران كيسوم ، وباسيليوس مطران رعبان ، وقام فأرسل لي رسلا ورسائل فيما بعد قال فيها : كنت ارجب واتمنى ان تحضر وترسمني وتضع يدك على رأسي بدلا من يمين غريغوريوس ، فتبجح الارمن لانها هي تمنحهم رسامة الكهنوت ، لكننا كنا في عجلة من امرنا لان الخطر كان يحيطنا من عساكر الترك فأكملنا لذلك الخدمة .

واما انا فأرسلت له جوابا وشفعته بالبركات والصلوات ، لكنني لم انس ان اتطرق الى القوانين الكنسية الرسولية الخاصة القائمة على المحبة ، ونبهته الى الخطيئة العظيمة التي تدشأ من ابتياع الكهنوت ، الامر الذي هو عند الارمن ناموسي ، ثم أوردت الكلمة التي قالها بطرس العظيم لسيمون الساحر ، فأعجبت جماعة

الأرمن ، وحسنت لهم ، لكنها لدغت رؤساءهم ، ثم توسطت لابن عمه فأخرجه من السجن .

وبهذه السنة كثرت الأمطار في كل مكان وافسدت الأراضي وصارت سيول جارفة اتلفت اثمار الأشجار والكروم ، لكن بعد هذه الأمطار والسيول زرعوا الحنطة وباقي الحبوب فأعطت غلات عظيمة .

وفي هذا الزمان - سنة ١٤٨٦ - حدث ضدي تمرد كبير ، وهذه المرة من اخوتنا لأنني عندما دعيت لهذه الخدمة جاهرت بالقوانين المقدسة ، وحاولت ان أعيد كل شيء الى نصابه ، وأطبق شريعة الآباء ، واتمسك بالنواميس الكنسية التي تحللوا منها في هذا الزمان ، وخاصة الكهنة الذين لم يعودوا يرسموا كاهنا من اية رتبة كانت الا بالرشوى ، فألغيت هذه العادات الرديئة ، وأمرت انه لايجوز لأحد ان يخطف رعية او بيعة ، ليست له أصلا كذلك لايجوز لأحد ان يحتكم الى الملوك والحكام ، او ينتقل من رعية الى أخرى بغير امر ناموسي .

وعند ذلك قام علي مطران دمشق ، ومطران جيحان ، ومطران طور عبيد ، ثم لحقهم في ثورتهم علي مطران قالاينقوس ، دنحسا الذي يدعي ايوانيس .

وكانت الرعية تتمرد عليه منذ زمن البطريرك مار اثناسيوس ، وكانوا يتهمونه باتهامات شتى ، وقد حرمه البطريرك المذكور عدة مرات لكي يتقوم ، كذلك أتى الي هؤلاء المؤمنون وشكوه وعرضوا علي نفس ماكانوا يعرضون علي البطريرك السالف ، بل وزيادة ، وقد حاولت ان أعالج الأمر معه بالحسنى ضمن نطاق العلاقة الأخوية الكهنوتية ، وكنت أحضه على ترك العادات غير الناموسية ، وكان قد أتى الشعب الي مرارا خلال ثماني سنوات ، وفي كل مرة كان يزيد في تعنته ، ثم اجتمع مجمع في دير مارحنينا حيث شهد عدد كبير ضده ، ثم أمر المجمع ان يترك الرعية

ويجلس في الدير الموجود في تخوم ماردين لمدة ثلاث سنوات ، فقبل بهذا القرار أمام المجمع ، لكنه مالبث أن داس الناموس ومضى الى جماعة من الذسامة كانوا رؤساء ومسديرين في بلاد ماردين ، واشتكى علي ، وقد تعبت كثيرا معهم حتى فهموا الحقيقة ، واكتشفوا أعماله، عندئذ طردوه ، فسعى الى الوالي وعرض عليه رشوى كبيرة ان قتلني لكن الرب اشفق علي وعلى بيعته ايضا ، ثم ارسل الوالي جنودا فأخذوني الى الموت ، وعندما اوقفوني امامه تكلم معي بكثير من الفظاظاة والقساوة والغضب لكن الرب الذي قال للمؤمنين انه يعطي في تلك الساعة مايتكلمون به ، وهبني أنا الخاطيء وغير المستحق القدرة على الكلام والدفاع ، فثبت الحق ، وعرف الحاكم الحقيقة فطرده ، ولم يكن معي في ذلك الوقت بعد الله سوى الربان ابو خير ارشيد ياقون ماردين ، فليغفر الله له ، لكن الشيطان عاد الى قلبه وعقله وملاه حنقا علي ، فمضى الى ملك الموصل ، واوغر صدره علي بكلام ووشايات غير صحيحة ، ثم وعده بألف دينار ، حينئذ ارسل جنودا وساقوني الى نصيبين ومضى معي مار اثناسيوس مطران الرها ، ومار يوحنا وعدد كبير من الرهبان ، ولما وصلنا الى المعسكر اخذوني الى نائب الأمير سيف الدين (رئيس المعسكر) فأخذ يتكلم معي بهدوء قائلا انتم تحت حكمنا الآن بأمر الله ، ولا يحق لكم ان ترفضوا أمرا ملكيا ، لكن قبل ان تجلد وتهان عليك ان تنفذ أمر الملك غازي الذي صدر من قبل ، فأمر ان يكون هذا المطران راعيا لشعبكم الموجود في كل المدن التي تحت سلطته والواقعة ما بين النهرين ، قالينيقيوس وحران وسروج وبلاد الخابور رعيه لهذا المطران ، ويجب ان تنفذ هذا وتعود بسلام ، وإلا فستحدث أمور سيئة جدا.

لكن الرب ساعدني وعاضدني فهيأت نفسي للموت ، وقلت له بشجاعة : إن كتب الشرائع ثلاثة هي : توراها العبرانيين ، وانجيل المسيحيين ، وقران المسلمين ، فأرجو ان تفحصوا فيها جيدا ، وخاصة في القران فستجدوا ان الله لم يأمر الملوك ان يدبروا

امور الايمان بالسيف ، لأن الايمان يصير طواعيه وليس بالغصب ، ولأجل هذا كل الخلفاء الراشدين ومن اتى بعدهم من الخلفاء المسلمين حافظوا على الشريعة الالهية ، وحفظوها وصنعوا كما يأمر الله

قد يكون قد وقّع اضطهاد على المسيحيين خلال بعض الفترات ، لكن احدا لم يتدخل او يتسلط على إيماننا ، ولم يطلب منا تغيير او تعديل شرائعنا ، او قوانيننا الدينية ، والآن انتم اذا كنتم تريدون ان تتدخلوا فيما لم يتدخل فيه الخلفاء قبلكم او تغيروا ما لم يغيره ائمة هذه البلاد منذ فجر الاسلام وحتى اليوم ، فاعلموا انكم سوف تصيرون اعداء ليس لي ، بل لموسى ، وعيسى ومحمد (ص) لانكم بهذا قد نقضتم وابطلتم كتبهم الثلاثة.

اي تكونوا قد ابطلتم اوامر الله ، والادهي من ذلك انكم تريدوا ان تعطوا الحق لمن ليس له وتسوغوا وتدعموا كل مارق على الدين وعلى شعبه ، وهذا هو شعب المدن التي قلت عنها موجود اسألوه اليس هو الذي رفضه ونبذه ، واتى الي شاكياء عليه ، لقد اتى يحتمي بالسيف الملكي لأنه صنع الأثم ، وطرد من قبلنا ولم يعد له حق عندنا.

إن امرك لي ان اعيده الى شعبه الذي لفظه طلب مني ان ادوس وانقض وابطل امر الله ، وإنه لاسهل علي ان يقطع رأسي من ان افعل ذلك ، ثم مددت عنقي طالبا قطعه ، حينئذ قام رئيس العسكر ، ودخل الى خيمه الملك ، وبعد وقت طويل خرج وامسك بيدي وادخلني وحدي ، ولم يسمح ان يدخل معي احد لا من المطارنة ولا من الرهبان ، وقد طالت مقابلي معه وكنت أنادي به بالملك فنبهني ذلك الثاني (رئيس العسكر) : قل الملك سيف الدين ، ثم خاطبني الملك قائلا : ايها البطريق لقد امرنا ان تطبق ناموسك ، ولن نسمح لاحد ان يعصي عليك ، فصليت وقبلت النعمة وخرجت وأنا أشكر الرب ، ودموعي تنهمر على وجهي ، وعندما اخبرت المطارنة والرهبان ابتهجوا ، أما ذاك المطران المنبوذ فكان واقفا وحيدا ، ثم

- ٢٢٢٢ -

هجم يريد أن يقتلني ، وصرخ أمام الجميع قائلاً : يا مسلمين اعلموا ان هذا الشيخ أثيم ومضلل ، إنه يسكن تحت حكم العرب وحمايتهم وبالوقت نفسه يستجلب العرب لجعلهم مسيحيين ، ولدي كتاب بخط يده في هذا الخصوص ، ثم أخرج قرطاساً كنت قد كتبت به منذ زمن لأجل ابن كبيب ، وعرضه عليهم ، فلما سمع المسلمون هاجوا واخذوا حجارة ليرجمونني فهرب رهباننا ، لكن الله تحنن علي ففحصوا القرطاس ، ووجدوه يتكلم عن ابن كبيب ، وهياً الباري تعالى في ذلك الوقت عرب من أهل ماردين فشهدوا أن ذاك كان راهباً ، ولم يكن مسلماً ، حينئذ أعطاني الملك سيف الدين كتاباً ورجعنا بالسلام ، أما هو فمضى إلى بغداد ليشتكي علي للخليفة ، ولما سمعت بذلك أرسلت رسائل للمؤمنين الذين يسكنون هناك ، فطردوه فأتى بعد هذا إلينا من أنطاكية وطلب الغفران فصلينا عليه وأرسلناه إلى جبل الرها بانتظار أن نخصص له مكاناً في دير ماربرصوم ، لكنه توفي قبل وصولنا ، ليغفر له الرب أمين.

وفي سنة ١٤٨٦ يونانية قتل مطران طور عبدين اغناطيوس ، وقد كان مهتماً بجمع الدراهم وكان يسعى لها لتحقيق ذلك بكل الوسائل والحيل ، ولما وبخناه لم يخجل منا بل زاد شراً على شر ، واعتمد على العصاة ليساعده في جمع الذهب ، وذات ليلة من ليالي الأحاد ترك كنيسته ومضى إلى السلطان ليشتي كعادته بالرهبان والقسس والعلمانيين ويرميهم في السجن مختلقاً أسباباً وأسباباً ، فالتقى به الأكراد ليلاً ، وعندما فاجأوه هرب الذين معه فضربوه وعذبوه ، وأخيراً دقوا أسفينا من الخشب في أسفله وتركوه وهو يحتضر ، وصدف أن راه بعض عابري الطريق ، فلما أخرجوا الأسفين من أسفله نفقت روحه ، وقبل مدة كانوا قد قتلوا في حاج قرياقوص هو ورجال مؤمنين ، ومرزوق القسيس وأخيه برصوما وأولادهم ، فظن الناس أن هذا المطران الشقي هو الذي أرسل العصاة ليقتلوهم ، لكن لما قتل هو أيضاً عاد فظن الناس أن أهل أولئك أرسلوا القتل طلباً للثأر ، وأن ذلك لم يحدث صدفة.

- ٢٢٢٣ -

وفي هذه السنة تمرد علي الرهبان في دير ماربرصوم ، وسوف
أوضح السبب فيما بعد.

وفي ذلك الزمان حدث في البيعة انشقاق بعد موت ماريوحنا
البطريك ابن شوشن ، فاجتمع المجمع في دير مار برصوم وقبل أن
يقيموا رئيسا طلب الرهبان من الأساقفة استقلالية الدير ، وعدم
جعله تابعا للبطريك ، والسبب في ذلك أنه فيما مضى ، عندما كان
بعض الملوك يتضايقون من البطارقة كانوا يضعون أثقالا وأعباء
مالية على الدير ، وفي بعض الأوقات كان البطارقة يأخذون من
خزانة الدير أواني من الفضة ، وفي أوقات أخرى اقترضوا ذهباً
لكنهم لم يردوه ، فلما أخذ الرهبان قرار استقلالية الدير موقفاً من
المطارنة الذين شاركوا بالمجمع ، لم يقبل به البطارقة الذين اتوا
فيما بعد ، وقال اثناسيوس ويوحنا الذي بعده واثناسيوس
الثاني : إن هذا القرار يجب أن يكون موقفاً من بطريك ذلك الزمان
لأن المطارنة ليس لهم الحق أن يتخذوا مثل هذا القرار ، لذلك
اعتبروا هذا القرار لاغياً وباطلاً لأنه سيكون سبباً للفتنة ، ومن
شأنه أحداث شرخ بين كل بطريك يقوم وبين رهبان الدير ، أما أنا
فلأنني نشأت وعشت في الدير ، فقد أردت أن أمنح الدير معونة فثبت
قرار استقلاليته والزمّت المطارنة أن يضعوا تواقيعهم ظناً مني أن
هذا سوف يبطل الانشقاق والخلاف بين البطارقة الذين يقومون في
البيعة وبين الرهبان الذين يستلمون الدير ، لكن الانشقاق زاد
وصارت فتنة بالدير وانشق الطرفان إلى فريقين متخاصمين.

وعندما بدأ الشغب في الدير أخذنا نعالج الأمور بالمشورة مع
الأساقفة والرهبان ، فقام المؤمنون بالتوسط ليرجع المنقسمون إلى
التوبة ، وأرسل الجميع إلى دير مارحنينا طالبين مني الرجوع
للعمل على الصلح وتسوية الخلافات ، فأتيت معهم إلى أمد حيث
خرج الحاكم واستقبلنا بترحاب وإكرام ، ثم صلينا في البيعة التي
بنيناها هناك ، وكان ذلك يوم الأحد في عيد القديسة بربارة أي يوم
الرابع من كانون الأول ، ثم وصلنا إلى الدير وكنا بحاله تعب

واعيائ شديدين ، وبعد أن تكلمنا كلام سجاملة مع المطارنة ومع
الجمع الموجود اتفقنا على تسوية كل الخلافات ، وكتبنا ذلك ، وبطل
انشقاق البيعة ، وصار صلح وسلام وخرج كل اهل الدير راضين .

وبهذا الزمان كان يوحنا مطران حمص الرجل الفاضل مستنكفا
منذ فترة طويلة عن رعاية الشعب لضعفه وشيخوخته ، وكانوا
يتوسلون اليه أن لا يترك رعيته التي وهبت له من الله أمور
رعايتها ، وكان كلما توسلت اليه رعيته أن يستأنف عمله كان
يعود ، لكن سرعان ما كان يغير رأيه ويرجع الى الدير ، وبقي على
هذه الحالة مدة عشر سنوات ، ثم اشفقنا عليه أنا وكل الأساقفة
الحاضرين ، فرسمنا داوود الراهب من دير مار حنينا لمدينة
حمص ، ودعي ديونسيوس .

ولما ارتسم المطران داوود على حمص توفي بعد ذلك فأتى الينا
زعماء الرعية طالبين الشيخ مار يوحنا ، فرجع الى خدمه .

وبهذا الزمان توفي المطران اثناسيوس اي ابي غالب
المتوحد ، والذي ارتسم بجيخان ، وقد توفي في دير في بلاد جرجر
المدعو دير ابي غالب .

وفي هذه السنة توفي يوحنا اسقف سميساط في دير مار
حنينا ، وكذلك توفي اغناطيوس ايضا مطران جرجر والذي هو
رومانوس مطران تل ارسانيوس بملطيه في بيعه أبويه ، وصارت
رسامة مار اثناسيوس اي الربان صليباً أخانا في دير مار حنينا
في ٩ تشرين الأول يوم الأحد .

في سنة ١٤٩٢ يونانية وقعت فتنة بين السلطان قلاج ارسلان
وبين ختنه نور الدين ، لأنه كان يضطهد ابنة السلطان بسبب عشقه
لزانة شيطانية ، فخرج صلاح الدين حاكم مصر الى نجدة نور
الدين ومحاربة السلطان ، فأمر السلطان بهدم سور كيسوم وسبي
سكانها ، أما نور الدين فقد اتحد مع صلاح الدين على نهر
كوسكو ، وكادت أن تخرب البلاد لولا أن الرب قد اشفق فأرسل

- ٢٢٢٥ -

السلطان رجلا حكيما الى صلاح الدين ، ثم تم الصلح وتوقفت الحرب.

اما السلطان فقد اتى الى ملطيه وجدد سوريها ، واما صلاح الدين فقد رجع الى مصر.

زواج البرنس حاكم انطاكية من احدى الزانيات

في تلك السنة ترك البرنس حاكم انطاكية امراته اليونانية التي تزوجها بحسب الناموس في القسطنطينية ايام الملك منويل وتزوج امرأة زانية ، ولم يابه لقرار بطريك روميه ، اما بطريركهم الذي بانطاكية فقد حرمه وحرّم القسيس الذي عقد زواجه على تلك الزانية ، وحرّم المدينة كلها لأجله فأبطل قرع النواقيس ، وأوقف تناول القرايين والصلوات على الأموات قبل دفنهم ، أما البرنس فقد غضب وقام بنهب كنائس الأفرنج والأديرة ، وبعد مدة اجتمع القضاة وجملة من النبلاء برئاسة بطريك القدس حيث توسطوا مع بطريركهم فأعاد البرنس كل ماخطفه وثبتوا له تلك المرأة واصطلحوا .

وفي تلك السنة عصى امير حران والرها على حاكم الموصل وعاد فاتفق مع صلاح الدين وبوساطة هذا الاتفاق ملك صلاح الدين على منطقة ما بين النهرين ، واتفق مع نور الدين وأما حاكم الموصل وحكام ماردين وأمد والأرمن فاجتمعوا ليقاوموا المصريين ، لكنهم انهزموا بدون حرب أمام صلاح الدين ، فدخل ملك مصر إلى الموصل ، وحل عليها ، لكنه سرعان ما ترك الموصل ربما لأجل المطر الذي كثر عليهم ، أو بسبب آخر ورجع .

أما حاكم ماردين وحاكم سنجار فقد خضعا للسلطان المصري لكن حاكم أمد رفض ، فتوجه صلاح الدين اليه بعد أن وعد نور الدين أنه سوف يأخذ أمد ويوليه عليها ، ووصل اليها يوم أحد الشعانين فحاصرها ، وبعد عدة أيام استولى على الأسوار الخارجي ، حينئذ سلمها ابن نيسان ذلك المسكين ، وخرج منها بطريقة مذلّة ، وملك عليها نور الدين حاكم حصن كيفا ، وكان ذلك سنة ١٤٩٣ يونانية .

في تلك السنة مات سيف الدين حاكم الموصل وأتى من بعده أخوه عز الدين وفي سنة ١٤٩٣ يونانية تدوفي الصالح حاكم حلب ، وأعطيت حلب لعز الدين حاكم الموصل الذي ملك بعد أخيه سيف الدين ، لكن ذاك مالبث أن أعطاها لأخيه وأخذ منه سنجار ليبعدها عنه.

في السنة ١٤٩٢ يونانية أتى السلطان قلعج أرسلان إلى ملطية ، وسأل عني وأرسل لي رساله محبة وود وأرفقها بهدية كانت عبارة عن عكاز (عصا) الرعاية الخاصة بالكهنوت ، وعشرين ديناراً من الذهب الأحمر ، وقد أدهشت هذه المبادرة الطيبة الجميع ، وفي السنة التالية أتى أيضاً وقبل أن يدخل ملطية سمع بالانشقاق الذي صنعه ابن وهبون تادروس ، فأرسل إلي رسلاً ودعاني لمقابلته في ملطية ، ودهشت لأنني رأيت هذا التصرف غريباً عن العادة فخفت للوهلة الأولى أن تكون هذه الدعوة وهذا الأكرام الذي لم نعهده من قبل هو السم في الدسم ، لكنني تسوكت على الله وتوجهت إلى ملطية ، ووصلت إلى مشارفها يوم الخميس ٨ تموز عام ١٤٩٣ يونانية (١١٨٢ م) وقت البكور ، وكانت مفاجئتي كبيرة عندما وجدت السلطان قد خرج مع ثلثه من العسكر للقائنا ، وكان وراءه كل أهله بالمدينة ، ولم يكتف بذلك بل أرسل إلينا رسلاً تقول: إن السلطان قد أمر أن يكون دخول البطريرك إلى المدينة بحسب تقاليد المسيحيين أي محاطاً بالصلبان والأنجيل ، أما المؤمنون فقد حملوا المصابيح التي لا تحصى ، ورفعوا الصلبان على الرماح وأخذوا يرتلون ويسبحون بأصوات جميلة مليئة بالفرح والاعتزاز ، ولما واجهني السلطان لم يدعني أترجل عن ظهر مركوبي لأخذ يمينه ، بل عانقني بذراعيه ، ثم بدأت أتكلم معه بواسطة المترجم ، وكان يستمع إلي باهتمام ووجهه باس ، ولما رأيته أنه يحب أن يسمع أطلت الكلام كثيراً وكنت استشهد دائماً من الكتاب ، ثم مزجنا الكلام بالوعظ الديني والحكم ، حتى كادت أن تجري الدموع من عيني فشكرنا الرب العالي ، كذلك كل المسيحيين شكروا ومجدوا حين رأوا

الصليب في موكب ملوك المسلمين ، وهكذا دخلنا البيعة ، وبعد موعظة تعليمية رفعنا أيدينا بالدعاء للحاكم وللشعب ، وبعد ذلك اليوم أرسل السلطان يبشرنا أنه قد ألغى الخراج الذي كان موضوعا على الدير ، وأعطى أمرا ملكيا مكتوبا بذلك ، لذلك أرسل لنا يوم الأحد عليه من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر والحجارة الكريمة ، وفي داخلها عظام القديس بطرس رأس الرسل وبقينا في ملطية شهرا كان فيه كل يوم يرسل لنا الهدايا ، وقد صارت نقاشات ومناظرات عن المسيح الهنا وعن الأنبياء والرسل ، ولما ارتحل السلطان من ملطية خرجنا معه بناء على طلبه ، وفي الطريق كان هناك كلام طويل عن الكتاب بيني وبين فيلسوفه كمال الدين وهو رجل فارسي منطقي ، فمدح حكمه السرياني ، وفرح السلطان كذلك ، وكل ذلك صار ليس لكوننا مستحقين هذا ، بل لأننا نمثل الشعب ، فقد أراد الله أن يعز هذه الأقلية الصغيرة والبيعة التي ضعفت بتناول ابن وهبون ، لكن الله لم يشأ أن يطيل فرحتنا فقد احترق دير سيدنا ماربرصوم ، وكان ذلك يوم السبت ٣٠ تموز سنة ١٤٩٤ يونانية ، أما الحادث فكان بسبب أحد الرهبان فقد نسي هذا الراهب واسمه دنحا ، وكان شيخا كبيرا شمعته مشتعلة ، ومضى للكرم فالتهمت النار كل شيء ، خاصة أن الدير كان من الخشب من سقفه إلى أساساته ، بل كانت الأبنية ملتصقة ببعضها بعضا ، وقد حدث هذا عندما كنا في الصلاة فسارعنا عندما سمعنا الصراخ إلى خزانة القديس ، وأخرجنا الصندوق الذي به يمين القديس مار برصوم وعظام القديس بطرس ، وخرجنا تاركين كل شيء للنار التي التهمت بشراة القلالي وبيوت الجميع ، وبيوت الرهبان والمبتدئين ، وكل ما بها وامتدت إلى الهيكل العتيق وأكلت الكتب وأواني الفضة والنحاس وذاب الحديد من شدتها ، وتحولت الحجارة إلى كلس ، وحتى أبواب الدير الحديدية احترقت وسقطت الأسوار ، ونقول باختصار إنه لم ينج شيء أبدا إلا البيعة الجديدة التي بنيت من قريب وبرج الدير العالي ومغارة الفرن والبواب الخارجي المدعو باب جرجر ، أما ما تبقى فقد تحول إلى رماد ويوم

الأحد سقطت إحدى القناطر وقتل بها صبي من بلاد جرجر كان قد أتى على صوت الناجين ، وقد رأينا ثلاث عجائب أولها بأنه لم يتأذى أحد قط من أهل الدير سواء كان من الرهبان أو من المبتدئين ، وكانوا يغامرون ضمن النار لينقذوا شيئاً من مقتنياتهم ، وتشبه هذه العجيبة قصة القديس الذي سأل الله أن ينزل البرد ، فأنزله وأفسد الكروم ، لكن كرم المؤمنين لم يفسد ، والعجيبة الثانية أن قبة الخشب الموضوع بها عظام القديسين كانت داخل الخزانة ، فبقيت ولم تحترق ، وهذه أشبه بأعجوبة الفتية الثلاثة الذين حفظوا في أتون النار بغير ضرر لأن روح الله كانت معهم .

أما الأعجوبة الثالثة فهي احتراق كتب كثيرة لم يكن يقرأها أحد أو حتى يفتحها ، فاحترقت بالنار وكأنها زائدة ، أما الكتب التي كانت تقرأ باستمرار فقد حفظت بالرغم من النار ، وهذه الكتب كانت أناجيل تقرأ على مدار السنة نحن رتبناها ووضعناها ، وقد بقيت سالمة ولم تحترق ، وقد بقينا في البرج نحن الرهبان مدة شهر حتى هدا الغضب ، وحينئذ بدأنا بالبنيان ، وخلال ثلاث سنوات بنينا كامل الدير ، وكان أجمل مما كان ، أما البيعة فقد استغرق بناؤها اثني عشر عاماً ، شكراً للرب الذي أتمها .

بعد أن رجعنا إلى ملطية مضى السلطان قلج أرسلان إلى بلاد الروم وملك على اثنتين وسبعين قلعة من قلاع اليونانيين وكتب إلي الرسالة التالية :

من قلج أرسلان العظيم سلطان كيبوكية وسورية وأرمينية .
إلى فلان البطريك محب مملكتنا ، والداعي لنا بالنجاح الجالس في دير مار برصوم والمطمئن في شرف مملكتنا نعلمه أنه بصلواته وهب الله العظمة لنا .

لما خرج من فيلادلفيه المجيدة ، وأتى إلينا ابن أكوماك الرومي وأولاده ، وسجد قدام كرسي مملكتنا طاعة لنا أرسلنا معه أربعين

- ٢٢٣٠ -

ألفا ، ولما علم الأعداء اجتمعوا بالمدينة الكبيرة ألوفاء وعشرات ألوف وأتوا إلنا وحدثت معركة قتلناهم فيها ، ولن يستطيعوا أن يتعافوا من هذه الضربة لفترة طويلة ، وقد استولى عسكرنا على قلعة بيايف الكبيرة ، ثم أخذوا جميع البلاد حتى ساحل البحر ، وقد خضعت كل هذه المناطق لنا وطبقنا عليها شرائعنا وقوانيننا ، وهذه الأرض لم تكن من قبل للترك لكننا نعلم أن بوساطة صلاتك أعطانا الله تعالى هذا الانتصار ، وإننا نطلب أن تتابع صلاتك لأجل مملكتنا ، عافاك الله (٥٦) .

وبعد هذا كانت تأتيني عدة رسائل من السلطان من وقت لآخر .

أخبار أندرونيقوس اليوناني

في سنة ١٤٩٤ يونانية ملك على اليونانيين أندرونيقوس الذي كان قد طرده منويل ، وكان هذا قد عاد إلى القسطنطينية فتظاهر بالطاعة للصبي ، لكنه مالبث أن رمى امرأة منويل وابنتها وصهرها في البحر ، ثم قتل الفتى الكسي سرا ، وقتل أكثر من ألف من الزعماء حرقا بالنار ، وسمل عيون عدد كبير غيرهم ، بعد أن سبى مقتنياتهم، ثم تزوج هذا الشيخ الدنس قسرا امرأة الصبي الكسي ، وارتكب كثيرا من الفظائع ، ثم طرد الأفرنج من العاصمة لأنهم كانوا يساعدون الصبي الكسي كونه كان ابن أفرنجية ، لكن هؤلاء لما طردوا من بيوتهم أحرقوا أربعة عشر ألف من بيده وقرى بلاد اليونان ونزلوا إلى رومية ، وأحضروا عساكر من الأفرنج ، كذلك أتى ملك صقلية فاستولوا على مدن كثيرة من سورية كانت تحت حكم اليونانيين ، فخربوها وهدموها وأحرقوها وأخلوها من السكان .

في هذا الزمان أتى ثلاثة أخوة إلى السلطان أخذوا عساكر من الترك ومضوا وملكوا على فيلادلفية ، لكن بعد مدة أتى عليهم أندرونيقوس الطاغى فقتل أحدهم ، وهرب الاثنان من وجهه ، لكن أحدهم واسمه ايسوفيوس (اسحاق) أتى وقتل أندرونيقوس .

في نيسان من عام ١٤٩٦ يونانية خرج صلاح الدين من مصر فاجتمع إليه نور الدين وباقي أمراء مابين النهرين ، وحدثت حرب استعملت فيها المنجنيقات وكل أنواع الأسلحة ، لكن الترك لم يستطيعوا أن يصمدوا أمام الأفرنج فهربوا ، وحينئذ توجه الأفرنج لبناء القلعة وتحصينها فاستغل الأتراك انشغال الأفرنج فسبوا السامرة ونواحيها ، وقتلوا العديد ، لكن الأفرنج لحقوا بهم فخلصوا الأسرى .

- ٢٢٣٢ -

في عام ١٤٩٦ يونانية اشتد داء الجذام على بلدوين ملك القدس فأعطى الملكة لابن أخته وكان صبيا اسمه بلدوين أيضا ، ولما تملك هذا توفي الملك المريض بعد سنة .

وفي هذه السنة مضى صلاح الدين أيضا إلى الموصل ولما لم يستطع أن يملكها رجع وحل على ميافارقين ، وبعد حروب كثيرة اشتراها بالذهب وملك عليها ، ثم عاد إلى الموصل ، وبعد مفاوضات كثيرة ووساطات بينهم اتفقوا أن يكون حكام الموصل تحت طاعته مثل حاكم ماردين وحصن كيفا واصطلحوا .

وبعد موت قطب الدين حاكم ماردين مات أيضا نور الدين حاكم حصن كيفا في آمد ، وقد حدث موته فجأة لأنه أخذ من البيعة أعمدة رخامية وأدخلها لداره ، فضربه الله بغضبه ، وملك بعده ابنه قطب الدين الصبي .

أما في ماردين فقد أقاموا صبيا يدعى حسام الدين واثنان هما من أبناء الجواري ، فأما أخو الأمير نور الدين المدعو عماد الدين والذي أحدث ضجة بعد موت أخيه أخذ قلعة زياد .

بعد هذا مات أيضا حاكم الأرمن ، أمير شاه أرمن ، وكان شيخا لم يكن من أسرته من يملك بعده فتوجه مسرعا أحد عبيده واسمه بكتمر ليملك ، وبينما كان يعبر أمام جبل ساسون تعرض له ابن أخت جاثليق الأرمن الذي خرج من قلعة الروم ، فأمسك ببكتمر هذا وأقسم له وأعطاه قلاع أبيه بيكين

وبهذا الزمان - ١٤٨٧ - ارتسم مطران لشبختان اسطفانوس وارتسم بسيليوس لكورة جرجر وبسيليوس لقالنيقوس ، ويوم أحد تكريس البيعة احترقت كنيسة مار يوحنا بالرما ، فقد كانت منذ زمن مهجورة وخالية بغير كهنة يخدمون بها ، وكان الحكام يضعون فيها قطنا ، وقد عشنش الحمام في سقوفها العالية ، وفي إحدى الليالي ترك الحراس المكان ، فاشتعل وأحرق الطوابق العليا ثم أتت

- ٢٢٣٣ -

النار على كل شيء وحتى الأحجار وقد سقط منها اثنان وثلاثون عمودا من الرخام وأصبحت خرابا .

أما البيع التي خربت أيام العرب فهي : البيعة الكبيرة هذه ، وبيعة الرسل ، وبيعة مار توما ، وبيعة مار ميخائيل ، وبيعة مار توما أي بيعة المنديل ، وبيعة مار جرجيس وبيعة المخلص (أبجر) وبيعة والددة الرب المعلمة ، وبيعتين أيضا لوالده الرب ، وبيعة الأربعين شهيد ، وبيعة أخرى للأربعين شهيد كبيرة ، وبيعة المعترفين التي في باب الساعات ، وبيعة اسطفانوس ، وبيعة تاودوروس التي أمام القلعة .

وفي هذه السنة اصطلح فرينز حاكم أنطاكية مع صلاح الدين وتعهدا أن لايعودا إلى الحرب ، فاحتال ظلما وأمسك روفين حاكم قيليقية ووضع بالسجن بعد أن كبله بالحديد ، ودخل إلى قيليقية وبقي كل الصيف يقاتل ولم يقدر أن يملك على أي موضع قط ، لأنه قام مكان روفين أخوه لاون وحفظ بلادهم بحكمته فرجع بالخزي أخيرا ، وأخيرا أعطى الأرمن للفرنج ثلاثين ألف دينار والمصيصة وأذنة وأماكن أخرى أيضا ، وخرج روفين من الحبس ، وبعد أن نجا روفين تمرد على فرينز فنهب وأفسد كل بلاد قيليقية .

وفي نيسان سنة ١٤٩٧ يونانية أتينا من دير مار حنينا إلى دير مار برصوم وبرحمة الله ونعمه القديس سيدنا مار برصوم رمننا الخراب الذي حل بأساساتها التي كنا قد بنيناها منذ سبع سنوات ، وكنا قد وقعنا في مشاكل كثيرة منذ ذلك التاريخ ، وقد تعب معنا كثيرون في هذا الترميم .

وفي هذا الزمان أخذ الأمير حاكم الرها بأمر حاكم مصر بلاد شبختان من حاكم ماردين ، فخرج هذا وتحارب مع شعب الرها وانكسر ، وبعد هذا أتى صلاح الدين ليملك على ماردين ، ولما لم يقدروا أن يأخذوه بالخدعة جعلهم تحت طاعته ، كما كانوا في عبوديتهم .

- ٢٢٣٤ -

وبعد هذا ايضا نزل صلاح الدين على الموصل واستولى عليها ، لكنه مرض مرضا صعبا حيث قضى كل فترة الشتاء في الخيام مع عساكره الذين هم ايضا أصيبوا بالمرض ، وقد شاع خبر أن صلاح الدين قد توفي ، غير أنه لما تعافى أمسك بحاكم الرها ، لكنه مالبث أن أعاده واصطلحا .

الصراع بين أندرونيقوس واسحق

في أيلول يوم عيد الصليب سنة ١٤٩٦ يونانية تحفز أندرونيقوس ملك اليونانيين ليقول ايسيقوس (اسحق) لأنه كان الوحيد الذي بقي من أسرة منويل على قيد الحياة بعد فتكه بكل سلالته ، فعلم ايسيقوس بذلك فلبس درعه وامتشق سيفه وتحصن ببيته ، فارسل أندرونيقوس رئيس جيشه ليأتي به فلما نظره أتيا بحرق ، وعلم أنه سيموت لامحالة تشجع واستل سيفه وضرب رئيس الجيش فقتله ، ثم ركب فرسه سريعا وهرب للبيعة الكبيرة وسيفه بيده مخضبا بالدم ، وكان يصرخ ويولول ، فاجتمع عشرات الألوف من الناس ، ولما وصل الى البيعة سلم كل الرؤوساء الذين كانوا يشكون بالمنافق وينبذون فعلته الشنيعة التي قتل فيها كل سلالة منويل سلموا أن يصير ملكا لهم ايسيقوس سليل الملوك ، وألزموا بطريركهم أن يرسمه ، ولما فعلوا ذلك في البيعة سمع أندرونيقوس فخرج من الأبواب ليهرب الى البحر فلحقوه في السفينة وأرجعوه وقطعوا جسمه بالسكاكين وهو حي ، ثم وزعوا لحمه من واحد الى واحد ، وأخيرا جمعوا لحمه وأحرقوه وسط الحشود .

وبهذا الزمان توفي اغناطيوس مطران القدس ، وقد تولى هذا رئاسة الكهنوت فيها مدة خمس وأربعين سنة ، وفي تشرين الثاني سنة ١٤٩٦ يونانية أرسل المطران أثناسيوس أخى مطرانا على القدس ، وقد قام عليه رهبانها بالاتفاق مع المطران تداروس بن وهبون (اريوس الثاني) وبقي يجاهد ضدهم حتى هلك ابن وهبون .

وفرغ بهذا الزمان - ١٤٩٦ يونانية - كريكور جاثليق الأرمن فرحا كبيرا جدا بدافع الحسد والشماتة لما سمع تفاصيل أخبار احتراق دير مار برصوم ، وأخذ يشيع أن القديس مار برصوم قد

- ٢٢٣٦ -

طار من الدير وأتى إليه معتقدا أنه يمثل هذا الهنزيان يشهر نفسه ، لكن الله مالبث أن انتقم منه لأنه حالما خرج من قلعة الروم ليمضي الى طرسوس تمرد عليه ابن اخته شاهنشاه ، واتفق مع الترك وحاول أن يعطيهم القلعة ، لكن الجاثليق لما سمع قفل راجعا بسرعة وجمع بعض الجنود ، وهاجم القلعة وقد وقع العديد من القتلى من رجال الجاثليق ورجع يجر أنيال الخيبة والافخاق الى بير توبش عند كيسوم ، واعترف أمام الجمع أن مار برصوم أبه ، ثم عاد ووعد أمام البار وايوانيس مطران كيسوم بالتوبة ، أما ابن اخته فقد تشرد وأخذ يتجول من مكان الى آخر وأخيرا أقسم على الطاعة ، فأتى الى الجاثليق وأعلن ولاءه فاصطلحا .

اجتماع الكواكب السيارة في مكان واحد

الاصحاح الرابع حول الزمان الذي تنبأ به المنجمون بأنه سيصير طوفان مثل طوفان نوح لكنهم كذبوا ، وحول باقي أنواع الأحداث التي وقعت بهذا الزمان والله المستعان .

في ١٤ أيلول في سنة ١٤٩٧ يونانية وقع أمر يستحق أن يحفظ بذاكرة الاجيال ، فقد اجتمع في ايلول سبعة كواكب سيارة كلها في برج الميزان ، وهذه الكواكب هي الشمس ، والقمر ، وزحل ، والمشتري ، والمريخ وعطارد ، والزهرة ، وكان قد قال المنجمون أنه لم تجتمع سبعة كواكب في برج الحوت الا وصار طوفان كالطوفان الذي حدث ايام نوح ، أما وقد اجتمعوا في برج الميزان فقد تنبأوا أنه ستحدث ريح صرصر تهلك الناس والبهائم والطيور ، وقد قال بهذه النبوءة الكاتبة ألوف من الناس وربما أكثر ، وقد ذاع هذا الخبر بالشرق ومصر والهند ، وقد كتب لي المؤمنون من سجستان طالبين الصلاة لأجل نجاتهم ، وقد اعتقد بهذا اليهود والمسلمون والحنفاء الصابئة وعدد كبير من المسيحيين ، كذلك قالوا : ان الشمس ستكسف في هذا اليوم ، وسوف ترتج الأرض ويظهر كوكبان مننبان ، وقد صدق العديد من الملوك والرؤساء هذه الادعاءات فخرنوا القسوت والمشرب ، كذلك هاجرت أعداد كبيرة الى بلاد أخرى وسكنت أعداد أخرى كبيرة بالمغاور والشقوق للصلاة والصيام ، أما الحنفاء واليهود والمشتغلون بالتنجيم وقراءة الأبراج فكانوا يسخرون من المسيحيين عندما كانوا ينظرون اليهم يصلون ، وكانوا يجدفون قائلين حتى الله لايسطيع أن يغير أو يبطل هذا الأمر الذي سيصير ، أما الذين كانوا يأتون إلي مستفسرين فكنت

اجيبهم « لاتسقط شعرة من رأسك الا بأذن ابيك الذي في السماء ، كما هو مكتوب ، وإن المنجمين يكذبون حتى لو كانوا يقرأون في الكتب » وكان بعض الناس يقول لي : ان المنجمين يستقرئون الطبيعة ؟ فقلت : اذا كان طوفان نوح قد حدث عند اجتماع الكواكب في برج الحوت كما يدعي المنجمون ، فلماذا لم يعرف ذلك عبدة الكواكب في تلك الزمان ، ولماذا لم يعرف سوى نوح وحده فقط ؟ لكن الناس كانوا يعيشون بشكل عام في حالة هلع وخوف ، وعندما بنا اليوم الذي كان قد حدده المنجمون أخذ الناس منذ الليل يركضون الى المغاور للاختباء ، وصارت البلد في حالة من الهيجان كأنها وكر من النمل قد هدم ، لكن ماكاد الصباح يأتي حتى أشرقت الشمس وكانت دافئة جميلة ممتعة ، ثم أتى النسيم العليل وكانت الطبيعة تبدو في تلك اليوم خاصة جميلة وبهية جدا ، وللحال مجد الناس الله تعالى ، أما الملوك فقد احتقروا المنجمين وطردوهم من مجالسهم .

الصراع بين التركمان والأكراد وحوادث أخرى

وفي سنة ١٤٩٦ يونانية أبتدأت الحرب بين شعبي التركمان والأكراد وبقيت ثمان سنوات يتقاتلون فيها ويقتتلوا في أرمينية وفي اثور وبين النهرين وفي سورية وكتبوكية .

أما سبب بدء هذا القتال فهو : كان التركمان يسكنون الخيام ، وفي الشتاء كانوا ينزلون الى البلاد الواقعة قبلي سورية حيث لاينزل ثلج ، ولايصير جليد ، وكذلك يوجد مرعى ، وكانوا في زمان الربيع يصعدون ثانية الى ناحية الشمال حتى يوجد مرعى لدوابهم ، وفي صعودهم ونزولهم كانت تمتلئ الطرقات بهم ، وهم يحملون مقتنياتهم ، وكان الأكراد يمتنون السرقة في كل مكان ، فأخذوا يسرقون أغنامهم وقطعانهم وبقرهم وجمالهم ، وفي بعض الأوقات كانوا يقتلون بشرا منهم ، حينئذ ابتدأ التركمان يجمعون قطعانهم عند ترحالهم ، وحدث أن أمسك التركمان في بلاد شبختان عند حدود ماردين مائتين من اللصوص الأكراد كانوا كامنين للسرقة ، فقتلوهم كلهم ، حينئذ اجتمع عشرة آلاف كردي ، واجتمع اكثر منهم من التركمان واشتبكوا في حرب طاحنة قتل فيها نحو عشرة آلاف من الجانبين ، لكن الحرب عانت فاشتعلت على شكل أقوى عندما اجتمع ثلاثون ألفا من الأكراد من بلاد نصيبين وطور عبيد ، واجتمع بالمقابل التركمان من بلاد الخابور ، لكن الأكراد سرعان ما انكسروا وامتد قتلاهم من شاطئ نهر الخابور الى نصيبين .

بعد هذا عاد فاشتبك الأكراد مع التركمان في بلاد الموصل مرتان فانكسر الأكراد ، وهربوا من أمام التركمان ، ودخلوا الجبال عند حدود قيليقية ووصلوا الى حدود الأرمن ، وهناك أخذوا يختبئون بين بهائمهم ، لكن التركمان أتوا عليهم وقتلوهم كلهم رجالا ونساء

- ٢٢٤٠ -

وأطفالا ، وأخذوا أموالهم ، وأبأوا الأكراد من كل سورية وبين
النهرين ، لأن التركمان كانوا يبحثون جماعات جماعات في البقاع
والجبال ، وحيث ما وجدوا الأكراد كانوا يقتلونهم بغير رحمة وبلا
سبب .

وفي السنين الأولى لم يكونوا يؤنون المسيحيين ، لكن أخيرا بدأ
التركمان يقتلون المسيحيين لسببين : أولهما أن الأكراد عندما كانوا
يهربون كانوا يخفون أموالهم في قرى المسيحيين فاكتشف التركمان
ذلك .

ثانيا لما كان الأكراد ينهبون قوافل التركمان لم يمنعهم الحكام
الأرمن ، لذلك هاجموا شعوب أرمينية الكبيرة ، وسبوا
الأرمن ، وأخذوا ستة وعشرين ألفا منهم وباعوهم
عبيدا ، وأحرقوا القرى ودير كراييد الكبير ، وقتلوا كل الرهبان
الموجودين به ، ونهبوا الكتب وكل مقتنياته .

وفي هذا الزمان أخذوا حربا قلعة تل عرب (٥٧) في بلاد شبختان
واستعبوا شعبها وباعوه .

وفي هذا الزمان قتلوا في تل بسما (٥٨) مائة وسبعين رجلا
سريانيا ، كذلك قتل عدد كبير من الشباب ، ولما رأى الحكام أن
بلادهم قد خربت وأن القرى قد هجرت بدأ كل واحد يحارب
التركمان في بلده ، فعم القتال كل بلاد كبدوكية وملطية .

وفي هذا الزمان دخل التركمان الى بلاد قلوذية ، فقاتلهم الحاكم
وقتل في قرية أمرون في البلاد نحو مائتين صبي ، وإن اللسان
لايستطيع أن يصف ما صار في تلك السنوات الثماني ، إذ من شرارة
صغيرة عم الخراب والقتل في كل مكان .

في هذه الأيام كان في قبرص جزيرة اليونانيين حاكم يوناني اسمه
قومنه تمرد على ملك القسطنطينية وجمع أساقفة اليونانيين وأمرهم

ان يرسموا لهم بطريكاً ، فصنعوا كما أمرهم ، ثم قام هذا البطريك فنصب قومه هذا ملكاً ، وكانوا ينادون به في قبرص ملكاً ، وصار هو والبطريك أضداداً للذين في القسطنطينية الى فترة خروج الافرنج من رومية حيث اتى ملك انجلترا وتملك على قبرص وحبس بقلعة قرب انطاكية ، اما البطريك الذي نصبه في قبرص فقد مات وانتهت عقيدتهم الباطلة ، وبعد هذا اعطى ملك انجلترا جزيرة قبرص للرهبان الداوية ، لكن لما ارتحل الملك الفرنجي عاد اليونانيون الى الظهور فاجتمعوا بعشرات الالوف على الحامية الافرنجية التي بقيت في قبرص ، وحاولوا ان يقتلوا الافرنج ويملكوا مكانهم ، ولما اشتعلت الحرب هزم اليونانيون ، لكن الافرنج بعد هذه الحادثة اقاموا في قبرص ملكاً ، وكان هذا من قبل ملكا للقدس .

في سنة ١٤٩٨ يونانية يوم الجمعة ٤ ايلول خسفت الشمس لمدة ثماني ساعات ، وظهرت الكواكب في السماء .

في سنة ١٤٩٨ يونانية اتى إليّ مار يوحنا المفيريان ، وطلب ان يترك الرعاية فرفضت طلبه ، لكنه ترك رعيته ومضى لدير مار يعقوب في جبل الرها ، ثم ما لبث ان ندم وعاد إليّ فأخذ مني تفويضاً وعاد إلى رعيته ، وكان ذات ليلة ينام على سطح البيعة فوق ومات وبفن في دير مار متى ، ثم كتب إليّ اهل تكريت لارسم لهم رئيساً للأساقفة وأعلموني ان عندهم رجل لا يحبونه يكنى ابن تمسح يقاتل ليأخذ هذا المنصب ، ويؤيده أناس فاسدون مثله ، وطلبوا منا الا نقبل قط ابن تمسح صاحب الافعال النجسة المنتنة ، ثم ارتسم الربان يعقوب ابن أخي ، وابني الروحاني بطريفة ناموسية ، وكان ذلك في دير مار ديميط بنواحي ماردين ، يوم الأحد أول دخول الصوم سنة ١٥٠٠ يونانية ، وسمي غريغوريوس رئيس أساقفة المشرق .

في هذا الزمان توفي مار مرقص بطريك الاسكندرية ومصر ، وقد خدم البطركية ثلاثاً وعشرون سنة ، وكان ذلك في كانون الثاني وارتسم مكانه البابا مار ايواينس .

فتح بيت المقدس

في سنة ١٤٩٨ يونانية (١١٨٧ م) جمع السلطان صلاح الدين جيشا من مصر وبلاد العرب وسورية واثور واستعد ليقابل الافرنج ، وفي يوم السبت ٤ تموز اعتقل ملك القدس وكل قواده وحاشيته بعد معركة طاحنة حدثت عند طبرية ، اما قمص طرابلس فقد رفض الاشتراك في المعركة ، وهرب إلى بلده ، وقد قال بعضهم : إنه كان يرغب أن يكون ملكا ، لكن الافرنج رفضوا ذلك . اما انا فأقول إن انكسارهم صار بإرادة الله لأنه لايسقط عصفور في الفخ بدون ارادته .

اما صلاح الدين فقد قتل بيده ارناط الشيخ ومائة من الرهبان الداوية ، واستحم بدمائهم ، ثم خرب طبرية وقتل كل ما بها ، ومضى إلى عكا فهرب الزعماء كافة باتجاه البحر وبقي فيها الشعب المسكين فسلموها لصلاح الدين ، وطلبوا الأمان ، ثم توجه إلى قيسارية ويافا والسامرة والناصرية ، وامتلات الدنيا بالأسرى ، ومن الصعب أن يصف الإنسان ما احتمله النصاري من الهزء والسخرية والازدراء في دمشق وحلب والرها وأمد وماردين والموصل وبقية أصقاع بلاد العرب .

وفي تشرين الأول عام ١٤٩٩ أعطى صلاح الدين الفرنج الذين في عسقلان عهدا واعتق الملك الذي كان معتقلا عنده فسلموه المدينة ، ثم صعد إلى القدس وحاصرها وخرب جزءا في سورها في ناحية الشمال الشرقي ، فأرسل الافرنج يطلبون الصلح ، وتم الاتفاق أن يعطوه عن كل شخص عشرة دنانير يخرج سالما ، فخرج منها من استطاع أن يدفع وكانوا الوفا وعشرات الألوف يبكون وينوحون ، أما الذين لم يستطيعوا أن يدفعوا فسيقوا عبيدا ، وقد اعتق صلاح الدين عشرين ألفا من الرجال والنساء ، وأربعة آلاف من الشيوخ

والعجائز ووزع ستة الاف على عساكره ليكونوا عبيدا لهم ، وارسل خمسة الاف إلى مصر ليعملوا ببناء الأسوار ، وترك خمسة الاف في القدس ، لأجل بناء السور والمسجد الأقصى الذي يدعونه قبة الصخرة ، وكان قد بناء العرب حين قدومهم إلى القدس ، واقرؤا أن لا يدوسه مسيحي ، كذلك اعطوا كنيسة القيامة للمسيحيين ، وكان يلتزم إليها المسيحيون الذين بقوا عبيدا ويصلون ويبكون .

وحينئذ بعد صلاح الدين إلى مدينة صور الداخلة إلى قلب البحر ، وهدف في تلك الأيام أن أتى من رومية كونت اسمه كونراد ليصلي في القدس ولم يكن يعلم بما جرى ، وقد قام بتقوية الشعب ، وببث الروح المعنوية ، فتبعه الشعب واحتفظ بالمدينة ، ولم يستطع صلاح الدين أن يقهرها ، فتركها ومضى قاصدا صيدا وببيروت وجبيل وتبنين .

وفي سنة ١٥٠٠ أخذ صلاح الدين قلعتي الكرك والشوبك على ساحل البحر الأحمر ، والذي لأجلها صار حربه مع الافرنج .

وفي هذه السنة دخل صلاح الدين إلى ناحية أنطاكية وأخذ بالحرب اللانقية وجبله وقلعة صهيون وشفر بكاس ودرباسال وبغراس .

وفي هذه السنة أيضا صار نزاع في بلاد كبدوكيه بين الابن الأكبر للسلطان قلع أرسلان أمير سبيسطيه وبين اختيار الدين الحسن حاجب والده والذي استطاع أن يقلب السلطان على ابنه ، وقد احتشدوا للقتال في بلاد قيسارية ، وصارت معركة قتل فيها أربعة الاف من التركمان الذين ناصروا الابن ، ففرق الذين اجتمعوا مع ابنه ورجع هو أيضا إلى سبيسطيه ، وبعد ذلك أخذ الأمير بهر شاه أمرا من السلطان فأمره وزيره اختيار الدين الحسن ، وصادر كل مقتناه وأرسله مع ابنه وعبيده إلى سبيسطيه ، لكن في الطريق هجم عليه التركمان وكان قد أرسلهم ابن السلطان ، فقتلوا اختيار الدين الحسن ، وقتلوا أولاده وعبيده وقطعوه قطعاً قطعاً ، وعلقوه على

رؤوس الرماح وأدخلوه إلى سبسطيه ، وكان ذلك يوم عيد الصليب .

في سنة ١٥٠٠ يونانية سمع هؤلاء الأشقياء أهل شبيعة المنافق ابن تمسح فقدموا للحاكم مائة قطعة من الذهب الأحمر ، وأخذوا أمرا منه بأن يفرض بحد السيف ابن تمسح ، لكن الشعب المؤمن رفضه لأنه وضع خلافا لنواميسنا وشرائعنا ، ثم أخذ يرتكب المعاصي والفواحش التي يجب أن لا نكتبها هنا ، لكن علينا أن نشير أن ابن تمسح هذا اتفق مع ابن وهبون ، واتي كلاهما إلى ماردين فكرزوا ابن وهبون بطيركا وابن تمسح بفريانا (رئيس اساقفة) وأعطيا السلطان ألفي دينار ، وأخذوا أمرا من الحاكم وصارا يدوران مع الجنود على القرى ويأخذان الأرزاق من الشعب ، حينئذ ثار أهل رعية ماردين وأخذوا أمرا بطردهما من البلاد ، فعادا إلى الموصل لكن أهل البلاد هناك ما لبثوا أن طردوا ابن وهبون أولا ، ثم أمسكوا المنافق ابن تمسح وخلعوا عنه ثياب الكهنوت ، ونزعوا عنه كل رتبة ، ثم أرسلوا اساقفة وقسيسا ورهبانا رجالا اشرافا أخذوا مار غريغوريوس المفران القديس من نصيبين ، ودخلوا معه إلى الموصل ، فقبله الحاكم وعامة الشعب بنعمة الله الذي أصلح بيته ورتبه .

في سنة ١٥٠١ يونانية وقع كثير من الظلم على اساقفتنا فأرسلنا إلى السلطان صلاح الدين جبرائيل رئيس الدير ، وإلى اسقف الافرنج بشأن تمرد ابن تمسح ، ولما وصلوا إلى دمشق وقبل أن يصلوا إلى السلطان في عكا أمسكهم بعض الجواسيس ووضعهم في السجن وأخذوا كل ما معهم ، لكن الرب أشفق عليهم فنجوا بواسطة مظفر الدين بن زين الدين أمير الرها ، وأحضروا من السلطان كتابا قويا واضحا ، ورجعوا فرحين بصلوات سيدنا مار برصوم .

في سنة ١٥٠٢ يونانية مات حاكم إربيل ابن زين الدين فترك أخوه حاكم الرها ، الرها وحران وسميساط ومضى وملك إربيل ونجح هناك وملك .

أما صلاح الدين فقد أعطى هذه البلاد لابن أخيه تقي الدين ، وكانوا يسموه سلطانا أيضا ، وكان رجلا قاسيا شريرا يبغض المسيحيين والعرب سويه ، وقد زاد ثقل الخراج والضرائب على المسيحيين وعلى المسلمين ، واحتال على الأمراء أولاد بوغوساج الذين في سيبابرك (٥٩) وأخرجهم من قلاعهم ، ومن هناك مضى إلى ميافارقين التي كانت له من قبل ، ثم تابع فأخذ خلاط وملازكرد ، ومن هناك ارتحل ودخل إلى بلاد غلاطيه .

وبقي في بلاد أرمينية خمسة أشهر يسبي وينهب ، وبغير رحمة أو شفقة كان يقتل المسيحيين خاصة ، لكن الرب ضربه هناك فمات فجأة ، وقد عم الارتياح كافة الشعوب ، وكما صار من زمان يوليانوس المنافق ، حينئذ خرج ابنه وعساكره من البلاد واتوا إلى ميافارقين ، ولما تمرد ابنه على صلاح الدين عم أبيه ، أرسل ذاك أخاه المدعو الملك العادل وأخرجته من الرها ومن حران ومن سميساط وأخذهم لنفسه مع ميافارقين ، وأعطى ذاك حماه وحمص ورد بلاد سيبابرك لأهل بوغوساج وصاروا كما كانوا من قبل تحت حكم قطب الدين حاكم آمد .

وفي سنة ١٥٠٢ يونانية في حزيران انكسفت الشمس واطلم أكثر من نصف قرصها ، وظهرت الكواكب والقمر حولها . وفي سنة ١٥٠٠ يونانية ملك على ملطية أحد أولاد السلطان قيصر شاه معز الدين .

الحملة الثالثة

في سنة ١٥٠٠ يونانية خرج ملوك مع عساكر الافرنج وكانوا قد أرسلوا أمامهم في البحر شعوب من الإسكندرية ، يفوق عددهم عدد رمل البحر ، وحلوا على عكا ، ولم يكن معهم ملوكهم بل رؤساء كهنتهم وكهنتهم ، وبيعهم التي كانت في خيامهم .

كذلك اجتمع أيضا مع صلاح الدين شعوب كثيرة من

المسلمين ، وقد عسكر الجيشان بالقرب من بعضهما بعضا ، حتى أنهم كانوا يرون بعضهم ، ولم يستطع الافرنج أن يستولوا على المدينة لأن مقابلهم كان بستون ألف مقاتل ، كذلك لم يستطع السلطان أن يدمر الافرنج الذين بداوا يبنون البيوت والبيع للسبب نفسه ، وبلغ صلاح الدين أن ملك الالمان (فريديريك الأول قسادم عن طريق القسطنطينية في مسانتي ألف فارس وراجل ، لكن اليونان لم يدعوه يغادر القسطنطينية ، فحاربهم وأخضعهم له فاجتازوا الى نواحي قونية ، فجمع ابن السلطان جيوش التركمان وأخذ يناوشهم لكنه انكسر وهرب ، ثم وصل الافرنج ودخلوا المدينة وقتلوا أعداد كبيرة ، وكان بين القتلى ميخائيل حاكم ملطية المكنى بابا ، وأخيرا عقد معهم السلطان صلحا ، وفتحوا له باب القصب فمضى الى قيليقية ، وهناك أراد ملك الالمان أن يسبح في النهر ، وكان شيخا متقدما في السن فاختنق ومات ، ونقل ابنه جثته الى أنطاكية وتابعوا سيرهم الى عكا .

في تلك الفترة خرج ملكان من أرض الافرنج ، فأخذوا قبرص من اليونانيين وأتيا الى عكا وشنا عليها حربا ، قتل فيها العديد من الناس حتى امتلأت الاسواق من الجثث ، وأخيرا استولى عليها الافرنج وكان ذلك في أول تموز عام ١٥٠٢ يونانية (١١٩١ م) وأراد الافرنج أن يعطوا الاتراك الذين بقوا في داخلها لصلاح الدين ، ويأخذوا مكانهم كل أسرى الافرنج الذين كانوا في دمشق ، لكن صلاح الدين رفض ذلك ، فغضب الملوك غضبا شديدا ، وأحرقوا كل الأسرى العرب ، فلما رأى صلاح الدين ذلك هدم يافا وأسوار عسقلان ، أما الافرنج فقد ملكوا قيسارية ، وقوي مركزهم وبنوا يافا ، ووضعوا فيها محارس ، ثم همدوا وبنوا أسوار عسقلان أيضا ، ووضعوا فيها سكانا من شعبهم ، حينئذ جمع صلاح الدين جيشا وقرر أن يحارب الافرنج ، وكذلك خرج الافرنج من عكا ليواجهوا الاتراك فتقابل الجانبان استعدادا للمعركة ، لكنهم مالبثوا أن عقدوا صلحا في تشرين الأول سنة ١٥٠٤ يونانية ، لمدة ثلاث سنوات حيث أعطى

صلاح الدين الافرنج ذهباً عوضاً عن بناء سور عسقلان الجديد ، ثم عاد فهدم أسوارها كلها ، وأصبحت عسقلان مهجورة أما ملوك الافرنج فقد أقاموا في عكا واليا اسمه هنري ، وهو ابن أخت ملك الانكليز ورجعوا الى بلادهم ، وبني صلاح الدين أسوار القدس بشكل قوي جداً أشد مما كان من قبل .

في هذا الزمان صار مجمع في دير مار برصوم قرر حرمان ابن تمسح وقد تعمم هذا القرار في كل البيع .

ولهذا الزمان لم يقبل أحد الكهنة أن يصير راعياً لرعية ماردين خوفاً من الحاكم الذي كان يضطهدهما ، فرسعت لها المعترف الرهاوي ، وكان حاضراً مار اثناسيوس مطران القدس ، لكنه هرب الى دير سيدنا مار برصوم ولم يشترك معي في سيسامه هذا الشقي ، وقد قبلته الرعية برحابة صدر في البداية ، لكنه سرعان ما افتضح أمره بعد أن قام بأعمال مشينة لامجال لذكرها هنا ، فطرده ، فقرر أن يعلن اسلامه فعرف الخلقيدونيون من أهل ملطية بذلك ، فأخذوه الى القسطنطينية وخلع ثياب الكهنوت وصار خلقيدونيا ، ثم عادوا فأرسلوه الى رعية الخلقيدونيين في ميفارقين ليكون لهم راعياً هناك ، أما نحن فقد أنهينا الهيكل الذي بدأنا في بنائه في دير سيدنا مار برصوم ، وقد استغرق معنا ذلك أربعة عشر عاماً ، فقد بدأنا فيه كما ذكرنا سنة ١٤٩١ يونانية وانتهينا منه في هذه السنة أي عام ١٥٠٤ يونانية بنعمة الله ومعونة سيدنا القديس مار برصوم ، وجمعنا أساقفتنا يوم الأحد في ١٥ أيار ، وافتتحناه بنعمة الروح القدس ، وكان الجمع الذي أتى الى دير القديس أيضاً هو الجمع الذي ذكرناه أنفاً في قصة ابن وهبون الذي مات في هذا الزمان ، هو وجاثليق الأرض وعدد كبير معهم .

في سنة ١٥٠٤ يونانية مات - كما ذكرنا من قبل - جاثليق الأرمن غريغوريوس في قيلقية ، وكان ذلك في شهر تموز ، فرسم الأرمن ابن أخي الذي توفي جاثليقا ، وكان سبباً ودعي أيضاً غريغوريوس وتكنى ديراًسو .

وفي هذه السنة مات أيضا بطريك انطاكية الافرنجي هنري وقد مات في قلعة القصير ، واحضروا جثمانه وقبروه في بيعة انطاكية الكبيرة ، وقد وجد عنده اثاث فاخر ومقتنيات كثيرة جدا ، وقد اقاموا موضعه أحد القسوس الشيوخ واسمه رنقل .

وبهذا الزمان أرسل إليّ ايوانيس بطريك الاسكندرية ومصر رسولا أسقفا شيخا اسمه بطرس ، واحضر لنا رسالة بالخط العربي واللغة العربية الفصحى ، يثبت اعتقاده بالأمانة المستقيمة المجد وتتضمن محبة وصداقة.

في سنة ١٥٠٦ يونانية حين ابتدأت حروب الترك ، انتشرت المجاعة حتى اكل الناس جثث الأموات من البشر والحيوانات ، وقد باع عدد كبير من الناس اولادهم ، وفي بلاد شبختان فقط ناهيك عن البلاد الأخرى بيع الاف من الصبيان والصبايا ، وفي دانيث بيع اثنان وعشرين ألفا وكلهم مضوا عبيدا الى بابل ، وحتى هذه السنة التي هي سنة ١٥٠٦ يونانية (١١٩٥ م) بقي الجراد يأكل في كل سنة الزرع والكروم من حدود مصر الى بلاد الترك ، ومن فارس الى بحر بنطس ، وصار سعر الكيل الكبير من الحنطة في ملطية بستة عشر دينارا سلطانيا.

وفي هذه السنة أي سنة ١٥٠٦ يونانية أمر حاكم الرها الملك العادل بإبطال الناقوس في بيع الرها ، وقد اغتم المسيحيون جدا ، الله يرحم.

وفاة السلطان قلع أرسلان

أما السلطان قلع أرسلان فعندما بلغ الشيخوخة وزع بلاده على أولاده لكنهم كانوا أولادا عاقين ، فبقي عاجزا يتنقل من مكان إلى مكان فأشفق عليه أهل قونية ، فأحضروه إلى كرسيه السالف فيها ، لكن ابنه قطب الدين ، وكان حاكمها رفض استقبال أبيه ، فقام غياث الدين أخوه وصاحب مدينة بروغلو بانتزاع هذه المدينة ، ثم زحف الوالد والابن إلى أقصرا ، فمرض الأب قلع أرسلان فنقله ابنه غياث الدين إلى قونية ، فتوفي ودفن هناك ، ودام ملك قلع أرسلان ثمان وثلاثين سنة ، وخلف من سلالته اثني عشر ملكا.

وفاة صلاح الدين وماتلاه من أحداث

وفي سنة ١٥٠٤ يونانية مات أيضا السلطان صلاح الدين في دمشق ، وكان له ثلاثة وعشرون ابنا ، وقد وضع قبل موته ابنه الكبير بدمشق وسماه رئيسا على الجميع ، والثاني ملكه على مصر والثالث على حلب ، وهؤلاء الثلاثة كل واحد منهم كان يدعي سلطانا ، ثم وزع على الآخرين بقية مملكته ، ومضى كل واحد الى بلده ، كذلك أعطى أخاه الملك العادل - وكان يسمى أيضا سلطانا - حران والرها وميفارقين ، وسميساط وقلعة جعبر والكرك والشوبك .

ثم خرج حاكم الموصل واتفق معه اخوته حكام سنجار والجزيرة وحاكم ماردين أيضا وأتوا الى قرب حران ليحاربوا الملك العادل ويأخذوا منه بلادهم ، فجمع هو جيشا وأتى للقائهم ، لكن حاكم الموصل مرض فجأة وحل على نصيبين ، وعند ذلك خافوا فعادوا تحت طاعته كما كانوا مع أخيه ، فرد لهم الخابور ، واصطلحوا ومضى هو ليملك على الأرمن ، لكنه لم يستطع فرجع خائبا.

أما عز الدين حاكم الموصل فقد مات وملك بعده ابنه نور الدين أما لاون حاكم قليقية فقد أمسك البرنس بوهيموند حاكم أنطاكية وعذبه كثيرا ، وجازاه كما كان قد وضع بروفين أخى لاون ، حينئذ اتى الوالي هنري من عكا واعتقه ورجع لأنطاكية.

أما لاون فقد قوي بعد موت السلطان قلعج أرسلان ، فاحتل في بلاد الروم اثنتان وسبعين قلعة ، أخذها من الاتسراك واليونانيين ، وكان دائما منتصرا ، فأخذ أولاد السلطان يحتمون به.

عندما خرج اخي المطران مار اثنا سيوس من القدس بعد خرابها
أتى الى دير سيدنا مار برصوم ، فأرسلته عوضا عني ويسبب
شيخوختي الى انطاكية ، فاستقبلوه كالمالك واحبه الجميع ، وبقي
هناك سنتين ، ثم توفي وكان ذلك يوم الخميس ٢١ تشرين الاول
عام ١٥٠٤ يونانية وسجى جسده في دير داوود عند قبر ماريوحنا
البطريك ، ليرحمه الله ، أما القدس فارتسم عليها
اغناطيوس ، اي الشهيد رئيس ديرها .

وفي كانون توفي ديونوسيوس مطران ملطية وقام مكانه اياونيس
مطران قيسارية اي ابن قنون .

وفي تشرين سنة ١٥٠٥ يونانية أتى الينا في دير ماربرصوم
غريغوريوس المفريان ومعه الاساقفة الأربعة الذين في
ابرشيته ، ثبتوا عهدهم الناموسي مع ابيهم الروحاني ، ولما رجعوا
الى كراسيهم حرموا الشيطان ابن تمسح ، وكان هذا قد قال
للحاكم : إن المفريان هرب ولن يأتي بعد ، لذلك عندما رجع الاساقفة
حرموه ونبذوه ، وكذلك نبذ الشعب المؤمن ، ولما وصل المفريان
استقبله الحاكم بترحاب ، وكل واحد فرح به .

وفي هذه السنة ارسل لاون حاكم قيليقية وسرق قلعة الروم واخذ
الجاثليق الصبي ، ولما انكشفت أفعاله حرمه اساقفة الأرمن ، وقد
وضع لاون الجاثليق في السجن في قلعه تدعى غوبيدره وقد حاول ذلك
الشقي أن يهرب فسقطت عليه صخرة ومات ، وقد خزي الأرمن
بهذا العمل .

بعد ذلك رسموا لهم جاثليقا هو ابن عم الشيخ المسمى ابيررد
ودعي ريخوروس .

كمل هذا على يد الخاطيء الشقي العاجز الكسلان العبد
المظلوم ، وأرجوا منكم العفو يا اخوتي وابائي عن كل نقص صنعته
يداي .

- ٢٢٥٢ -

انتهى تاريخ ميخائيل السرياني في كانون الأول (١٥٠٦)
يونانية (١١٩٥ م) بالخبر التالي في كانون الأول عام ١٥٠٦
يونانية (١١٩٥ م) مضى حاكم أبلستين الى لاون ، وقدم له
الطاعة ، ثم مضى لاون الى حاكم قيسارية وانتصر عليه واغتصب
منه قلعة قرب قيسارية .

روايات ابن العبري

غريغوريوس بن هرون بن توما الملقب

(أبو العباس المستظهر بالله

(٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م)

مدة خلافته خمسة وعشرين عاما وخمسة أشهر ، وفي هذا العام ماتت ترکان خاتون أم السلطان محمود ، ويقال إنها كانت جريئة حكيمة يتصل نسبها بأقر سياب رأس ملوك الهون ، وأما أبوها فهو طغراج ملك الخزر ، ولم يبق تحت سلطة ابنها الا اصفهان ، ومع ذلك طمع فيه أخوه السلطان بركياروق فزحف على اصفهان بشرنمة من جنوده ، فأغلق أتباع السلطان محمود أبوابها في وجهه ووجه جنده ، ولكن أتباع بركياروق أصروا على فتح اصفهان ، ففتحوها وأدخلوا فيها سلطانهم بركياروق ، فمكث بها يوما واحدا ألت خلاله بأخيه محمود حمى شديدة توفي بسببها وهو في السابعة من عمره ، فانضوى زعماء اصفهان تحت لواء بركياروق وملكوه إياها .

وفي عام ٤٨٨ هـ / ١٤٠٦ لليونان ، (١٠٩٥ م) قدم سلطان قونية قلع أرسلان بن سليمان الى ملطية وحاصرها ، وأرسل أحد الزعماء سفيرا له ليفاوض المطران المدينة المسمى سعيد بن صابوني الذي دعي صاحب السدرات ، وكان رجلا قديسا وخبيرا حنكته تجارب الحياة ، فكلمه السفير باللغة اليونانية وبحضور الزعيم جبرائيل اليوناني صاحب المدينة قائلا : يريد السلطان أن تسلموه المدينة ويعد أنه سوف يعامل سكانها معاملة طيبة ، والا فسيفتحها بحد السيف عنوة ، ومن ثم تكون دماء المقتولين في رقبتكم ، فأجاب المطران السفير قائلا لا تهرف بما لا تعرف ، فليس بمقدور أحد ان يأخذ مدينتنا لأن خيراتها كثيرة ففيها خبز لأكثر من عشرة أعوام ، ومياها تنبع من داخلها ، وفيها الكثير من الحاربين الشجعان كما ترون ، وعندما كان المطران يتحدث مع السفير كان

جبرائيل اللعين واقفا خلفه يتسمع ساكتا وعندما انصرف السفير ، قال المطران لجبرائيل الخبيث : لقد كنت يامولاي اصفي لما قلته والحري بنا أن نبعد السلطان عنا بمعسول الكلام ونفيس الهدايا وأنت على علم بما يعانيه الأغنياء والفقراء من الضيق ، فحقد هذا الخبيث على المطران ، وأوعز بقتل أحد الضباط في اليوم التالي ، وعندما علم المطران بذلك راح يتضرع الى جبرائيل ليكف عما بيته لذلك الضابط فغضب هذا اللعين على المطران وأخذ يوسعه شتما ، وبينما كان جبرائيل يسير على حصانه بين سوري المدينة عاد فرأى المطران فهوى بسيفه على رقبتة ، فأزده قتيلا ، ولم يتسن للمؤمنين أن يشيعوه ويواروا جثمانه في الكنيسة الا بعد يومين ، وأما السلطان ، فعندما علم بقدوم الفرنج ترك ملطية وقفل راجعا .

وفي عام ٤٨٩ هـ وهو عام ١٤٠٧ لليونان (١٠٩٦) م، تكهن المنجمون بأن طوفانا كطوفان نوح سيحدث ، فاستقدم الخليفة المستظهر المنجم ابن عيسون ، وسأله عن صحة ذلك ، فأجاب ابن عيسون : تجمعت في عهد نوح الكواكب السبعة السيارة ببرز الحوت ، ولهذا وقع ذلك الطوفان العظيم ، وأما هذا العام فلا أثر لزحل في برج الحوت فلو كان مع سائر الكواكب لكان من المرجح أن يقع طوفان كطوفان نوح لكنه ستحتشد جماعات كثيرة من الناس في أحد الأمكنة ، وسوف يأتي سيل عرم ويجرفهم فيغرقون كلهم ، وللحال وصلت أخبار مفادها ان الحجاج في مكة فاجأهم سيل عرم فأغرقهم كلهم .

وفي هذا العام أجهز جبرائيل اليوناني حاكم ملطية على أبي سالم الرئيس الصابق الايمان ، صهر آل عمران اذ دس له سما فقتله كذلك أجهز هذا اللعين على التجار المؤمنين الوريين الآتية أسماؤهم :

برصوما ابن الراهبة ، وابنته وباسيل حوا ، وسهيو شماس

- ٢٢٥٥ -

طانطيني ، ونهب من بيت ابي منصور بن ملكا زهبا وفضة وبضائع
مختلفة ، كما سلب من كنسية المطران قنينة ميرون ، والكثير من
الصليبان والمباخر وغير ذلك من النخائر ، وخرب البيوت ، وعمر
السور والقلعة بأحجارها •

بداية الحروب الصليبية ١٠٩٧

زحف الفرنجة الى المشرق

وفي عام ١٤٠٨ لليونان - (١٠٩٧ م) قدم ملكان فرنجيان وسبعة قمامصة الى انطاكية واستولوا عليها من الاتراك ، أما السبب المعلن لقنومهم فهو أن التركمان بعدما استولوا على فلسطين وسورية وغيرهما من الاصقاع شرعوا يعاملون الحجاج المسيحيين المتوجهين الى بيت المقدس معاملة سيئة ، ولا سيما الحجاج القادمين من ايطاليا ونواحيها ، ولهذا تحمسوا وجهزوا جيشا حاشدا وقصدوا بادىء ذي بدىء الى اسبانيا ، فدخلوا مدنها ، وقتلوا الكثير من العرب ، ومثلوا بهم ففقؤوا أعينهم ، وقطعوا أذانهم وجدعوا أنوفهم ، ثم واصلوا مسيرهم الى القسطنطينية ، فمنعهم الكيس ملك اليونان أن يعبروا من هناك ، وظلوا يحاصرون العاصمة سبعة أعوام ، ولكن نون جدوى فقرر الافرنج أن يتحولوا الى انطاكية فحاصروها مدة تسعة أشهر ، لم يتمكنوا من احتلالها ، ولهذا تأمروا سرا مع الفارسي روزه حارس البرج الذي كان بجانب مخاضة كشكروف وأغروه بذهب كثير ، وكان ذلك البرج مقاما على دعائم حديدية فدخلوه ليلاً وتسلفت جماعة منهم السور بالحبال ولما ازداد عددهم فوقه ، شرعوا ينفخون بأبواقهم في آخر الليل ، فظن الحاكم التركي يفسيان أن الفرنجة دخلوا القلعة فداخله خوف شديد ، فما كان منه إلا أن توجه نحو باب المدينة وفتحها وهرب مع ثلاثين رجلا باتجاه طريق حلب ، وما إن انبلج الصباح حتى شرع يصرخ ويقول : كيف تخلت عن المدينة وتركت أموالى وأهلي وأولادي ؟ ثم أخذ ينظر نحو انطاكية ويبكيها ، ولشدة حزنه هوى عن فرسه فأركبه أصحابه غيره الى أن سئموا فتركوه مطروحا

على الأرض وانصرفوا فلقية خطاب ارمني ، وعندما عرفه قطع رأسه وذهب به الى الفرنجة .

على هذا النحو سقطت أنطاكية بيد الفرنجة فبطشوا بمن فيها من العرب والأتراك ، وسلبوا خيراتها وولوا عليها أحد القمامة واسمه بوهيموند ، وقد بقي الأفرنج في أنطاكية مدة خمسة عشر يوما لا يجدون شيئا يأكلون حتى اضطروا ان يأكلوا لحوم خيولهم ، ولما علم السلطان بركياروق باحتلال الفرنجة لأنطاكية ، جهز جيشا عظيما قوامه مائة ألف فارس وسيره الى أنطاكية ، وعندما بلغ الجيش بفراس خيم هناك ، وشاهد احد ملوك الأفرنج في نومه حلما ، فحفر مكانا في بيعة القسيان ، فوجدوا فيه مسامير صليب الرب يسوع فصاغوا منها سنان رمح وصلبوا وجعلوه لواء زحفوا تحته نحو الأتراك ، فنصرهم الرب على الأتراك وقتلوا منهم اناسا كثر ضاقت بجثثهم الأرض على سعتها .

وبعد ذلك قصد الفرنجة المعرة ، فدخلوها وبطشوا بنحو مائة ألف نسمة من سكانها وعاثوا فيها فسادا مدة أربعين يوما يسرقون ، وينهبون ومن ثم قصدوا الجبال فبطشوا بالكثيرين من النصيرية ، ثم اتجهوا نحو لبنان فحاصروا عرقة قرب طرابلس مدة أربعة أشهر ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها فتركوها وقصدوا شيزر بين حمص وطرابلس فانصاع صاحبها ابن منقذ العربي لهم ، وقدم لهم الجزية ، فتحولوا عنه الى حمص فأذعن لهم صاحبها جناح الدولة ، فتحولوا عنها ايضا الى طرسوس والمصيصة وأنه (١) .

وكان الترك يومئذ يشغلون سروج في نواحي حران والرها وكان الأرمن يتولون على بلاد زغما غربي الفرات قرب البيرة ، وكان باسيل كبيرهم متوليا رعبان وكيسوم بين حلب والرها ، وكان ايلغازي ابن ارتق في سميساط على شاطئ الفرات الغربي ، أما مرعش والجبل الأسود فكانتا بيد ابناء فلرطس الأرمني . وكانت قيليقية وعين زربة بنواحي المصيصة في ملك بني رافان الأرمن أما

طنكريد ملك انطاكية فانه حشد الجيوش وزحف الى بلاد الترك واستولى على قلاع وحصون كثيرة ، ثم توجه الى منبج وبالس وعاد في الربيع الى طرابلس ليطلع الخيل العشب .

لكنه لما استفحل أمر الفرنج لم ير الترك بدا من مراضاتهم فبعث رضوان صاحب حلب إلى طنكريد باثنين وثلاثين ألف دينار وعشرين حصانا أصيلا ، وأربعين قطعة من القماش الفاخر ، وأرسل اليه صاحب صور سبعة آلاف دينار ، وصاحب عسقلان أربعة آلاف دينار ، وصاحب شيزر أربعة آلاف دينار ، وعلي الكردي صاحب حماة ألفي دينار ، وأبرموا جميعا الهدنة الى زمن الحصاد ليعطوا الغلال للفرنج .

الاستيلاء على بيت المقدس

قوي أمر الافرنج في الشرق فوجهوا جيوشا ضخمة الى فلسطين برا وبحرا وحاصروا في طريقهم يافا واحتلوها في عدة ايام ، ثم بلغوا بيت المقدس فاحتقوا بالمدينة من كل صوب وبنوا حولها عدة ابراج خشبية وترابية واقاموا عليها المنجنيقات والعرادات وواصلوا الحرب اربعين يوما .

وكان بيت المقدس يفس يومئذ بالناس والعسكر المصري والعهد الحربية وكان صاحبها افتخار الدولة الافضلي قد أبعد عنها المسيحيين فاحتشد الفرنج في برجين ابتنوا احدهما عند الجهة الجنوبية من باب صهيون ، والآخر عند باب مار اسطفانس في الجهة الشرقية فصار العرب يرمون برج صهيون بالقذائف المحرقة ، لكن سرعان ما بوت صيحة بين العرب تقول ان الفرنجة دخلوا من الجهة الشرقية ، ومن ثم أعملوا السيف في رقاب أهل المدينة اسبوعا كاملا وقد قتلوا أكثر من سبعين ألف عربي في المسجد الأقصى وسلبوا من عند الصخرة اربعين قنديلا فضيا زنة كل منها

ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، كما نهبوا من قبة الصخرة مائة وأربعين قنديلا فضيا وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وسبعمائة درهم ، واخذوا كنك مائة وخمسين من القنابيل الصغيرة بينها عشرين قنديلا من الذهب المصري ، وكان بين مانهبوه أيضا منارة فضية وزن أربعين رطلا سوريا ، علما أن الرطل السوري يساوي ستة أرطال بغدادية ، أضف الى ذلك الكثير الكثير من الأواني والنخائر الفاخرة ، وكان أول من ملك من الفرنجة في بيت المقدس غوبفري الذي تسلم حكمها سنة ١٤٠٩ لليونان (١٠٩٨) م تولى سنتين وتوفي ، فخلفه في حكم بيت المقدس بلدوين وقد تولى امر هذه المدينة مدة سبعة عشر عاما

ولما علم المصريون بما جرى في بيت المقدس زحف الأفضل ابن أمير الجيوش بجيش عظيم عام ١٠٩٩ فالتقى مع الفرنجة قرب عسقلان ، فتغلب عليه الفرنجة ويطشوا بالكثير من جنوده ، ومن ثم واصلوا مسيرهم الى عسقلان ، فقدم سكانها اثني عشر ألف بينارا للفرنجة فقتلوا بذلك وغابروا عسقلان راجعين الى القدس .

صراع السلطان بركياروق وأخيه محمد

وفي عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م ثار أقطاب الأتراك على السلطان بركياروق انتقاما من الوزير مجد الدولة الذي كان يسيء معاملتهم ، ففتكوا بهذا الوزير لكنهم لم ينصبوا بركياروق بل توجهوا الى أخيه محمد وبايعوه بالسلطنة ، ورضي السلطان عن ذلك وأصدر فرمانا رسميا سمي (فرمان الرضا) وتسمى محمد « غياث الدنيا والدين أبا شجاع محمد » فزحف بركياروق الى بغداد متتبعا أخاه محمدا ، فالتقى جيشاهما ودارت بينهما حرب سجال ، ينتصران وينكسران .

وفي عام ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م توفي الطبيب البغدادي يحيى بن جزلة واضع كتاب المنهاج الشهير الذي يتحدث عن الألويا والأغنية

البسيطة والمركبة ، والذي لا يزال متداولاً بين أيدي أطباء هذا العصر ، ومما يذكر ، أن يحيى هذا كان نصرانياً ، قرأ المنطق على يدي أبي علي بن الوليد ، وقد أقنعه أبو علي السفسطي « أن الاتحاد الحبي والاقتنومي على زعم النساطرة لا يمكن تصوّره في الطبع الإلهي » وبذلك حسن له الإسلام فأسلم ، والجدير بالذكر أن يحيى هذا كان غنياً لكنه لم يعالج مريضاً قط بدون أجره ، إلا أصدقائه فقط .

معارك صنجيل مع الطرابلسيين والدمشقيين والحماصنة .

وفي عام ١٤١٤ يونانية (١١٠٣) م بلغ العرب أنه ليس مع صنجيل في طرطوس إلا ثلاثمائة فارس فاتفقوا على أن يغيروا عليه من طرابلس ودمشق وحمص ، فوجه مائة من فرسانه نحو الطرابلسيين ومائة نحو الدمشقيين ، وخمسين نحو الحماصنة ، أما الخمسون الباقية فأبقاها بقيادته ، وعندما التقى الجمعان فر الحماصنة والدمشقيون إلى الجبال ، علماً أنهم كانوا يزيّدون على خمسة آلاف محارب ، وأغار صنجيل على الطرابلسيين الذين كانوا يقدرّون بثلاثة آلاف محارب ، فدحّروهم وتتبع العرب المهزومين هو وفرسانه الخمسون ، فأهلك من العرب زهاء سبعة آلاف ، ومن ثم ترك قيليقية قاصداً طرابلس فأغار عليها ، ولكنه لم يتمكن منها فحاصرها سبع سنوات واحتلها عام ٠٠ (٢) وبسط سلطانه على طرطوس، ووطش بسكانها من العرب واقتحم قلاعاً عدة .

وفي تلك الفترة قدم عن طريق البحر قمص آخر ، فحاصر عكا وضائق سكانها ، واحتل الفرنجة الرها ، ومن ثم راحوا يفتنون ويسبون البلاد السورية من العرب البلد تلو الآخر .

احتلال الأتراك لمدينة ملطية

كان الأمير ابن دانشمند صاحب كبوكيا التركي يتقل في مطالبة صاحب ملطية جبرائيل اليوناني ، وكان ابن دانشمند هذا يأتي الى ملطية صيفا فيعيث فيها فسادا .

ويأكل غلالها ثم يغادرها شتاء ، ولهذا اغرى جبرائيل اليوناني الفرنجة باحتلال مدينته ملطية ، وأقسم لهم ثلاثا أنه سيسلمهم المدينة ، فصدقوه وسار الملك بوهيموند الى ملطية وهو مطمئن ليأخذها ، على أن جماعة من الأرمن كانوا منذ ايام فيلردين يتولون بعض المناطق منهم كوخ باسيل اي اللص صاحب كيسوم ورعبان وأبناء روبين حكام بعض نواحي من أرمينية خافوا ان يستولي الفرنج على معالكهم ويطردونهم منها ، فكتبوا سرا الى اسماعيل بن دانشمند واتفقوا على أن يكمن لهؤلاء الفرنجة ، ولما وصل بوهيموند قرية حفنة قرب ملطية أخذ ذلك الخبيث جبرائيل اليوناني يماطله ويسوفه ويؤجله من يوم الى آخر حتى وصل اسماعيل بن دانشمند وكمن للفرنجة فأسر بوهيموند وأرسله الى سبسطية وتوجه إلى ملطية وطوقها ، ومن ثم أخذ جبرائيل يتمادى في ظلمه للأهالي الى أن تذمر منه ضابطان استقدا الأتراك إلى المدينة ، فدخلوها وكان ذلك يوم الأربعاء ١٨ ايلول ١٤١٣ لليونان ، (١١٠٢) م وفي النسخ العربية عام ١٤١٢ لليونان (١١٠١) م فسلب الأتراك ما في ملطية المنكودة الحظ من الثروات ، كذلك أباح ابن دانشمند لجنده ان يستولوا على أموال هذه المدينة لكنه لم يسمح لهم بأسر اهاليها ، فقد احسن ابن دانشمند معاملتهم ولم يؤنوا أحدا منهم وردهم الى بيوتهم ، بل أحضر من بلاده المزيد من الثيران والقمح والحاجيات ، وغير ذلك من المؤن ووزعها عليهم ، ولهذا نعم اللطيون في عهده ببحبوحة من العيش ، ثم ولي عليهم حاكما تقيا ورعا يدعى باسيل ورحل .

وأما جبرائيل الخبيث ، فقد أنزل الله غضبه عليه ، فصار

الأتراك يسومونه سوء العذاب ، ولطالما ذكره النصاري بما كان منه من المظالم ، والتعدي على حياة الآخرين وخاصة على المطران الورع ، والزعماء المضطهدين الذين بطش بهم ، وبعد أن بالغ الأتراك في سبه وأشبعوه شتما توجهوا به الى قلعة قطيعة حيث كانت تسكن زوجته ، وطلبوا اليه ان يأمر زوجته بأن تسلمهم القلعة ولكنه راوغهم وخاتلهم ، وقال لزوجته سلمي القلعة وهذه اشارة مني . اني بعثت اليك قبل ايام فتى اسمه ميداس - علما أن ميداس لفظة أرمنية معناها - لاتسلمي - ولما اكتشف الأتراك مكره فتكوا به ورموا جثته الى الكلاب واستقدم ابن داذشمند ملك الفرنجة بوهيمند الى ملطية ثم باعه بمائة الف دينار ، فعاد هذا الى انطاكية وتنازل عنها لابن اخته ورجع الى بلاده.

وفاة السلطان ركن الدين بركيارق

وفي عام ٤٩٨ هـ - (١١٠٤ م) ابتلى السلطان ركن الدين بركيارق بأمراض عدة ومختلفة كالبواسير والسل وغيرها من الآفات ، فأدرك أن منيته قد دنت ، فاستخلف الاقطاب بأمر ابنه ملكشاه الصغير ، وبعث به الى بغداد ونودي به وبلقب جلال الدين ملكشاه ، علما أنه لم يكن قد تجاوز الرابعة من العمر ، وتوفي والده بركيارق فدفن في اصفهان ، وعندما كان في بغداد قدم اليها عمه السلطان محمد فخاف البغداديون ان يختلف السلطانان ، فيكونوا هم مرتعا للسلب والنهب ، ولما كان الأمير اياز وصي الملك ملكشاه يحظى بقسط محمود من الذكاء والدهاء ، وقائدا لجيوش بركيارق وبالتالي فهي تأتمر بأمره ، ذهب الى السلطان محمد واستحلفه قائلا ان هذا الفتى ، هو ابن أخيك وينبغي أن تحوطه برعايتك وأن تعمل على توطيد حكمه ، فأجابه السلطان محمد قائلا ان ملكشاه هو ابني ، ووعده خيرا ، فتركه الأمير اياز الذي زار السلطان ملكشاه وحظي بحسن ضيافته ، وفي اليوم التالي أقام الأمير مأدبة دعا اليها السلطان فلبى الدعوة ، ولأسوء الحظ حضر كاتب متدبرع

- ٢٢٦٣ -

بدرع تحت ثيابه وكان واقفا يخدم ولا يتحرك الا بصعوبة وبطء
فأثار شكوك السلطان ، فأوحى إلى أحد عبيده ان يستطلع أمر
تعثره في ذهابه وإيابه فذهب العبد وتلمس الكاتب بحجة
مداعبته ، فأحس أن تحت ثيابه درع ، فأخبر السلطان
بذلك ، فقال السلطان لنفسه اذا كان الكتاب يتدرعون ، فما هو
شأن الفرسان الأتراك ؟ ورجح أن أياز يبطن له المكر والغدر ،
فأشار إلى مرافق له أن يضربه ويقتله ففعل ، وعندما علم الأتراك
حلفاء أياز بذلك حملوا ما أمكنهم من أموالهم وأموال غيرهم وفروا
إلى سورية .

وفي آذار ٤٤٩ هـ - ١٤١٧ م لليونان (١١٠٥ م) فاضت
الأنهار ولا سيما الفرات فخرّب الكثير من نور بغداد ، وقد بلغت
المياه دار رجل غني ، فكانت تغمرها ، فوضع أهله وأمواله في
سفينتين وقصد مكانا عاليا ، وبعد ان عبرت السفينتان قليلا غرقت
أحدهما ، وقد كان على متنها فتاة مع أمها وتسع جوار غاليات
الثلث فغرقن جميعا وغرق مامعهن من متاع ، وعندما رأى ركاب
السفينة الثانية ذلك ، عادوا إلى دارهم ، وقد تضاعفت المياه في
اليوم التالي ، فحمد الناس الله وامتدحوا أحكامه التي
لاتدرك ، وأتقنوا ان نجاة الناس بأمر الله .

وفاة دانشمند

وفي هذه السنة عينها توفي في سبسطية دانشمند بعد ان تولى
مدينة ملطية عامين ، فقدم قلج أرسلان لمحااصرتها
في ٢٨ حزيران ، ونصب المنجنيقات على برج مستدير في الشمال
الشرقي من المدينة التي احتلها باليمين بعد معارك وليس
بـالسيف ، وذلك في الثـماني مــــن
ايلول ١٤١٧ لليونان (١١٠٦ م) وقد احسن معاملة الاهالي .

- ٢٢٦٤ -

وفي سنة ٥٠٠ هـ - ١١٠٦ م) كان الأمير التركي جكرميش واليا على الموصل فعزم ان يتمرد على السلطان محمد فخلع السلطان الأمير جكرميش التركي هذا ونصب مكانه الأمير جاولي وزوده بجيش جرار ، وعندما التقى بجيش جكرميش عند اربيل هزم جكرميش واسر لكن أهل الموصل تحالفوا مع زنكي بن جكرميش واحتشدوا استعدادا لمقاتلة جاولي ، واستنجدوا بقلج أرسلان بن سليمان بن قطلمش ، سلطان قونية ، أما جاولي فقد دخل الموصل منتصرا ومعه جكرميش أسيرا وحفر بئرا عميقا ورمى جكرميش فيه مخافة أن يخطفه الأهالي ، ولم يلبث جكرميش أن لفظ أنفاسه في هذا البئر المظلم.

وكان في وقعه جكرميش ، أبوطالب بن كسيرات الموصللي لكنه هرب والتجأ الى صاحب اربيل ابن موسك ، فبعث جاولي الى ابن موسك هذا طالبا منه أن يرسل له أبا طالب هذا فلبى طلبه ، وقام بالمقابل وأفرج عن واحد من أبناء صاحب اربيل كان جاولي قد أسره ، وعندما قدم ابن كسيرات لزيارة جاولي ، وعده بأن يعطيه الموصل وتعهده بأن يجمع له مقدارا من الذهب من معارفه واصدقائه ، ولكن العدو اللدود لابن كسيرات قاضي الموصل ابن ودعان ، اتفق مع جاولي ووعدته أن يسلمه الموصل شريطة أن يبطلش بابن كسيرات ، فنفذ جاولي ذلك وأرسل له رأس خصمه فغضب أترك الموصل على ابن ودعان وهجموا عليه وقتلوه ولم تكن قد مضت على فعلته هذه أيام معدودات.

وفاة السلطان قلج أرسلان

وفي ذلك الحين قصد قلج أرسلان جزيرة قردو قادمة من بلاد الروم ، فهرب جاولي الى مدينة بلد وغزاها ، ثم تحول عنها الى سورية ، فدخل قلج أرسلان الموصل واحتلها دون قتال ، وصفح عن زنكي بن جكرميش وأصحابه ولم يؤذ أحدا منهم ، وأعاد القاضي

عبيد الله بن القاسم الشهرزوري الى مكانته ومنصبه ، ومنع الخطبة باسم السلطان محمد في الموصل ، وجعلوا يخطبون فيها باسم قلعج أرسلان بعد الخليفة ، ونصب في القلعة شحنة اسمه بزميش ، وجعل ينادي باسم ابن ملكشاه ملكا ، وهو لا يزال في الحادية عشرة العمر ، وأسكنه مع أمه هناك في البلاط وزحف الى الخابور برفقة خمسة آلاف فارس ، وأما الأمير جاولي ، فقد تحالف مع صاحب حلب رضوان ، وقصد الخابور بأربعة آلاف من الفرسان الشجعان والمدربين حيث وقعت معركة طاحنة تعد بحق ملحمة بينه وبين قلعج أرسلان ، وقد أظهر شجاعة نادرة ومنقطعه النظير ، فقد استطاع أن يخترق صفوف جيش خصمه وضرب يد حامل رايته وبترها ، ثم هجم بنفسه على جاولي وطعنه بالسيف ولو لم يكن جاولي يلبس درعا حديديا لكانت ضربة قلعج أرسلان الجريئة هذه قد مزقت قلبه ، وعندما لاحظ أصحاب جاولي ورضوان شجاعه قلعج أرسلان واستبساله بينما كان أصحابه متلكئين انقضوا على أصحابه ، وبطشوا بهم ، فخاف عندئذ قلعج أرسلان وأيقن أنه بقي وحيدا كما أيقن أنه سيموت لأنه إن عفا عنه رضوان وجاولي فإن السلطان سوف يقتله لأنه كان قد منع الخطبة باسمه في الموصل ، لهذا كله ألقى بنفسه وهو على حصانه في نهر الخابور ، وظل يقاتل ويطعن كل من تبعه ، ولكن درعه الحديدي كان أثقل من حجمه وشجاعته ، وسرعان ما هوى حصانه في مجرى النهر العميق فغرق ومات ، وبعد عدة أيام لفظته مياه الخابور الى الشاطئ ، فرأه بعض المارة فنقلوه ودفنوه في مقبرة الشمسانية (٣) ، وأما رضوان ، فقد قصد أطراف الرقة بينما رجع جاولي الى الموصل ، حيث فتح له أهلها الأبواب فدخلها دون قتال ، وألقى القبض على أحد حجاب جكرميش وصار منه أربعين ألف دينار من الذهب ، ثم طلب من بزميش أن يتخلى له عن القلعة وعن كل ما سلبه من أهالي الموصل مقابل أن يغادر بسلام الى بلده ، فانصاع بزميش لأوامر جاولي حالا لأن حاميه ومولاه قلعج أرسلان كان قد مات ، فغادر القلعة ومعه أهله وزوجة قلعج أرسلان

وأهلها وقصد ملطية ، وأما ابن قلع أرسلان ملكشاه الفتى ، فقد كان جاولي أرسله الى السلطان .

بعد ذلك قصد جاولي الجزيرة واضطهد سكانها فاضطر حباشي ابن جكرميش أن يقدم له ستة آلاف دينار وحصانا عربسي الأصل ، فتركها وتحول عنها ميمما شطر الموصل حيث عزل القاضي ابن الشهرزوري ونصب مكانه أبا بكر الاربلي ، لكن هذا الانتصار قد غره فتفطرس وتمرد وخلع طاعه السلطان غياث الدين محمد ، ولم يعد يبعث اليه كعاقبته شيئا مما كان يغنمه ، فارتاب السلطان وتشكك في نوايا جاولي ، فسير اليه عدة أمراء بقيادة الأمير موبود على رأس جيش عرمرم ، وذلك سنة ٥٠٢ هـ - (١١٠٨ م) ، وعندما علم بذلك جاولي حصن مدينته ، وترك فيها زوجته - وهي أخت برسق أحد أمراء الموصل ، ونشر المدافعين فوق السور وطلب منهم أن يدافعوا عنه وأن يحموا المدينة ، ثم غادرها خيفة أن يحاصر وهو فيها ، وخرج وكأنه يبحث عن رجال ينجده في صد الغزاة القادمين ، واصطحب معه قمص فرنجي يدعى بلدوين ، كان قد أسره من قبل ، ووعده بالافراج عنه إن هو قدم له سبعين ألف دينار ، وأفرج عمن لديه من الأسرى الغرب ، وأن يخدمه مع سائر الفرنجة كلما احتاج الأمر ، ثم طلب اليه أم يقيم في قلعة جعبر الى أن ينفذ هذا الاتفاق ، فاستقدم القمص بلدوين ابن أخت له يدعى جوسلين وأودعه لدى الأمير رهينة مكانه وذهب هو ليعد الذهب الذي تم الاتفاق عليه .

وأما أهالي الموصل ، فقد أثقلت كواهلهم الضرائب التي فرضتها عليهم زوجة جاولي التي بقيت في الموصل فصعد جماعة من عملة الجص الى برج من أبراج المدينة وأطلقوا صيحات مدوية بشعار السلطان الكبير غياث الدين محمد ، ثم دخل الأمير موبود وصحبه الموصل واحتلوها فلانت زوجة جاولي بأخيها الأمير برسق ، وأما جاولي نفسه فقد قصد إيلغازي والي نصيبين وماربين الذي كان في

رعبان قرب الخابور في تلك الايام ، وقد حاول جاولي جاهدا أن يقنع ايلغازي بالتحالف معه ، ولكن ايلغازي تركه ففسار الى قلعة ماردين ، وبعد ذلك قصد جاولي الى الرحبه وحاصرها مدة سبعين يوما ثم بعث يطلب من جوسلين أن يأتي من قلعة جعبر ، فأعطاه حصانه ، ووشحه بحلة ملكية ، وأرسله الى خاله بلبوين يستعجله في جمع الذهب والافراج عن الأسرى العرب ، وعندما بلغ جوسلين انطاكية أعطى الى طنكريد صاحبها ثلاثين ألف دينار أرسلها هذا بدوره الى جاولي مع مئة أسير وأسيرة من العرب من مدينة حلب. وغادر جاولي متوجها الى الرقة فحاصرها مدة طويلة ، فبعث اليه السلطان غياث الدين الأمير حسين بن أتابك يدعو للعودة الى خدمته وطاعته ، والعودة كما سلف إلى الموصل ، فرفض جاولي هذا العرض ، وزحف الى بالس فحاصرها ودمرها وبطش بأهلها ، ولما علم رضوان صاحب سورية وحلب بما فعله جاولي ببلاده استنجد بملك انطاكية طنكريد ، فباير لنجسته على رأس جيش مؤلف من ألف وخمسمائة فارس افرنجي وستمائة فارس تركي من أصحاب رضوان نفسه ، كما استنجد جاولي بجوسلين وبلدوين فأتيا لنجسته أيضا ، ونشبت معركة عند تل باشر أسفرت عن تغلب فرنجة وأتراك رضوان على فرنجة وأتراك جاولي ، وقد قتل في هذه الواقعة كثير من الأتراك ، وأما الفرنجة فلم يقتلوا بعضهم بعضا ، بل كانوا يكتفون بأن يلقي أحدهم الآخر عن صهوة جواده ، وإثر ذلك انهزم جوسلين وبلدوين الى تل باشر في مجموعة من جند جاولي ، فعالجوا جراحهم ثم ردهم اليه .

ولما أيقن جاولي أنه قد خسر وهنت عزائمه وخارت ، فلم ير وسيلة إلا الاستعانة ثانية بالسلطان فبدل اسمه وهيئته وسارع في بعض اصحابه من سورية الى خراسان قاطعا ثلاثمائة وستين فرسخا في سبعة عشر يوما ، وعندما بلغ المعسكر ، قال لدليله في الطريق : أنا جاولي نفسه أريد خيمة الأمير حسين وكان سلف وراه من قبل في الرحبة فاصطحبه هذا الى السلطان وهو يحمل كفته فعطف عليه السلطان وجعله من بطانته ، أما بزميش فأخذ زوجة

قلج أرسلان من الموصل الى ملطية ، ونادى بطغرل أرسلان بن قلج أرسلان الفتى سلطانا ، وصدف أن كان هناك أمير ثان يدعى أرسلان ، فطلبت أمه أن يبطش بابنها هذا ويتزوجها ، ثم اتفقت أم الفتى مع بعضهم فقبضوا على أرسلان وسجنوه فاعتقد الناس أنهم قتلوه لكنهم ما لبثوا أن أرسلوه بعد سنه حيا الى السلطان غياث الدين بخراسان ، فبعث هذا الى ملطية السلطان ملكشاه بن قلج أرسلان فنادوا به ملكا وخلع طغرل أخاه الصغير وسجن أخويه عربا ومسعودا ، وأما ملكشاه فقد بقي في ملطية عدة أيام يضايقه ويشدد عليه ابن دانشمند ، فقصد ملك الروم الكسس يستنجد به فاستقبله وأكرمه وأجزل له العطاء ، وفي طريق عوبته نصب له ابن دانشمند كمينا فاعتقلوه وأحضره فسلم عينيه ، عند ذلك أفرج زعماء ملطية عن أخيه مسعودا ونادوا به سلطانا عليها ، ولكنه سرعان ما غادر ملطية تاركا فيها أخويه عربا وطغرل أرسلان وقصد قونية واستقر فيها وجعلها عاصمته .

غارات الفرنجة في سورية

وفي عام ١٤٢١ لليونان (١١١٠ م) انتزع الفرنجة طرابلس من العرب بعد أن حاصروها مدة سبعة أعوام ، وفي العام الثاني زحف طنكريد ملك أنطاكية في جيش عظيم من الافرنج ، وانتزع حصونا كثيرة من العرب ، وبطش بكل من فيها ، ومن ثم قصد منبج فلم يجد فيها أحدا ، كما قصد بالس فلم يجد بها أحدا فأحرقها ، ورجع الى طرابلس لترعى مواشيه الكلا ثم يعود ثانية ، وبات العرب في سورية بخطر داهم فقد تعذر عليهم مهانة الفرنجة إلا بالمزيد والمزيد من الذهب ، فقام والي حلب رضوان باهداء طنكريد اثنين وثلاثين ألف دينار ، وأربعين قطعه من أنفس الأقمشة ، وعشرين جوادا عربيا أصيلا ، في حين قدم له حاكم مدينة صور سبعة آلاف دينار ، وصاحب حماة علي الكردي ألفي دينار ، وابن منقذ صاحب شيزر أربعة آلاف دينار ، وكذلك صاحب عسقلان أربعة آلاف دينار

- ٢٢٦٩ -

أيضا وعقدوا معه هدنة الى موسم الحصاد فقط وعلى شرط أن يقدموا الغلال الى الفرنجة أيضا.

وفي هذا العام اعترض الفرنجة ألفا مؤلفة من التجار العرب القادمين من دمياط وتنيس ، وأسروا سبعين تاجرا منهم وباعوهم بأعلى الأثمان بعد أن سلبوا منهم خمسين حملا من الأقمشة الدمياطية وأربعمائه صندوق من السكر المصري الى غير ذلك من البضائع والامتعة.

وفي هذه الآونة زار بغداد فقيه كبير قدم من حلب فأخذ يبكي ويندب حال عرب بلاد الشام بسبب ظلم الفرنجة ويطشهم بهم ، فاجتمع أهالي بغداد يوم الجمعة في المسجد الكبير وألغوا الصلاة ، وكسروا المحراب ، احتجاجا على الخليفة والسلطان لمسائل تقاءسهما عن محاربة الفرنج. وعندما علم السلطان بذلك أرسل ابنه أبا الفتح مسعودا والأمير موبود على رأس جيش كبير الى الموصل لمقاتلة الفرنجة.

وفي عام ١٤٢٢ لليونان (١٩١١ م) انتزع أتابك سلطان ملطية من الفرنجة بلدة جيحان وحل محلهم فيها ، كما زحف في هذا العام ، وانتزع في طريقه بعض الحصون في شبختان وفتك بمن كان فيها من الفرنجة ثم توجه الى الرها ، فحاصرها مدة طويلة ، ولكن لم يتمكن من دخولها ، فتحول عنها الى تل باشر التي كانت للفرنجة ، فلم يتسن له دخولها ، فتحول عنها الى حلب ، لكن صاحبها رضوان أوصد الأبواب في وجهه ، فواصل زحفه الى دمشق ، فبادر إليه أميرها طغتكين وعرض اخلاصه وولاءه في البداية ولكنه خشي أن يغدر به ويحتل المدينة ، فراسل الفرنجة وهادنهم ضاربا عرض الحائط به وبتعهداته.

وفاة الغزالي

وفي هذا العام توفي العلامة العربي الغزالي ووري جثمانه في طرسوس قيليقية ، ولطالما قرع العرب في مؤلفاته ، لاهتمامه بطهارة الجسد وغسله متغاضين عن طهارة النفس والقلب ، وكذلك حضهم على الزهد والعفاف موردا لهم الأدلة الكثيرة والبراهين القوية عن قصص الآباء السياح في كتابه الجليل الضخم ، وهذا ما حملني على ذكره.

وفي عام ١٤٢٤ لليونان - ١١١٣ م غادرت الخاتون زوجة السلطان قلعج أرسلان مدينة ملطية الى قلعة بولا . لتتزوج من صاحب هذه القلعة (بك) لما سمعته من ثناء السلطان عليه ، وقالت له : لقد سمعت السلطان يثني دائما عليك ويقول ليس بين الأمراء الاتراك أشجع وأبرع وأحكم منك لذلك أثرت أن آتي اليك لتحميني وتحفظني أنا وأولادي فتزوجها وعلت مكانته لاقتراانه بامرأة السلطان.

لكن عندما رجعت الخاتون الى ملطية باشرت فطرت منها الاتاك وانفرت هي وابنها بالقلعة ، ويقال إن أحد الاتراك كان مستوليا على حصن زياد ، فظل بك يضايقه الى أن اشترى سلطان ملطية ذلك الحصن من هذا التركي ، ثم ما لبث أن قدم ابن السلطان محمود سلطان خراسان فاستلبه منه ، وخلال هذه الأثناء أبدى أهالي ملطية عطفًا كثيرا فاشتروا كثيرا من أهالي حصن زياد ممن كانوا مأسورين لدى الاتراك واعتقوهم.

وفاة طنكريد

وفي عام ٥٠٧ هـ - ١٤٢٥ لليونان (١١١٤ م) مات صاحب أنطاكية طنكريد فخلفه عليها رجير ، وفي هذا العام أيضا اشتبك عند

طبرية جيش بقيادة بلدوين وجوسلين يتألف من ألفي فارس وراجل مع جيش بقيادة الامير مودود كان يتألف من سبعة آلاف فارس ، فانهزم الفرنجة شر هزيمة، وقتل منهم ألف وثلاثمئة راجل فهرع صنجيل من طرابلس ، ورجير من أنطاكية لنجدتهم وخيمت جيوش الفرنجة هذه على جبل يشرف على الغرب ومكث الجيشان مدة ستة وعشرين يوما ، دون ان يتعرض أحدهما للآخر، فتوجه الفرنجة الى نهر الاردن، ورحلت جموع العرب ، بعدما أنهكهم الجوع بسبب بعدهم عن مدنها ومراكز امدادهم الى ضواحي دمشق ، وذهب مودود الى المسجد لصلاة الجمعة ، وعندما فرغ من ذلك أمسك بيد طفكتين وأخذ كل منهما يسرح أنظاره في عماراته المدهشة، وبينما هما كذلك هجم رجل اسماعيلي على الامير مودود وبادره بأربع طعنات بسكينة فنقلوه للحال إلى دار طفكتين حيث مات هناك، وفي الحال هجم عبيد مودود على القاتل الاسماعيلي فجعلوه أشلاء مبعثرة ، وخيل لبعضهم أن صاحب حلب رضوان هو الذي دبر عملية اغتيال مودود ، في حين ذهب آخرون الى أن طفكتين نفسه هو الذي يقف وراء هذه العملية ، لأنه كان يخشى أن يطمع مودود بمدينته ، ولهذا أغرى هذا الاسماعيلي الذي كان مسجوناً لديه بسبب جرائمه ووعده بجائزة ثمينة إن خلصه من مودود وأن يخلي سبيله ويكافيه . وخلف مودود في القيادة الامير آق سنقر البرسقي، وسرعان ما توجه آق سنقر هذا على رأس خمسة عشر ألف جندي الى الرها وحاصرها لمدة شهرين .

وفي عام ٥٠٨ هـ (١١١٥) م كان الفرنجة يخرجون من الرها باستمرار ويهاجمون العرب وفي إحدى الغارات ساقوا الى مدينتهم أحد عشر عربيا ، وبتروا أرجلهم وأيديهم وعلقوا جثثهم قبالة الأتراك على السور ، وقد أغضب هذا آق سنقر فقتل خمسين أسيرا من الفرنجة حالا، ولما أنهك الجوع الأتراك تحولوا عن الرها الى سميساط التي كانت ترعى أمرها زوجة كوغ باسيل الأرمني ، كما كانت ترعى أيضا أمر مرعش وكيسوم ورعبان ، وقد كانت هذه المرأة تحسن معاملة رعياتها بعد أن مات زوجها ، وقد أعدت جيشا

- ٢٢٧٢ -

كبيرا من فرسان ورجالة ، وقد كانت تدفع للفارس اثني عشر دينارا
ذهبا ، وأما للراجل فقد كانت تدفع ثلاثة دنانير •

أحوال الأرمن

وأما الحكومة الأرمنية ، فلم يكن حالها يختلف عن تلك الصورة ، فقد استعاد اليونان بعد أن تحسنت أحوالهم بعض بلادهم من العرب ، على أن هذا التحسن لم يمكنهم من مقارعة الأتراك ، فقد بقي هؤلاء في بلادهم متخزين الأرمن الذين اعتصموا

بالأماكن الجبلية والجزيرة عملاء لهم ، فقد كان ميخائيل واوهنس في جرجر ، وبيت بولا ، وكان كوغ باسيل (أي اللص) في كيسوم ورعبان وبيت حسنة وقلعة الروم ، وأما الأخوان ابنا قسطنطين بن روبين ففي قيليقية ، أما نبتوغ وبيستفور وقسطنطين أبناء سنبيل فكانوا في كورة سميساط ، وهؤلاء قوم سريان تبعوا كوغ باسيل ، وباسيل الفتى الذي نشأ في رعاية زوجة كوغ التي كان يرعى شؤونها كرديك اللعين ، الذي كان يعرف بكرهه الشديد للسريان ، لذلك احتل ديرهم المعروف بالدير الأحمر الواقع قرب كيسوم ومنحه لغريغوريوس جاثليق الأرمن ، وجعل خمسة من ديرتهم الكائنة في بيت قنايا بجبل زوبر ، قرى ، وأخلى دير عرنيش من رهبانه ، وأسكن فيه حراساً وجنوداً ، واضطهد هؤلاء الرهبان وسلبهم الفي دينار .

وأما ملك انطاكية تنكرد ، فقد حاصر كيسوم مدة سنتين ثم احتلها ، وأما كرديك السالف الذكر ، فقد عرف بمكره ودهائه ، ولهذا لم يستطع الفرنجة أن يتغلبوا عليه إلا بالكر والخداع فقد زفوا اليه فتاة فرنجية تدعى كلامارى شأنه في ذلك شأن شمشون ، فدست له السم فمات .

ولما رأت زوجة كوغ باسيل الجيش التركي يبطش ببلدها ويعيث فيها فساداً استنجت بأق سنقر أمير الخابور ، فلاطفته وأخذته

بالكلام المعسول واعدة اياه بالمساعدة فبعث اليها سفيرا يدعى سنقر يرار الطويل وقبل ان يصل اليها هذا السفير ارتقت عرشها الملكي ، وجعلت جوار من حولها يدخلن بنفيس الحلي والثياب ، وبعد أن دخل مجلسها هذا جلس قبالتها على كرسي فراحت تخذعه بطلو الكلام ولطيفه قائلة : مرجيوشك المعسكرين في الخيام ان يدخلوا المدينة لأن جواسيس أخبروني أن الفرنجة يتأهبون للهجوم ، ولكن سنقر لم يأخذ بكلامها ولم يتدخل عن غطرسته الى أن هجم سبعمئة فارس من الفرنجة على جنوده الأتراك فلم ينج منهم الا القليل ، وبعد ذلك ربت امرأة كوغ باسيل سنقر الى سيده أق سنقر محملا بأنفس الهبات ، فرجع الى سروج وحاصرها خمسة أيام عاث فيها جنده خلالها فسادا في مزروعات هذه البلدة وغلالاتها ، ومن ثم سار الى شبكتان حيث أقام هناك وليمة فاخرة حضر اليها الملك مسعود بن السلطان الذي لم يذهب مع موبود ، بل بقي في هذه البلدة ، وبعد ذلك قبض سنقر على اياز بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين ويطش به ، وغزا بلده .

وضربت مـرعرش في ٢٩ تشرين الثاني من عام ١٤٢٦ لليونان (١١١٥) م و ٢٩ من الشهر السادس العربي هزة أرضية جعلتها قاعا صنفصفا ودفنت اهلها في ركامها كما تخربت نور عدة في سميساط ، ومات فيها خلق كثير ، ومنهم قسطنطين صاحب جرجر ، كذلك وانهار ثلاثة عشر برجاً من سور الرها ، كما انهار جزء من سور حران ، ومائة دار في بالس ونصف قلعتها وانهارت كنيسة ماريوحنا في كيسوم وكنيسة الأربعين شهيدا فيها ، ولكن هاتين الكنيستين أعيد بناؤها بفضل مساعي اسقفها بيونيسوس .

وفي سنة ٥٠٩ للعـرب أي سنة ١٤٢٧ لليونان (١١١٦ م) هاجم رجير صاحب انطاكية بخمسماية من الفرسان الأمير أق سنقر في منطقة تقع بين حلب والمرة فالتجأ هذا الأمير مع أخيه زنكي الى احدى التلال ، ولكن

الفرنجة استمروا في قتلهم لأفراد الجيش التركي ومن معه من التجار وفر آق سنقر وأخوه مع عدد قليل وطاردتهم الأفرنج نحو فرسخ ولكنهم لم يمسكوا بهم ، فعادوا وأسروا ثلاثة آلاف تركي ، وحطموا مامعهم من متاع وأضرموا في خيامهم النار وأحرقوا جميع الشيوخ والصبيان الصغار غير القادرين على العمل ، وساقوا البقية الى أنطاكية .

وفاة الخليفة المستظهر

وفي عام (١١١٧) م أي سنة ٥١٠ هـ توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه في أصفهان وخلفه ابنه السلطان محمود ، كما توفي في هذا العام الخليفة المستظهر في بغداد ، وخلفه ابنه المسترشد الصغير ، كما مات في شهر آب من هذا العام ملك اليونان الكس الذي اشتهر بالشجاعة والحكمة والأقدام فقد استطاع ان يحافظ على عاصمته ولم يمكن الفرنجة من دخولها وقد اضطرب وضع المملكة بعده ، ذلك أن ابنه يوحنا الذي خلفه في الملك اختلف مع أخيه وأخته وأمه ، فحاولوا أن يغدروا به لكنه كان أقوى منهم ، فنفى أخته وأخيه ، وقص شعر أمه وأودعها في الدير ، وفي هذا العام توفي أيضا صاحب غزنة ، وملك مصر ، وبعد ذلك بقليل قتل صاحب أنطاكية رجير ففي هاتين السنتين مات ثلاثة عشر ملكا قبل ان تحصل الهزة الأرضية المدمرة التي ذكرناها من قبل .

أبو منصور المسترشد بالله

فضل - ٥١٢ هـ / ١١١٨ م

دام حكم المسترشد بالله سبع عشرة سنة وثمانة أشهر ، وقام بتكسير خوابي أبيه الكثيرة والممتلئة بالخمر وطرد المغنيين والمغنيات من أرض البلاد في بداية تولية الخلافة ، وأخذ يعيل

للتصوف ، فقد سيطر عليه الاضطراب عندما رأى ابيه في حلم ، يقول له : خذني من عندك حتى لاأخذك الي فقام المسترشد وقبره في منطقة أخرى، ثم امر بتفتيش دار الكاتب ابي طاهر بن أحمد فوجد فيها بيعة وآنية المذبح ، فقال له : ما هذا الشيء ؟ فأجابه كانت لي زوجة نصرانية فصنعت كل ذلك دون معرفتي .

حرب الأمير ايلغازي بن ارتق

احتل الأمير ايلغازي بن ارتق حران في عام ٥١٢ هـ (١١١٨) واعتقل قاضيها وشيوخها الثقة ، وكان والي حلب قد دفع الى رجير صاحب انطاكية ذهباً كثيراً ، لكنه لم يستطع ان يتوصل الى مهادنته الا أربعة اشهر فقط ريثما يحصد الفلاحون أراضيهم وجمع القمح عن البيادر ، لأن رجير سرعان ما عاد وحاصر حلب فاستنجد الحلبيون بالأمير ايلغازي بن ارتق أمير ماردين فلبى نداءهم بجيش قوامه سبعة آلاف تركي ، وشرع يهاجم الفرنج حتى كسرهم وقتل اميرهم رجير ، فانهزم الأفرنج الى انطاكية ، لكن الأتراك لدقوا بهم واحتلوا ضواحي انطاكية ، وقتلوا كثيراً من الرهبان في الجبل الأسود ، ولما علم بذلك ملك القدس بلدوين الثاني لحق بالأتراك ، كما لهم ثم فاجأهم وقتل منهم الكثير ، وعاد ادراجه يريد ايلغازي حيث استولى على كل ما غنمه وسلبه ، وأعادته الى انطاكية وقد ذكر البطريق ميخائيل السرياني أن غازي بن دانشمند هو الذي كسر الأفرنج ، وقتل رجيز ولعل تشابه الاسمين هو الذي أوقعه في هذا الخطأ .

وقعت في سنة ٥١٢ للعرب احداثاً كثيرة فقد احتل أمير ملطية جيحان وابلاستين وقلعة قطيعة ، وكذلك غزا الفرنج في شهر شباط بلدة ملطية وغزا الأتراك بلد جرجر ، كذلك غزا أمير ملطية بلدة قماح ، فتوجه صاحبها الى طرابزون واستنجد باليونان ، فأرسلوا

- ٢٢٧٧ -

معه قائدا واسمه جيراس ، لكنه سرعان ما اعتقل بعد ما هاجمه امير ملطية وبلك ، فدفع لهما ثلاثين ألف دينار وعاد الى بلاده . واستولى يوحنا ملك القسطنطينية على ثلاثة حصون من الترك وغزا ايلغازي ضواحي أنطاكية وأشعل النار في غلال بلدة الرها ، وتولى الحكم ابن طفتكين صاحب دمشق بعد موت أبيه إلا أنه سرعان ما بطش به التنطاش التركي وتولى مكانه .

وفي عام ٥١٥ هـ (١١٢١ م) انقض بون موافقة الامير زنكي الملك مسعود في الموصل على أخيه السلطان محمود فحشد جيشا وهاجم أخاه ، إلا أن السلطان تمكن من القبض عليه وكبله بالقيود وولى بدلا عنه بلاد الموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين الامير البرسقي .

وفي تلك الايام أرسل ملك القسطنطينية اليوناني إلى ايلغازي بن أرتق قائلا : إن أعداد كبيرة من الفرنج توجهوا إلى سورية عبر البحر ، وعلينا أن نستعد لمقاتلتهم وإذا احتجت فإنني أستطيع إرسال ثلاثين ألف مقاتل نجدة لك ، فسارع ايلغازي وسد الموانئ وسدد إلى الفرنجة ضربات شديدة فقتل معظمهم وهرب من تبقى إلى فروجية ، وكان ذلك مؤامرة من اليونان المراوغين .

وفي أطراف حصن زياد وبولا وملطيه كان أرمن جرجر يغيرون وينهبون ، فبعث بلك الامير التركي إلى ميخائيل الأرمني صاحب جرجر طالبا بأن يوقف أتباعه عن السلب ، مقابل تقديم كل عام ألف حمل حنطة وثلاث قرى من قراه ، فأقسم له ميخائيل صاحب جرجر على الوفاء غير مرة لكنه كان يحنث بقسمه دائما وبقي أتباعه يسرقون ويحرقون القرى في هنزيط، مما اضطر بلك للعبور إلى جوباس في شهر شباط على جليد الفرات، فقد كانت الثلوج متراكمة في ذلك الشتاء القاسي، وعلى الرغم من ذلك اجتاز جبل قريونا الشاهق فقد أرسل ألفا من الخيول شقت الثلوج وسارت وراءها الجيوش التركية .

ووصلت إلى دير برصوم خلال يوم واحد وقد شقت قوات ملك في جرجر جبل الجدار خلال الليل وهجموا على ملطيه في يوم الاثنين أول كانون الثاني ١٤٣٢ لليونان (١١٢١ م) وأسروا السكان واستولوا على الحيوانات، لكن ملك عاد فأشفق على الفلاحين المسيحيين فأعاد لهم أموالهم كلها ، ونقلهم إلى هنزيط وأصدر لهم أمرا أن لا يعودوا ثانية إلى جرجر ، وأنه إذا وجدهم ثانية في تلك المناطق فإن عقابهم سيكون شديدا .

وفي عام ١٤٣٣ لليونان (١١٢٢ م) أرسلت إلى بلدة الكرج جيوش تركية ضخمة من قبل السلطان محمود فأغلقت الثغور وأهكت الكثير ، ثم غزا بلده جوباس الفرنجي. وفي هذا العام توفي الملك ايلغازي بن أرتق. وتزوج ابنة جوسلين رجير صاحب أنطاكية بعد وفاة زوجته ، وأراد أن يصطحبها معه إلى الرها ، لكن ملك نصب كمينا لها وقبضوا عليها وأخذوها إلى بولا. كذلك تنازل عن جرجر للملك بغدوين ميخائيل الأرمني بعدما تغلب عليه الأتراك واستولى على مكان آخر .

وفي العام ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) أتى إلى بغداد قاضي الموصل ابن الشهرزوري ودفع للخليفة خمسة آلاف دينار واحتل غربي بجلة كلها من حدود الموصل حتى البصرة .

« أسر ملك الملك بيت المقدس بلدوين »

بينما كان الأفرنج مخيمين عند شواطئ نهـر سـنـجـة في عام ١٤٣٤ لليونان (١١٢٣ م) فاجأهم الأمير التركي ملك وتمكن من القبض على الملك بلدوين وكان ذلك يوم الأربعاء من أسبوع البياض ، واستعد القمصان جوسلين وغالران كل الصيف لمحاربة الأتراك وفي أيلول تلاقى الجيشان ، وأثناء الحرب تمكن ملك من الانتصار على الفرنج. وكان ذلك ليلة عيد الصليب واستطاع أن يأسر القمصان جوسلين وغالران حيث ألقى بهما في بئر مهجور مع الملك

بقلعة خرتبرت ، وهي حصن زياد ولكن العمال الارمن تمكنوا من دخول القلعة حينما تأكدوا بأنه لا يوجد هناك إلا عدد قليل من الأتراك ، فقد تجمهروا أمام الباب محتجين على الأجرة التي يأخذونها ثم هجموا على الحراس وأخذوا السيوف وقتلوا الأتراك الذين في القلعة ، وانتشلوا الملك بلدوين وجوسلين وغالران من البئر ، وقضوا على العرب واحتلوا القلعة ، ثم احتال جوسلين فغادر القلعة ليلاً متنكراً بصحبة رجل أرمني ليأتي بجيش ويحتل القلعة لينقذ الملك بلدوين ، غير أنه ماكاد يخرج جوسلين حتى وصل بك ف ضرب القلعة بالمنجنقات واحتلها ، وقتل سبعين من الأرمن والفرنج ، وقاد بلدوين وابن أخته غالران إلى منبج وحاصرها إلا أن سهما أصابه من أعلى السور فقتله فهربت جيوشه إلى حلب وتولى ابن عمه تمرتاش بعده فباع الأسيرين بمائة ألف دينار ، وعاد بلدوين إلى بيت المقدس ، بعد ذلك تولى حصن زياد سليمان نسيب بك ، وتولى أميرملطية مسارا وجرجر ، وفي تلك الأيام ظهر في السماء شهاب امتد من الجنوب إلى الشمال ، وكان عرضه بعرض رقبة الحصان وقد ظل في السماء لمدة شهرين .

وقائع

١٤٣٥ - ١٤٤٦ يونانية / ١١٢٤ - ١١٣٥ م

هجم الأمير غازي بن دانشمند صاحب سبسطية على ملطية في يوم الجمعة ١٣ حزيران ١٤٣٥ لليونان (١١٢٤ م) فتمكن من اجتياح ضواحيها كلها ، ثم حاصرها لمدة شهر لكنه لم يستطع أخذها فترك حولها ، في قرية سامان ابنه محمدا مع جيش كبير ، وأمره بمداومة حصارها وأن لا يدع أحدا يدخل إليها أو يخرج منها ، وفي هذا الوقت كان أميرها المدعو عرب يغير على بلد دانشمند ويسرق وينهب .

وأدى حصار ملطية إلى تفاقم الجوع بين أهلها حتى وصل سعر قفيز الحنطة ، أي حمل الجحش إلى ستة وثلاثين دينارا ذهباً وانتهى القوت من المدينة فأخذ أهل ملطية يسلقون الجلود اللينة والأحذية وأغلفة الكتب ويأكلونها ، كذلك انقرضت من المدينة الحمير ، والقطط والكلاب وهكذا يكون قد نزل بملطية ثلاث نوازل أليمة نتيجة الحصار الذي وقع عليها . الجوع الذي يفتك بأهلها والسيف الذي يتسلط على رقبة كل من يخرج منها ، وايزابيل الثانية ، أم السلطان التي كانت قد أتت من الموصل لتسلب الناس مامعهم من ذهب ومقتنيات وتمضي ، لكن الرب لم يطبل محنة المسيحيين والامهم ، فارتحلت تلك الملعونة مع ابنها وكان ذلك في ليلة الأربعاء العاشر من كانون الأول ١٤٣٦ لليونان (١١٢٥ م) ، وفي ذلك اليوم تساقطت نجوم من السماء ، وعندما دخل الأمير غازي ملطية ارتاع لما رأى الناس كأنهم خارجين من القبور لكثرة ما أصابهم من الجوع وأشفق عليهم ، ومنحهم الحبوب والحنطة ليزرعوها ، كذلك استحضر لهم البقر والأغنام والثيران ليعتاشوا منها وانتعشت أحوال السكان وعادت فازدهرت المدينة.

ذكر البطريرك ميخائيل السرياني : أن الخليفة المستظهر توفي هذا العام وخلفه المسترشد ابنه ، ولعله أخطأ في روايته بسبب الاختلاف بين السنين العربية القمرية والسنين اليونانية الشمسية .

في سنة ١٤٣٧ يونانية (١١٢٦ م) قتل الأفرنج صاحب حماة في كفرطاب ، واحتلوا جبله وضيقوا الخناق على صور بوساطة مراكب الفرنج القادمين من مدينة البندقية ، أضف إلى ذلك فقد أتى ملك بيت المقدس لمساننتهم فاستطاعوا أن يحتلوا صور بعد معارك طاحنة .

وفي هذا الوقت حشد الملك عرب جيشا وهاجم أخاه مسعود سلطان قونية لتحالفه مع ابن داندشمنده فهرب السلطان مسعود إلى ملك اليونان يوحنا في القسطنطينية ، فرحب به يوحنا وزوده بجيش كبير ، ومال وذهب وقصد غازي ، ثم سار الجيشان إلى عرب ، وحدثت معركة انهزم فيها عرب وهرب إلى بلد قورس الأرمني أمير قيليقية ، وفي عام ١٤٣٧ لليونان (١١٢٦ م) هجم على أق سنقر البرسقي أمير الموصل عشرة من الاسماعيلية وطعنوه وهو يصلي في مسجد الموصل القديم لكنه نهض وتمكن من قتل ثلاثة منهم قبل أن يموت ، وخلفه ابنه عز الدين مسعود على الموصل وجزيرة قريو والجزيرة وحلب وحماة وغيرها ودامت ولايته سنة واحدة ثم توفي ، فخلفه أخوه الصغير ، وكان يساعده الأمير جاولي ، وكان من غلمان أبيه البرسقي ، وبعد ذلك أرسل جاولي قاضي الموصل أبا الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين الياغسياني بمثابة رسولين إلى السلطان في بغداد ليؤيد ابن البرسقي الصغير في الولاية، غير أنهما قالوا للسلطان : إن الموصل تحتاج إلى رجل قوي يستطيع مقارعة الأفرنج الذين هزموا العرب جميعا.

وقصدا بالقول : أتابك زنكي بن قسيم الدولة أق سنقر ، الذي كان شحنة في واسط وبغداد فوافق السلطان وحمله فرمانا بذلك وأرسله إلى تلك المدينة ، وحين مروره في بيت وازيق احتلها ، وعند بلوغه الموصل ولى صلاح الدين الياغسياني أمر حراسة القلعة .

وأرسل جاولي إلى الرحبة، وكلف ابن شهرزوري قاضيا على الموصل وماتلاها يرثه في القضاء نسله من بعده على طول الزمن . وتولى زنكي كذلك الجزيرة واربيل وسنجار والرحبة وحلب وحماة وحمص ، وانهزم عرب ولحق به غازي واستولى على خيامه ، ثم انطلق إلى قومانة وأنقرة وحاصرها شديدا في عام ١٤٣٨ يونانية (١١٢٧ م) واحتلها واستطاع أن ينقذ محمد ابنه الذي كان قد حبسه عرب هناك . ثم حشد عرب جيشا للمرة الثانية وزحف يريد غازي فانكسر وفر هاربا إلى بلاد اليونان ، ثم ضاعت أخباره ولم نعد نسمع عنه شيئا . ثم أتى من رومية بوهيموند بن بوهيموند الفرنجي إلى أنطاكية عام ١٤٣٨ يونانية وتولى مقاليد الأمور فيها، ثم نشب خلاف بين الفرنج فغزا جوسلين ضواحي أنطاكية مما سبب غضب بطريركهم عليه ، وأغلق الكنائس وأمر بإيقاف الصلوات وقرع النواقيس حتى يرد جوسلين جميع الغنائم .

وفي عام ١٤٣٩ لليونان (١١٢٨ م) صمم الحلبيون أن يدفعوا لجوسلين كل عام إثني عشر ألف دينار شرط أن لا يضيق عليهم ، واتفق بعض أتراك حلب مع فريق من طباطخي الفرنج بأن يعطوهم ذهباً مقابل أن يسقوا جوسلين وستة من فرسانه سما مما أدى إلى القضاء على حياة الستة إلا جوسلين فقد تمكن الأطباء من معالجته حتى شفي وبعدها قضى على الذين سقوه السم وفتك بعائلاتهم وأولادهم جميعاً.

في تلك السنة غزا طغرل أرسلان أطراراف ملطية الخارجية وكانت قد انتزعت من يده . لكن بعد ذلك عاد أدراجه وضاعت أخباره ولم نعد نسمع عنه شيئا ، ثم غزا جوسلين التركمان والأكراد عام ١٤٤٠ لليونان ووصل إلى آمد ، وفي السنة نفسها علم زنكي أن السلطان يريد أن ينصب دببيس زعيم المعديين أميرا عوضا عنه في الموصل، فذهب زنكي إلى بغداد وأخذ يتوود إلى السلطان و قدم له مائة ألف دينار وكذلك قدم للخليفة هدايا ثمينة جدا ليبقيه في مكانه ، وكانت قد جرت بين الخليفة ودببيس خلافات

- ٢٢٨٣ -

كثيرة ووقائع كبيرة ، فقد انضم دبببب إلى السلطان منذ البداية ، وأخذ بازاء الخليفة فتسرع يركب إلى بغداد مطمئنا محتقرا الخليفة ، كذلك ولما مرض السلطان مزق دبببب ابنه الصغبر وانهمزم ، ثم توجه وغزا الكوفة والبصرة والحلة ، وجمع ذهبا كثيرا وضم إليه عشرة آلاف فارس ، ولذلك كون جيشا خاصا به ، وهناك أمثلة كثيرة على مكر دبببب لايسع هذا المؤلف السرد فيها ، وقيل إنه خلال عراق جرى بين الخليفة ودبببب انكسر دبببب مع أصحابه إلا أنه استطاع أن ينجو على حصانه وعبر الفرات، فرأته عجوز وقالت له : هل حضرت يا دبببب ؟ أعني ياتاعس الحظ ، وما كان منه إلا أن تبسم ، ولم يصرخ في وجهها وقال لها : إن التاعس الحظ هو من يتغيب ولا يحضر.

وفي هذه السنة اندلعت حرب طاحنة بين الفرنج والاسماعيلية فاجتاح عشرة آلاف من الفرنج الحصون الكثيرة التي كانت بيد الاسماعيلية في فينيقية .

وأصبحت قلوب عرب سورية مليئة بالرعب من الفرنج الذين سيطروا على جميع البلاد من ماردين وشبكتان حتى عريش مصر. واستخدموا سياسته التضيق على دمشق وأرغموا الأهالي على دفع جزية في السنة قدرها عشرين ألف دينار ، ثم أحصوا كل مافي دمشق من العبيد النصاري ونقلوا كل من رفض الإقامة مع العرب دون أن يعطوا أثمانهم لمواليهم ، وكانوا يأخذون نصف الغلات من حلب حتى من الرحي التي على باب الجنان ، ووصلت جيوش الفرنج الى نصيبين ورأس العين، وصارت حياة أهالي الرقة وحران شاقة للغاية، وأصبح من الصعب على العرب السفر من المشرق الى دمشق الا عن طريق البادية .

وفي عام ١٤٤١ لليونان (١١٣٠م) تولى لاون أمر قيليقية بعد وفاة أخوه تورس ، وزاحمه بوهيموند صاحب انطاكية ، وفي هذه

- ٢٢٨٤ -

السنة عينها وهي ٥٢٤ هـ ، في الثامن من آذار حدث زلزال قوي وعنيف في بغداد فهدم كثيرا من المساكن والبيوت كذلك غطت الموصل سحابة كثيفة ، وهطل مطر غزير ، ثم بدأت تتساقط جمرات نارية هائلة من السماء ، فأحرقت وخربت بيوتا كثيرة مع أثاثها ومحتوياتها .

وفي هذا العام توجه الزعيم اليوناني قسيانوس يريد غازي بن داندشمند فسلمه كثيرا من الحصون في بلاد البنطس ، وتولى كبدوكية بأجمعها ، ثم حشد غازي جيوشا كبيرة وزحف لغزو قيليقية ، وصدف أن دخلها بوهيموند أمير انطاكية من ناحية أخرى دون أن يعلم أحدهما بالآخر، وأمام هذا حدثت معركة طاحنة بين الأتراك والأفرنج ، بينما ظل لاون الأرمني قابعا ينتظر نتيجة صراع الخصمين ، وكانت نتيجة المعركة أن انتصر الأتراك وقتلوا بوهيموند ، دون أن يعرفوا أنه الملك ، وللحال تحرك لاون فسد الثغور في وجه الأتراك ، وهاجمهم وقتل كثيرا منهم .

وفي عام ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) هاجم صاحب دمشق ديبس المعدي واسره ، وأرسله الى زنكي أمير الموصل ، فقام زنكي بالمقابل بإرسال ابن ديبس الذي كان أسيرا لديه .

وفي عام ١٤٤٢ لليونان (١١٣١ م) قدم ملك بيت المقدس الى أنطاكية ، وكذلك اتاها جوسلين من الرها ، فما كان من الأنطاكيين الا ان اغلقوا الأبواب في وجههما حتى أبرما قسما أن تبقى مدينة أنطاكية لابنة بوهيموند حتى تكبر وتتزوج فيصبح زوجها خلفا لوالدها .

ثم استطاع غازي بن داندشمند أن يدخل قيليقية ويستولي على بعض الحصون ، عنئذ أقسم له لاون الأرمني أن يمنع لصوصه من الاغارة والسطو على بلده ، وكذلك أن يؤدي له الجزية كل سنة لكنه أخلف في قسمه ثانية ، ولم يدفع شيئا ، ثم توجه اسحق أخو ملك

اليونان الى قيليقية وزف ابنته الى لاون وأعطاه المصيصة واذنه عوضا عن مهرها ، لكن مالبث أن نشب خلاف بينهما فهرب اسحق وابنه الى بلد سلطان قونية .

وفي هذه السنة توفي جوسلين ؛ وخلفه على الرها جوسلين الثاني ، وكذلك رحل السلطان يريد الصلح ، فشرع يستعطفه حتى حمل له السرج ، عندئذ تعانقا فولاه شؤون البلاد والعساكر ، ثم توجه الى همذان وتوفي هناك عن عمر يقارب الثامنة والعشرين ، فحدث خلاف بين داود ابن السلطان محمود وبين مسعود وسلجوق شاه وطغرك ، وكان طغرك مع عمهم الملك سنجر فأرسل الثلاثة الى الخليفة كل منهم يطلب ان يكون هو السلطان ، فاختار الخليفة في البداية سنجر لان طغرل كان معه ، وأرسل يقول للبقية من يقبل به ويقدم له كتاب الطاعة فسوف استقبله أنا ، ثم كتب الى سنجر يقول : أننا لن نقبل بغيرك ولن نسمح لأحد غيرك ، وحين وصلت الى مسعود رسالة الخليفة توجه الى زنكي في الموصل يطلب منه مالا لبيعته للخليفة مع ببس زعيم المعديين، وبذلك يكون قد اسدى جميلا له،فوافق زنكي وقال : أعطيك خمسين ألف دينار ذهباً ، وكل ماتريد من جوار وخيل ، لكنه رفض ان يسلم ببس قائلاً : ان السلطان سنجر نهاني عن ذلك وأنا لا أستطيع مخالفته ، فخامر الشك مسعود وخرج فسكن غربي الموصل ، فأغلق زنكي أبواب المدينة لكن الناس لم يعودوا يستطيعوا العيش ضمن هذا الحصار خاصة بعد أن تحصن هو في القلعة ، أما مسعود فقد ذهب الى بغداد ولم يهاجم الموصل وأرسل الى الخليفة يقول : ان خطبتكم باسمي فساكون لكم طائعا وصديقا ، وان رفضتم ذلك فليس لكم عندي الا السيف ، فاشتبك الحال عسكر بغداد مع عسكر مسعود ، وفي معمران المعركة وصلت اخبار بأن سنجر قادم الى بغداد في جيوش ضخمة ، فانتشر الرعب في نفوسهم وفي نفوس البغداديين ، ورأى الخليفة بأن مسعود أقوى من سنجر ، فتحالف الخليفة معه وأسكنه في القصر الملكي واتفق

الجميع على محاربة سنجر ، فتوجه سنجر الى همذان واحتلها ونادى باسم طغرل بن محمود .

وفي عام ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) توجه كذلك مسعود قائد جيوش الخليفة الى همذان مطاردا سنجر وبعث الى الخليفة ليشارك في المعركة بنفسه ، وما أن استعد الخليفة للرحيل حتى وصل خبر أن زنكي ودييس المعدي قد اتفقا أن يذهبا الى بغداد فرجع الخليفة وتصدى لهما في ألقى رجل ، وهزمهما ففر زنكي الى تكريت ودييس الى الفرات ، وما كان من زنكي الا أن يبعث بالقاضي ابن الشهرزوري الى الخليفة طالبا منه المغفرة وينتظر أمره ليذهب اليه ويتولى بغداد قبل سنجر ، فرد عليه الخليفة قائلا : إن سنجر ليس له سلطنة عندنا ، واذا أراد زنكي ان يصلحنا فعليه ان يسلمنا بديس ويبقى هو في الموصل ، والا فنحن زاحفون اليه .

وفي بداية سنة ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) دخل السلطان مسعود الى بغداد فنودي باسمه واسم سنجر واسم داود معا سلاطين بعد الخليفة وابنه ، ثم زحف الخليفة المسترشد وحاصر الموصل ثمانين يوما ، فأبى عليه فبلغه خبر بأن السلطان مسعود قادم اليه ، فترك الموصل وفر هاربا الى بغداد ، واحتل جوسلين الثاني قلعة شبكتان وهدمها الى الأرض ، وتوجه يوحنا ملك اليونان واحتل حصن قسطنطونة منتزعا اياه من الأتراك صلحا ، ثم أنه احتل حصنين آخرين عنوة ، كذلك ملك ملك بيت المقدس الفرنجي قلعة القصير قرب انطاكية بالقوة ، وزحف الى عم (٤) ، فاحتشد الأتراك هناك بالآلاف كالجراد ليقاتلوا الفرنج ، وفي البداية انهزم الفرنج لكنهم استرجعوا الأتراك الى البقاع وهناك التقى الجيشان وحدثت معركة تلقى فيها الأتراك ضربة قاضية حتى المساء ، وكان هذا عام ١٤٤٥ لليونان (١١٣٤ م) ، وفي تلك السنة زحف على الرها الجراد فاستنجد المسيحيون بالصفى برهموم (٥) فأحضروا صندوق رفاته ، فارتحل الجراد عنهم ولم يؤذ البلد مما أدى الى سخط الروم فعرضوا ببيوس مطران الفرنج أن يأمر بفتح صندوق رفاته ، لكن

الرهبان رفضوا طلب مطران الفرنج أول الأمر، إلا أنهم رضخوا في النهاية واضطروا أن يفتحوه في بيعة الفرنج لأن الفرنج سخرؤا منهم وقالوا: إن هذا الصندوق فارغ ولا يحتوي شيئا ، وعند فتحه حدثت تبدلات في الجو فتلبت السماء بغيوم سوداء ، وسقط برد قتال ملا الشوارع فتصاعدت الأصوات من كل جهة تطلب النجدة وتقول ارحمنا يا صفي الله ، امسا اليونان فقصده انهزموا، وبعد أن انقطع البرد اجتمع الأهالي ودامت صلاتهم ثلاثة أيام ، وحين شاهد العرب الحرائيون هذه الأعجوبة طالبوا بنقل الرفاة ليكون في عهدتهم ، لكن الفرنج رفضوا وروده الى الدير بكل احترام وتقدير ، ثم نقله الملطيون اليهم بالصلوات والتراتيل ، أما الجراد فلم يستطع أن يأكل الزرع ، وكأن يدا قد لجمت فمه ، وفي ٢٣ ايلول سقطت صاعقه من السماء فاحرقت سبعة ثيران وولدا ، كذلك أحرقت صبيا آخر في سمنندو ، وحدثت زلزلة عنيفة في ملطيه وسقط ثلج أحمر. وبعدها في عام ١٤٤٦ لليونان زفت بنت بوهيموند صاحب أنطاكية الى ريموند دي فوترس الذي قدم من أنطاكية وتولى أمارتها. وفي السنة نفسها توفي بلدوين الثاني ملك بيت المقدس ، وزفت ابنته الى فلك ، فخلفه في مكانه ، وأيضا أرسل في هذا العام زنكي صاحب الموصل ابنه الى بغداد وأعطاه مفاتيح المدينة وبعض نسائه كودائع ، وأقسم أن يكون طائعا ، فنال بذلك الرضى ، وبعدها اصطلح الخليفة والسلطان سنجر ، فبعث الخليفة له تاجا وطوقا وحصانا بنعلين ذهبيين، فما كان من سنجر إلا أن نهض وقبل حوافر الحصان ، وقدم الطاعة للخليفة وفي السنة عينها خرج ابن جبارا جاثليق النساطرة (١١٣٣ - ١١٣٥ م) الى الحديقة اثناء الليل فوطىء على حيه لدغته فمات ، وقيل أنه مات رعبا وأن الحية لم تلدغه ، وفي السنة ذاتها أطلق الخليفة على الأمير غازي بن دانشمند اسم الملك غازي حيث أرسل له طوقا ذهبيا للدلالة على العبودية ، وصولجانا وأربعة بنود سوداء وطبولا تسدق أمامه ، وحين وصول السفراء كان الملك غازي مريضا وما لبث أن توفي، فعيّنوا ابنه محمدا خليفة له ورجعوا.

الأحداث التي جرت في عهد محمد بن الأمير غازي ابن دانشمند

وفي عهد محمد هذا قامت أحداث كثيرة حيث أعاد بناء قيساريه كببوكيه التي كانت قد تهدمت وجعلها عاصمة له ، ثم توجه الى ملطيه حيث كان خائفا من اتفاق الزعماء مع أخيه بياجان فحمل معه الهدايا لكنه ما لبث أن غدر بأخيه وقتله، كذلك غزا أخوه الثاني بولت بلدة ملطيه ، وحدث في الشهر السابع أن ألغى الخليفة المسترشد الخطبة باسم السلطان مسعود ، وأرسل جيشا يتألف من سبعة آلاف جندي لمقاتلته ، وكان قد بلغه أن جيش السلطان يتألف من ألف وخمسمائة عسكري فقط ، لكن ما لبث أن أصبح جيش الخليفة خمسة آلاف عسكري ، وغدا جيش السلطان خمسة عشر ألفا ، فانهزم الخليفة واعتقل هو ذاته ونهب ما كان معه من أعتدة ومتاع وثروات ، لقد نهب منه سبعون حمل بغل ذهبيا وفضه ، وخمسة آلاف حمل جمل وأربعمائه حمل بغل أقمشة وثيابا مفصله ومخاطه وغير ذلك، وأمر بعد ذلك مسعود المنادي أن ينادي في صفوف الجيش بأن الأموال والأمتعة لكم والدماء لي ، وأن من قتل رجلا قتلت عوضا عنه ولذلك لم يقتل سوى خمسة أشخاص فقط ، كذلك نادى المنادي أن من يبقى هنا من حزب الخليفة يقتل ، فما كان من البغداديين إلا أن فروا وهربوا عراة حفاة هنا وهناك ، وأرغم السلطان مسعود الخليفة بأن يكتب كتابا يقول فيه للبغداديين بأنه في أمان وأنه سوف يعود اليهم قريبا ، لكن البغداديين لم يصدقوا وأيقنوا أن الخليفة كتب هذا خوفا ، فما كان منهم إلا أن ثاروا وأثناء ذلك قتل نحو مائه وخمسين من العامة، ثم هدأت فورة غضبهم تلقائيا .

وفي هذه الأحداث أخذت الزلازل تهز أرض بغداد تكرارا وكل يوم خمس أو ست مرات ، فأرسل السلطان سنجر الى السلطان مسعود

سفيرا يحمل رسالتين الاولى سريه مضمونها كان سبا وشتما لانه لم يقتل الخليفة اثناء المعركة ، اما الثانية مفتوحه وتقول اذا رايت هذه السطور يا بني غياث الدنيا والدين مسعود فاذهب الى امير المؤمنين وقبل الارض امامه ، واطلب منه المغفرة على ذنبك ، وأنا لا يسعني الصبر على ما تراه عيني مما يحدثه الله سبحانه وتعالى بسبب ذلك من رياح وصواعق وبروق وغير ذلك ، وقد حزن العرب قاطبه وأغلقت المساجد وألغيت الصلوات في بلاد العجم وشنعار ، فأرجع الخليفة الى ما كان عليه والى مكانه باكرام بون تعلل ، وسلمه دبيس ليفعل به ما يشاء لانه سبب كل تلك الفتن ، ولما رأى مسعود ذلك أصدر أمرا فنصبوا خياما كبرى ، وأقاموا الخليفة هناك وحملوا أمامه الاغطيه نحو نصف فرسخ ثم جاء به مسعود الى خيمته الملكية الكبرى ، وطلب المغفرة منه على ذنبه ، واعطاه دبيس مربوطة ، وقدم معه سيف وكفن قائلا إن هذا سبب كل المصائب فافعل به ما شئت عقابا على جرائمه ، لكن الخليفة أدرك أن هذه الكلمات نابعة من الفم لا من القلب ، فعفا عن دبيس ، فأمر السلطان مسعود الخليفة بأن يذهب إلى بغداد ، لكن الخليفة رفض وقال له : لن أذهب إن لم تأت معي ، فقال مسعود : سأرسل معك امراء يحيطون بك فتدخل بكل احترام واجلال الى دارك ، لكن الخليفة خاف أن يضعوا له كميناً في الطريق ويتخلصوا منه إذ لايسعهم أن يصنعوا هذا علانية بإمام دينهم ، وقدر مسعود أن يتوجه الى انريجان ليقا تل ابن اخيه داود ، وذهب معه الخليفة ، لكن سنجر بعث وفودا الى مسعود الى مراغه وهو عند بابها ، وبعث له بأن يرد الخليفة الى بغداد بسرعة ، وكان من جملة هذه الوفود سبعة عشر من الاسماعيليه ، وفي يوم الخميس عام ٥٢٩ هـ (١٣٣٤ م) هاجم الاسماعيلية خيمه الخليفة ، وكان يقرأ في القرآن وأجهزوا عليه وعلى ثلاثة من خدمه بالسكاكين ، فما كان من مسعود إلا أن أحاط بالخيام وفتك بالقتله ، وقيل في هذه الواقعة إن سنجر لم يكن لديه علم بالاسماعيلية ، لكن الحقيقة هو الذي أرسلهم بون علم مسعود.

ال خليفة الراشد

كانت مدة حكمه سنة فقط ، فبعد مقتل أبيه الخليفة المسترشد ، أمر السلطان سنجر قضاة بغداد وأقطابها أن يبايعوه بالخلافه مكان أبيه ، فأنصاعوا للأمر.

مقتل دبيس بن صدقة

في هذا الوقت تأمر دبيس بن صدقة وغدر بالسلطان مسعود ، حيث كتب الى زنكي قائلاً : انني أتلهف لأتي اليك وأحشد جيشاً ضخماً من المعديين عدد بعدد رمال شاطئ البحر ، ثم نتحد سوياً ونعمل ضد مسعود عملاً تذكره الأجيال القادمة ، وقد شأعت الأقدار أن يعتقل الرسول حامل الرسالة ، ف وقعت الرسالة بيد مسعود دون أن يعلم دبيس بذلك.

ولما اجتمع الأقطاب مع مسعود ، سقاهم كعابته ماء السكر ، ثم أشار على دبيس أن يبقى بعد ذهاب الجماعة قائلاً : هناك موضوع خاص وسري أريد أن نتحدث فيه ، فذهب مسعود الى الخيمة الداخلية وأعطى الرسالة الى عبد أرمني يحمل سيفاً قائلاً : أعطيها لدبيس ، وعندما يبدأ بقراءتها اضربه من ورائه وأقطع رأسه ، فلما ذهب العبد شاهد دبيس يضرب الأرض بأصبعه ويقول : إن الموت خير من حياة بهذه الحالة من الاضطراب ، فأعطاه الرسالة ، وعندما بدأ يقرأها ، فاجأه العبد بضربة فلقت رأسه عن هامته ، وهكذا انتهت حياة هذا المراوغ ، وقد تم قتله بعد مضي خمسة وثلاثين يوماً على قتل خصمه الخليفة المسترشد.

نهاية ميخائيل الأرمني

في السنة ١٤٤٧ يونانية (١١٣٦ م) و ٥٣٠ هـ نكث ميخائيل الأرمني بوعده للفرنج ، فقد كان قد باعهم منذ أيام بك قلعة جرجر ، لكنه عاد الآن وشرع يغزو مناطقهم ، فأدركه الأتراك يوما على ساحل الفرات عند قرية كور زيزونا ، فحاصروه من جميع الجهات ، ولم يستطع الخلاص فألقى بنفسه في النهر ، وكان يلبس درعا حديديا ، فغرق في الماء ، لكنه ما لبث أن عاد فطفأ وهرب الى الضفة الثانية ، واستطاع أن يفلت من الأتراك ، وقيل أنه لم يلق من يده المجن أثناء ذلك ، بعد هذا تخلى لجوسلين الثاني عن مدينة جرجر ، وأخذ عوضا عنها مكانا يسمى سفرس ، ثم قام باسكيل أخو جاثليق الأرمن فاشتراها من جوسلين ، لكن ميخائيل عاد فحشد عسكره وزحف إلى كيسوم ونهب ضواحيها ، فنصب الفرنج له كمينا فأسروه وقتلوه ، وبعد ذلك توجه باسكيل إلى قيليقية فتزوج أخت لاون ، ثم جمع عددا من الأرمن وأسرع يتحرش بالفرنج في منطقة فرزمان ، لكنه لم يستطع أن يحقق شيئا ، بل بالعكس قتل العديد من جماعته .

وفي كانون الثاني من هذه السنة اجتاحت أمد موجة من البرد القارس فالتجأت إلى المدن الطيور الجبلية كالحجل وغيره ، وكذلك حيوانات البراري كالغزال ، فأصدر الحاكم أمرا أن لا يتعرض لها أحد من الأهالي ، فأخذوا يقدمون لها الطعام حتى حلول شهر نيسان ، ثم أطلقوها ، وقد قيل إن هذه الطيور والحيوانات شرعت منذ بداية الخريف تلتجئ إلى الكهوف والمغاور وكأنها شعرت مسبقا بقدوم البرد مما يدل أن الله تعالى قد علم الحيوانات التنبؤ بالحوادث الطبيعية قبل وقوعها .

نهاية الخليفة الراشد بالله

وفي هذا العام أرسل السلطان مسعود إلى الخليفة الراشد رسولا يطالبه بمبلغ قدره ثلاثمائة ألف دينار كان قد سلف ووعده بها والده المسترشد يوم كان عنده ، وثلاثمائة ألف دينار غيرها يجب أن يجيبها من البغداديين مساعدة له ويضم إليها حقوق الخلافة الجديدة كالعادة .

فتنادى الخليفة للاجتماع بمستشاريه وبعد تداول طويل قرروا أن يجهز الخليفة جيشا ويتوجه لمحاربة مسعود ، ففتح الخليفة خزائنه واستخدم ما فيها من الذهب وشرع في تجهيز الجيش ، ثم استدعى الرسول وعنفه قائلا : كان وعد أبي بالذهب لأجل نجاته ، لكنكم قتلتموه ، وأما الآن فيتوجب علي الانتقام ، ومن الآن فصاعدا ليس لكم عندي إلا السيف ، فرجع الرسول مسرعا ، وبدأ الخليفة في بناء الأسوار ، وترميم الأبراج ، وعندما انتشر الخبر بدأت النجدات تأتي إلى الخليفة ، فأقبل زنكي أمير الموصل ، وداود ابن أخي السلطان مسعود .

وحاول الخليفة أن يلغي الخطبة باسم السلطان مسعود وأن يخطب باسم داود ، لكن زنكي رفض ذلك وقال : لا تتحرشوا بمسعود ، بل قولوا لداود أن يذهب ويستشر عمه فإن وافق خطبنا باسمه ، لكن الخليفة رفض اقتراح زنكي ، وألغى الخطبة باسم مسعود ، وخطب باسم داود سلطانا ، فبادره مسعود بالقول : لقد أصبحنا بغنى عنك وقد أقمنا خليفة موافقا لنا من سلالة علي ، فابحث لك عن مكان آخر وارحل إلى حيث شئت ، فأرسل الخليفة إلى بهروز أمير تكريت قائلا إنني قادم إليك لاتحصن في قلعتك ، فأجابه بهروز : أنا عبد مسعود ولا أستطيع أن أقول له لا إذا طلبك مني ، حينئذ لم يعد أمام الخليفة سوى محاربة مسعود ، فنصب

خيامه عند مشارف بغداد ، وأبقى عنده زنكي وبقية الأقطاب ، لكن سرعان ما ورد خبر يقول : إن مسعود قادم في جيوش كثيرة ، عندئذ قال زنكي لمستشاري الخليفة وأقطابه : هذا ماجرى بسبب مشورتكم فلم يستفد لاهو ولا أنتم شيئا ، قولوا الآن هل أنتم مستعدون لمحاربة مسعود ؟ أريد أن أعرف وإلا فليعد كل منا من حيث أتى ، ولنكف عن هذه الحرب ، وليكتف كل منا بما لديه ، وعندئذ شرع كل واحد يحملق في وجه زميله ، فتحقق زنكي من خداعهم وأخبر الخليفة بذلك ، ثم تركهم زنكي وعاد إلى الموصل ، فنهضوا جميعا ودخلوا المدينة ، ونصبوا خيامهم داخل سورها ، ورأى الخليفة أن يذهب بصحبة زنكي إلى الموصل ، فدخل مسعود بغداد وأحسن إلى أهلها ، وصان بيوتها من أي ابتزاز أو نهب ، ثم جمع الأقطاب ، وعرض عليهم كتابا مكتوبا بخط الراشد يقول فيه : يوم أحشد الجيوش لمحاربة أمير من أمراء السلطان مسعود أصبح مخلوعا من الخلافة ، وكان موجودا بين الحاضرين ثلاثة شهود ممن وقعوا على تلك الوثيقة ، لذلك خلعوا الخليفة الراشد شرعا ، ثم بدأوا يذيعون التهم ضده ، وكان من جملة ما قالوه ، إنه خرق حرمة جوارى أبيه ، وعاقر الخمرة ، وأعرض عن الصلوات وسفك دماء بريئة ، وتمادى في الظلم الخ .

أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله

دام حكمه أربعاً وعشرين سنة وشهرين، فبعد أن تم خلع الراشد استدعى السلطان الوزير شرف الدين الزينبي وأمره أن يعمل على اختيار خليفة جديد ، فاختار المقتفي ، وهم عم الخليفة المعزول ، وقد اختاره الوزير لأنه صهره ، أي زوج ابنته ، وأحضر المقتفي إلى بلاط السلطان مسعود وثبتوا خلافته بعدما تعهد أن يدفع إلى السلطان مائة وعشرين ألف دينار ، وكانت خزانة الخليفة عند مبايعته فارغة تماما ، لكن كان المقتفي يملك شخصا قبل خلافته عشرة آلاف دينار غير أنه أنفقها كلها في حفلة مبايعته ، وقد ألغيت بعد استلام المقتفي الخطبة للراشد وللسلطان داود معا ، وصارت

- ٢٢٩٤ -

للمقتفي والسلطان مسعود ، وقيل إن السلطان مسعود حين غادر البلاط استدعى الوزير الزينبي وقال له معاتبا :

لقد أسأت بانتخابك رجلا كامل السن عاقلا ، فلو انتخبت فتى وربيتة ل بقي ينظر إليك نظرة امتنان وشكر ، بالتالي سيصبح أمر الخلافة وسياستها بيدك فترة طويلة ريثما يبلغ الرشد ، والآن كن على ثقة أن عهد وزارتك لن يطول مع من اصطفيته وسترى حقيقة ذلك .

وفي عام ٥٣١ للهجرة للعرب (١١٣٦ م) أرسل ابن دانشمند صاحب ملطية رسولا إلى السلطان مسعود في بغداد متوسلا ليعيده إلى منصبه ، ولما رافقوا الرسول ليقبل الاعتاب كالعادة رفض قائلا ، لن أقبل أعتاب دار طرد منها صاحبها .

بين زنكي والخليفة المقتفي

في هذه الفترة حشد زنكي جيشا ، وزحف إلى تكريت وبدأ يناوش السلطان مسعود، ثم انقلب إلى الموصل فأرسل إليه المقتفي يعده بعشرة مدن مشهورة إذا ماكف عن مساندة الراشد ، فقال زنكي : لقد حلفت أن لا أسلمه إليكم ، ولكن إذا أعطيتهموني تلك الأماكن أعلنت الخطبة باسمكم وتوقفت عن مساندته ، إنما سوف أبقيه في عهدي ، فأعطاه الخليفة عشرة أماكن وكان منها حربي وحاصيره وصاريقين والحلة وغيرها ، وخطب زنكي للمقتفي والسلطان مسعود وأبقى الراشد عنده قابعا في دار الذهب بمدينة الموصل .
وفي تلك الأثناء كانت عجوز تخدم بيت تاجر قرب باب الأزح ببغداد ، وسافر التاجر لعمل وظلت امرأته وابنته والعجوز برفقتهما في البيت ، فاتفقت هذه العجوز الشيمطاء مع ابنتها وبعض اللصوص ، فأقبلوا ليلا وسرقوا كل ما في الدار ، ولما خرجوا قالت زوجة التاجر : للعجوز نشكر الله الذي أعمى عيونهم ولم يفتحوا

- ٢٢٩٥ -

الصندوق ، فسمع اللصوص فرجعوا وفتحوه فوجدوا فيه أربعة آلاف دينار ، وأحجار كريمة ولآلئ ، فأخذوها وانصرفوا .

وفي هذه السنة اشتبك مسعود وداود فهزم مسعود وقتل العديد من رجاله .

وفي عام ١٤٤٨ يونانية (١١٣٧ م) زحف يوحنا ملك اليونان إلى قليقية غاضبا على لاون الأرمني فاستولى على طرسوس وأذنة والمصيصة وقبض على لاون وعلى زوجته وأولادهما ونفاهم إلى القسطنطينية ، ثم زحف بعد ذلك إلى أنطاكية فلم يستطع الاستيلاء عليها ثم أتى إليه جوسلين واتفقا على أن يعطيه الأفرنج أنطاكية ويجتاح هو حلب وسورية ، ثم يعطيها إلى الأفرنج ، ثم زحفا معا إلى حلب واحتلا بزاعا ثم تركا جيشا يحاصر شيزر .

وفي هذا الوقت زحف مسعود سلطان قونية إلى قليقية فاجتاح أذنة وساق أهلها جميعا مع أسقفهم إلى ملطية ، وعندما علم يوحنا بذلك أحرق المنجنقات وارتد إلى قليقيه حيث عقد هدنة مع مسعود ورجع إلى عاصمته .

أما محمود صاحب ملطية فقد طرد أخاه دولت ونزع منه ولاية إبلستين وجيحان ، وسار دولت إلى هنزيط ، ثم إلى آمد وزار جوسلين ، ثم أخذ يطوف بالبيوت واحدا واحدا .

وفي هذا الوقت ظهر الأمير عيسى صاحب سويرك (٨) وكان متفاهما مع بوغوص الأرمني الذي سار إلى بغداد ودخل في دين الاسلام ، فدشد الجند وانطلق إلى جرجر ليستولي عليها ، لكنه وجدها خرابا فزحف إلى الأديرة والصوامع فأنقض على دير مكار أبحاي المعروف بدير السلالم (٧) فلم يتمكن من الوصول إليه من ناحية شاطئ الفرات فتسلقوا الجبل الصخري حيث هبط رجاله من هناك، فهرب الرهبان فاستولى على الدير وعلى مافييه من أمتعة وكؤوس وأطباق فضية وصلبان ، ونزع قناة الماء التي كان قد

وضمها البطريرك يوحنا بن عبدون (١٠٠٤ - ١٠٣٠ م) ،
وارسل الربان داوود الناسك إلى دير شيرا، ولم ينج من شره سوى
دير أبي غالب المعروف بدير مائدة الملوك، الواقع في أحواز مدينة
أمد .

وفاة الراشد الخليفة المعزول

وفي عام ٥٣٢ للعرب (١١٣٧ م) انطلق الراشد الخليفة
المعزول من الموصل إلى خراسان للاجتماع بالسلطان داود ، فاتفق
الاثنان ثم زحفا بجيشهما إلى همذان وانتزعاها من سيطرة
السلطان مسعود ، ثم توجه الراشد بعد ذلك إلى أصفهان لكن
سرعان ما ألم به داء ألزمه فراشه ، وانقض عليه وهو طريح الفراش
أربعة خراسانيين وقتلوه ، وقد قيل لولم يقتله هؤلاء الخراسانيون
لعاجلته المنية بسبب الداء الذي أصابه ، وقد قيل إنه سقي السم
ثلاث مرات ، وقد دفن بباب أصفهان حيث صرع ، وكان والده قد
قتل كذلك عند باب مراغه .

وعندما كان الأتراك يحاصرون الرها ١٤٤٩ يونانية
(١١٣٨ م) حشد الفرنج ثلاثمائة فارس وأربعة آلاف راجل
وتوجهوا من سميساط لنقل المؤونة إلى الرهاويين ، فكمن لهم
تمرتاش صاحب ماردين وقتل العديد من المسيحيين وأسر البقية
وساقهم عبيدا ، وكان بين الأسرى الشماس أبو سعد الطبيب
الفيلسوف ، وميخائيل ابن شومنا وابنه واستولى تمرتاش كذلك
على قلعة كسوس من الفرنج كذلك دخل مسعود سلطان قونية بلد
كيسوم وغزاها وأحرق القرى المحيطة بها .

وفي الشهر الثاني من سنة ٥٣٣ للعرب (١١٣٨ م) حدث زلزال
عنيف في غزنة ببلاد العجم فقتل مائتين وثلاثين ألف نسمة ، وهدم
المدينة برمتها ، ونبتت من أرضها مياه سوداء وخرج الذين نجوا من
الكارثة إلى المقابر حيث أقاموا فيها يندبون أهاليهم .

وفي سنة ١٤٥٠ لليونان (١١٣٩ م) زحف الملك محمد صاحب ملطيه إلى قليقية واحتل حصن هاجاي وحصن جينوفرت وسار إلى قاسينوس وهي على ساحل بحر بنطش فغزاها وباع أهلها جميعا عبيدا . وفي السنة التالية انشقت أرض الرقة وابتلعت أربعين فارسا مع خيولهم ، ولم ينج سوى واحد منهم كان يتغوط ، وقد ظل الناس يسمعون أصواتا بشرية وزمجرة خيول في ذلك المكان فترة طويلة وفي سنة ٥٣٤ هـ (١١٤٠ م) صح ماتوقعه السلطان مسعود عندما قال للوزير شرف الدين إنك أخطأت في اختيار رجل كامل متمرس مثل المقتفي ، لأنه بدأ يتصرف في شؤون السياسة بون استشارة الوزير ، وكان أن انزوى الوزير في بيته ، فأرسل الخليفة في طلبه وكف يده عن ممارسة أعماله ، ثم مالبث أن عزله نهائيا ، وفي تشرين أول من عام ٥٣٥ هـ (١١٤١ م) سار أتراك ملطيه إلى ألبيرة زوبر وقنايا ونهبوها ، فأقبل الفرنج في أيار بحجة طلب الثأر فوصلوا إلى زبطرة وعركة لكنهم نهبوا أموال المسيحيين كما كان قد نهبها الأتراك ، ثم زحفوا إلى أبلستين ونهبوا المسيحيين هناك وفتكوا بعدد كبير من الأتراك واعتقلوا أولادهم ونساءهم فغضب الأتراك وزحفوا من هنزيط فصادفوا مطران قليسورا (٨) القديس في جبل أبدهور ، فقبضوا عليه واعتقلوه هو ومن معه ، وحاولوا اغتيالهم، لكن الأفرنج باغتهم وهزمهم فهربوا تاركين أسراهم مقيدين فأطلقهم الأفرنج .

وزحف يوحنا ملك اليونان إلى نوقيساريه وخيم أمام الأتراك وجها لوجه لكن ظل عسكره وعسكر الأتراك ستة أشهر بون قتال وأخيرا اقتربوا بون حرب ، وقد كان الأتراك في ذلك الحين يقتلون بالسيف كل مسيحي يتلفظ باسم ملك اليونان أو الفرنج لأي سبب ، وقد قتلوا عددا كبيرا من الملطيين لهذا السبب .

وفي سنة ٥٣٦ هـ - ١١٤١ م أرسل خوارزم شاه إلى ملك الهون ليعد جيشا من الذين لم يعلنوا إسلامهم - وكان العرب يسمونهم « كافر ترك » - لمحاربة السلطان سنجر قاتل أخيه ،

فتأهب أولئك الهون وكانوا ثلاثمائة ألف ، وقاتلوا مائة ألف من أصحاب سنجر عند نهر جيحون وقتلوه قاطبة ولم ينج من سيوف الهون إلا سنجر وستة من رجاله فقط كما قيل . فهرب إلى بلخ ، وقد أسر الهون امرأته وابنة بنته مع أربعة آلاف امرأة ، وهكذا أهلكوا المائة ألف قتلا وسبيا .

موت الملك محمود

وفي سنة ١٤٥٤ يونانية (١١٤٣ م) مات الملك محمود في قيسارية فأوصى بالملكة لابنه ذي النون ، لكن زوجته خاتون استدعت أخاه يعقوب أرسلان واقتربت به وولته سبسطية ، ففر ذو النون إلى سينابو وتولى قيسارية ، أما الأخ الآخر بولت فقد اتفق مع يونس صاحب حصن مسارا ، وزحفا معا إلى ملطية وحاصراها ، لكنهما لم يستطيعا الاستيلاء عليها ، فغادراها إلى عرقة وأرسلت الخاتون ألفي جندي إلى ملطية ليحرسوها ويستخرجوا من فيها من الأتراك ويبعدوهم إلى سبسطية ، فثارت ثائرة الأتراك وحطموا بالفؤوس باب المدينة وهو باب بوريدية ، وذلك رغما عن الحاكم وهزموا الزاحفين وأرسلوا فأحضروا بولت في اليوم ذاته وسلموه ولاية المدينة ، وعندها زحف مسعود سلطان قونية إلى سبسطية وأخضعها ، ثم انقلب إلى ملطية فحاصرها في السابع عشر من نيسان ، أما بولت فأخذ ينكل بالمسيحيين ويطالبهم بالأموال لدفع أجرة المحاربين ، لكن بعد ثلاثة أشهر أحرق السلطان المنجنوقات وارتحل ، وكان ذلك ليلة عيد الصليب ١٤ - أيلول فاستراح برحيله الأهالي .

وفي أحد أيام نيسان في تلك السنة خرج يوحنا ملك اليونان للصيد فهاجمه خنزير بري وقتله ، وكان قد أوصى بالملكة لابنه الصغير منويل لأن ابنه الكبير كان غائبا ، فتولى منويل المملكة في نيسان

عام ١٤٥٥ يونانية (١١٤٤ م) ولما دخل العاصمة رحب به أخوه واعترف به ملكا وأيده .

وكذلك مات ملك بيت المقدس الفرنجي أثناء الصيد فقد سقط عن حصانه ومات فخلفه ابنه الصغير بلدوين الثالث ، وتولت أمه الوصاية عليه فأخذت تسوس المملكة بسبب حداثة .

وفي السنة ذاتها مات داود صاحب حضن زياد وخلفه ابنه الصغير قرا أرسلان ، لأن ابنه الكبير « أرسلان طغميش » كان بالموصل عند زنكي فأراد أن يبعد قرا أرسلان ويقيم مكانه أخاه وحليفه أرسلان طغميش ، فاستنجد قرا أرسلان بالسلطان مسعود في قونية ، فأرسل له عشرين ألف فارس لمقاتلة خصمه فهرب إلى الموصل ، ثم أقبل السلطان مسعود إلى ملطية وحاصرها ثلاثة أشهر دون أن يحقق هدفه ورحل .

انتزاع الرها من الأفرنج

في سنة ١٤٥٦ يونانية (١١٤٤ م) كان جوسلين صاحب الرها في انطاكية ، فأرسل الحرانيون إلى زنكي أن المدينة خالية من العسكر ، فتوجه زنكي إليها في جيش جرار يوم الثلاثاء ٢٨ تشرين الثاني ، وخيم في ضواحيها عند باب الساعات قرب كنيسة المعترفين ، وأقام هذا الجيش سبعة منجنيقات ضخمة وصعد رهبان الجبل أعلى السور وأخذوا يحاربون لعندم وجود عسكر فيها ، وكانت النساء يقدمن لهم الحجارة والماء والطعام ، وحفر الأتراك نفقا حتى بلغوا السور ، فقام الرهاويون بحفر نفق مقابل ، وبرزوا لقتالهم وأهلكوا كل من صادفوه في الحفرة ، وعادوا فأقاموا سورا ثانيا مقابل النفق فتحول الأتراك وأخذوا يحفرون تحت أبراج السور ، فتخلخلت وشارفت على السقوط فأرسل زنكي إلى الرهاويين يقول : خذوا منا رجلين وابعثوا لنا رجلين ليشهدوا الأبراج كيف تداعت ، وسلموا المدينة قبل أن تؤخذ بالسيف .

غير ان المطران ببيوس رئيس الفرنج في الرها لم يكثرث لمقولة زنكي ، لأنه كان واثقا من مساعدة جوسلين وملك بيت المقدس ، وعند ذلك أضرمت الأتراك النيران بالأخشاب تحت الأبراج فسقطت وأخذوا يدخلون في النفق على الرغم من ان ببيوس والأساقفة كانوا على رأس المدافعين عن النفق وقد اشتد فيه القتال حتى امتلأ بجثث القتلى من الأتراك والرهاويين معه ، وتجمهر الرهاويون عند فم النفق ورأى الأتراك أن المحاربين قد تركوا السور فوضعوا السلالم وتسلقوا السور ، وعندما شاهد الرهاويون ذلك انهارت عزائمهم وشرعوا بالالتجاء الى القلعة .

وفي الساعة الثالثة من يوم السبت الثالث من كانون الثاني دخل الأتراك مدينة أبحر خليل السيد المسيح بسيوفهم المسلولة المتعطشه للدماء يقتلون الشيوخ والفتيان والرجال والنساء والكهنة والشمامسة والرهبان والنسك والراهبات والعداري وحتى الأطفال والرضع، وان القلم ليعجز عن وصف ما حدث ، وان اليراع ليتجمد بين الأصابع ان اراد ان يكتب عن الفظائع ، لقد أصبحت هذه المدينة موطنًا للأقدام وربما بسبب آثامنا ، او بسبب كفر الابناء بآبائهم ، والآباء بأبنائهم ، فذسيت الأم رضيعها وفر كل واحد يطلب الخلاص لنفسه الى قمة الجبل .

أما الشيوخ من الكهنة فكانوا يرددون وهم يحملون صناديق الشهداء قول النبي ميخا : اني احتمل غضب الرب لاني أخطأت اليه. (ميخا ٧ : ٩) وأخذوا يبتهلون الى الله حتى اسكتهم السيف التركي ، وشوهوا بعد ذلك وقد تضرجت ثيابهم بالدماء ، وبقي عدد كبير من النساء مع أولادهن ينتظرن الموت بالسيف والأسر والعبودية ، أما الحراس فقد إقفلوا الأبواب بوجه الجحافل التي لجأت الى القلعة قائلين : إن نفتح الأبواب حتى يتقدم الينا ببيوس ، ولكن ببيوس لم يستطع الخروج مع الأوائل بسبب الازدحام الشديد الذي أهلك العديد وجعل جثثهم تتراكم اكواما عند باب القلعة ، ولما وصل ببيوس اليهم اصيب بسهم أرداه قتيلا .

ولما شاهد زنكي تلك الالهوال أمر بايقاف القتال ، وشوهد المطران باسيليوس عريانا حافيا يجره تركي بالحبل ، وما أن رآه زنكي حتى لمح النعمة التي على وجهه فسأله من أنت ؟ ولما عرف أنه المطران أمر رجاله فالبسوه ثوبا ومضى به الى خيمته ، وأخذ يعنفه ويوبخه لأن الرهاويين لم يشفقوا على أنفسهم ، ويسلموه المدينة ، فقال له المطران : إن العناية الربانية شاعت ان تمنحك الغلبة وتذيع مجدك بين الملوك وتتولى علينا نحن الأذلاء لأننا غدرنا ، ولأننا حنثنا بأيماننا فأستحسن زنكي كلامه ، وقال له : قد صدقت فيما قلت ايها المطران ، فإن الله تعالى والبشر كذلك يكرهون الذين يحافظون على ايمانهم ويثبتون عليه حتى الموت ، وبعد يومين طلب الامان من التجأ الى القلعة وسلموها ، فقتل الأتراك كل من رأوه من الفرنجة ، وأبقوا على السريان والأرمن ، ان لساننا عاجز عن الاسترسال في شرح تلك الداهية الهائلة ، ولأرميا النبي ونظرائه أن يفيضوا في المراثي ويستدعوا النائحات الناديات ليفعلن مثلهم ويندبن الشعب الجدير بالعطف والشفقة .

وقد التهمت النيران يوم فتح الرها دير القرايط ببلدة خرشنة واتلفت حجره جميعا ، وقضت على شيخ راهب ، ونجا سائر الرهبان ، واحترقت في اليوم ذاته قرية ببلدة مرعش ، وسقطت نار على دير مار برصوم واتلفت ثلاث غرف الى ان تم اطفائها ، وقد نظم في مأساة الرها هذه ديونيسيوس بن الصليبي قصيدتين ، وباسيليوس مطرانها ثلاث قصائد ، كلها على وزن قصيدة مار يعقوب .

وبعد أن احتل زنكي الرها سار الى البيرة وهي قلعة حصينة للأفرنج تطل على الفرات ، وحاصرها حصارا شديدا، لكن خبرا أتاه ان فتنة وقعت في الموصل ، وأن نائبه نصير الدين قتل ، فترك البيرة وعاد الى بلده ، أما الأفرنج فقد خافوا من عودة زنكي فكتبوا الى

- ٢٣٠٢ -

حسام الدين تمر تاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وسلموه اياها .

وخاف ايلغازي أن يزحف زنكي الى بلاده ويحتل قلاعته وسائر ولايته ، فقوض قلاعاً كثيرة منها قلعة حور عيار ، وقلعة تلبسمة (٩) وقلعة تل شيخ ، وقلعة المرأة التي بجانب دير مار حناينا ، وبقي تمر تاش يحاصر قلعة الهتاخ (١٠) سنة واربعة أشهر حتى انتزعها من صاحبها الكردي ، وهابنه ودفع له كمية من الذهب وترك له بعض القرى .

وفي هذا الوقت خرج ارسلان طغميش بن داود صاحب حصن زياد من عند زنكي ، وسار الى بلد تل ارسانيوس (١١) وطلب الى اصحابه أن يسلموه اياه فرفضوا لأن اولادهم كانوا رهائن في حصن زياد ، فحارب البلد واحتله واستعبد اهاليه وعددهم خمسة عشر الفا مع اسقفهم طيمثاوس وباعهم .

وفي سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٤ م) دفع زنكي جنودا الى قلعة فنك المجاورة لجزيرة قردو (أو ابن عمر) وهي قلعة حصينة تطل على دجلة ، احتلها الاكراد البشديوون منذ ثلاثمائة عام.

مقتل زنكي

وفي سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) أصلح زنكي الاوضاع في الموصل على أثر مقتل نائبه نصير الدولة ، وأقبل الى حلب وحشد الجنود ، وزحف الى قلعة جعبر ، وفي احد الأيام بينما كان جالسا في خيمته احضر اليه الصناع طبقا ذهبيا لينظره ، فحنى رأسه وأخذ يتأمله ، فاستل أحد الحرس سيفه وطعنه من خلفه وحز رأسه ، وروى غير هذا قيل قتل ليلا وهو سكران غارق في نومه ، وأسرع ثلاثة من عبيده الى اسفل القلعة وهم يصيحون للحراس اسحبونا اليكم لنبلغكم بشرى تبهجكم ، فدلوا حبلا

- ٢٣٠٣ -

وسحبوهم واحدا فواحدا ، فأخبرهم هؤلاء بما حدث وقالوا لهم : انفخوا الأبواق ونادوا من أسفل القلعة اليه وشاهدوه مذبحا .

أما محمود بن زنكي الذي دعي نور الدين ، وكان مع أبيه ، فقد شدد القتال على القلعة حتى أرمق هو والمحاصرين ، ثم قال لهم : سلموني قتله أبي وكونوا في طمأنينة ، فسلموه الثلاثة فقتلهم وأحرق جثثهم .

وكان لزنكي أربعة بنين وابنة واحدة وهم : سيف الدين غازي ، ونور الدين محمود ، وقطب الدين موبود ، ونصرة الدين أمير أميران ، وأختهم ، وكان قد بنى في الموصل نورا ملكية لأنه لم يكن فيها إلا دارا ملكية واحدة مقابل الميدان . وقد عمق أساسها ووطد أسوارها ، وفتح بابا يقال له باب العمادي أقام حوله الحدائق ، وقد ازدهرت الزراعة في زمانه ، وكان لزنكي جواسيس في بلاط السلطان يخبرونه بكل ما يجري هناك ، وكان إذا ما قدم إلى بلاده رسول ما ، نهاه عن محادثة الجنود والأهالي .

وقد دفع يوما إلى واحد من عبيده طبيخا وقال له : احفظه لديك ، فأبقاه عنده سنة كاملة ، ولما سأله زنكي عنه أعاده له فورا فأعجبه ذلك العمل وقال له : إلى مثلك ينبغي أن أفوض حراسة البلد ، ثم ولاه قلعة كواشي ، وقد ملك زنكي سورية تسع عشر سنة ، وكان عنده عندما قتل في قلعة جعبر أمير كبير عاقل اسمه اسد الدين شيركوه ، قال لنور الدين بن زنكي : يلوح لي أن وزير أبيك يحاول استمالة الجيوش إلى أخيك سيف الدين ليأتي به إلى الموصل ، فالأفضل أن أخذك إلى حلب لتتولاها ، وتتولى سورية معها ، وبذلك يسهل عليك احتلال الموصل واقليمها وبلاد المشرق . ولما تم ذلك اجتمع نور الدين بجيوش سورية ومضى بهم إلى حلب وتولاها مع قلعتها ، ثم ارتحل أخوه سيف الدين إلى الموصل وتولاها وأيده السلطان مسعود الذي كان يخلص له المودة ، وسبق

نور الدين، فأدى له خدمات جلى يوم كان والده حيا يرزق ، وارسل السلطان الى سيف الدين حله ملكيه تأييدا له في منصبه ، وكان نور الدين يخاف أخاه سيف الدين فيرسل اليه الهدايا معربا عن اخلاصه متجنبا لقاءه ، وبعد ان تعاهدا معا سار سيف الدين الى سورية، وبادره نور الدين مقبلا الأرض أمامه فتعانقا وبكيا، وقال سيف الدين لأخيه: لماذا لم تأت الي ، هل خفت مني ، ثق يا أخي انه لم يخطر ببالي ماخطر ببالك ، وماذا تنفعني الحياة والبلاد اذا أسأت الى أخي ، وهكذا اتفق الأخوان وعاد كل منهما الى بلده ، وعلى أثر مقتل زنكي سار ريموند صاحب انطاكية الى أطراف حلب وحماة ، وفتك بكثير من العرب ، وغنم غنائم وافرة ، وفي طريق العودة ادركه شيركوه ، واسترد منه الغنائم ، وسار مجير الدين صاحب دمشق الى بعلبك وحاصرها حتى انتزعها من نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، وترك له بعض القرى ، وعاد الى دمشق.

واقعة الرها الثانية

وفي تشرين الاول من عام ١٤٥٨ يونانية (١١٤٧ م) اقبل جوسلين وبلدوين صاحب كيسوم الى الرها ، وتسلق رجال الفرنج البرجين ليلا بعد ان اتفقا مع حراس السور ، وكانوا من الارمن فهرب الاتراك الى القلعة ، وفي الصباح فتحووا باب الماء وبخله جوسلين لكن لم تمض ستة ايام حتى باغتهم نور الدين قايما من حلب في عشرة الاف تركي ، فاجبر جوسلين الرجال والرهاويين ونساءهم وفتياتهم وفتياتهم على الرحيل قسرا في الساعة الثانية ليلا ، ولما جاء الصباح رأهم الاتراك فهاجموهم واخذوا يرمونهم بالسهام التي اخذت تتساقط عليهم مثل حبات المطر ، ثم انقض الاتراك على الرهاويين الاسرى في صفوفهم الطويلة ، وانقضوا على الاشراف من ابناء المدينة العظيمة ، وبعدما تركهم الفرسان

الفرنج وانهزموا ، اذ عجزوا عن المقاومة ، اما الجنود الافرنج فالتجأوا الى حصن خراب يدعى حصن كوكب ، واحتصوا به ، بالزمان الغضب ، تبا لهذا اليوم المشؤوم ولهذه الليلة التي كانت احدى ليالي جهنم ، لقد خرق الاتراك هذه الصفوف الطويلة من البشر بسيوفهم ، ثم اخذوا يسحقونهم سحق النار للهشيم وذلك بعدما اخذوا ينتزعون احنيتهم وشياهم ويوتقونهم بالحبال ويحثونهم على الركض حفاة عراة رجالا ونسلاء ، ويضطرونهم أن يتبعوا الخيل ، وقد زاد عدد القتلى في المرتين الاولى والثانية على الثلاثين الفا ، واستعبد الاتراك ستة عشر الفا ، ولم يفلت مع رجال الفرنج الذين انهزموا الى حصن كوكب سوى الف رجل فقط ، وقد باع الاتراك كل من اسروهم في بلاد مختلفة ، واصبحت الرها خاوية خالية مخضبة بدماء اولادها ، مليئة بعظامهم تتغذى بلحومهم وحوش الليل ، وقد فقدت جثة بلدين صاحب كيسوم ، واقلت جوسلين اللعين الى سمسياط ، وهرب الطران باسيلوس مطراننا وقبض على مطران الارمن مع عدد كبير من جماعته.

الحملة الصليبية الثانية

لما سمع الفرنج بما جرى من الفظائع في الرها تسفقوا من إيطاليا ، وأقبل ملك الالمان (١٢) في تسعين ألف فارس وملك فرنسا (١٣) الذي يدعو العرب فوتش في خمسين ألف فارس ، عدا الرجال الذين بلغوا أعدادا كبيرة ، وتوجهوا سنة ١١٤٨ م إلى القسطنطينية وشنوا عليها هجوما مريرا بعد أن عرفوا خيانة اليونان للأفرنج وغدرهم بهم ، فدفع لهم الملك منويل ذهباً كثيراً ، وأقسم أن يدلهم على طريق أمنة ، لكنه غدر بهم ثانية وأرسل معهم أدلاء أرشدوهم إلى طريق وعرة وجبال قاحلة لاماء فيها ، فتأهوا

- ٢٣٠٦ -

وبقوا خمسة أيام لا يعرفون أين هم بعد أن هرب اليونانيون ، فمات العديد منهم عطشا مع خيولهم ، وسمع بهم الأتراك فأنقضوا على شتاتهم في الجبال وراحوا يفتكون بهم مجموعة تلو الأخرى حتى امتلأت بلادهم من الغنائم، وبيعت الفضة في ملطية بثمن الرصاص .

أما الأفرنج الذين نجوا وعادوا إلى سواحل بحر بنطس فقد أخذ اليونان يخلطون لهم القمح كلسا ويطعمونهم إياه ، فكانوا يسقطون موتى بالأكوام ، وقد تمكن ملك الألمان من النجاة مع ثلاثة من القمامصة فسار إلى بيت المقدس وصلى وتبرك بقبر المخلص ، وأقام فيها بضعة أيام ثم زحف إلى دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل وكان عدد الأتراك والعرب نحو مائة وثلاثين ألف راجل عدا الفرسان ، ولكن الأفرنج دبت فيهم الشجاعة والفرح فحملوا عليهم حتى وصلوا إلى الأنهار ودخلوا الجنائن ، فقام معين الدين - حسبما ذكر البطريرك ميخائيل السرياني في تاريخه - صاحب دمشق وأرسل إلى ملك بيت المقدس مائتي ألف دينار من النحاس المصري ، لكن المطلي بالذهب ، وأرسل كذلك إلى صاحب طبرية خمسين ألفا من الذهب الزائف ، وعندما اكتشف الأفرنج الخديعة وأدركوا الحيلة ترك ملكهم دمشق ، وعاد إلى وطنه وقلبه يتقطر المأسأ ، على أني قد طالعت خمسة كتب عربية مختلفة ، لكنني لم أعر فيها على قصة التزييف الذي تكلم عنه البطريرك ميخائيل في تاريخه .

وهكذا كانت نهاية هذه الحملة ، ونهاية أعدادها الهائلة .

ولما علم ملك صقلية نبأ خيانة اليونان غضب غضبا شديدا ، وسار إلى مدينة تيبايس، فاحتلها وقوض أركانها وأهلك أهلها بقوة السيف ، وكذلك فعل في أدرنة ، وفي فيلبسة ، ثم توجه إلى القسطنطينية نفسها فخرّب ضواحيها وأتلف زروعها ، وعاث في الأرض فسادا

ظهور توماس الأرمني

في تلك الاثناء مات لاون الارمني صاحب قيليقية في القسطنطينية وفر ابنه توماس راجلا إلى قيليقية ، وزار مطران السريان أثناسيوس طالبا صلواته ليرد الله تعالى ميراث أبائه إليه ، فصلى له وأهداه حصانا بمثابة بركة ، ومألبث أن لحق به اثنا عشر أرمنيا ، وسار أول الأمر إلى حصن عامودا فلما شاهده الحراس وعلموا أنه ابن مولاهم فتحوا له الأبواب ، فدخل الحصن بسلام وقتل من كان فيه من اليونان ، واحتل في مدة وجيزه أماكن شتى ، فبدأ الروم الذين في سائر الحصون يهابونه ويحسبون له ألف حساب ، ثم اتفق الفرنج معه وقاتلوا الأتراك وفتكوا بثلاثة آلاف منهم ، وذاع خبر انتصاره، وبات الأتراك يرهبون سطوته وبأسه ، فقام واحتل بعد ذلك عين زربه وغيرها من الأماكن . وفي تلك السنة استولى نور الدين بن زنكي على أفاميا ، وعلى بعض حصون الفرنج ، فأعد له صاحب أنطاكية كمينا فتك بكثير من عسكره ، لكنه نجا مع قلة من رجاله فاتجهوا إلى حلب .

وفي سنة ١٤٦٠ يونانية ٥٤٣ هـ (١١٤٩ م) زحف نور الدين إلى حارم وغزا ضاحيتها ، وهدم أبنيتها المقامة خارج القلعة ، وسار البرنس صاحب أنطاكية إلى محاربته والدفاع عن حارم ، لكن الأتراك تغلبوا عليه وقتلوه ، وكانوا قبل ذلك يهابونه جدا لقوته الجبارة ، ثم وقعت فتنة بين الأنطاكيين ، فقد أراد غالبيتهم أن يسلموا مدينتهم لنور الدين، إلا أن بعضهم أرسلوا إلى ملك بيت المقدس طالبين النجدة ، فسارع إليهم وبث الشجاعة والنخوة في قلوب فرسانهم ، وجعل بطريركهم مسيرا لأموهم إلى أن يكبر بوهيموند ابن البرنس القليل ، وقتل صاحب كيسوم في هذه المرة ، فتولاها جوسلين وتولى أيضا قرية بيت حسنه .

وفي هذه السنة أقبل قلج أرسلان بن مسعود سلطان قونية

وحاصر مرعش وانتزعها من يد الفرنج ويسر للفرسان وللأسقف وللقساوسة الذهاب إلى أنطاكية ، لأنه كان قد تعهد بذلك قبلا ، إلا أن الأتراك أتركهم وفتكوا بهم ، وانتزع قرا أرسلان صاحب حصن زياد من الفرنج بلدة الجبولة وبعث جنودا إلى جرجر كمنوا في ثلاثة أماكن مستورة ، وكان أهلها مختبئين في جبال برصوما ، فانقض هؤلاء الجنود صباحا ونهبوا المواشي والبقر ، وفتكوا بثلاثة من رهبان الدير وأرسلوا إلى الرهبان يقولون : سلمونا أهالي جرجر نرد لكم الغنائم ونحترم قديسكم ، ونقدم له النذور ، لأننا لم نأت معتدين على أديرة وليس في نيتنا أن نستعبد الأهالي ، لكننا نريد أن نعيدهم إلى أراضيهم ليفلحوها ، إلا أن الرهبان لم يتفقوا على رأي ، فأراد بعضهم التسليم بينما رفض بعضهم الآخر هذه الفكرة حتى أدى بهم الخلاف إلى القتال بالسيف ، وعند ذلك نهض راهب شيخ واصطحب شخصين من كلا الفريقين وساروا خمستهم إلى الأتراك وقالوا لهم : إن كنتم صادقين في طلبكم الأهالي للحراثة لا للعبودية فليأت فريق منكم معنا فنذهب ونراجع أميركم المحروس ، ونأتمر بأمره ، لكنهم سرعان ما اكتشفوا مكر الأتراك ، وأجمع الرهبان ومن معهم على الرفض فثارت ثائرة الأتراك وأحرقوا المعاصر وسيج الكروم ، وانقلبوا عائدين ، وسار الرهبان إلى حصن زياد وقابلوا الأمير فأشفق عليهم ورد لهم كل ما أخذ الأتراك منهم .

وفي السنة ذاتها قدم جوسلين من تل باشر في مائتي فارس ، وتوجهوا إلى أنطاكية وفي اعتقادهم أنهم سيواجهون ألفا فقط ، فباغتهم التركمان ليلا وهزموهم وطاردوهم حتى قبضوا على جوسلين وساقوه إلى نور الدين فاشتراه بألف دينار ثم أوثقه وحبسه ، وبقي جوسلين محبوسا تسع سنوات ، وكانوا يلجأون إلى الوعد تارة وإلى الوعيد تارة أخرى ليجبروه على المجاهرة بالاسلام ، لكن إيمانه كان راسخا ، وكان يدرك في قرارة نفسه أن الرب إنما أدبه لتعديه على دير برصوما كما سنذكر ذلك في تاريخ الكنيسة .

ولما أحس بدنو أجله استدعى أسقف المدينة فعرفه وأعطاه الأسرار المقدسة ، وقضى في قاع البئر حيث كان مسجوناً ، وأثناء أسره حمل الأتراك على كثير من أماكن الأفرنج واحتلوها مثل جرجر وختي وحصن منصور وتاكنكار التي بجانب الدير ، ولما علم الأفرنج بوفاته أقاموا ابنه الفتى خلفاً له في تل باشر ، وكان اسمه جوسلين أيضاً .

وفي عام ١٤٦١ يونانية (١١٥٠ م) أرسل أهالي كيسوم مطرانهم ايوينس إلى مسعود سلطان قونية طالبين الأمان للأفرنج الذين عندهم ليذهبوا إلى عينتاب فلبى طلبهم ، ثم استولى على مدينتهم وعلى قرى بيت حسنة ، ورعيان وفرزمان ومرعش ، وعندما كان يحاصر تل باشر أقبل إليه نور الدين فزف إليه السلطان ابنته ، فترك تل باشر ولم يتيسر له احتلالها ، ولم يمض وقت قليل حتى جاء ملك بيت المقدس ونقل معه زوجة جوسلين وأبناءه وجميع الأفرنج وأقام في تل باشر بعض أتباع يونان فاحتلوا عينتاب وأعزاز ، ثم ضيق عليهم نور الدين قتلاً وجوعاً فسلموه إياه بون حرب ، واحتل تمرتاش صاحب ماردين مدينة البيرة وسميساط وقورس وكفرسوت ، وفي ذلك الوقت كان في قلعة الروم ميخائيل الأرمني، فكتب إلى زوجة جوسلين وابنها ليأمر غريغوريوس جاثليق الأرمن الموجود في دير البحرة أن يأتي إليه ويقيم عنده ويساعده، لكن الجاثليق خان ميخائيل واحتل كل ماله وطرده واستقل بقلعة الروم .

وفي سنة ١٤٦٠ يونانية (٥٤٤ هـ / ١١٤٥) انتزع سيف الدين ابن زنكي صاحب الموصل مدينة دارا من تمرتاش صاحب ماردين ثم زحف إلى ماردين وحاصرها فزف إليه تمرتاش ابنته وهادنه ، لكن ما إن وصل إلى الموصل حتى مرض ومات وخلفه أخوه قطب الدين مودود ، فتزوج ابنة تمرتاش وعند ذلك أرسل أحد زعماء الموصل إلى نور الدين ليتجه من حلب إلى الموصل ، فركب مع سبعين فارساً واحتل سنجار ، وأرسل في طلب المساعدة من قرا أرسلان صاحب الحصن مقابل منحه قلعة هيثم .

أما أخوه قطب الدين فقد حشد الجيوش ومشى إلى تل أعفر ليصد نور الدين ، فتدخل الزعماء واقترحوا حلا وسطا يجعل حمص لنور الدين بعد انتزاعها من سيف الدين وأن يرد نور الدين سنجار إلى قطب الدين ويرجع إلى حلب .

وفي ٢٣ آب من تلك السنة حدث فيضان في حصن زياد جرف صبيا مع أمه وبغلين وحمارا وقد هلكوا جميعا .

وفي سنة ١٤٦٢ يونانية (١١٥١ م) قتلت زوجة صاحب ايزنجي زوجها وأتت بأخيه من بياريجي وتزوجته ، وملك مكان زوجها الأول .

وزحف أمير تركي إلى دير سيريكاي اليوناني في بنطس ، وانتزع منه الصليب الذهبي الذي كان يحوي قطعة ثمينة من خشب الصليب حيث تمت به عجائب كثيرة ، ولم يعدها إلى الرهبان إلا بعد أن سلب منهم كمية كبيرة من المال .

كذلك أخذ اليونان يسخرون ويجدفون على مار برصوم ، ويقولون لو كان قادرا على فعل العجائب لما ترك جوسلين يسلب نخيرته .

وفي تلك السنة زحف نور الدين إلى ضواحي دمشق وأرسل يقول لأهلها : أنا لم آت لأحاربكم بل لأزيل العار عنكم ، فأنتم ما زلتُم حتى الآن تؤدون الجزية للفرنج ، وقد أصبح أبناؤكم أسرى لديهم ، ولم يساعدهم أحد ، فبعث إليه الدمشقيون يقولون : إننا نعيش في حبوحة وأمان مع الفرنج ، ولسنا في حاجة إلى مساعدتك ، وإن لم ترجع إلى حلب فإننا سوف نرسل إلى الفرنجة ليقفوا معنا ضدك ، فاستشاط نور الدين غضبا وأراد أن يحاصر المدينة لكن الله سبحانه أنزل من السماء وابلا من الأمطار لم ينقطع ففترت همته ، وسار إليه زعماء دمشق وهابنوه أن يخطبوا له بعد الخليفة والسلطان ، فتركهم وعاد إلى حلب

في سنة ١٤٦٣ يونانية (١١٥٢ م) برز الفرنج ثانية من رومية غاضبين على اليونان فاقبلوا الى ضواحي القسطنطينية وأحرقوها جميعها ، ثم ذهبوا الى فلسطين فأحرقوا قرى عديدة في عسقلان وقتلوا عددا كبيرا من الاتراك والعرب ، ثم تابعوا الى مصر فخرجوا وأحرقوا كثيرا من قراها الغربية ، ثم عادوا الى وطنهم .

وفي السنة ذاتها مات بولت صاحب ملطية وخلفه ابنه نو القرنين ، فعلم بذلك مسعود سلطان قونية فهاجم على يعقوب ارسلان اخي بولت واخضعه ، ثم هاجم ملطية فخرّب ضواحيها، فخرجت اليه ابنة اخيه والدة ذي القرنين وتوسلت اليه يدع ابنها، وقال لها السلطان : إذا اتى إلي خاضعا تركت له المدينة فخرج اليه نو القرنين حاملا سيفا وكفنا فرحب به مسعود وأيده وتركه وشأنه وهكذا استحوذت أمه على المدينة وفرضت الضرائب على المسيحيين والعرب وحشيت ذساء لتفتك بابنها الصغير، الا ان الزعماء اطلعوا على نيتها فطردوها مع ساحراتها ، وصحت فيها بذلك آية النبي . « امكثي على رقاك وانواع سحرك الذي عنيت به منذ صباك ، قد أعيتت من كثرة مشورتك » (اشعيا ٤٧ : ١٢ - ١٣) . وفي هذه السنة هطلت امطار غزيرة جرفت احجارا ضخمة وتلالا وصدعت جانبا من الجبل وتسحرجت الصخور في الوادي الذي بين ابدهار وخرشنة ، وتوقف مجرى الفرات ثلاث ساعات تقريبا ووصلت المياه الى قرية فروسيدين المبنية على قمة الجبل ، ثم انشقت السدود المقامة على جوانب جبل قلوذية ، وفاضت المياه فأحدثت دمارا هائلا في سورية ، وفي السنة نفسها فتك الوباء باثني عشر الفا من اهالي دمياط حتى خلت بيوت كثيرة من السكان .

في سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) زحف نور الدين ثانية الى دمشق فحشد الفرنج قواتهم لرد الغزو الجديد ورد نور الدين على اعقابهم سرا الى حلب .

- ٢٣.١٢ -

وفي تلك السنة ايضا ٥٤٦ هـ - ١١٥١ م خرج صلاح الدين من
عند ابيه نجم الدين ايوب في بعلبك، واتجه الى حلب يريد عمه أسد
الدين شيركوه ، فاصطحبه الى نور الدين فرحب به وخصص له
بعض المال لمعيشته •

استيلاء الفرنج على عسقلان

في سنة ١٤٦٤ يونانية (٥٤٧ هـ / ١١٥٣ م) نشب نزاع بين ملك بيت المقدس وأمه ، فاتخذت من برج داود حصنا لها فتوسط الاقطاب وتركوا لها بيت المقدس كما تركوا لابنها سائر المدن وقيادة الجيش ، فسار ابنها الى عسقلان وكانت للعرب المصريين واقام برجا خشبيا ومنجنيقات وأحدث فجوة في سورها دخل منها اربعمائة من الرهبان الداوية ، فهجم عليهم عشرون الفا من العرب وهم مدججون بالسلاح وأهلكوهم ، فانفعل الملك لذلك ، وأراد مغادرة المدينة لولا تشجيع أحد المحاربين له على البقاء ، ثم قام الفرنج بعد ذلك بحراسة الفجوة ومنعوا العرب من ترميمها ، وفي الصباح حمل الملك الصليب واتجه الى المدينة وهو ينادي : من لا يتبع الصليب لا يعد مسيحيا ، فاندفعوا اندفاع رجل واحد وبخلوا المدينة ، وقتلوا مايزيد على خمسة عشر ألف عسكري ، فهرب البقية في السفن الى مصر ، والحقيقة التاريخية هي ان الفرنج احتلوا عسقلان عام ١٤٦٥ يونانية (٤٥٨ هـ / ١١٥٤ م) لكن البطريك ميخائيل السرياني ذكر أن ذلك تم سنة ١١٥٣ م ، وبسبب هذا الانتصار الذي احرزه ملك بيت المقدس انيطت به امارة انطاكية وزفت اليه ارملة صاحبها .

وفي سنة ٤٥٩ هـ (١١٥٤ م) انتزع نور الدين دمشق من صاحبها مجير الدين حربا ، إذ اثار في البداية خلافا بينه وبين زعمائه ، وأخذ يكتب اليه سرا قائلا : احترس من مكر فلان وفلان وفلان وفلان ، لأنهم يكتبون إلي ويريدون تسليمي المدينة ، وأنا لا أريد أن أترك قتال الافرنج وأقاتل العرب ، وصدق مجير الدين ذلك الكلام ففتك بقواده واحدا واحدا حتى قضى عليهم جميعا ، وأصبح دخول نور الدين دمشق سهلا ، وبعد أن دخلها ولى صاحبها السالف مجير الدين بعض قرى حمص ، وقد عامل نور الدين الدمشقيين معاملة طيبة ففرحوا به وظنوا أنه يستطيع التغلب على الفرنج .

وفي هذه السنة قتل الظاهر بن الحافظ خليفه مصر ، وخلفه ابنه عيسى وهو في الثالثه من عمره وسمي الفائز ، وفي غياب فارس الدين الامير الكبير تولى الوزاره العباس ، فسخط فارس الدين على العباس وهدده لانه اخذ يتصرف بون الرجوع اليه ، فخاف العباس واخذ امواله وخرج في ثلاثة آلاف من الارمن ، وطلب مساعدة نور الدين إلا أن المصريين تبعوه ف ضربهم الارمن ، وقضوا على اكثرهم ، ثم تفرق العباس ورجاله في الصحراء فأتركهم الجوع والعطش ، ولما وصلوا عسقلان برز الفرنج لملاقاتهم ، وعندما رأى الارمن الصليبان في رؤوس رماحهم ألقوا عنهم السلاح وانضموا إليهم ، وقتل يومئذ من العرب قرابة خمسة آلاف ، وقبض الفرنج على العباس وفتكوا به.

وفي تلك السنة سار الخليفه المقتفي الى تكريت وشدد الحصار عليها ، وهدم أبنيته ووجه ضرباته نحو قلعتها ، فأرسل محمد شاه ابن السلطان مسعود الى أمراء الموصل يقول : إن أبائي قد ولوكم هذه البلاد لتنجدوهم ، والآن لم يبق لنا في أرض شنعار كلها سوى قلعه تكريت ، والخليفة يحاول انتزاعها منا ، فنرجو منكم الحضور ومساعدتنا لدفعه عنا ، فاحتشد الموصليون ، وزحفوا الى تكريت ، ولما علم الخليفه بعددهم أصابه الزعر ، فترك عدته وعتاده ، وعاد مسرعا الى بغداد.

وبعد أيام قليلة حشد أمير تركي قرابه إثني عشر ألف جندي وأرسلهم الى تكريت ، فأنقذوا أرسلان شاه بن طغرك السلجوقي من السجن لانه ينحدر من سلاله الدولة السلجوقية ، وخرج الخليفة مع جيشه لملاقاتهم ، وظلوا ثمانية عشر يوما يقفون وجها لوجه دون قتال ، ولما وقعت المعركة هزم أصحاب الخليفه ، وحاول هو الفرار فتوسل إليه رجلان من أتباعه أن ينتظر قليلا ووضعوه أمام الصفوف مع حصانه على كره منه ، فتشجع البغداديون وكروا على الأتراك وانتصروا عليهم وأخذوا غنائمهم ، وكانت فيما قيل أربعمائنه ألف شاة عدا البقر والجمال.

وفي هذه السنة كانت مياة بجله تسيل كالدمااء الحمراء .
في سنة ١٤٦٧ يونانية (١١٥٦ م) تحرش البرنس صاحب
أنطاكيه بطوروس صاحب قيليقيه وأخذ يطالبه بالحصون التي
انتزعها الأرمن من اليونان ، والتي أنتزعها اليونان من الفرنج
ليولي عليها الرهبان الداوية جزاء قتالهم في سبيل توحيد
المسيحيين ، فامتنع الأرمن وأصطدموا مع الفرنج عند باب
سقنطرون ، فهزم الأرمن ، وهرب طوروس ، ثم تصالح الفريقان
وتولى الرهبان الداوية تلك الحصون .

وفي تلك السنة سار صاحب مرعش الى إحدى قرى
الأرمن ، فحشد أسطفان أخو طوروس جيوشه وانطلقوا
ليلا ، واختفوا في البيوت ، وعندما فتح باب القلعه في الصباح
نهضوا فدخلوه واحتلوا السور الخارجي ، واخذوا يحفرون داخلا
وبلغهم حينها أن الأمير قادم في جيش تركي ، فملكهم الفزع وخافوا
أن ينحسروا بين السورين ، فيشرع بقتلهم الداخليين
والخارج ، فنهبوا المدينة واضرموا النيران في البيوت وفي كل ما
تعذر عليهم نقله ، وهربوا مع جميع الأهالي، وقد ساق هؤلاء الأرمن
الخبثاء المطران بيونيسيوس ابن الصليبي فوصل ماشيا الى دير
كاسليود ، (١٤) وتمكن من النجاه ونظم في خراب مرعش ثلاث
قصائد لأنه كان راعيها يومئذ ، ولما وصل الأتراك عاملوا المسيحيين
معامله حسنة ، وردوا الى الأرمن العائدين جميع بيوتهم وكرومهم
وأراضيهم ، إلا أنهم سلخوا جلد قسيس أرمني ، وهو
حي ، وبتروا لسانه وأيديه وأرجله ، وأحرقوه بعد ثلاثة أيام
بالنيران ، وما أن بلغ الأرمن ذلك حتى عاملوا هم بدورهم بعض
الأتراك مثل هذه المعاملة القاسية .

وفي تلك السنة سلخ حيا قسيس آخر أرمني في ملطيه ، لأنه أغرى
فتاة مخطوبه حديثا ، ومضى بها الى الكنيسة ، وحاول
اغتصابها ، فأخذت المسكينة تصرخ مستغيثة ، لكن القدر وضع يده
على فمها حتى أكمل شهوته ، وبعد هذا شاهدها على آخر رمق

فأجهز عليها ، وقتلها وبتر أنفها وبعض أصابعها لعجزه عن نزع الخواتم منها ، وأخفى ما سرقه منها في قنديل ، ثم أخفى الفتاة في لحاف ضمن المنبح ، ولما خرج والدها وحملوها للبحث عنها، أخبرهم بعض الأطفال الذين كانوا يلعبون في الزقاق أنها دخلت الكنيسة مع القسيس ، ولما سألوه قال لهم قد دخلت وخرجت بسرعة ، فأخذوا يبحثون عنها في كل مكان ولم يجدها وشاهدوا ذلك القسيس خارجا من باب المدينة ، فقبضوا عليه ومضوا به الى الحاكم فضربه حتى اعترف بفعله الدنيئ ، وأراهـم جثمان الفتاة وأنفـها وأصابعها ، وقد شيعها الناس بمراره ، أما القس فقد سلخ وقطع إربا إربا وأحرق وهو حي حتى هلك.

وفي سنة ١٤٦٨ يونانية (١١٥٧ م) اتجه البرنس صاحب أنطاكية الى قبرص ، وكانت لليونان فسبى أهلها مع أغنامهم وأبقارهم وخيولهم وأمتعتهم ، ولما وصلوا ساحل البحر قدم القبرصيون ذهباً كثيراً مقابل نجاتهم ، فتركهم الفرنج مكتفين بأموالهم ومواشيهم واستاقوا الاساقفة ورؤساء الأديرة والكنائس والزعماء الى أنطاكية بمثابة رهائن الى أن أخذوا مطالبهم كامله.

في سنة ١٤٦٩ يونانية (١١٥٨ م) حاول اسطفان الأرمني أن يفتك بأخيه طوروس ، وشعر طوروس بذلك فقبض عليه واعتقله عشرة شهور ، ثم عفا عنه تلبية لطلب الأفرنج وانضم الى جيشهم.

وفي سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) حدثت في سورية زلازل عنيفة ، ففي حمص سقطت القلعة وجميع البيوت على أهلها ، وسقطت كذلك قلعة شيزر كلها ، ولم ينج من أهلها سوى امرأة واحدة وحاجب واحد ، أما أهل حمص فقد سارعوا الى خارج المدينة ونجوا وهدمت دورهم وقلعتهم ، وفر أهل حلب من مدينتهم ، وظلوا أياما خارجها للنجاة بأنفسهم من الموت وقد تهدمت بيوتهم وهلك منهم خمسمائة نسمة فقط ، ولم ينج أحد من أهالي كفر طاب وفاميه ، وهدمت بيوت كثيره في الرحبة ، كذلك

اجتاح الزلزال من مدن الافرنج :حصن الاكراد وعرقه ، ولم يبق في اللانقيه سوى كنيستها الكبرى ، ونجا جميع أهلها ، وتصدعت أرضها وانفتحت ودفن في وحلها تمثال مسبوك ، كذلك تصدعت أكثر بيوت أنطاكية وطرابلس .

وفي تلك السنة مات جوسلين في سجن حلب بعد أن تاب توبة نصوحا كما ذكر أغناطيوس أسقفها الذي زوده بالأسرار المقدسه.

وفي تلك السنه أيضا وصل السلطان محمد بن محمود في جيش ضخم كبير الى بغداد ، وشدد الحصار عليها مدة أربعة أشهر إلا أن بعض أقطابه نصحوه بأخذ المال بدلا من الحرب ، وبلغهم أنذاك خبر احتلال ملك شاه أخي السلطان لهذان وسببها واختطاف نساء زعمائها فضعفت همة السلطان وغادر بغداد وتبعته جيوش الخليفة وفتكوا بعدد كبير من الاتراك بون رحمه ، انتقاما منهم لما أحدثوه من الخراب غربي العاصمه حيث كانوا مخيمين ، اضافة الى ارتكابهم الفواحش مع النساء ضمن المساجد أمام أزواجهن ، والى ما أحدثوه من قتل واحراق للبيوت.

وفي هذ السنة مات السلطان سنجر بن ملك شاه بن ألب أرسلان ابن داود إثر نجاته من الغزاة الذين اعتقلوه.

وفي سنة ١٤٧٠ يونانية (١١٥٩ م) زحف منويل ملك اليونان الى قيلقية واستعاد طرسوس وعين زربه وغيرها ، وأقام فيها مدة فصل الشتاء ، بعد أن هزم طوروس الأرمني ، ثم توجه ملك بيت المقدس وأمير أنطاكية وبطريك الفرنج الى زيارة منويل واتفقوا معه وصالحوه مع طوروس وأحضره اليه ، فعينه قائدا لجميع الجيوش اليونانية في ساحل البحر ، واجتمع اليونان والفرنج والأرمن للزحف على حلب ودمشق وسائر المدن السورية لكن بلغهم أنذاك خبر أفاد أن شعب اليونان يحاولون تعيين ملك آخر ، فسارع الملك منويل في العودة الى عاصمته ، ولم يكمل ما اتفق عليه مع الفرنج والأرمن.

- ٢٣١٨ -

وفي نيسان من تلك السنة حدث طوفان في بغداد خلخل بعض جدران دار الخلافة ، وفر الاهالي الى غربي المدينة حاملين المرضى والعجائز والصغار على الاكتاف خوفا من الفرق ، وبلغت أجرة ركوب الزورق في أحد المعابر أربعة بنانير ذهبية .

وفي سنة ١٤٧١ يونانية (١١٦٠ م) قرر ابن جوسلين الخروج من حارم والاغارة على أطراف حلب ، فنصب له نور الدين كميناً وقبض عليه ثم ألقاه في البئر الذي كان فيه والده.

وفي آذار من تلك السنة وهي سنة ٥٥٥ هـ ، في الثاني من ربيع الأول توفي الخليفة المقتفي بداء الخناق وخلفه ابنه المستنجد .

ابو المظفر يوسف المستنجد بالله - ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م

دام حكمه اثني عشر عاما وحين توفي والده دبّرت له امرأة أبيه التركية ووالدة أخيه الصغير مكيدة للايقاع به وتولية ابنهافسلحت جواربها بالسكاكين وأمرتتهن أن يهاجمن المستنجد حالما يدخل غرفته ، لكن احدى الجوارب أفلتت من بينهن وأخبرت المستنجد ، فحشد جنده وقبض على أخيه وزجه في السجن ، ثم أعتقل هؤلاء الذسوة ، فسجن بعضهن ، وقتل بعضهن ، وهكذا ثبتت له الخلافة

أخبار الافرنج في عهد المستنجد

وفي عام ١٤٧٢ يونانية (١١٦١ م) ذهب السير عموري أخو ملك بيت المقدس الى مصر وسلب من المصريين أموالا طائلة ، وعاد لكن ما لبث أن توفي الفائز خليفه مصر ، فارتضى المصريون أن يدفعوا للفرننج كل عام مائه وستين ألف دينار ذهباً ، كذلك هاجم جورجى ملك الكرج مدينة أنى وانتزعها من الأتراك ، وغنم منها غنائم كثيرة واعتقل عددا كبيرا من العرب وعاد الى بلده. وفي هذه الفترة امتاز الأمير الموصلى جمال الدين (١٥) بعطفه وحسناته فأرسل المفريان اغناطيوس الى الملك جورجى لافتداء الأسرى العرب ، فاستقبله الملك جورجى أحسن استقبال وأطلق العديد من الأسرى مجانا وحمله هدايا كثيرة الى الأمير ، وبعث معه سفراء كرجيين فاستقبلهم الأمير فى الموصل استقبالا حسنا ، ورحب بهم ترحيبا حارا ، وقد وصل المفريان والسفراء الى الموصل والصلبان تتلالا فى رؤوس الرماح ، وقد انعش هذا المسيحيين، كذلك ابتهج العرب بعودة اسراهم.

وفي هذا الزمان نصب الفرنج كميناً لسارق فرنجي ظهر في بغراس فقبضوا عليه وأحرقوه بعد أن كان قد التجأ إلى نور الدين ، وأخذ من عنده جماعة من الأتراك وأخذوا يسرقون وينهبون في ضواحي أنطاكية .

توفي ذو القرنين صاحب ملطيه وخلفه ابنه الصغير عام ١٤٧٣ يونانية (١١٦٢ م) كذلك حاول يعقوب أرسلان ومعه مجموعة من الأمراء خلع قلع أرسلان وتوليه أخاه عوضاً عنه ، فتوجه قلع أرسلان إلى القسطنطينية وبقي هناك ثمانين يوماً ، وقد احتفى به الملك خلالها وحباه بالرعاية والعناية، وبقي هناك ثمانين يوماً كان يرسل له الملك خلالها كل يوم الطعام مرتين في أطباق ذهبية وفضية جديدة ، وكان يشير له بأبقائها لديه ، وظل كذلك طوال مدة إقامة السلطان في العاصمة ، وفي آخر يوم من إقامته تناول مع الملك طعام الغذاء ، ثم حمله بالهدايا الثمينة ، وأغدق بعطاياه على الفسي تركي ، وعاد إلى عاصمته ، فأدى له يعقوب أرسلان الطاعة وتهانداً.

وفي تلك الفترة أقام حاكم طرسوس اندرونيقوس اليوناني وليمة لأسطفان أخي طوروس الأرمني صاحب قيليقية ، لكن أسطفان وجد مقتولاً ومرمياً عند باب المدينة ، فغضب طوروس وقتل أكثر من عشرة آلاف يوناني ، لكن ملك بيت المقدس جاء وأصلح ذات البين بين الأرمن واليونان *

وفي عام ١٤٧٤ يونانية (١١٦٣ م) اختلف عسكر قرا أرسلان صاحب حصن زياد عند حصاره مدينة آمد فترك المدينة وانقلب راجعاً ، فتوجه يعقوب أرسلان إلى بلد قرا أرسلان واستطاع انتزاع قلعة شوموشكي منه ، وأسر مائه ألف نسمة تقريباً وترك القرى خالية ، وكان بين الأسرى اغناطيوس مطران تل ارسانايوس فأعادته من قماح إلى ملطيه ، وبعد يومين أعاد مطران حصن زياد.

- ٢٣٢١ -

في هذا الوقت كانت زوجة البرنس السجين في حلب تناصب العداء ابنها وتنافسها على الولاية ، لكن الزعماء وقفوا في وجهها ، فطلبت من صهرها ملك اليونان أن يذهب الى انطاكية ويتولاها ، لكن البطريرك والاقطاب سرعان ما اكتشفوا الامر ، فسارعوا واستدعوا طوروس من قليقية الى انطاكية: حيث نفى الملكة ، وأعلن الولاء لابنها وأيده في الامارة.

وفي عام ٥٥٨ هجرية (١١٦٣ م) أراد نور الدين غزو ضواحي طرابلس ، فحشد جيوشا كثيرة من الأتراك وتوجه الى حصن الأكراد ، وخيم هناك ، لكن الفرنج فاجأوه وانقضوا عليه وعلى جيوشه ، فقتلوا العديد من الأتراك وأسروا البقية واستاقوهم الى طرابلس بعد أن قتلوا واحدا من الأكراد كان قد ساعد نور الدين في الفرار وجعله ينجو.

وفي عام ١٤٧٥ يونانية (١١٦٤ م) فاجأ الموت يعقوب أرسلان عند نهر سانجر على شاطئ نهر أليس ، فخلفه اسماعيل حفيد أخيه ، ثم اقترن بامراته التي هي بنت السلطان .

هزيمة الفرنج وأسر أمير انطاكية وكونت طرابلس

جمع زعماء الفرنج جيشا يبلغ ثلاثة عشر ألف فارس وراجل بقيادة خمسة من رؤسائهم وهم : البرنس صاحب انطاكية ، وقمص طرابلس، وطوروس صاحب قيليقية، وبوقاس اليوناني صاحب طرسوس، والماستر مقدم الداوية ، وزحفوا ليحاربوا نور الدين الذي كان يحاصر مدينة حارم ، فانهزم شر هزيمة ، وأسر الاتراك القمص وبوقاس والبرنس وساقوهم الى حلب كذلك قتلوا الرهبان الداوية قاطبة ، لكن طوروس استطاع ان يهرب الى انطاكية، وقد اقام بطريك الافرنج مناحه عامة ، وحطم النواقيس واوقف الصلوات ، وقد استطاع نور الدين ان يستولي في هذه الموقعة على مدينة حارم وعلى دير سمعان وقد اسر الرهبان والسكان وساقهم جميعهم عبيدا .

وفي عام ٥٥٩ للعرب (١١٦٣ م) سير نور الدين الى مصر الأمير اسد الدين شيركوه أخا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين .

وكان اسم والد الأخوين الأمير أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب أبي صلاح الدين شادي كوبيين ، (١٦) من مدينة بوبين وهي مدينة بارمينة .

وقد توليا خدمه مجاهد الدين بهروز الحاجب أمير تكريت، الذي كان يحب النصاري، وقد هربا الى الموصل بعد أن قتل شيركوه أحد نصاري تكريت، وكان عزيزا على قلب أميرها، فاستقبلهما زنكي ورفع من شأنيهما ، وعندما احتل زنكي بعلبك جعل على قلعتها نجم الدين الذي بقي فيها حتى وفاة زنكي ثم سلمها الى صاحب دمشق، كذلك تولي أسد شيركوه اخوه ، خدمة نور الدين ثم ولاه على حمص وكان للأخوين مكانة رفيعة عنده.

وعندما ضعف المصريون استنجد وزيرها شاور بنور الدين، فوجه نور الدين الى مصر جيشا بقيادة الامير أسد الدين شيركوه الذي حاول احتلال مصر ، لكن عندما احس شاور بذلك بعث يهاندن الافرنج ورفض ان يدفع لشيركوه ما وعده به من الذهب والمناطق ، فاحتل شيركوه وجيوشه مدينة (بلبيس) فقام ابان ذلك شاور وطلب من ملك بيت المقدس المساعدة فزحف في جيش كثيف وحاصر بلبيس ثلاثة اشهر بعد أن انهزم شيركوه وتحصن فيها ، لكن ملك بيت المقدس سمح لشيركوه بمغادرة بلبيس والعودة الى بلاده وترك مصر لاهلها بعد ان علم بانهزام الفرنج في حارم شر هزيمة، فوافق شيركوه وعاد إلى دمشق .

وفي عام ١٤٧٦ يونانية (١١٦٥ م) أصبح السلطان قلع أرسلان سلطان قونية يعادي بني داندشمند بعد أن احتل جادوج وأبلستين وطورنده . واحتل نور الدين بانياس وعززها وأطلق من كان لديه قد أسر من زعماء المسيحيين ومن بينهم بوهموند البرنس الفتى بمائة ألف دينار ، وذلك بعد أن غزا طوروس الأرمني مرعش ، وقبض على أربعمائة تركي وهدد نور الدين بحرقهم إذا لم يستجب لطلبه بإخلاء الأسرى المسيحيين ، وتوجه البرنس لزيارة حمية ملك اليونان في القسطنطينية ، فأغلق عليه الملك الأموال الطائلة ، وعاد البرنس إلى أنطاكية بصحبة بطريك اليونان أثناسيوس ، فارتاب بطريك الفرنج وأبرم الحرم على الأنطاكيين الفرنج ثم ارتحل إلى قلعة القصير ، وفي شباط السنة نفسها توفي وحيد عصره في الطب ، الطبيب المسيحي أمين النولة ابن التلميذ ، بعد أن بلغ التسعين من عمره، وكان ضليعا في العلوم وكذلك في نحو العرب وفصاحتهم ، وتقلب في أيامه بين خفض العيش وعلوه ، وقيل أن ابنه سأل قبل وفاته : ما الذي يؤلك ؟ فقال : كمية التسعين من عمري ، وسأله كذلك : ماتتشتي ؟ فقال : أن أشتي .

وفي سنة ١٤٧٦ لليونان (١١٦٥ م) حين اجتاحت قرية أليناس الوباء بسبب وفرة المياه وغزارتها ، وردنا خبر غريب عن أهالي

القرية : فقد جاء إليهم رجل تركي وطلب منهم أن يبحثوا عن أول إنسان مات بهذا الوباء ، وكان قد مر على موته أربعة أشهر فبحثوا ، وفتحوا قبره فوجدوا جسده باقيا ويده اليمنى مبتورة ، وهي بجانبه وكفن رأسه وصدره مأكولا ولحيته مقصوصة وعينه مفتوحتين وفمه أيضا مفتوحا شبرا وأربع أصابع ، فسد ذلك التركي فمه وسمره بمسمار ضخم ، ومنذ ذلك الوقت لم يمت أحد في القرية .

وفي سنة ١٤٧٧ لليونان (١١٦٦ م) سقط الملك مذويل عن حصانه ، وأصيب أثناء حرب وقعت بين اليونان والبلغار ، وانقض رجل بلغاري على الملك يريد قتله ، لكن الملك عرفه بنفسه وسأله أن يمضي به إلى القسطنطينية وحلف له أنه سيكافئه ، فلبى البلغاري طلبه ، وأنقذه وفي الملك بوعده أضعافا ، ويقال ان الملك منويل سقى زوجته الملكة سما لأنها لم تلد له ولدا ، وخالف شريعة الملوك وتزوج بامرأة ثانية .

وفي السنة ١٤٧٨ لليونان (٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م) توجه أسد الدين شيركوه بأمر من نور الدين إلى مصر فعبر النيل من الناحية الغربية ، وسار مطمئنا حتى الصعيد ، وكان برفقته صلاح الدين بن أيوب ، فاستنجد شاور وزير مصر بالفرنج الذين لبوه بجيوش كثيفة اتحلت مع جيوش المصريين ، وتوجهوا نحو شيركوه ، فاقترح زعماء جيش شيركوه التراجع من الناحية الشرقية إلى سورية كأنهم سيعجزون أمام القوة الهائلة للفرنج والمصريين ، عدا عن أن جميع الأهالي أعداء للأتراك .

عندها برز شاب شجاع مصارع يدعى بنغوش، وهو عبد نور الدين ، فحمسهم على القتال، وقال لهم بأنهم إذا تخلوا عن محاربة الأعداء وعادوا إلى نور الدين هكذا فلاسوف يقطع عنهم المعاش ويطالبهم بما أعطاهم ، لأنهم لا يصلحون لأن يكونوا جنودا ، فوافقه

صلاح الدين على رأيه ، وعقدوا العزم على القتال وقاتلوا على الرغم منهم .

واستطاع شيركوه ومعه ألفي جندي لاغير أن ينتصر على الفرنج والمصريين ، وكانوا أكثر من عشرة آلاف جندي ، وذلك بعد أن أوعز شيركوه لصلاح الدين بأن يبقى في وسط الجيش ليظن الجيش المقابل أنه هو ، ثم ينقلب راجعا ، ونجحت الخطة ، وظن الفرنج والمصريون أن شيركوه انهزم فلاحقوا به لكن شيركوه وقلة من جنوده الاشائوس لحقوا بالفرنج والمصريين ، فأطبقوا عليهم من الخلف وصلاح الدين من الامام ، فانكسروا وانهزم منهم من استطاع الفرار .

وبعدها سار شيركوه واحتل الاسكندرية دون حرب ، وترك مصر وعاد إلى دمشق بعد أن أرسل إليه الفرنج والمصريون في الصلح، ودفعوا له خمسين ألف دينار على أن يعود إلى بلده تاركا الاسكندرية للمصريين ، ودفع المصريون للفرنج مائة ألف دينار ليعودوا إلى بلادهم وبقيت مجموعة من الجند والفرسان لحراسة أبواب الاسكندرية كي لايطمع بها نور الدين مرة أخرى .

وفي العام نفسه (١١٦٧ م) استطاع قرا أرسلان صاحب حصن زياد أن يحتل برجين من أبراج أمد بالتآمر مع حراسها ، لكن بقية الحراس انقضوا على الأعداء وفتكوا بهم ، فعاد قرا أرسلان إلى بلده منهزما وخلفه ابنه بعد أن توفي في (١٧) تموز .

وفي كانون الثاني عام ١٤٧٩ يونانية (١١٦٨ م) توفي صاحب قيليقية طوروس بعد أن انقطع في أواخر حياته إلى الرهينة وحرم أخاه مليح وراثته ، وأوصى أن يخلفه ابنه الصغير ويشرف عليه ابن خالته توماس ، عندها غضب مليح غضبا شديدا ، فقصده نور الدين الذي أمدّه بجيش تركي توجه به إلى قيليقية ، وأسر ستة عشر ألفا من الأهالي والقسس والأساقفة وساقهم إلى حلب وباعهم ، ودفع

إلى الأتراك بأثمانهم . فاستدعاه الأرمن وولوه نصف البلاد فأقسم بالمقابل أن يترك للفتى النصف الثاني ، لكنه نكث بوعده وقسمه واحتل بلادهم ، وأعمل البطش ففقأ عيون العديد من الأساقفة والأعيان ، وبتر أيديهم وأرجلهم وسلخ بعضهم أحياء وألقى بهم للوحوش .

وفي عام ٥٦٣ للعرب (١١٦٧ م) أترك الهرم صاحب الموصل قيم قطب الدين الأمير التركي زين الدين فطرش وعمي ، فانتقل إلى إربيل واكتفى بها ، وقد كانت في حوزته منذ عهد زنكي وفيها توفي ، وتنازل لقطب الدين عن سنجار وحران والعقر وحصون الهكارية وتكريت وشهرزور ، وتولى بعده ولده مظفر الدين وجعل قيمه مجاهد الدين ، واتصف زين الدين ببساطة التصرف وعفويته ، واشتهر بعدله وعطائه ، ويحكى أن أحد الفرسان جاءه يوما وبيده نيل وقال له بأن حصانه هلك ، فأمر له بحصان ، وهكذا تناوب النيل إثنا عشر فارسا ، لكنه قال : لقد استغربت أنكم لم تخلصوا مني خجلي منكم ، فقد عرفت أن النيل هو عينة أحضر لي إثني عشر مرة ومع ذلك كله لم أخجلكم ، وأرفض طلبكم وأجيزت لكم العطاء كمن يؤدي فرضا .

ويحكى أيضا أن أحد الشعراء أنشده يوما قصيدة ، لكنه لم يفهم منها شيئا ، ومع ذلك لم يرده خائبا ، وأمر له بخمسمائة دينار وحصان وكسوة قيمتها كذلك خمسمائة دينار .

في عام ١٤٨٠ يونانية (٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م) استولى سلطان قونية قلج أرسلان على مدينتي قيسارية كبديوكية وسمنو من بني دانشمند ، وانتزع أنقرة وقنقار من اليونان ، وانتزعت من الأمير المعدي المتصل ببني عقيل قلعة جعبر ، انتزعها منه نور الدين ، وأعطاه عشرين ألف دينار وسروج والمالحة وباب بزاعة بدلا من القلعة ، ومكث شهاب الدين زمنا في سروج، لكنه بقي يفضل حياة العز في القلعة على أن الوارد من سروج كان أكثر ، فهكذا كان

- ٢٣٢٧ -

يوضح كلاً سألَهُ اصدقائُهُ عن أي البلدين أطيب بنظره ؟ وفي هـذه
السنة انتزع قلج أرسلان أنقره وقنقار من اليونان .

استيلاء صلاح الدين على مصر

في تلك السنة بعث الفرنج المقيمون في مصر والاسكندرية من أجل حراسة الأبواب وجباية الضرائب إلى ملك بيت المقدس عموري يخبرونه بأن مصر خالية من الجيوش والفرصة مواتية لاحتلالها ، وتحمس الزعماء لتلبية الطلب ، لكن الملك نبههم من حقد العرب عليهم وقال : إن أموال مصر تأتينا عفوا صفوا ، وإذا زحفنا إليها لابد أن هذا سيدفع العرب للاستنجد بنور الدين وعندها سيغلبوننا بعد أن ينضم الغرباء والمصريون في جيش واحد ، وتضيع الأموال التي تأتي للفرنج من مصر ، لكن الزعماء رفضوا اقتراحه ، وعقدوا العزم على الحرب قبل أن يستعد نور الدين ، وتوجهوا إلى مصر ، واحتلوا بلبيس ونهبوها وأسروا أهلها وحاصروا القاهرة ، واصطف أهالي مصر فوق الأسوار وجاهدوا جهادا حسنا ، وقاوموا الأعداء فاستنجد خليفة مصر العاضد بنور الدين بعد أن قص صفائر نسائه وأرسلها إليه قائلا : إن نسائي يتنزلن بساكنات بدموع مدراة ويلتمسن أن تسارع إلى إغاثنهن وأن تعمل على إنقاذهن من الوقوع في أيدي الفرنجة ، ومكث نور الدين شهرين يعد العدة للقتال وبسبب تمهله واشتداد القتال أرسل وزير مصر شاور إلى عموري وزعماء الفرنج يقول لهم : إنكم تعلمون بمسويتي لكم ، ولو أعرف أن العرب يسايرونني لتخلت لكم عن مصر حالا ، لكن لو سمعوا شيئا مني حول هذا الموضوع لقتلونني حالا ، ولهذا أعرض عليكم ماشئتم من الذهب شرط أن تعودوا إلى بلدكم ، ويمكنكم أن تقيموا لكم وكلاء يجبون الجزية كما كان من قبل لأنه إذا جاء نور الدين واحتل المدينة فستخسرون وقتها الجزية والمدينة معا ، واقتنع الفرنج وعادوا إلى بلدهم وغادروا مصر بعد أن رحبوا برأي شاور وعقدوا الصلح وفرضوا على المصريين ألف ألف دينار ، دفع لهم شاور منها على الفور مائة ألف على أن يجمع لهم باقي الذهب ويبعثه لهم بعد رحيلهم .

وعندما علم نور الدين أرسل جيوشه إلى مصر وسير معها شيركوه وسير معه صلاح الدين ابن أخيه ، وزار شيركوه عند وصوله مصر الخليفة العاضد ، وحظي لديه ، وشرع يمالئه بكلمات مغرية لأن الوزير شاور المسؤول عن توزيع الأرزاق لم يكن يؤدي للخليفة وحشمه شيئاً من المال ، واستعد شاور ليولم وليمة لأسد الدين وصلاح الدين ليقبض عليهما لولا أن ابنه ثناء عن عزمه كما أن صلاح الدين كان يريد أن يفتك بشاور ولكن عمه شيركوه نهاه عن ذلك ، وفي يوم من الأيام ذهب شاور لزيارة شيركوه فلم يجده إذ كان قد سار ليتبرك بقبر أحد مشايخ دينه ، فركب حصانه وركب معه صلاح الدين الذي التقى به في الطريق وفيما هما يتحدثان ألقاه صلاح الدين عن حصانه وأوثقه ولم يقتله نون أخذ رأي عمه الذي أمره بإعلام الخليفة بذلك ووافقهما الخليفة ، لأن شاور كان لا يطيعه ، وهكذا قتل شاور وتم الاستيلاء على أملاكه ، وتولى شيركوه مكانه وسمى ملكاً وقائداً أسوة بسائر وزراء مصر ، ولم يتنعم شيركوه بالوزارة سوى شهرين فقد أبركته المنية وتوفي بداء الخناق ، وتولى بعده ابن أخيه صلاح الدين فاستمال بعطائه الجنود واستطاع السيطرة على مصر .

ولم يكن لشيركوه سوى ابن واحد يدعى ناصر الدين ليخلفه وقد أنيطت مدينة حمص به وبأبنائه ، أما أخوه نجم الدين أيوب فكان له ستة أولاد : الأول شمس الدولة توران شاه الذي تولى الاسكندرية ، والثاني : شاهنشاه والدعز الدين فروخ شاه ، وتقي الدين عمر الذي تولى وبنوه حماه ، والثالث : سيف الاسلام طغتكين وتولى اليمن ، والرابع : صلاح الدين يوسف وتولى مصر وفلسطين وسورية ومابين النهرين ، والخامس : الملك العادل أبو بكر الذي خلف صلاح الدين ، والسادس : تاج الملوك بورري الذي مات عندما حاصر أخوه صلاح الدين حلب .

هروب أمير ملطية مع زانية

وفي السنة ١٤٨١ لليونان (١١٧٠ م) ولى زعماء ملطية أبا القاسم الأخ الصغير لمحمد صاحبها ، بسبب كره الملطيين واشتد غضبهم على محمد هذا بسبب ملازمته لامرأة زانية وساحرة فأخذها وغادر ملطية وجعل يتنقل من دار إلى دار .

وفي هذا الوقت أخذ مليح الأرمني صاحب قيليقية يعتدي على المسيحيين فزحف ضده ملك بيت المقدس تحته الحماية وسجنه في أحد الحصون ، وبقي كذلك حتى استغفر من الملك وأقسم له بالطاعة والعدول عن صحبة الأتراك ، فعفا عنه وعاد .

وفي عام ٥٦٥ للعرب (١١٦٩ م) توفي صاحب الموصل ابن زنكي قطب الدين موبود وأوصى أن يخلفه ابنه عماد الدين زنكي ، وكان لقطب الدين نائب وقيم يقال له فخر الدين عبد المسيح ، أصله من أنطاكية ، وكان قد وقع أسيرا وكان يكره عماد الدين فغير الوصية بالاتفاق مع قطب الدين ووليا الابن الصغير سيف الدين غازي خلفا لأبيه فعاهده الزعماء على ذلك ، وعندها توجه عماد الدين إلى عمه نور الدين في سورية تاركا الموصل ، وأخذ يبكي المملكة والوراثة ويشتكى من عبد المسيح لأنه حرمه إياهما .

زلازل عنيفة

في يوم الاثنين ٢٩ حزيران - ١٢ شوال اهتزت الأرض اهتزازا عظيما لم يشهد له مثيل من قبل، وكانت الأرض مثل السفينة في لجة البحر، واستغرقت الزلازل مناوبتها خمسة وعشرين يوما ، سقطت فيها أسوار حلب وبعليبك وحماه وخمص وشيرز وبغراس وجميع حصونها وبورها وتوفي أهلها .

وقد سقطت حلب كلها سوى كنيستنا ، وكذلك سقطت ثلاث

كنائس لنا في انطاكية هي : كنيسة والددة الرب ، وكنيسة مار جرجس وكنيسة مار برصوما ، وبقيت كنيسة جبلة الصغيرة ، وكنيسة في اللانقية . وذلك تمجيذا لله عز وجل وتشجيعا للايمان القويم والمؤمنين ، وقد وصف البطريك ميخائيل السرياني تلك الزلزلة قائلا : « كنا واقفين في هيكل بير مار حنانيا (الزعفران) نتلو صلاة الصبح يوم عيد القديسين بطرس وبولس فسمعنا بفتة صوت رعد قوي وسقطنا على وجوهنا امام المائدة المقدسة ، وتشبثنا بها ونحن نميل هنا وهناك ، وبعد مدة طويلة افقنا كمن يفيق من القبر وانتبهنا انتباه من ينهض من رقاد ، وتخرجت الدموع من عيوننا واطلقنا الالسنه بالشكر والتسبيح لله تعالى ، واجتاحت بيعة اليونان الكبرى بانطاكية ومنبح بيعة القسيان وهي للفرنج ، وقد اشفق الرب الرحيم على بقية شعبنا وتعطف على نلنا نحن الذين لم يبق لنا ملك ولاحاكم منا .

وفي العام ١٤٨٢ (١١٧١ م) زفت ابنة قرا ارسلان صاحب حصن زياد الى صاحب ملطية ابي القاسم الذي تهور عن ظهر حصانه في غمرة الاحتفال بالعرس في ميدان الخيل فانقلب الفرع حزنا ، فولى الملطيون افريديون الصغير اخاه عوضا عنه بعد ان زفوا اليه العروس ذاتها على كره منها .

ويومها اجلى قلع ارسلان اهالي ضواحي ملطية بعد ان زحف اليها مع جيوشه من قونية ، وبعدها انقلب الى قيسارية لكن نور الدين كان له بالمرصاد فنهض نحوه مع صاحب ماردين وحصن زياد وارمن قيليقية وابن دانشمند صاحب سبسطية ، فوصلوا الى باب قيسارية فطلب قلع ارسلان الصلح ولم يخرج ليحاربهم ، ورد الذين اجلاهم عن ملطية وضواحيها ، وابقى عنده اولاد اخوته الاربعة ، وحين طالبه نور الدين وجماعته بهم ارسل لهم احدهم على طبق بعد ان نبحه وشواه ، واقسم ان يفعل الشيء نفسه مع الثلاثة اذا طالبوه بهم ، فتركوه ، وعادوا .

وفي عام (١١٧١ م - ٥٦٦ هـ) اغتصبت كل بلاد بني دانشمند من قبل قلعج ارسلان .

وفي السنة نفسها وصل خبر وفاة قطب الدين الى اخيه نور الدين وتولى سيف الدين بعد وفاة والده قطب الدين . وبقي عبد المسيح في الموصل يضغط على الاهالي ويشدد عليهم ، ويتصرف كما يحلو له في شؤون الموصل ، مما دفع نور الدين ليقول : ينبغي ان اتولى انا تدبير ابناء اخي لاعداد المسيح ، فتوجه نور الدين الى الرقة واحتلها واحتل الخابور كله ونصيبين ايضا بعد ان غادر حلب ، وقد زاره صاحب حصن كيفا محمد بن قرا ارسلان ، واستطاع نور الدين ان يحتل جبل سنجار ، واستعمل عليه ابن اخيه عماد الدين ، وحط رحاله شرقي الموصل جهة نينوى ، بعد ان توجه الى مدينة بلد وعبر بجلة ، وقد سقط صدفه احد ابراج الموصل الذي يبدو انه تصدع في السنة الماضية عند حدوث الزلزلة العنيفة . عند وصول نور الدين الموصل .

وخاف عبد المسيح ان يقتل فأرسل يطلب الامان ، عندما وجد ان العرب قد مالوا الى نور الدين ، واشترط ان تبقى الموصل مع سيف الدين ، لكن نور الدين اجابه بانه لا يريد انتزاع الموصل من ابنائه ، لكنه يريد انقاذ اهلها من ظلم عبد المسيح وينقله معه من الموصل الى سورية ، فتم الصلح وترك سيف الدين متوليا امور الموصل بعد ان دخلها نور الدين ومكث في قلعتها ، واقام شحنة يتولى القلعة اسمه سعد الدين كمشتكين ، وتصرف احسن تصرف فاعفى الاهالي من الضرائب وقسم ارث اخيه على جميع اولاده ، وبنى مسجدا ضخما سمي المسجد النوري نسبة اليه ، والحق جزيرة قاربو (١٧) بالموصل ، ورجع الى سورية وبرفقته فخر الدين عبد المسيح ، وسماه عبد الله واعطاه عطايا كثيرة بعد ان بقي في الموصل سبعة عشر عاما ، وقد شبه البطريك ميخائيل السرياني عبد المسيح بمريخاي لانه كان يكره العرب وعلماءهم وقد تظاهروا بالاسلام وظل يضمم النصرانية ، وكان يعامل النصارى احسن معاملة .

وفاة الخليفة المستنجد

وفي هذا العام يئس الزعماء ولاسيما الاستادار من بقاء الخليفة المستنجد حيا ، بعد اصابته بداء المفاصل ، ففتحو ابواب السجون ، واطلقوا المساجين، فاخبر الوزير الخليفة بذلك فغضب واوعز الى ابن صفية الطبيب النصراني الوحيد الذي كان يزور الخليفة عند مرضه بالكتابة الى الوزير ليقبض على الثائرين ويفتك بهم ، فنفذ امره وكتب رسالة ووضع الخليفة ختمه عليها وارسلها مع حاجب صغير ، وقال له بان يدفعها الى الوزير دون ان يعرف به احد ، وذهب الحاجب منفذا امر الخليفة لكن الطبيب ذهب الى الاستادار واخبره بما حصل فقبض على الحاجب وفتشه كما قتله ، ودخل مع رفاقه الى دار الخلافة الداخلية وفيها الجواري اللاتي صرخن في وجوههم قائلات : كيف هجمتم ياكلاب علينا هجومكم على سفيهاات عاريات ، لكنهم لم يعطوا بالا لذلك وتابعوا طريقهم ، وبخلوا غرفة الخليفة وحملوه الى الحمام على الرغم منه بحجة ان الطبيب امرهم بذلك ، وعروه هناك ، ووضعوه في بيت داخلي شديد الحرارة حتى سقط صارخا متأوها ، واخذوا بقرع الباب حتى لاتسمع الجواري صراخه ويعرفن من قتله اذ لم يستطع الزعماء طردهن او ان يتخلصوا منهن، ثم دخل احد الزعماء على الخليفة واخذ يدوس عليه حتى بعج بطنه فنقلوه على آخر رمق حتى تشاهده الجواري ويتحقق انه لم يقتل قتلا، وبعدها رفض الزعماء ان يعطوا الخليفة ماء، وبعدها وعند الحاج الخليفة بطلب الماء امر الطبيب باعطائه الماء ، ظنا منه انه سيموت لدى شربه ولكنه توفي قبل ان يمتص الماء لان حلقومه كان قد انسد وييس ، وطالعنا في كتاب آخر ان هذا الخليفة كان يحب جاريه اسمها بنفشة فغارت منها امرأة الخليفة وحثت ابنه ليضاجعها وفعل كذلك ، وعندما طلب الخليفة الجارية اطلعته زوجته على الحقيقة وانها لم تعد تحل له فغضب ، وخولط بعقله وأمر بقتل ابنه ، لكن الزعماء خالفوه فقتلوه وبإيعاوا ابنه بالخلافة .

ابو الحسن المستضيء بأمر الله - ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م

دام حكم المستنجد تسعة اعوام ؛ وكان للمستنجد ابن حليم ومتواضع لم يفكر يوما بالخلافة ، وقد وقع عليه اختيار الزعماء الذين قتلوا والده فبايعوه ، ولكنهم قبل ان يبايعوه استحلفوه بان يرد لهم ما اخذه ابوه منهم ، والا يغرب بهم او يقتلهم ، فاقسم لهم بذلك ، وكذلك فعلوا باخيه بعد ان استحلفوه وهددوا بقتله ، ثم هددوا بالقتل جميع ابناء الاسرة ، فلما استحلف الزعماء جميع ابناء الاسرة بايعوه بالخلافة واطلقوا عليه اسم المستضيء .

وفي عام ١٤٨٣ يونانية (١١٧٢ م) عم الارض الثلج حتى الهند التي لم تكن تعرف الثلج ابدا ، ويقال ان ارتفاع الثلج بلغ يومها اربعة عشر شبرا ، وتجمدت الينابيع والانهار ، وماتت الحيوانات والطيور من الجوع والعطش ، اما الناس فلم يعد يتيسر لهم الانتقال من قرية الى اخرى ، فلزموا بيوتهم لايتحركون منها وكأنها قبور ، وقضى الثلج على العديد من المسافرين وسكان الخيام ، وعندما تفاقم الجوع في سبسطية بسبب بعد المسافة ، طلب زعماء سبسطية من صاحب كبذوكية اسماعيل بن داندشمند قمحا لهم ولنويهم لمسكون به رمقهم الى ان يحل الصيف لانه يملك اهراءات كثيرة مملوءة بالقمح ولكنه رفض طلبهم ، فهجموا عليه ، واحتلوا الاهراء وقتلوا به وبامراته التي هي أخت السلطان قلع ارسلان ، وقتلوا معها خمسمائة شخص من الحشم والعبيد والجواري ثم أرسلوا الى دمشق في طلبه عمه ذو الذون ، فأقبل وتولى السبسطية في سبسطية بعد ان كان منهزما من وجه السلطان.

في عام ١٤٨٢ يونانية (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) ارسل نور الدين كتابا الى صلاح الدين كي يخطب لخليفة بغداد ويلغي الخطبة باسم العاضد ، لكن صلاح الدين اجل هذه المسألة خوفا من قيام ثورة ،

فالح نور الدين مرة ثانية ولم يستطع ان يخالفه ، فاختلف زعماء مصر وانقسموا الى فرقتين عندما استشارهم صلاح الدين في هذه المسألة ، احدهما وافقت على ذلك والثانية نهت عنه ، وحضر الى هناك الامير العالم وهو رجل فارسي وقال لهم : انني سأبتي الخطبة واجنبكم المشكلة،وبالفعل صنع كذلك،فصعد يوم الجمعة المنبر ، ودعا لابن العباس المستضيء بدلا من ابن علي العاضد ، وايده الجمهور ، وحصل مثل ذلك في مساجد مصر كلها يوم الجمعة التالية والغيت بذلك خلافة المصريين .

وكان العاضد خليفة مصر آنذاك مريضا ، وتوفي دون أن يدري بما حصل،لأن اصدقاءه لم يعلموه بذلك خوفا من أن يعاجله الموت، أما ابناء الخليفة وآله فقد اعتقلوا من قبل صلاح الدين الذي فصل الاناث عن الذكور كي يقطع نسلهم ، واطلق العبيد والجواري.

وفرّح بذلك العرب من جماعة القضاء والقدر وجماعة مؤيدي الحرية والاختيار ، وقد قيل ان الخلفاء المصريين ينحدرون من رجل مجوسي أو يهودي لاكما يزعمون من علي وفاطمة ، وقد نظم الشعراء القصائد الكثيرة التي تتكلم عن ظهور الدولة اليوسفية والغاء الدولة الفرعونية ، وقد ظهر منهم في المغرب اربعة عشر خليفة ، ثلاثة في افريقية ، وهم: المهدي والقائم والمنصور . وأحد عشر في مصر وهم: المعز ، والعزیز ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلي ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد.

ولم يعارض صلاح الدين حين استقل بمصر سوى نور الدين الذي ارسل اليه يقول . انني احاصر الكرك فجهز جنودك وسارع بالقدوم الى هناك ، لكن صلاح الدين لم يأبه بالامر . فغضب نور الدين وقرر أن يذهب لمصر بنفسه كي يخرج صلاح الدين ، عندها جمع صلاح الدين أعوانه وشاورهم في الأمر ، لكنهم لم يدروا ماذا يقولون الى أن نهض ابن أخي صلاح الدين الشاب وقال لهم بأن يحاربوا نور الدين اذا حاول دخول مصر ، فوافقه الشباب على

رأيه ، لكن والد صلاح الدين وخاله لم يعجبهما الأمر، فصرخ والد صلاح الدين غاضبا وقال: هل بين الحضور من يرغب لك الخير أكثر مني ومن خالك ؟ فقال صلاح الدين : كلا، فقال والده : كن على ثقة انني وخالك اذا شاهدنا نور الدين سوف نخر ، ونقبل الأرض بين يديه واذا كان الأمر كذلك فمن يتجاسر ويشهر السلاح عليه ؟ ان بلاد مصر بأجمعها وغيرها ايضا هي لنور الدين ، واذا اراد ان يعزلك فلا حاجة به ان يزحف اليك في جيوشه بل حسبه ان يرسل شخصا واحدا ، ثم نهض الشيخ نجم الدين ووجه خطابه الى الأعوان قائلا . اننا جميعا من عبيد نور الدين وله ان يصنع بنا ما يشاءه ، ثم قال والد صلاح الدين لابنه بعد ان انصرف الزعماء . انك يافع لاتملك عقلا ولا سياسة، الا تدري اذا علم نور الدين بتمردك يترك كل شيء ويلحقك حتى يقضي عليك ، ومن ياترى من جنود نور الدين يتركه ليتبعك ، ونبهه قائلا ان كل كلمة تصدر عني وأنا والدك ستصل الى نور الدين ، ثم نصحه بإرسال رسول يخاطبه بوضوح وصراحة بأنه عبده ويقدم له الولاء ولاء عبدا لسيده ، وأن خوفه من الفرنج هو الذي يجعله يتردد في الذهاب لملاقاته ، خاصة أن أحوال مصر مضطربة بسبب ذلك ، وقد فعل صلاح الدين كما أراد الشيخ والده .

وفي تلك الفترة تعرضت قرى كثيرة للنهب حين جاءت الى أطراف الصغيد جماعات غفيرة من النوبة ، ونشب القتال بينهم وبين الجنود الذين وجههم صلاح الدين ، فمات العديد من الطرفين ، ثم تقوى السودان فجاء شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين في جيش غفير ، فهربت النوبة ولاحقهم العرب فقتلوا وغزوا واستطاعوا احتلال قلعة ابريم وأقاموا عليها واليا ، لكن العرب عندما رجعوا استرجع النوبة قلعتهم وعادوا اليها ، وقد أرسل ملك النوبة الى شمس الدولة رسولا وهو في قوص ، وطلب منه الصلح فوافق شمس الدولة بشرط تأدية الجزية ، كذلك بعث شمس الدولة مع رسول النوبة رسولا اسمه سعود الحلبي فوصل الى العاصمة دنقلة ، واستطاع خلال مسيرته أن يتعرف على الضيق ويكتشف ان

- ٢٣٣٧ -

أهالي النوبة لا يزرعون الا الدخن ، وعندهم النخيل ويأكلون الدخن ملتوتا بتمرهم ونتاج مواشيهم ، ولا يوجد عندهم سوى بناء واحد هو قصر الملك وداره ويسكنون المغاور والخيام ، وروى سعود الحلبي ان الملك أمر بكي يدي على شكل صليب وذلك عندما دنوت منه وسلمت عليه ، وقد كان عاريا ويركب حصانا عاريا لكنه التف برداء اطلاس غير مخيط ، وكان رأسه مكشوف واصلع ، وقد أطلقني الملك بعد ان دفع لي خمسين رطلا من القمح ، وروى ايضا انه عندما سلم عليه استغرق بالضحك والقهقهة .

وفي عام ٥٦٩ للعرب (١١٧٣ م) احتلت اليمن واستمكت من قبل شمس الدولة .

وفي أيار ١٤٨٥ لليونان (١١٧٤ م) توفي بدء الخناق في دمشق نور الدين، وكان رجلا قامته طويلة لالحية له وتحت ذقنه بضع شعرات ، بسيطاً في لباسه وكسوته يكره العرب المتحدرين من علي ، واستعاد ابا ن حياته من الفرنجة مايزيد على خمسين مدينة وقلعة ، وبنى في دمشق بيمارستانا كبيرا ومدرسة وبنى مسجدا ضخما في الموصل ، وحدث الرحبي الطبيب الدمشقي الذي ادركت انا الحقير ابنه الطيبين الفاضلين ، قال: « لما تفاقم داء نور الدين ودعيت الى عيادته مع سائر الأطباء ، شاهدناه في بيت ضيق صغير وطلبنا منه أن يفصد في الوريد فأبى ، ولم نر أن نلج عليه لأننا كنا نهاه جدا ، وما عثم ان مات».

الملك الصالح اسماعيل

وقام بعد نور الدين ابنه الصالح اسماعيل ، وحالفه جميع الزعماء ، وخطب له في مصر صلاح الدين ، وضرب الدراهم والدنانير باسمه ، وفرح صاحب الموصل سيف الدين غازي فرحا عظيما حين نعي اليه عمه نور الدين ، وأمر المنادين ان ينادوا بحرية الأهالي في أن يشربوا ويسكروا ويبذخوا علنا ، ثم احتل الرها

- ٢٣٣٨ -

وحران وماحولهما حين جاء الى بلاد مابين النهرين بجيوش جرارة ، وبعث قائد الجيش الحلبي شمس الدين الى زعماء دمشق وقال لهم بأن يرسلوا الى حلب الملك الصالح قبل ان ينتزع من ايديهم ، لكنهم لم يتركوا الملك الصالح يغادرهم خوفا من ان يتولى سياسة الدولة ، وبعث صلاح الدين يعاتبهم لأنهم لم يستعينوا به ولم يطلبوا منه المساعدة وقال : « لو عرف نور الدين ان بينكم من هو انشط مني لولاه مملكة مصر ، والآن فاني قادم اليكم اذ يترتب علي ان ابر مولاي وابن مولاي بونكم » . عند ذلك خاف الزعماء فارسلوه الى حلب ، وجعلوا سعد الدين الحاجب قيما للصالح ، وقد كان سعد الدين في الماضي حافظا لقلعة الموصل ثم هرب وجاء الى دمشق .

وبعث الدمشقيون في طلب الصالح مع ملك بيت المقدس عموري وقبلوا بتأدية الجزية وذلك تخوفا من صلاح الدين ، لكن بعد مرور اربعين يوما على موت نور الدين توفي في عكة في الحادي عشر من تموز الملك عموري ، وقد عظم حزن المسيحيين لموته وخلفه ابنه بلدوين الرابع ، وكان عرب سورية ومصر يهابون عموري .

وزحف سلطان قونية قلج أرسلان الى سبسطية ونوقيسارية وقومانا وملكها جميعها حين بلغه نبأ وفاة نور الدين حليف ذي النون بن دانشمند ، فتوجه ذو النون الى القسطنطينية ، فطلب النجدة من ملك اليونان ، وانتهت يومها زعامة بني دانشمند التي دامت (١٢٢) سنة .

وفي هذا الزمان ضايق امير ميفارقين الارمن السناسنة ، فبعثوا الى شاه ارمن صاحب خلاط وسلموه حصونهم ، كذلك عاد ملك الكرج انتزع من العجم مدينة آني . (١٨)

قدوم صلاح الدين الى دمشق

وفي عام ١٤٨٥ يونانية (٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م) أقبل صلاح الدين الى دمشق بعد ان حشد جيشه متظاهرا بأنه قادم ليساعد مولاه ، ودخل الى بيت ابيه ومكث فيه ثم وسوس الى حافظ القلعة ريحان الخصي ففتح له الباب ، ودخل دمشق واحتلها أخوه سيف الاسلام وأصحابه وأيد الخطبة للملك الصالح اسماعيل ، ثم ترك دمشق واتجه الى حمص واستولى عليها وتابع الى حماة وملكها ، وحين وصل الى جبل جوشن قرب حلب ، احتشد الحلبيون جميعا ومعهم أميرهم أمام ميدان باب العراق ، وطلبوا من الصالح ان يخرج ويكلم الجماعة بشكل مؤثر لصغارهم وكبارهم ، فلبى الصالح طلبهم ووقف في مكان مجاور في الميدان ، وقال لهم : أيها الحلبيون لقد رببتموني وهاأناذا استغيث بكم ، وليس لي أب أو أخ سواكم ، ثم أجهش بالبكاء لدرجة الاختناق فبكوا جميعا لبكائه ، ونادوا بصوت واحد : نحن عبيد لك ومستعدين للتضحية فداء لك .

أما الفرنج فقد لاموا صلاح الدين على عمله هذا وأرسلوا اليه ينكرون ذلك وقالوا له : بعملك هذا تنكر جميل مولاك ، ودعوه الى ان يسمعهم ويترك حلب والافسوف يهجمون عليه وينقلبون ضده ، ولما رأى صلاح الدين أن الأمور لن تسير كما رسم لها ، وأيقن أنه لن يقدر على خداع الحلبيين ، انقلب عائدا نحو بعلبك فاحتلها ، ثم توجه الى حمص وتمكن من امتلاك قلعتها ، وبعث الحلبيون الى صاحب الموصل سيف الدين قائلين له ومنبهين بأنه اذا سمح لصلاح الدين باحتلال حلب فلن يترك الموصل ابدا ، فاتفق سيف الدين مع الحلبيين وساروا الى حماة بجيش كثيف بقيادة عز الدين اخي سيف الدين ، وبعثوا الى صلاح الدين وهو في حمص رسولا يخبره انهم يريدون ان يسترجعوا جميع حصون مولاه ويكتفي بدمشق فقط ويكون مثله مثل جميع الأمراء

الذين يخضعون للملك الصالح ، فأجابهم صلاح الدين : بأنه لم يأت
الا ليحفظ مولاة وبلاده وخزائنه لا ليحاربه وأنه لن يخالفهم
ابدا ، ولكن لما سمعوا رده استضعفوه ، فأضافوا طالبيين منه
مغادرة سورية والعودة الى مصر والا ليس له الا السيف ، ثم
توجهوا الى الرستن فصار اليهم صلاح الدين وتحارب الجيشان في
ضواحي حماة ، فانتصر صلاح الدين وجماعته ، وهزم المواسلة
والحلبيون وارتدوا منهزمين ، فأمر صلاح الدين جيوشه بألا
يلاحقوا المنهزمين ولا يقتلوا أحدا ، وعندها بعث اليه الملك الصالح
يسأله الصلح ويعرض عليه ترك سورية الخارجة للصالح ، ويتولى
دمشق وحماة وحمص ، فرفض صلاح الدين ذلك ولم يقبل الا بعد ان
أضافوا الى ذلك المعرة وكفر طاب ، واقسم أن يخطب للملك الصالح
في كل البلاد التي يأمرها وأن يساعده كلما دعت الحاجة لذلك .

ولما سمع المستضيء خليفة بغداد أخبار انتصارات صلاح الدين
أرسل اليه حلا ملكية وسيفا وألوية ومرسوما ، وكان يومئذ قطب
الدين قايمان متمردا على الخليفة ومحاصره في قصره ، فخاف
الخليفة خوفا شديدا ووثب الى السطح وأمر المنادي بالمناداة بأعلى
صوته مستنشدا البغداديين لمساعدة خليفتهم وامام دينهم
وليحدثهم على ذلك بدافع الدين ، وقد لبى اهالي بغداد النداء
وهجموا على قايمان بالعصي والسيوف والأحجار وقطع القرמיד
واستطاعوا ان يتغلبوا عليه وعلى رجاله فهربوا الى الصحراء وكان
العطش قد أتركهم فوجدوا صهريج ماء خنقت فيه الأفاعي ، فانتشر
السم في أجسادهم وفي خيولهم ، وعادوا الى الموصل ليقضوا نحبهم
بعد ان قضى على أغلبهم في الطريق .

وفي عام ١٤٨٦ يونانية (١١٧٥ م) حاول زعماء أرمينيا اغتيال
اميرهم مليح فهرب الى احد الحصون ، لكن الحراس تمكنوا منه
وقطعوا جثته اربا اربا وألقوها للكلاب ، وذلك انتقاما للمسيحيين
الذين عذبهم والحق بهم السوء والأذى ، ثم طلب الزعماء من

- ٢٣٤١ -

طرسوس روفين ابن اخيه اسطفان وسلموه زمام الأمور فقضى على قتلة عمه مليح لأنهم مثلوا في جثته بالقائها للكلاب .

وفي عام (١١٧٥ م - ٥٧١ هـ) بعث صاحب الموصل سيف الدين الى الصالح في حلب يلومه على مهادنته صلاح الدين ، ثم سير جيشه وكان يضم نحو عشرين ألف فارس واتجه الى حلب ، وأطلق سراح زعماء الفرنجة الذين كانوا قد سجنوا هناك منذ فترة طويلة .

ثم باع بثمانين ألف دينار قمص طرابلس وبخمسين ألف دينار جوسلين بن جوسلين ، وبمائة وعشرين ألف دينار امير انطاكية البرنس ، واستحلفهم ان يساعدوا العرب اينما وجدوا

وتوجه الحلبيون والمواصلة الى حرب صلاح الدين الذي حشد بدوره قواته وتوجه للتصدي لهم ، فالتقى بهم عند اطراف تل السلطان بين حلب وحماه فهزمهم ، واحتل صلاح الدين خيامهم واثقالهم ووجد هناك مجموعة من الطيور كالبلابل واليما والحمائم في اقفاصها ، ومائة من المطربات العاهرات ، وطلب احد ممثلي الروايات ، وبعثه مع الاقفاص الى سيف الدين ، وقال له بأن يذهب ويسلم على سيف الدين بدلا مني وقل له : « ارجع الى شذشنتك ولا عب طيورك لانها تحميك من كل خطر » وكان قد قيد زعماء الموصل ومن بينهم فخر الدين عبد المسيح ففكهم وألبسهم ثيابا ومنحهم هدايا وأرجعهم بأمان وسلام تاركا حلب على ماكانت عليه ، واحتل قلعة بزاعا عندما مر بها وتوجه الى منبج وتولاها ، ووقع على ثلاثمائة ألف دينار في قلعتها ، ثم توجه فحاصر عزاز أربعين يوما استطاع بعدها احتلالها .

الحرب التي اندلعت بين منويل وقلج ارسلان

وفي عام ١٤٨٧ يونانية (١١٧٦ م) بنى ملك اليونان منويل مدينتين على حدود الأتراك وجعل فيهما الجنود وأخذوا بازعاج اصحاب قلج ارسلان ، لأن قلج ارسلان رفض ان يرد الى آل داندشمند أماكنهم على الرغم من الحاح منويل ، فسير الملك ثلاثين ألف فارس من اليونان مع ذي النون التركي ابن داندشمند ، وتمكنوا من محاصرة نوقيسارية ، فكتب اتراكها بلسان اهلها النصارى في اليونانية رسالة يقولون فيها : « لاتصدقوا ذي النون فهو يواصل الأتراك برسائله ، ويحاول ان يغدر بكم ويدفعكم الى اصحابه » .

عندها دب الخوف في قلوب اليونانيين فتركوا المدينة وتتبعهم الأتراك وقتلوا ابن اخت الملك ، فغضب الملك وتوجه الى حدود الأتراك مصطحبا معه جيوشا كثيفة ، وترك العجلات والأثقال ، وسمح لليونان بنهب وحرق القرى التركية الخالية من الناس والزاد ، وأثناء ذلك تمكن الرجال الأتراك من اجتياز الأودية العميقة والجبال الى أن وصلوا الى معسكر اليونان فنهبوه وأحرقوا العجلات وأخذوا يدحرجون الحجارة الضخمة من قمم الجبال فسحقت اليونان وخيلهم ، وعندما حل الليل بعث الملك الى السلطان سفيرا يطلب الصلح فلبى السلطان طلبه لأنه كان خائفا مثله ، وسير السلطان في خدمة الملك ثلاثة أمراء من الأتراك رافقوه الى حدود بلاده ، وكان الأتراك قد انتهبوا من اليونان صليبيا يشتمل على قطعة من خشب صليب الصلبوت ، وذلك بين حملة الصليبان والحل التي كانت ترافق اليونان في كنائسهم (النقالة) ، فأرسل الملك ذهبيا وافرا الى السلطان واسترجع عود الصليب .

موت نجم الدين حاكم ماردين

وفي هذا العام توفي صاحب ماردين نجم الدين بعد ان دام حكمه اثنين وعشرين عاما ، عامل خلالها النصارى خير معاملة وصان كنائسهم وأديرتهم ، وتولى بعده ابنه قطب الدين الذي اقبل اليه عمه صاحب حاني وعمه صاحب دارا طائعين ، وصالحهما بعد ان تحرش بهما ، واستطاع ان يقتل الف عربي (معدي) وينتزع منهم اثني عشر الف جمل بعد ان سارع المعديون الى غزو بلده حين زاع خبر موت ابيه ، وهرب من بقي منهم .

وفي السنة ٥٧٢ للعرب (١١٧٦ م) زحف صلاح الدين مجددا ضد حلب ، وعندما لم يستطع صاحبها الصالح مقاومته تذلّل وطلب منه المودة ، فقبل صلاح الدين وعقد صلحا مع حلب والموصل وارمينية الصغرى ، ثم بعث الصالح اليه اخته التي طلبت منه اعزاز فأجابها ولبى طلبها ، ثم ترك حلب متوجها الى دمشق وتزوج بعصمة الدين امرأة نور الدين ، وسلم أمور دمشق الى أخيه شمس الدين تورانشاه ، وعاد الى مصر وشيد سورا واحدا يلف مدينتي مصر والقاهرة وبنى فوق الجبل المتوسط قلعة .

هزيمة صلاح الدين عند عسقلان

في السنة ٥٧٣ للعرب (١١٧٧ م) وهي السنة ١٤٨٩ لليونان (١١٧٨ م) قتل صلاح الدين العديد من النصارى وسفك الدماء وغزا وأسر عندما زحف الى عسقلان في جيوش كثيرة ، فخاف الفرنج لان ملكهم كان في بيت المقدس مريضا بمرض الجذام ، فتشجع متحمسا واجتمع بجنوده ثم تخرج عن حصانه وخر ساجدا أمام الصليب المقدس وأخذ بالبكاء ، فتأثر الجنود وأقسموا على الجهاد والقتال حتى النهاية ، وكمنوا حتى

- ٢٣٤٤ -

توغل الأتراك في الضواحي منهمكين من الغزو ، ولم يستأنفوا القتال فاعتقد الأتراك أن الفرنج ضعفاء ، لكن الفرنج سرعان ماتوجهوا اليهم وأبركوهم وهم يجتازون النهر ، وقد أعمت عاصفة أرسلها الرب الأتراك بعد أن جرفت الرمال من ناحية الفرنج اليهم ، وهاجمهم الفرنج فتراجعوا وتهاوا في الصحراء القاحلة ، لكن الفرنج لاحقوهم خمسة ايام ، واخذوا بجمعهم جماعة جماعة وقيدوهم وقتلوهم ، لكن صلاح الدين استطاع الفرار الى القاهرة مع قليلين ، قال المؤرخ : « شاهدت حاملي البشرى راكبين وسمعت المنادين ينادون في شوارع مصر ان السلطان انتصر ، و الفرنج انكسروا فبادرت لاستخبرهم عن كيفية الانتصار فقالوا : افرحوا وابتهجوا لأن السلطان سالم ، فعرفت ان البشرى كانت عكس الواقع »

احتلال قلج ارسلان ملطية .

وفي هذا العام (١١٧٧ م) تصالح قلج ارسلان مع منويل ملك اليونان ، وجاء قلج ارسلان الى ملطية وبقي أربعة أشهر مشددا عليها ولم يستطع ان يدخلها فأوعز الى جنوده ليشقوا في بيوت ابتنوها من اللبن ، وشيدوا له بيوتا كبيرة من الحجارة التي نقلوها من المقابر ، وخاف امير المدينة وهو من اسرة داندشمند ان يتفق الزعماء ويسلموه المدينة محتجين بالغلاء ، فسار الى حصن زياد بعد ان بعث اليه السلطان الأمان ، واستطاع السلطان يوم الأربعاء ٢٥ تشرين الأول عام ١٤٨٩ يونانية (١١٧٨ م) ان يحتل ملطية .

وفي العام التالي وبغية مضايقة الدمشقيين ابتنى الفرنجة على شاطئ الأردن في مكان يطلق عليه مخاضة يعقوب مدينة بعد ان اتفقوا مع الملك بلدوين (١٩)

خروج صلاح الدين من مصر وانتصاره على الفرنجة في فلسطين :

وتوجه صلاح الدين من مصر الى بعلبك بعد ان خرج حاكمها عليه ، وشدّد عليه الحصار الى ان طلب الهدنة وسلمه المدينة ثم ذهب الى فلسطين فثار عليه الفرنجة وانتصروا عليه وغزوا نواحي العرب وانصرفوا، لكن بعد ان اطمأن الفرنج الى نصرهم كمن لهم العرب وفاجأوهم واعتقلوا نحو مائة محارب منهم وقبضوا على مقدم الداوية ، ثم سار صلاح الدين الى المدينة التي أحدثها الفرنج وامتلكها ، وكان يوجد فيها يومئذ خمسمائة من الرهبان الداوية الذين شاهدوا غلبة العرب عليهم ، فمنهم من أحرقوا انفسهم ، ومنهم من القوا بأرواحهم في نهر الأردن ، فغرقوا ومنهم من رموا بأنفسهم على الصخور فماتوا وقضت سيوف العرب على من بقي منهم .

مرض منويل ملك اليونان وموته

وفي السنة ١٤٩١ لليونان (١١٨٠ م) مرض ملك اليونان منويل ، ولما احس بنهايته توجه الى احد الأديرة وباع ابنه الكس ، ووضع له التاج ، وبقي منقطعا في الدير ، واناط بامراته والدة الكس خزائن الدولة وجعلها راهبة هناك، ووضع اثني عشر زعيما ليشفروا على تدبير الجيوش ، لكن الملكة الراهبة ارتكبت المنكر مع احد اولئك الزعماء الاثني عشر فحاول البقية ان يخلعوا ابنها ويولوا مكانه ابنة منويل وهي من زوجته الاولى بدلا من الملكة الراهبة ، ويبايعوا زوجها بالملكة ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك .

وانكشفت المكيدة فهرب الزعماء من الخوف والتجأوا الى الكنيسة الكبرى ، وحدث قتال دام سبعة ايام في المدينة سقطت

- ٢٣٤٦ -

خلالها الدماء ، ووجه رجال الملاك نحو كنيسة اياصوفيا المنجنيقات ، لكن البطريرك ثيودوسيوس توجه الى الملاك وامه اللذان اقسما له بانهما لن يؤنيا احدا ممن هو داخل الكنيسة ، فخرج الجميع مطمئنين ، لكن الملاك وامه حذثا بقسمهما وسملا عيون الزعماء وفتكوا باحزابهم ، فانزعج البطريرك والغى قرع النواقيس وأوقف الصلاة تسعة اشهر ، ثم ابرم الحرمان على المدينة وتركها واعتكف في دير قريب ، ثم شيع الموتى جميعا ودفنوا دون صلاة.

وفي تلك السنة وجه السلطان قلعج أرسلان جيشا الى رعبان ، فتصدت له جيوش سلطان دمشق ، فما كان منه إلا أن هرب الى كبدوكية ، وكان لجيش دمشق سجلا حافلا في محاربة الفرنجة.

وفاة الخليفة المستضيء بأمر الله

وفي عام ٥٧٥ للعرب (١١٧٩ م) توفي الخليفة المستضيء بأمر الله وخلفه ابنه الناصر.

ابو العباس أحمد الناصر لدين الله

مدة حكمه سبعة وأربعون عاما ، فور تسلمه الخلافة ، أودع الوزير ابن العطار السجن ، واستولى على كل املاكه فتوفي وكان ذلك ليل الاربعاء ١٢ ذي القعدة ، وقد ثار غضب البغداديين عندما شيع جثمانه ، وأنزلوه عن كتف من كان يحمله ، وفلقوه وربطوا احليله بحبل ثم سحبوه متجولين به في بغداد ، وتمادوا في هزئهم به الى أن باهر الأتراك فواروا جثمانه ، وقد شهدت تلك السنة ارتفاع الأسعار وانتشار الأوبئة حتى عمت الأرض كلها .

المواجهة بين صلاح الدين وقلج أرسلان

وفي عام ١٤٩٢ لليونان وهي السنة ٥٧٦ للعرب (١١٨١ م) خرج صلاح الدين مهددا السلطان قلج أرسلان والقضية أن نور الدين بن قرا أرسلان بن داود بن أرتق صاحب حصن كيفا كان متزوجا من ابنة السلطان ، وكان يهضم حقوقها ويسيء معاملتها ، فتدخل السلطان والدها وهدده فاستنجد نور الدين بصلاح الدين الذي طلب من قلج أرسلان أن يصفح عن زوج ابنته فأبى فاتفق صلاح الدين مع الفرنجة الذين كانوا يقيمون على الساحل وأعد جنده ، وقصد حلب الى أن بلغ برج قرا حصار قرب نهر الأزرق أي بين الحصن وحصن منصور ، فمكث في ذلك البرج ثم واصل مسيره الى نهر كوكسو فبائر اليه نور الدين فرحب له وأعطاه الأمان. فأوفد السلطان قلج أرسلان سفيرا له الى صلاح الدين فعقدا صلحا يضمن أن يعامل نور الدين زوجته معاملة حسنة ، ومن ثم توجه صلاح الدين الى النهر الأسود ، فانتشر جنده في قرى قيليقية ، والتي كان صاحبها روفين يضطهد الرعاة التركمان ويسبي نساءهم ومواشيهم وأولادهم ، فأرسل روفين هذا كتاب تضرع الى صلاح الدين تذل فيه ، كما أرسل اليه كمية من الذهب ، وأفرج عن خمسمائة من الأسرى الأتراك وبذلك استطاع أن يعقد صلحا مع صلاح الدين ، فتحول عنه صلاح الدين ، وأما قلج أرسلان ، فقد رجع الى ملطية فأصلح ما تداعى من سورها.

زواج البرنس صاحب أنطاكية من إحدى الزانيات

وفي هذه الأثناء - ١١٨١ م - طلق البرنس صاحب أنطاكية زوجته الشرعية اليونانية ، وتزوج من إحدى الزانيات ، فحرم البطريرك الانطاكي القس الذي عقد هذا الزواج ومنع قرع النواقيس وإقامة الصلوات ، فثار البرنس ونهب محتويات كنائس الفرنجة

وبيرتهم ، فبار بطريرك بيت المقدس وعدة قمامصة ، فصالحوه وباركوا زواجه من تلك الزانية ، فأعاد الى الكنائس والديرة ماأخذه منها.

وفي هذا العام أيضا كانت وفاة سيف الدين غازي بن قطب الدين موبود بن زنكي صاحب الموصل ، وقد كان منغمسا في رغد العيش وتعاطي الخمرة ، وكان أهل الموصل إبان ولايته يعيشون حياة رغد وبحبوحة ، وقد خلف سيف الدين هذا أخوه عز الدين مسعود الذي كني بأبي الفتح ، وسار سيرة حميدة ، وأما صلاح الدين ، فقد قصد دمشق ثم غابرها الى مصر ، في حين تداعى بناء قلعة القاهرة ، وفي الاسكندرية توفي شمس الدين أخي صلاح الدين.

وفاة الملك الصالح اسماعيل

وفي عام ١٤٩٢ يونانية ، ٥٥٧ للعرب (١١٨١ م) مرض صاحب حلب الملك الصالح اسماعيل ، وعندما أيقن أن منيته قد دنت ، كتب لابن عمه عز الدين مسعود كي يبار ليخلفه في الحكم قبل أن يأتي صلاح الدين ، واتفق مع زعماء حلب على ذلك ، ثم مات ويقال إن عبدا أطعمه عنقودا مسموما ، فقتله ، ويقال ان موته كان بسبب مرض المفاصل ، وقد حزن عليه أهالي حلب والياروقيون (٢٠) الذين كانوا يسكنون في قرى حلب ، وقد بعث هؤلاء الى صاحب سنجار عماد الدين زنكي كي يجعلوه خلفا للملك الصالح ، وأما الحلبيون ، فقد طلبوا اليه أن يتحول عنهم ، وإلا فسيلقونه في غياهب السجن ، فرحل عنهم في حين وصل الى حلب قادما من الموصل عز الدين مسعود فاحتل القلعة ، وتزوج من أم الملك الصالح ، ثم بعث بها الى الموصل كما بعث اليها محتويات الخزائن المكتظة بالأموال من أيام نور الدين بن زنكي ، ووقع هدنة مع بوهيموند البرنس صاحب أنطاكية لمدة عامين ، ثم غاب حلب تاركا في قلعتها ابنه نور الدين الصغير وأقام عليه وصاية ، وقصد مرج

قرأ حصار ، وأوفد الى أخيه عما الدين صاحب سنجار سفيراً ، ولكن عما الدين هذه كان قد تحول بأهله وأبنائه عنها الى قرقيسيا مؤملاً أن يعيد له صلاح الدين مملكة أبيه ، وأبلغ السفير بأنه لن يعود ما لم يتنازل له أخوه عز الدين مسعود عن حلب أو الموصل ، أو ما بين النهرين ، فتنازل له عز الدين عن حلب فقط ، على أن يبقى ابنه نور الدين الصغير مقيماً في قلعتها فرفض ذلك عماد الدين بدعوى أنه يأنف أن يكون تحت طاعة ابن أخيه ، فأضاف عز الدين الى حلب عربان والمجمل وغير ذلك من بلاد الخابور لتكون تحت إمرة عماد الدين ، ولكن هذا الأخير رفض هذا العرض أيضاً ، فاقترح الأعيان أن يتنازل عز الدين لعماد الدين عن حلب وقلعتها ، وأخيراً اتفق الأخوان على أن تكون حلب وضواحيها لعماد الدين ، وأن تكون الموصل وسنجار لعز الدين .

وفي هذا العام قصدت سفن فرنجية دمياط ، وقد كان الفرنجة قد هادنوا العرب لمدة سنتين ولكن العرب غدروا بالفرنجة وقبضوا على ألفين وخمسمائة من ملاحيمهم وتجارهم بدعوى انقضاء مدة الهدنة ، ولهذا اغار الفرنجة على مدينة ايله بسفن كثيرة ، وساروا في أماكن لم يسيروا فيها واغتصبوا سفناً عربية كثيرة مشحونة بالأسلحة والأموال الكثيرة وبسطشوا بالعديد من سكان عيذاب ، فوجه صلاح الدين سفناً عدة من الاسكندرية أبركت سفن الفرنجة وقتل من الطرفين خلق كثير.

خبر عن اندورنيقس اليوناني الخبيث

وفي عام ١١٨٣ لليونان ١٤٩٤ م احتال الزعيم اليوناني أندرو نيقس الذي كان قد طرده من العاصمة الملك منويل فخدع الكس ورجع الى القسطنطينية متظاهراً بالاذعان والطاعة ، ومالبث أن رمى بأم الفتى وصهرها وابنتها بالبحر ، ثم

فتك بالفتى نفسه سرا ، كما فتك بما يزيد على ألف زعيم وأحرقهم وفقاً لأعين بعضهم ، واغتصب هذا العجوز الخبيث زوجة الكس ، وطرد الفرنجة من العاصمة لكن قبل أن يغادر هؤلاء الفرنجة العاصمة أشعلوا النيران في أربعة عشر ألفاً من قرى اليونان وأسيرتهم ، وعلى أثر ذلك داهم ملك صقلية مدناً يونانية عدة ، وتركها خاوية من سكانها. (٢١)

في عام ١٤٩٣ يونانية ، ٥٧٨ للعرب (١١٨٢ م) غابر صلاح الدين مصر الى دمشق ثم الى حلب في محاولة لاحتلالها ، فنصح بعض الأعيان أن يتجاوز الفرات أولاً ويبدط سيطرته على مدن ما بين النهرين وأثور ، ومن ثم يرجع لاحتلال حلب ، فأخذ بهذه النصيحة فاجتاز نهر الفرات ومدن الرها حران والرققة فاحتلها ، وعندما بلغ مدينة عربان دخلها بلا مقاومة ، لأن حراسها قدموا له مفاتيحها ، كما بسط نفوذه على بلدة ماكسين ، وأحسن معاملة أهالي الخابور ، ثم يمم شطر نصيبين ، فاستعد حكامها لملاقاته لكنه حاصرهم وشل حركتهم ، فلم يكن أمامهم إلا أن يسلموه مدينتهم ، فدخلها ثم قصد الموصل وطوقها من جميع نواحيها ، فتوسل صاحبها عز الدين الى خليفة بغداد أن يصلح بينه وبين صلاح الدين ، فكان له ما أراد ، وأرسل الخليفة سفيرا الى صلاح الدين لهذا الغرض ، لكن شرط صلاح الدين كان أن يدفع له أهالي الموصل نفقات رحلته ، أو أن يتخلوا له عن حلب ، فأجابوا بأن ليس لديهم ذهب ، وأما حلب ، فصاحبها عماد الدين وليس من حقنا أن نعطي ما لا نملك

فغادرهم متوجها الى سنجار فتحارب مع صاحبها شرف الدين ابن قطب الدين موبود ، وانتزعها منه ، ثم توجه الى دارا فأذعن له صاحبها صمصام الدين بهرام من بني أرتق ، فتركه عليها ، ورجع الى حران فجعل جنوده في استراحة طوال الشتاء وشهر رمضان والعيد ، وأما هو ، فقد ظل في حران مع قليل من الجند.

وخشي أهالي الموصل أن يرجع صلاح الدين ثانية في الربيع ليحتل

مدينتهم كما فعل بسنجار ، فأستنجدوا بشاه أرمن صاحب خلاط فأنجدهم واتفق لهذا الغرض مع ابن اخته قطب الدين ايلغازي بن ألبى بن تمرتاش صاحب ماردين خال عز الدين صاحب الموصل ، واجتمع الخلاطيون والمواصلة والماربينية في البارعية ، وانضم اليهم ألف وتسعمائة فارس من الياروقية المجاورين لحلب ، وزحف هؤلاء جميعا للهجوم على صلاح الدين الذي باهر عندما علم بذلك الى جمع جيشه من حمص وحماة وما بين النهرين ، وقد أتم ذلك خلال ثمانية أيام ، وانضم اليه ابن قرا ارسلان من حصن كيفا ، وعندما بلغت شاه أرمن استعدادات صلاح الدين هذه هرع الى صاحبي الموصل وماردين وأقنعهما بعدم جدوى الحرب في الشتاء فعاد كل منهم الى بلاده على أن يجتمعوا في الربيع القادم ، ومع ذلك أخبر صلاح الدين خليفة بغداد بما صنعه المواصلة ، واستأننه باحتلال آمد ، فأذن له بذلك

وفي محرم ٥٧٩ للعرب وأيار ١٤٦٤ لليونان (١١٨٣) تمكن صلاح الدين من احتلال مدينة آمد بعدما حاصرها وقتا طويلا ، قاتل خلاله صاحبها ابن نيسان أعداءه قتالا ضاريا ، ولكن الأمديون خذلوه ، وبيان ذلك أن أصحاب صلاح الدين لما احتشدوا بين سوري المدينة هجم عليهم الأمديون وضيقوا عليهم ، فرفع صلاح الدين رايات كتبت عليها عبارات تهديد تحمل الوعيد والايمان المغلظة بأنه لن يرجع عن هذه المدينة ما لم يدخلها ويبسط بأهلها إن لم يستسلموا ، وارتفعت فرائض الأمديون وصاحبهم ابن نيسان خوفا ، فاستسلم وطلب من صلاح الدين الأمان له ولأهله ، فأمهله ثلاثة أيام ليخرج من المدينة ما يشاء من أمواله ومقتنياته ، ثم احتل المدينة ، وقد أخرج ابن نيسان من هذه المدينة الكثير الكثير من الذهب والفضة والآنية والأحجار الكريمة على أن كل ما نقله لا يعادل عشر ما كان بحوزته من الأموال ، وبعد أن بسط صلاح الدين نفوذه كاملا على مدينة آمد أوكل أمرها وأمر خراجها من المال لنور الدين بن قرا ارسلان ، فقبل لصلاح الدين إنك وعدته المدينة لا بأموالها التي تزيد على ثلاثة آلاف دينار؟ فأجاب :إنه لا يحسن بنا

أن نعطي صديقنا المدينة فارغة ، وقد قيل أنه عثر في أحد أبراج هذه المدينة على مائة ألف شمعه ، وأنه كان في مكتبها ألف ألف وأربعون ألف مجلد أهدها صلاح الدين كلها لكاتبه القاضي الفاضل ، ومكن ولاية ابن ارسلان على مدينة آمد ، ثم توجه الى عينتاب ، فأذعن له صاحبها نصر الدين بن كمرتكين ، ثم تحول عنها الى حلب فحاصرها ، ولم يكن صاحبها عماد الدين على حال يحسد عليه ، فقد كان استلمها خاوية من المال حتى انه لم يكن لديه ما يقدمه لجنوده ، يضاف الى ذلك أنه لم يجب شيئا من أهالي حلب وضواحيها ، ويروى انه قال لاحد الزعماء : ليس لدي ما أقدمه لك ، فاجابه هذا الزعيم قائلا : بع حلي زوجتك وادفع للمحاربين اذا شئت ان تكون ملكا ، وقد افضى به العوز الى حد صار معه الاهالي يطعمونه واهل بيته يوما فيوما ، وهذا مادفع القادة والجنود الي ان يتركوا امر الحرب للاهالي الذين اخذوا ذلك على عاتقهم ، ومع ذلك لم يتسن لصلاح الدين ان يحتل حلب عنوة ، فلجأ الى المفاوضات ، وبيان ذلك انه استمال ود زعماء حلب بما اغدقه عليهم من الاعطيات ، فأقنع هؤلاء عماد الدين بتسليم حلب لصلاح الدين والاكتفاء بماكن اخرى حتى لايفقد كل شيء ، ثم قالوا له: هل تظن ان العامة يمكنها ان تدافع عنك وتعمل في سبيل رزقك ، وقد نفذ الطعام ولم يعد عندك ماتعطيهم ، فارتضى عماد الدين بأن يدخل صلاح الدين الى مدينة حلب ، وان يستولي عماد الدين على سنجار والرقه ونصيبين والخابور ، وعندما علم اهالي حلب بذلك لفهم الحزن وسخطوا سخطا شديداً على عماد الدين ، فاجتمعوا عند القلعة وراحوا يسبونونه ويهزأون به ، ووضعوا طستا ورداء ونادوه قائلين : تبا لك من خنثى لا يصلح لك الاغسل الاواني ، وذلك بينما كان يرمقهم بنظراته من شرفة القلعة التي نزل منها في ١٨ صفر متوجها الى خيمة ضربت له ، ثم قصد سنجار فتولى امرها وامر البلاد التي نص الاتفاق على ان يتولى امرها ، واما صلاح الدين ، فقد كان سروره شديداً باحتلال حلب ، ويحكي انه ردد وهو يصعد درجات القلعة قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك

على كل شيء قدير» (آل عمران: ٢٦)، ويقال انه حدث من معه من الزعماء قائلًا : الان عرفت ان الملك استتب لي ، صدقوني اني لم احسد نور الدين المتوفى الا على حلب ، ولم اتمن سواها ، وبعد ان تمكن منها اعفى الناس من عدة ضرائب ، ثم وزع عليهم من المال مامقداره ثمانمائة وخمسين الف دينار .

وقد اصيب في المعارك التي دارت قبل ان يدخل صلاح الدين حلب اخوه تاج الملوك بوري فمرض عدة ايام ، ثم قضى نحبه،وعندما زاره صلاح الدين قال:» يجب ان تسبر بامتلاكنا حلب وهي لك منذ الان ، فأجاب تاج الملوك قائلًا : ان السيادة تفيد الاحياء وليس من دنت اجالهم سئلي ، ثق تماما انك دفعت ثمن ملكها غاليا ، فقد ضيعت اخاك في ذلك«، وقد كان تاج الملوك محاربا مقداما ، فبكاه صلاح الدين ومن معه من الحضور بكاء شديداً .

وفي تلك الاثناء ابرك حراس حارم ان صاحبها ينوي بيعها للفرنجة ، فاغتنموا فرصة خروجه للنزهة ، فاوصدوا الابواب بونه ، ومنعوه من الدخول ، واخبروا صلاح الدين ان يأتي ويأخذ مدينة حارم ، فندب لذلك ابن عمه ، وابن اخيه ، ولكن الحراس ، اصرروا على ان يحضر هو بنفسه فكان لهم ما اردوا ، فقد جاءهم صلاح الدين واجزل عطاءهم واخرجهم من القلعة ، ولكنه لم يتعرض لصاحبها بأذى لان الزعماء دافعوا عنه ، واكدوا ان الحراس غدروا به .

وجعل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر مكانه في قلعة حلب ، وقفل راجعا الى دمشق ، ثم غادر دمشق بجيوشه الى قلعة الكرك فطوقها ، ولكن الفرنجة استعدوا للاغارة عليه فأحس بذلك فرجع الى دمشق •

وفي هذا الوقت جاء اخوه الملك العادل من مصر محملا بالذهب الكثير ، فولاه امر حلب ومايتبعها من رعيان وسواحل الفرات حتى

حماة ، وقد خرج الظاهر بن صلاح الدين من قلعة حلب بعد مقدم عمه الملك العادل ، ولحق بأبيه بعد ان اقام في القلعة ستة اشهر .

في عام ١٤٩٥ يونانية ٥٨٠ للعرب (١٧٨٤ م) استعد صلاح الدين للهجوم على الكرك فاستقدم نور الدين من حصن كيفا ، واخاه العادل من حلب ، وتقي الدين من مصر ، وتجمعوا هناك ، وفي المقابل استعد الفرنجة فتخوف صلاح الدين ، وامر ان تحرق المنجنيقات ، ثم تحولت جموعه الى السامرة وداومتها وكان البرنس ارناط صاحب الكرك قد حصن مدينته هذه تحصينا جيدا . واتجه البرنس صاحب انطاكية نحو حارم بمائتي فارس ، فبطش في ضواحيها بعدد كبير من العرب ، كانوا مجتمعين عند جسر الحديد ، كذلك سعد نحو من عشرين فارسا الى الكمنا في الجبل وكان عددهم نحو من اربعمائة راجل فقتلهم على بكرة ابيهم .

وفي هذا العام توفي قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين البي بن تمر تاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين ، فتولى امرها من بعده حسام الدين بولق ارسلان ، ولأنه كان بعد فتى ، عين خاله ناصر الدين شاه ارمن وصيا له اسمه نظام الدين ، فتزوج نظام الدين هذا بأمر حسام الدين ونهض بشؤون الملك خير قيام ، وعندما توفي الفتى حسام الدين ، خلفه اخوه الاصغر قطب الدين بايعاز من نظام الدين وصار امر المملكة بيده وبيد عبده لؤلؤ ، وما ان كبر قطب الدين حتى احس بذلك ، فعمل على التخلص من نظام الدين وعبده لؤلؤ وحدث مرة ان مرض نظام الدين فعاده قطب الدين وعندما انتهت الزيارة خرج قطب الدين فراهقه العبد لؤلؤ الى الباب اكراما له ، وبينما هما في بهليز ضيق ضرب قطب الدين العبد بسيفه فقتله وعاد الى نظام الدين المستلقي على فراش المرض فأجهز عليه ، وقذف برأس العبد ورأس سيده بوجه الزعماء ، فسيطر عليهم العرب واذعنوا لحسام الدين ، وبذلك انتهت وصاية نظام الدين التي دامت عشرين عاما ، فقد قتل في عام ٦٠١ للعرب (١٢٠٤ م) .

وفي السنة ٥٨١ للعرب ، ١٤٩٦ يونانية (١١٨٥ م) اتجه صلاح الدين نحو حلب ، ثم تجاوز الفرات الى الرها ، فاخرج منها صاحبها مظفر الدين بن زين الدين ، ثم واصل مسيره الى دارا ورأس العين ، فقدم عماد الدين بن قرا ارسلان لزيارته بدلا من اخيه نور الدين الذي كان مريضا ، ومن ثم استأنف صلاح الدين مسيره الى بلد ثم الى الموصل ، فبادر صاحب اربيل ، زين الدين بن علي كوجك اليه ، وقد كان صلاح الدين صاحب حران مظفر الدين ، وعندما احكم صلاح الدين قبضته على الموصل توصلت اليه صاحبها أم عز الدين بنت أرتق ، فقد خرجت إليه هي وبنت نور الدين وتذللتا إليه في محاولة لأن يترك الموصل لعز الدين ، ولكن محاولتهما لم تجد نفعا ، فثار اهالي الموصل تعبيراً عن تأييدهم لزنكي ورفضهم لصلاح الدين ، لذا لم يجد بداً من الرحيل ، فقصد خلاط لانه علم ان صاحبها شاه ارمن قد توفي ، فقام عبده بكتمر الذي عامل الخلاطيين جيداً ، فأحبهم واحبوه ، وعندما علم بقسوم البهلوان بن ايلدكز سلطان العجم استنجد بصلاح الدين ووعده بان يتخلى له عن المدينة ، ولكنه حصن مدينته ولم يخرج للقاء صلاح الدين عندما قدم وعندما قدم شمس الدين البهلوان وقف على الطرف الاخر للمدينة ، وتأهب لمنازلتها ، نصحه زعمائهما بالألا يضغط على بكتمر ، والا انحاز هذا الأخير إلى صلاح الدين ، فأخذ البهلوان بنصيحة الزعماء وتقرب من بكتمر فطيب خاطره ، وقدم له محظية من خاصته ، ثم غابره وتركه وشأنه .

وعندما رأى صلاح الدين ذلك انقلب الى ميفارقين التي كان صاحبها قطب الدين ملك ماردين قد توفي فتولى امرها ابنه الفتى كما سلف بيانه ، فطوق صلاح الدين هذه المدينة ، والتي كان قائدها اسد الدين ير نقش ، وكان فيها خاتون زوجة قطب الدين صاحب ماردين ومعها بناتها ، فراحت تشجع المقاتلين ، فامتدت الحرب طويلا دون ان يحقق صلاح الدين مطامعه فيها ، فلجأ الى المماثلة ، فقد منى زوجة قطب الدين المذكورة انفا بان يزوج ابنه من إحدى

بناتها ان سلمته المدينة ، فوافقت على ذلك شريطة ان يترك لها قلعة الهتاخ ، فكان لها ما ارادت ، فتركت له المدينة وقصبت تلك القلعة .

وقدم صاحب امد قطب الدين سقمان بن نور الدين بن قرا ارسلان لزيارة صلاح الدين فأحسن صلاح الدين استقباله ، ثم رجع الى مدينته ، ومن ثم قصد صلاح الدين من مياقارقين شاطئ نهر قرمان، كما قصد كفر زمار على ساحل بجلة .

وفي هذه الاثناء شعر اهالي الموصل بضيق شديد ، فبعثوا الى صلاح الدين غير مرة المرأتين المشار اليهما من قبل في محاولة لعقد معاهدة معه ، فتدخل بين الطرفين صاحب سنجار عماد الدين وتمت بناء على ذلك بينهما معاهدة تنص على ان يتخلى عز الدين صاحب الموصل عن شهر زور وعن الزابيين وبيت وازيق ، وكل الشرق ، كما تنص على ان تضرب النقود باسم صلاح الدين ، وان ينادى في الخطب باسمه ايضا ، وبعد ذلك توجه صلاح الدين الى حران حيث ابتلي بمرض شديد ظن انه سيموت بسببه ، ولهذا قصد ابن عمه ناصر الدين بن اسد الدين شيركوه الذي كان معه الى مدينته حمص حيث اتفق مع الشبان على ان يكون هو خلفا لصلاح الدين ان مات ، ولكن شاعت قدرة الله ان يموت ناصر الدين ، وان يتمثل صلاح الدين الى الشفاء ، فتوجه صلاح الدين الى حمص واستولى على ماكان بحوزة ناصر الدين من الاموال ، وجعل الفتى الملك المجاهد ابن ناصر الدين خلفا له في حمص ، ويقال ان صلاح الدين عندما زار حمص بعد سنة سأل الملك المجاهد الى اين وصلت من القرآن ؟ فقال الى قوله : (ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلونه في بطونهم نارا) (النساء: ١٠) فأعجب صلاح الدين بذكاء هذا الفتى ، وقال ان كان هذا الفتى قد فهم ما قال ، فقد لزم ان نخافه .

الصراع بين أندرونيقس واسحق

وفي عام ١١٨٥ م ١٤٩٦ لليونان ، تآهب الباغي أندرونيقس لبيطش باسحق آخر من بقي من أسرة منويل الملكية ، فاعتصم ، اسحق بمنزله ، فبعث أندرونيقس قائد العسكر ليحضره ، فطعنه اسحق بسيفه عدة طعنات ، ثم ركب جواده وتوجه نحو الكنيسة وهو يصرخ وسيفه في يده يقطر دما ، فلحق به بعض الأهالي ولفيف من القادة المعادين للباغي أندرونيقس ، فدخلوا الكنيسة ، وحملوا البطريرك على أن يتوج اسحق ملكا ، وعندما سمع أندرونيقس بذلك لاذ بالفرار عن طريق البحر ، فقبضوا عليه ، وأرجعوه إلى العاصمة ، ونكلوا به وقطعوه بسيوفهم إربا إربا ، ثم أحرقوه أمام الجماهير المحتشدة .

وفي هذا العام اشتد داء الجذام على ملك القدس بلدوين ، فتخلى عن المملكة لابن أخته الصغير بلدوين (الخامس) ومالبت أن توفي .

أخبار صلاح الدين في هذه الفترة

وفي سنة ٥٨٢ للعرب ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) تماثل صلاح الدين إلى الشفاء ، فترك حران متوجها إلى حلب ثم حمص ، وأيقن أن ناصر الدين ابن عمه شيركوه قد مات ، فأخذ قلعة حمص من ابنه الذي كان قد خلفه في ولاية حمص ، وقد وجد في القلعة أشياء كثيرة ، ومن ثم واصل مسيره إلى دمشق ، ثم عاد إلى حلب فعزل عنها أخاه العادل وجعل مكانه ابنه الملك الظاهر ، كما ولى ابنه الثاني الملك الأفضل على دمشق ، وأما مصر ، فقد جعلها لابنه الملك العزيز ، وبعثه إليها مع أخيه العادل ، ولما علم ابن أخيه تقي الدين أن مصر لم تعد له ، ارتاب واستعد للرحيل إلى إفريقية ، ولكن صلاح الدين عمل على إرضائه وطلب إليه أن يحضر إليه ، وأقنعه بأنه إنما قربه منه طمعا بقوته وولاه حماه والمعة وسلمية ومنبج

وقلعة نجم وميا فارقين ، كما استقدم صلاح الدين ابنه الملك المنصور وجيوشه من مصر ، لكن مملوكه بوزباه رفض المجيء اليه ويمم شطر المغرب وملك افريقية.

اجتماع الكواكب السيارة في مكان واحد

وفي عام ١٤٩٧ لليونان (١١٨٦ م) اجتمعت الكواكب السيارة الستة في برج الميزان ماعدا زحل فقد كان على شكلين في ١٤ أيلول و ٢٩ جمادى الآخرة ، فتكهن المنجمون بأنه سيحدث طوفان ورياح صرصر تهلك الخلق كلهم ، وأنه سيقع طوفان نظير طوفان نوح فيما لو تجمعت الكواكب كلها في برج الحوت ، وقد كان سلطان قونية قلج أرسلان أكثر الناس اقتناعا بهذه المزاعم لهذا هرع لحفر الأنفاق ، وبناء البيوت المحكمة ، وقد كلفه ذلك مبالغ كثيرة ، ولكن الله تعالى كذب المنجمين ، فقد كان الجو في اليوم الذي زعموا أن الطوفان سيقع فيه أكثر نقاء وصفاء منه في سائر الأيام ، ولم يلاحظ فيه سوى كسوف شمسي مألوف ، ولم يعد للمنجمين مكانة مرموقة في نظر الملوك والسلاطين لكذب دعواهم ولم يحافظ على هذه المكانة سوى منجم مشهور خالف المنجمين فيما زعموه من أن طوفانا سيحدث ، ولما سأله السلطان عما استند إليه فيما قاله قال : إنه لم يعتمد فيما ذهب إليه على التنجيم ، لكن قدر إن وقع الطوفان فسيموت هو وغيره ولن يبقى من يلومه على خطأ مزاعمه ، وإن لم يحدث ، فسوف تصدق تقديراته ويكسب الجائزة ، فضحك السلطان من هذا المنجم وأجزل له العطاء .

وفي هذه الاثناء عقد البرنس صاحب أنطاكية صلحا مع صلاح الدين وقبض بالحيلة على روفين صاحب قيليقية وأوثقه بالسلاسل وحشد جنده وتوجه بهم إلى بلاده، فوقف بوجهه لاون وقفة الأبطال وردّه إلى بلده مخزيا ، وعلى إثر ذلك دفع له الأرمن ثلاثين ألف

دينار مع المصيصة وأذنة ، فأفرج عن روفين ، الذي ارتد واستعاد
المدينتين ، فنقم البرنس وعاث فسادا في بلاد قيليقية كلها .

وفي هذه الأوقات تم اغتيال البهلوان سلطان العجم ، وقد نجم عن
ذلك حروب طاحنة ، فقد اقتتل الأكراد والتركمان غير مرة في
ضواحي نصيبين ، وبيان ذلك أن أحد التركمان اقترن بتركمانية
ليست من عشيرته ، وعندما مر موكب العرس بحصن كردي في
زوزان اعترض طريق الموكب عدد من الأكراد وطلبوا منهم وليمة
العرس ، لكن التركمان رفضوا هذا المطلب ، فأغار الأكراد عليهم ،
وانتزعوا منهم العروس وساقوها إلى حصنهم فذشب القتال بعنف
وشراسة فقطعت الطرق ونهبت البضائع ، وقتل من الجمعين نحو
عشرة آلاف شخص ، ثم تجمع نحو ثلاثين ألف كردي واشتبكوا مع
التركمان في موقعة قرب الخابور ، فهزم الأكراد وتناثرت جثث
قتلاهم مابين الخابور ونصيبين ، ثم التقى الجمعان ثانية بضواحي
الموصل وانهزم الأكراد ثانية ، وشرع التركمان بمهاجمة الأكراد
على التوالي حتى طردوهم إلى قيليقية وأوسعوا رجالهم ونساءهم
وفتيانهم قتلا وجرحا وظلوا يلاحقونهم حتى أجبروهم على الرحيل
عن سورية وبلاد مابين النهرين ، ثم دخلوا أرمينية ، واعتقلوا ستة
وعشرين ألف من الأرمن وجعلوهم عبيدا ، ثم باعوهم ، وأشعلوا
النيران في دير كرابيد ويطشوا برهبانه ، وفتكوا في تل بسمه (٢٢)
بمائة وتسعين من السريان ، وأغاروا على مائتي شاب من مسيحي
السريان في قرية أمرون بقلوذية التابعة للمطية وقتلوهم ، وانتشرت
الفوضى وعم الهلع في كل من ملطية وكبدوكية

وفي ذلك الوقت اندلع قتال أيضا بين الاسماعيلية والعرب وفتك
كل منهم بالآخر بشكل فظيع .

الصراعات داخل صفوف الفرنجة في هذه الفترة

وفي هذا العام اختلف الفرنج فيما بينهم وبيان ذلك أن صاحب القدس قبل أن يموت أوكل أمر تربية نجله الصغير إلى قمص طرابلس ، ولكن الطفل مالبث أن مات ، فصار أمر المملكة إلى أمه (٢٣) التي وقعت بحب رجل يدعى غي ، فتزوجته ، وجعلته ملكا مع أنه ليس من أسرة ملكية ، فنقم عليها قمص طرابلس ولجأ إلى صلاح الدين وراح يشي بها وبسائر النصارى ويعرض الاتفاق معه . وفي عام ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ م) لاحظ صلاح الدين أن البرنس أرناط نكث بعهده ، فقد تعرض لقافلة تجارية عربية ونهب محتوياتها ، فأعد صلاح الدين جيشا وقصد الكرك ، فحطم أشجارها وخرب القرى التي حولها ، ثم تحول عنها إلى الشوبك وفعل بها مثل ما فعل بالكرك ، وأما ابنه الملك الأفضل ، فقد يمم شطر طبرية وغزة ، وتحرك الفرنجة ولاقوا العرب ، وأوشكوا أن يقضوا عليهم قضاء تاما لولا أن ظاهرهم الحلبيون ، ثم تداول قادة الفرنجة في أمر مقاتلة العرب فرأى قمص طرابلس مصالحة صلاح الدين محذرا من قوته التي استطاع بوساطتها أن ييسط نفوذه على مصر وفلسطين وسائر بلاد المشرق ، وأما غي الملك الغر الذي تزوج من ملكة القدس فقد قال بغطرسية : لا بد من منازلة العرب ، وعندئذ أجابه قمص طرابلس : ستري عاقبة ما ستفعل ، وكذلك تداول صلاح الدين أمر منازلة الفرنجة مع زعمائه الذين رأوا ألا ينازلوا الفرنجة الآن وهم في أوج قوتهم واجتماع شملهم ، كما رأوا أن يتريثوا حتى يتشتت شمل الفرنجة فيضعفوا ويسهل على العرب البطش بهم ، وأما صلاح فرأى خلاف ذلك ، فقد قال : ترى متى يجتمع لي مثل هذه الحشود الغفيرة ؟ الأجدر أن نتشجع ونبارزهم وليفعل الله مايريد ، قال ذلك ، ثم امتطى جواده واتجه هو وجنده نحو الأردن ، فتوقفوا على ضفاف بحيرة طبرية ، واحتشد الفرنجة في صفورية ومكث الجمعان عدة أيام ، لم يتعرض أحدهما للآخر ، إلى أن بعث

صلاح الدين فريقا من جنده في طريق مائية ومجهولة إلى طبرية ليلا ، وعندما انبلج الصبح تسللوا إلى المدينة وأعملوا فيها السيف والنار ، فاعتصمت الملكة بالقلعة وعندما سمع زوجها غي (٢٤) بذلك خارت قواه ، ولكنه مالبث أن استعاد قوته وتحمس وحمس الفرنجة ، وأغاروا على العرب ، ولما حل الليل وقف الطرفان أحدهما الآخر يرقبا بعضهما طيلة الليل ونال العطش من الفرنجة دون العرب ، لأن هؤلاء كانت بحوزتهم ناحية الاربن ، ولما لاح الصباح وتبين للعرب قوة الفرنجة ، وهم يتقدمون ويقتحمون كالدبابير خارت قواهم وأحجموا عن القتال ، فبادر صلاح الدين إلى وسط جموعهم وهو يردد صيحات مدوية تتمثل بالتشجيع تارة وبالتهديد أخرى وتعد بالمنى حيناً وبالمنية حيناً آخر ، فأثار بذلك عزيمة شاب شجاع يدعى منفورس وهو مملوك من ممالك صلاح الدين فاندفع هذا المقاتل إلى مابين الصفيين ، فبرز له مقاتل فرنجي وطعنه برمحه فهوى عن فرسه ، فانقض عليه وسحبه من ضفيرته متجها به نحو صفوف الفرنجة ، ثم حز رأسه وكان هذا عاملا هاما في رفع معنويات الفرنجة فقد اعتقدوا أنه واحد من أبناء صلاح الدين ، ولما كان قمص طرابلس يبطن المكر فقد خشي أن تكون الغلبة للفرنجة ، فتصبح مشورته بعدم القتال سببا لاحقا لهلاكه ، لذا طالب بالانقضاء على العرب والبطش بهم ، ففتحوا له الطريق بين الصفوف ، فعبرها متجها نحو طرابلس، لكن انسحابه هذا كان أحد الأسباب التي أدت إلى خسارة الفرنجة لهذه الموقعة ، فلم يبق بينهم من يثق بصاحبه ، ومع ذلك لم يجدوا للحرب بديلا ، فخاضوها ، فكانت وبالا عليهم فقد فتك بهم العرب ، وأسروا صاحب القدس والبرنس أرناط صاحب الكرك ، ولغيفا من الرهبان الاسيترية والداوية وغيرهم ، ولم ينج منهم إلا القليلون .

وعندما وضعت الحرب أوزارها اجتمع صلاح الدين في خيمته بزعمائيه وطلب أن يحضروا له البرنس أرناط ، وغي زوج الملكة صاحب القدس ، فأكرمه وقد كان العطش قد نال من غي ، فأمر له صلاح الدين بماء حتى يشرب ، فأتي بماء مثلج ، فشرب نصفه ودفن

بنصفه الآخر إلى أرناط فقال له صلاح الدين : لا يجوز أن تسقيه نون أمري ! فقال غي : إن الأسر موت فلا تمته مرتين ، إن الهزيمة قتل ، فلا تقتله مرتين ، فأعجب صلاح الدين بهذا الكلام ، وكاد يعفو عن أرناط لولا معارضة الزعماء الذين أصرّوا على قتله قائلين : إنه لا يستحق أن يبقى على قيد الحياة ، لأنه أقسم مرارا ولم يبر بيمينه ، وبعد ذلك أرسل الأسيرين إلى خيمة ضربت لهما وبعد ساعة من الزمن ، استحضر صلاح الدين أرناط وحده واستقل سيفاً بيده وقطع رأسه ، وكان أرناط هذا قد خاض كثيراً من الحروب ضد العرب وقتل عدداً كبيراً منهم .

فتح بيت المقدس

وبعد ذلك اتجه صلاح الدين إلى قلعة طبرية فاستمال ملكتها ، وحلف لها ، وأجزل لها العطاء ورحلها مع أهلها وحاشيتها وأموالها إلى طرابلس ، في حين قبض على الرهبان الاسبتارية والد أوية ، وبطش بهم ، ثم باع الفارس منهم بخمسمائة دينار ، وقد كانوا ثمانين فارساً ، وكان صلاح الدين يقول : إن هؤلاء يفوقون الفرنجة جميعاً خطراً وأذى للعرب ، لأنهم يؤثرون الموت في سبيل الإيمان ، فيجب الأجهزة عليهم ، ثم توجه صلاح الدين إلى عكا ، فدخلها بعد أن هرب زعمائها بحراً إلى صور ، ولم يبق في عكا إلا الضعفاء والمساكين ، ودخل حيفا ونابلس وصيدا وتبنين ويافا وقيسارية والناصرية وبيروت ، وقد ازدري العرب النصاري الذين كانوا يقيمون في البلاد العربية ازدياء تعجز الكلمات عن وصفه ، ومع ذلك نجى صاحب جبيل ، لأنه سلم العرب مدينته . ثم قصد صلاح الدين عسقلان ، وقد كانت في ذلك الحين تعج بالمحاربين ، فطوقها ، لكنه لم يستطع دخولها ، فسأل صاحب طبرية ملك بيت المقدس الذي كان أسيراً عنده أن يساعده في دخول عسقلان لقاء أن يفرج عنه ، فاستحضر ملك بيت المقدس حاكم عسقلان وطلب إليه أن يسلم مدينته لصلاح الدين فأبى فأمر باعتقاله ، ونصح أهالي عسقلان أن يسلموا مدينتهم فأذعنوا وسلموها ، وحاول أهالي صور أن يسلموا

المدينة ، لكن قمصها كونراد حضر إليها وعمل على حراستها والدفاع عنها .

وتحول صلاح الدين إلى بيت المقدس فحاصرها وأقام المنجنيقات على الجانب الشمالي من سورها لاتساع هذا الجانب ، ومواءمته لتمرکز المحاربين عليه ، وبقيت الأمور على هذه الحال ثلاثة أيام ، فخلق الفرنجة وهم ستون ألفا مابين راجل وفارس ، وخرجوا إلى قتال العرب فبطشوا بالعديد منهم وكان بين هؤلاء عز الدين عيسى صاحب قلعة جعبر ، وفي ذلك الوقت شرع الجنود العرب يقذف السهام ليشغلوا المراقبين على السور ، بينما شرع العمال الحلبيون باقتلاع الحجارة بسرعة من فتحة نقبوها في جسم السور وبدأ بالانهيار ، وعندما رأى الفرنجة هذا انهارت قواهم وخارت عزائمهم ، وبدأ اليأس يدب إلى نفوس الفرنجة فبعثوا باثنين من حكمائهم إلى صلاح الدين يطلبون الأمان والسلام ، فرفض صلاح الدين ، وقال : لن أفتح المدينة إلا بالسيف ، وسوف أفعل بكم كما فعلتم بالعرب حين ملكتموها ، فأنتم تعرفون كم قتلتم وسبيتم ، فقال أحد الزعيمين : لي كلمة أريد أن أقولها ، ولكن ليس قبل أن تعطيني الأمان ، فقال له صلاح الدين : عليك الأمان ، فقل : فقال السفير : لو لم نعرف قوة إيمانك وارتباطك بشريعتك وتمسكك بسنة من تقدمك من الملوك المنتصرين الذين كانوا إذا انكسر أعداؤهم وألقوا سلاحهم طلبوا الأمان وأعطوه ، لما أتينا إليك ، والآن بعد أن جئناك ولم نجد من من كرمك ما كنا نأمل ، سنعود وسنبليج رجالنا الأبطال المجاهدين ما لاقيناه لديك ، واعلم أن أول ما سنفعله هو البطش بمن لدينا من الأسرى العرب ، و سنحرق مسجدكم الكبير ثم الكنائس وسائر الأبنية ، ثم الأموال والمقتنيات ولن نبقى على شيء ثم سنذبح نساءنا وأبنائنا وبناتنا بأيدينا ، ولن ندع لكم فرصة الانتقام منا ، ولن يستسلم الرجل منا قبل أن يقتل واحدا أو اثنين منكم ، فأخذ صلاح الدين بهذا الكلام وأوعز للسفيرين أن يمكثا في إحدى الخيم إلى أن يتداول الأمر مع قائده الذين قالوا له : إن كل ما قاله هذا الرسول صحيحا ، وقد يصنع

الفرنجة أكثر من ذلك فاستدعى صلاح الدين الرسولين وقال لهما :
إنني أقبل بما عرضتما ، ولكن لا يمكن أن يخرج كل الفرنجة من
بيت المقدس مجانا ، و أمراي يطلبون ذهباً لأنهم خسروا في هذه
الحرب كثيراً فاتفق الطرفان على أن يدفع كل رجل عشرة دينارين و
المرأة خمسة دينارين ، و أن يدفع كل ولد ، و كل بنت دينارين ،
ويخرج الجميع في كل ما يمكنهم حمله ، فأدى الأغنياء عنهم و عن
غيرهم من الفقراء و خرجوا جميعاً آمنين و كان مجموع ما استطاع
أن يدفعه الأغنياء عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، لكن مع هذا فقد
بقي خمسة آلاف ممن لم يستطيعوا أن يدفعوا شيئاً فساقهم العرب
أسرى ، لكن بعض الحراس أفرجوا عن عدد كبير من المسيحيين
لقاء رشوة مقدارها دينار أو دينارين ، في حين أفرج مظفر الدين ابن
زين الدين عن ألف شخص تقريباً من الأرمن و السريان بلا مقابل ،
لأنهم كما قال : رهاويون من أبناء رعيتي ، و مثل ذلك فعل ابن
شهاب الدين صاحب البيرة ، فقد أفرج عن معظم أبناء بلده.

و في تلك الوقت كان في القدس ملكة يونانية متوشحة بثوب
الرهبانية و منقطعة للعبادة في أحد الأديرة فالتمست من صلاح الدين
أن لا يتعدى عليها ، فكان لها ما أرادت ، فقد أمر صلاح الدين أن
تخرج هي وأموالها و الشماسية ، و الشماسات و الخدم تحت
حماية كوكبه من الفرسان الى حدود الفرنجة ، و صنع صلاح الدين
الأمر نفسه مع جميع الملكات الفرنجيات اللواتي كن في القدس ، و
أخرج البطريرك جميع محتويات كنيسة القيامة و سائر الكنائس و
قناديل الفضة و الذهب و رحل ، و أما أهالي القدس فقد باعوا ما لم
يقووا على حمله ، و باختصار سلموا صلاح الدين المدينة خاوية من
الذخائر ، و هذا ما حمل العماد الكاتب على أن يقول لصلاح
الدين : لماذا ينقل هؤلاء كل هذه الأموال علماً أن اتفاقك معهم لا
ينص إلا على الأمان ، فقال له صلاح الدين : هذا صحيح ، ولكن
الفرنجة اذا ما اعترضناهم لن يتفهموا موقفنا على هذا النحو
بل سيفسرونه تراجعاً عن قسم قطعناه على أنفسنا و سيثبتون ذلك في
الأصقاع فيشوهون سمعتنا ، و هكذا انتزع صلاح الدين القدس من

الفرنجة يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ للعرب (١١٨٧ ميلادي) و ١٢ تشرين الأول ١٤٩٨ لليونان ، و ذلك بعد ٢٨ يوما من تجمع الكواكب السيارة الستة ، ولم يتسن للمسيحيين بعد هذا التاريخ أن يملكوا القدس أبدا ، ومع ذلك أبقي صلاح الدين أربع رهبان من الفرنج في كنيسة القيامة ليقوموا على خدمة القبر المقدس و تولى بعد زمن قصير بطريرك اليونان أمر رعاية هذه الكنيسة

وبعد بيت المقدس يعم صلاح الدين شطر مدينة صور القابعة في قلب البحر فأقام حولها أبراجا قوية وقد استنفذ كل طاقاته في قتال هذه المدينة ، وكان يشجع جنده قائلا : لم يعد للفرنجة على البحر موقع يقيمون فيه إلا صور ، فإنا طربناهم منها لن يبقوا على مهاجمتنا بعد الآن ، فاندفع جند صلاح الدين يقاتلون الفرنجة في هذه المدينة بلا هوادة ، لكن دون جدوى ، فقد أحكم تحصينها بالخنادق ، المركيز الذي قدم من رومية ، وكان رجاله الأبطال الملاحون يغيرون على العرب ويبطشون بهم ويعذبون ، ولهذا استعان صلاح الدين بألف سفينة ضخمة من الاسكندرية ، فأغار الفرنجة عليها ليلا وحطموا معظمها ، واعتقلوا ملاحيها ، وألقى ما تبقى منهم أنفسهم في البحر ففرقوا ، في حين فر آخرون بسفنهم الى بيروت ، فتبعهم الفرنجة وألقوا القبض عليهم وعندما شاهد صلاح الدين دفاع الفرنجة المستميت أمر بإحراق ما أقام من الأبراج ، وما بقي لديه من السفن والمنجنقات أمر بتحويلها من صور الى عكا وأمر جنده بأن يمضي كل منهم الى وطنه كي ينال قسطا من الراحة في بيته.

الخلاف بين صلاح الدين والخليفة الناصر

نشأ في هذه الأونة خلاف بين صلاح الدين وبين الخليفة الناصر ، وسبب ذلك أن صلاح الدين لم يؤد الجزية للخليفة عن

- ٢٣٦٦ -

سورية ، كما أنه لم يبعث له شيئاً مما كان يجبيه من مصر ، بل حاول في نشوة انتصاراته أن يلغي الخطبة للخليفة ، ويجدها للفاطميين بمصر ، وقد استاء الخليفة أيما استياء عندما أخبره بغدادى كان من قبل يعمل في خدمة صلاح الدين باستيلائه على بيت المقدس.

وفي هذا العام حشد واحد من الرعاة التركمان يدعى رستم خمسة آلاف فارس ، وجمعا غفيرا من الرجالة وتوجه لغزو قيليقية ، فباير صاحبها لاون الى سد الثفور في ناحية مرعش ، ثم أغار على هؤلاء التركان فهربوا وتحولوا الى غزو أطراف حلب ، فانبرى لهم البرنس بوهيموند وأبادهم جميعا.

وفي عام ٥٨٤ للعرب (١١٨٨ م) قاد صلاح الدين جنده بنفسه الى حصن الأكراد لفتحه ، فحاصره يوما كاملا لكن استعصى عليه فارتد الى طرطوس ، وقبل أن ينهي جنده نصب خيامهم تمكن الحلبيون من احتلال أسوار هذه المدينة ، واعتصم الفرنجة في برجين من أبراجها ، ولكن هؤلاء جميعا لم يصمدوا في وجه صلاح الدين فاستسلموا له فهدم قلعتها وأسوارها وكنيستها المعروفة بكنيسة مريم والدة الرب وكل ابنيها ، ثم قصد قلعة المرقب فلم يلق فيها أحدا ، ثم قصد جبله فسلمه أيها من فيها من العرب ، ثم توجه الى اللانقية فهاجمها بقوة وضراوة ، ثم قام الحلبيون بحفر نفق تحت الأرض طوله ستون ذراعا وعرضه أربعة أذرع ، فخارت قوى الفرنجة واستسلموا لصلاح الدين وطلبوا منه الأمان فأنن لهم أن يخرجوا بأولادهم ونسائهم وأموالهم ما عدا آلات الحرب والبهاء والقمح ، وقد جعل صلاح الدين ابن اخيه تقي الدين صاحب حماة واليا على اللانقية.

وقدمت في هذه الأيام جيوش فرنجية في كثير من السفن من صقلية لنصرة المسيحيين ، وباير قائدهم ليحادث صلاح الدين قائلا: لقد بسطت نفونك على كل السواحل التي كانت بيد الفرنجة ولم تدع

لهم إلا القليل ويحسن بك أن تكف عن محاربتهم ، وإلا أغاروا عليك من البحر زرافات ووحدانا وضايقوك ، فالأجدر بك ألا تسيء معاملة جيرانك فهم بمنزلة الحصن الذي يحميك من الأهمالي ، فأجاب صلاح الدين قائلاً إن مبادئ ديننا تملي علينا أن نعزز هذا الدين ونحميه ، والله يفعل ما يشاء ، فرجع القائد الفرنجي إلى بلده ، ثم تابع صلاح الدين زحفه فوصل قلعة صهيون القائمة على صخرة واقفة بين واديين عميقين ، فطوقها ثم دخلها بسلام ، وجعل ناصر الدين منغورس بن عمر تكين مملوك مجاهد الدين بن بوزان والياً له عليها ، ثم اجتاحت شغرى بكاس وزحف نحو الدربسك واحتلها ، كما انتزع بغراس من الرهبان الداوية ، وقد كانت هذه المدينة خالية من الجنود ، وهكذا أصبحت كل هذه البلاد للعرب ، وهذا ما أقلق الأنطاكيين لأن طرق الإمداد سدت في وجوههم ، فقلت مؤنهم ، لهذا تذلل البرنس لصلاح الدين ورجاه الأمان ، فكان له ذلك لمدة ثلاثة أشهر ، ثم توجه صلاح الدين إلى حلب ومنها إلى دمشق لينال قسماً من الراحة ، ومن ثم يمّم شطر صفد فحاصرها إلى أن أخذها من ولاتها كما أخذ بلدة كوكب بعد أن ضيق عليها.

وفي هذا العام توفي طبيب دمشق يدعى الموفق أسعد ، ويعرف بابن المطران ، وكان نصرانياً فاعتنق الإسلام ، وقد اجتمع لديه المال الكثير وزوجه صلاح الدين إحدى جواريه ، ولكنه مالبث أن مات فخبت شهرته ، وبعد أن توفي صلاح الدين شوهدت امرأته وواحد من فتيانه يتسولان في بيوت الضباط .

وفي عام ٥٨٥ للعرب (١١٨٩ م) غزا صاحب أنطاكية البرنس بلدتي حارم وشمش ، وبطش بمن فيها من المسيحيين والعرب ، وفي هذه الأونة وبعد أن أخذت صيدا من صاحبها أرناط توجه أرناط هذا إلى شقيف أرنون بإن من صلاح الدين ، ثم قدم إلى صلاح الدين نفسه وطلب منه أن يمهل ثلاثة أشهر ليعمل على نقل أهله من صور إلى دمشق ويتخلى له عن الشقيف المذكور أنفاً فأذن له صلاح الدين ، لكنه مالبث أن أدرك أن أرناط يراوغ ويخادع فاعتقله ، ثم

بعث به الى دمشق ولم يفرج عنه إلا بعدما تخلص له عن الشقيف المذكور .

وفي هذا العام ١٥٠٠ لليونان (١١٨٩ م) نشب خلاف بين السلطان قلع أرسلان وبين ابنه الأكبر المقيم في سبسطية ، فقتل نحو أربعة آلاف تركي من اتباع الولد ، ومن ثم أصلح بينهما الأمير بهرامشاه صهر السلطان الذي أبعد عنه حاجبه الأمير اختيار الدين حسن الذي سبب الخلاف بين السلطان وولده ، فجمع اختيار الدين نحو مائتي فارس من أقربائه وتوجه بهم الى مرج كينوك ، فحمل عليهم جماعة من التركمان بأمر من ابن السلطان ، فبطشوا باختيار الدين واتباعه ، ثم قطعوا اختيار الدين وجعلوا أشلاءه على رؤوس رماحهم وطوفوا بها في سبسطية يوم عيد الصليب.

قدوم الافرنج الى صور

وتولى في هذا العام ملطية معز الدين قيصر شاه بن السلطان قلع أرسلان ، وقدمت في هذا العام أيضا الى صور جماهير غفيرة ومختلفة من الفرنج ، ثم توجهوا منها الى عكا ، وما أن علم صلاح الدين بذلك حتى تاهب فاستنفر جميع جيوشه ، وزحف بها الى مقربة من الفرنجة ، ولاحظ أنهم يزدانون يوما إثر يوم ، فتداول الأمر مع قواده فرأوا أن يغيروا على الفرنجة قبل أن يزدابوا أكثر فأكثر ، فاستعدوا لذلك أول رجب في ليلة الجمعة ، وفي الصباح التحم الجمعان وأمضوا طيلة النهار يقتتلون سجالات حتى إذا جن الليل بات الجميع على جيادهم ، وفي صباح السبت استؤنف القتال ، فاستمر حتى المساء ، وفي أثناء ذلك انسحب الفرنجة من جهة الجانب الشمالي لعكا لأنه لم يكن لديهم خيام هناك فدخل صلاح الدين مع عدد من رجاله عكا ، وأدخل الامداد اليها وأخلاها من الضعفاء ، وأوعز الى جنده أن يستمروا في القتال دفاعا عن السور وضد سائر الفرنجة لعلهم يستسلمون ، ولكن هؤلاء - الفرنجة - لكثرة عددهم لم يستسلموا بسهولة ولم

يسمحوا للعرب أن يفتحوا ثغرات في جيوشهم ، ولهذا لم يكن من السهل على صلاح الدين الإبقاء على عكا ، فقد أغار عند من الفرسان الفرنجة على مخيم للعرب ، وقتلوا بالعديد منهم ، فطاردهم العرب إلى تل يدعى تل المصلوبين حيث كان يعتصم هؤلاء الفرنجة ويتحصنون بإحكام ، فتحول صلاح الدين إلى تل يقابل التل السالف ، ويطل على عكا ، وصار الرجالة من الجيش يتبارزون في كل يوم حتى سئم الفرنجة ، فنادوا العرب قائلين لا شك أن كلانا سئم من هذه الحرب وتريد اليوم أن نلهو قليلا بمبارزة الفتیان الصغار منا ومنكم ، فجمعوا مائة فتى من كل طرف ، وأخذوا يتقانون بالحجارة ثم الرماح والعصي وأخيرا هزم الفتیان الفرنجة الفتیان العرب وحشروهم في المدينة ، على أن الملحمة العظمى كانت يوم الأربعاء ٢٠ رجب عندما انطلق الفرنجة من خيامهم كالنصور يتقدمهم الملك والكهنة وقد حملوا الانجيل فوق رؤوسهم مغطى بقماش حريري أحمر ، ففوجئ صلاح الدين واستنفر جنده بصيحات مدوية ، فتحول الفرنجة من الجهة اليسرى إلى الجهة اليمنى حيث كان ابن أخي صلاح الدين ، تقي الدين عمر الذي كان يقاتل الفرنجة بضراوة ، وعندما أيقن الملك أن العرب صامدون وضع شارة الصليب على وجهه وهجم يشق صفوف الجيوش العربية حيث كان ولدا صلاح الدين الظاهر والأفضل ، وقطب الدين ابن نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وابن لاجين صاحب نابلس وغيرهم والتحم الجمعان وراح الفرنجة يلتهمون العرب التهام النار للهشيم ، ففر العرب وطاردهم الفرنجة وأبواقهم تصدح بصيحات النصر ، وقد هزم العرب شر هزيمة في ذلك اليوم فقد بلغ الفرنجة حدود طبرية ودمشق وسلبوا العرب خيامهم وبطشوا بالضعفاء منهم ، ثم عابوا فطاربوا العرب ، نحو فرسخ ، فوجدوا بقية باقية منهم ، فلم يتعرضوا لهم بأذى لما لاحظوه عليهم من الضعف والاعياء ، بل خلدوا إلى الاستراحة في خيامهم ، في حين كان صلاح الدين يصيح بجنده المنكسرين ويستنهضهم ، لكنهم لأنوا بخيامهم وقد نال منهم التعب والاعياء، وكان من نتائج هذه الواقعة مقتل ألفي

فرنجي ، وأربعة آلاف ومائة عربي فأمر صرح الدين بأن تلقى جثثهم في البحر ، فأمسك رجل بخيط وصار يعقد فيه عقده كلما ألقيت جثته في البحر ، وفي هذه الأحيان رأى قادة صلاح الدين أن يبعدوا بعض الشيء عن الفرنجة محتجين لذلك بفساد المناخ بسبب الروائح المنتشرة من جثث القتلى ، وأما الفرنجة فقد أخذوا بحفر خندق من التل إلى البحر يفصلهم عن الجيوش العربية ، ثم طوقوا عكا من ناحية البحر ، فقطعوا الطريق عليها ، فلم يعد بوسعهم أن يدخلوا إلى المدينة أو أن يخرجوا منها .

وفي هذه الآونة قدم ملك الألمان عن طريق القسطنطينية بمائتي ألف فارس ورجل ، فخاف صلاح الدين ، وبعث سفيرا له يدعى بهاء الدين ابن شداد إلى خليفة بغداد وكل ملوك المشرق ، يستنجدهم والا فالعربية ستضمحل لا محالة.

وعندما أهلت سنة ٥٨٦ للعرب (١١٩٠ م) ارتاح صلاح الدين لتحول الفرنجة الذين ركزوا كل اهتمامهم على مدينة عكا ، ومع ذلك فاجأوا العرب حين كان صلاح الدين في رحلة صيد ، فاستنفر الجند أخوه العادل فأغاروا على الفرنجة ، وتقاتل القتلى من الطرفين ولو لم يحل الظلام لحسمت المعركة لصالح أحدهما ، وارتد الفرنجة إلى معسكراتهم ، وهطلت أمطار غزيرة فشككت أوحالا حالت دون استمرار القتال ، ولا سيما على الفرسان ، ولم يعد بمقدور صلاح الدين أن يعرف شيئا عن الذين في عكا من العرب حتى استطاع أحد سكان عكا أن يسبح في البحر ، ويذهب إلى صلاح الدين ويعلمه أن الفرنجة يحاربون هذه المدينة حربا ضروسا وأنهم يستعدون لاقتحامها بعدما بنوا أبراجا عالية تطل على المدينة ، وهذا ما جعل سكانها في خطر داهم ، فقرر صلاح الدين أن يزحف إلى الفرنجة ليشغلهم قليلا عمن في داخل عكا ، لكن اعترض سبيله عدة خنادق كان الفرنجة قد حصنوا أنفسهم بها ، ولهذا يئس صلاح الدين من الوصول إليهم ، فتراجع إلى تل يعرف بتل العجول بعيدا عن الفرنج. وفي هذا الوقت أتى إلى نجبته ملوك عدة من العرب نذكر منهم ، على

سبيل المثال : معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود صاحب اربيل ، وعلاء الدين كرم شاه بن مسعود صاحب الموصل ، واستطاع صلاح الدين أن يدخل إلى عكا رجالا نوي خبرة باشعال النار فأحرقوا ثلاثة أبراج فرنجية ، ولو لم تعصف في تلك الفترة رياح شديدة لكان قد أحرق لهب الأبراج الأفرنج كلهم ، ومن سوء حظ الأفرنج أن الخنادق التي تربصوا بها لم تدع لهم فرصة للفرار أو النجاة من النيران ، وأما الأبراج التي احترقت فقد صممت على نحو يذهل من يراها ، فقد وضعت على عجلات تمكنهم من دفعها والصاقها بالسور متى شأؤوا كما كان بمقدورهم أن يجذبوها بالحبال اليهم دون أن ينزلوا من عليها من المتحاربين.

وأما ملك الألمان ، فقد منعه اليونان في البداية من أن يغادر القسطنطينية ، ولكنه ألح عليهم فأفسحوا له المجال ، ليصل إلى بلاد قلج أرسلان حيث جيش السلطان قطب الدين ملكشاه الجيوش واعترض بها الألمان لكنه هزم أمامهم ، وبلغ الألمان قونية وبعثوا بالعديد من أهلها ، وفي هذا الوقت قصد بباس ميخائيل القسيس اليوناني والكاتب الملطي إلى قونية لدفع الخراج فأغار عليه التركمان وأردوه قتيلا ، وبقي قلج أرسلان معتصما بقلعة قونية إلى أن دفع مبالغ طائلة لملك الألمان وصالحه ، وفتح في وجهه الطريق إلى قيليقية ، فبادر إليه لاون ابن اسطفان بن لاون صاحب قيليقية ، وزاره في طرسوس وأزعن له ، ومن ثم ذهب ملك الألمان - وهو شيخ يسبح في النهر مع أن البرد كان في ذلك الوقت قارسا فمرض ومات فنقل ابنه جثمانه إلى أنطاكية ، ثم سار باقي الألمان - وقد أنهكوا - إلى ضواحي طرابلس ، ثم أبحروا إلى عكة ، ولكن معظمهم قضى نحبه في قيليقية بسبب المرض.

وفي هذه الأثناء قدم ملك انكلترا ، فتوقف في قبرص وانتزعها من اليونان ، ومن ثم واصل مسيره إلى عكا فقويت شوكة الفرنجة في هذه المدينة التي كان فيها أيضا عشرة أمراء عرب ، فأخبروا صلاح الدين بأن الحروب المستمرة أوهنتهم ، فاستبدل بهم أمراء لم يكن

لهم مزيد خبرة بفنون القتال على السور ، ولهذا ازداد موقف الفرنجة قوة ومنعة ولا سيما بعد أن نصبوا سبعة منجنقات مقابل كل برج ، ومع ذلك بعث ملك انكلترا الى صلاح الدين سفير يسبر امكانية الاجتماع به والاتفاق على تسدير يخدم مصالح الطرفين ، فكان جواب صلاح الدين أن يصطحب الطرفان أولا ومن ثم يمكن أن يترتب أمر الاجتماع ، لأنه لا يليق بالملوك أن يقتتلوا بعد أية مفاوضات ، ثم حدث أن مرض ملك انكلترا ، فتوقف الفرنجة عن متابعة الحرب ، لكن ما أن تماثل الملك للشفاء حتى أرسل سفيره ثانية الى صلاح الدين ، وقال له: أرجو أن تعذرني عن التقصير في اجابتك ، فقد انتابني مرض أعاقني عن ذلك وهأنذا قد شفيت الآن وبأشرت الى مراسلتك وأرغب أن أبعث اليك ببعض الهدايا ، فلا يحسن بالملوك أن يقطعوا عرى المودة وتبادل الرسائل والهدايا والتهاني ولو في أوقات الحروب ، هذا ما علمنا اياه أبائنا الملوك السالفون، فقال صلاح الدين: إن هانتمونا هانناكم ، فأجاب السفير إن لدينا حماما زاجلا ونسورا وبواشق وليس لدينا ما نطعمها فلو أعطينا زغاليل وجاجا اطعمناها وأحضرناها اليكم ، فقال أخو صلاح الدين العادل للسفير على سبيل المزاح : طالما ملك انكلترا قد عوفي فلا شك أنه يحتاج الى زغاليل.

ثم البس صلاح الدين السفير الانكليزي حلة ملكية وحمله بعض الدجاج والحمام والزغاليل ، وبعد ثلاثة أيام عاد سفراء الفرنجة الى صلاح الدين يريدون ثلجا وثمارا فحملوا ما طلبوا ورجعوا ، وقد قيل إن الملك الانكليزي لم يهدف من إرسال سفرائه الى صلاح الدين المرة تلو الأخرى الا ليقف على مآلديه وعلى ما لدى ملوك المشرق من القوات ، وعندما ضيق الفرنجة على العرب في عكا قال أهلها لصلاح الدين: أنجدنا والافسوف نسلم المدينة ، وكان صلاح الدين يعمل جاهدا على شغل الفرنجة بالقتال داخل عكا وخارجها ، وهذا ما حدث فقد أجبر صلاح الدين الفرنجة على تقسيم جيوشهم الى قسمين ، قسم لمنازلة العرب داخل عكا ، وقسم لمحاربتهم في الخارج ، ولما أيقن العرب داخل عكا أنهم

مهزومون لا محالة ، طلبوا الأمان ، فأجابهم الفرنجة بأن ذلك مشروط بأن يرد لهم صلاح جميع الأسرى الفرنجة ، وكل البلاد والمدن التي أخذها منهم ، فكان رد صلاح إني أفرج عن ثلاثة آلاف أسير فقط لقاء العرب الذين داخل عكا ، وإذا تخلى الفرنجة عن المدينة بابلتهم بمدينة عوضها ، والا فليستعيدوا تلك المدن بالقوة كما أخذتها منهم ، وما إن علم الفرنجة بذلك حتى صعدوا على أسوار عكا بالسلالم ثم هبطوا الى قلب المدينة وفتكوا بالكثير ممن فيها ، وانحسر بعض الأهالي في ناحية من المدينة ، فقالوا للفرنجة : انتظروا ريثما نطلب من صلاح الدين أن يدفع لكم ذهباً ويفرج عمن لديه من أسراكم ، فوافق الفرنجة على ذلك واتفق الطرفان على أن تكون المهلة أربعة عشر يوماً حتى يبدو القمر الجديد وعلى أن يقدم صلاح الدين للفرنجة مائتي ألف دينار ذهبي، وأن يفرج عن مائة أسير تحدد أسماؤهم من الكونتية والقمامصة وأن يفرج عن ألف وخمسمائة أسير آخرين غير محددين ، وبعث بهذا الاتفاق الى صلاح الدين ، فتداول الأمر مع قواده ، فقالوا بصوت واحد: إن هؤلاء العرب أخواننا ويجب أن ننقذهم ، فأخذ صلاح الدين بهذا الرأي وجمع الأسرى الفرنجة ، وأما الذهب ، فقد تقرر أن يدفع للفرنجة في كل عشرة أيام ثلث المبلغ الذي تقرر دفعه ، وعندما انتهت الأيام العشرة الأولى طلب من الفرنجة أن يفرجوا عن كل الرهائن الذين عندهم ، على أن يدفع ثلث الذهب وجميع الرهائن بدلا من الثلثين الباقيين : أو أعطونا رهائن من عندكم بدلا من ثلث الذهب الذي سوف تقبضونه ، فقال الفرنجة : تكفيكم كلمتنا وتقريرنا بشأن الرهائن ، فأنف صلاح الدين من هذا الجواب ، ورفض طلبهم فنقموا نقمة عارمة وقيدوا كل من لديهم من العرب بالحبال وساقوهم الى تل قرب المدينة ، وأوثقوهم بالحبال وجمعوا حولهم براميل الخمرة العتيقة والحطب وحشروهم ثم فتكوا بهم بالسيوف ، وكان كاتب الديوان يشهد ذلك ، وقدر عدد القتلى من العرب المتناثرين داخل عكا وخارجها وعلى أسوارها وعلى التل المذكور أنفا بمائة ألف وثمانمائة نسمة ، وكان ذلك في رجب من عام ٥٨٧ للعرب ، وفي آب من عام ١٥٠٢ لليونان ، (١١٩١ م)

- ٢٣٧٤ -

وإنما أطلنا في الحديث عن هذا الحصار لكونه مشهورا عند العرب ، فقد كتبوا فيه مجلدات حول ما أصابهم من الشدة من الفرنجة.

وما أن مكن الفرنجة أقدامهم في عكا حتى باسروا الى تنظيم جيش لحراستها ، ورمموا ما تداعى من أسوارها ، ثم توجهوا الى أرسوف ، وكذلك رحل صلاح الدين لكن مع ذلك ظل كل منهما يتعرض للآخر بين الفينة والأخرى على الطريق ، وفي أحد الأيام هاجم صلاح الدين الفرنجة فحقن الملك الانكليزي وأغار على صلاح الدين وصحبه غارة بدبتهم ، ولم يبق مع صلاح الدين الا سبعة عشر من أخيار العرب وحملة الرايات وناقضي الأبواق ، وكان يمكن أن ينقض الفرنجة على صلاح الدين ومن بقي معه وأن يأسروا صلاح الدين فيقوضوا بذلك أقوى سند للعرب ، ولكنهم خشوا أن يتربص بهم كمين ، فأقلعوا عن ذلك.

وسير صلاح الدين في تلك الحين فرسانا وبنائين الى قلعة بغراس ليأتوه بما فيها من النخيرة والمؤن وليهدموها ، ولكنهم ما إن بلغوا تلك القلعة حتى علموا أن لاون صاحب قيليقية استعد ليغير عليهم ، فرجعوا فارين ، وعندما علم الأنطاكيون بذلك توجهوا الى هذه القلعة - وكانوا إذ ذاك في ضيق من أمرهم - فوجدوا فيها اثني عشر ألف مكوك من القمح ففرجوا بذلك عن أنفسهم لأن الجوع كان قد ضايقهم جدا ، وما هي الا أيام حتى أغار لاون على بغراس وأخرج الفرنجة منها.

وأغار صلاح الدين على عسقلان وأخلاها من سكانها ، ولكن العرب عجزوا عن حراستها ، وقد سوغوا ذلك بأن الفرنجة بنوا بينها وبين القدس مدينة يافا ، وذهب صلاح الدين الى بيت المقدس ووضع فيه من العتاد والرجال ما يمكن أن يحميه ، وفي تلك الوقت قصد صاحب ملطية معز الدين صلاح الدين وشكا اليه محاولة أبيه

وإخوته انتزاع هذه المدينة منه فأوسع له صلاح الدين وزوجه من ابنة أخيه العادل ، وطمأنه قائلاً: لا تخف أباك ولا أخوتك.

وأرسل الملك الانكليزي الى صلاح الدين رسولا يقول له: لقد أتت الحرب على جنودنا وجندكم والام سستظل الأمور على هذه الحال ، وقد رويت سيوفنا وسيوفكم من الدماء ، فلترد ما أخذته منا من البلاد ولا سيما بيت المقدس مقربينا الذي تركنا أوطاننا من أجله فإن قبلت ذلك غادرنا الى أوطاننا تاركين كل شيء فتستريح ، فأجاب صلاح قائلاً : ان هذه البلاد كانت فيما سبق لليونان لالكم ، وقد أخذها العرب منهم وعندما ضعف العرب أخذتموها منهم ، ونحن الآن نسترد بلادنا منكم ، وأما القدس التي تعينونها مقام بينكم ، فهي ايضا مقربينا ، ونحن نقديسها أكثر منكم ، وهذا ما أوصانا به الله في القرآن .

ثم أرسل الملك الانكليزي الى صلاح الدين مرة ثانية ، وقال : أرغب في أن يصاهرني العادل أخوك ، فأزف له شقيقتي التي جاءت معي لتسجد في بيت المقدس واذا ما اكتفيت أنت بالقلاع والمدن ، وبقيت القرى بيد الرهبان الداوية والاسبتارية ، وتخلت لأخيك العادل عن المدن الساحلية ، عند ذلك يتم الزواج ، وسأستعمل أختي على كل المدن التي بحوزة الفرنجة الآن ، وسيكون مركزها بيت المقدس ، فأبى صلاح الدين ذلك في حين كلف أخوه بشقيقة الملك الانكليزي ، وطلب الى القواد والأعيان ان يقنعوا أخاه صلاح الدين بعرض ذلك الملك ، فتشبث صلاح الدين برأيه ، لكن هؤلاء القادة قالوا له نحن متأكدون من أن هذا الزواج لن يكون ، فابنة الملك الكبير تأنف الزواج من عربي ، ولعل الملك عرض عليك ذلك مازحا كعاقبته ، ولهذا كله يحسن الاتخجل أخاك ، فوافق صلاح الدين وبعث سفيراً الى ملك الانكليز ليخبره بذلك فأقام السفير ثلاثة أيام ، ثم قال له الملك : استغرقت ثلاثة أيام في سبيل ان أقنع أختي بهذا الزواج ، فلم تقنع بذلك الا اذا تنصر العادل ، فعاد السفير خائباً .

وفي هذه الايام توفي تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين وهو في طريقه الى خلاط لمحاربته ، فحمل الى ميفارقين حيث دفن ، وكان تقي الدين هذا شديد الكراهية للمسيحيين ولهذا كان يبطش بالفلاحين الأرمن بلا رحمة في جبل جور ، وكان مع تقي الدين المتوفى ابنه الملك المنصور فاعتصم بميفارقين، وأرسل لصلاح الدين قائلاً ان أخذت مني بلاد أبي تقي الدين تحالفت مع بكتمر صاحب خلاط ، فأذعن له صلاح الدين قليلاً ، ثم جعل العادل واليا على بلاد أبيه ، في حين نصب الملك المنصور على سميساط وحران والرها .

وبعد يوم واحد من رحيل العرب والفرنجة عن عسقلان كمن العرب للفرنجة وهم يقطعون الحطب خارج المعسكر ، ولكن الفرنجة اكتشفوا أمرهم فامتطوا جيادهم ، وبطشوا بثلاثة من قواد صلاح الدين في حين أسر العرب فارسين من الفرنجة ، فوجه ملك الانكليز الى الملك العادل سفيرا يعاتبه على ذلك الكمين ، وأبدى رغبته في أن يجتمع بأخيه السلطان صلاح الدين في تلك الخيمة ولكن صلاح الدين رفض ذلك لأمرين أحدهما الخوف ، وثانيهما أنه لم ير ذلك مقبولا قبل ان يعقد بينهما صلح وهذا مالم يكن ، وعلى افتراض حصول مثل ذلك الاتفاق فان احدهما لا يفهم لغة الآخر الا بمرجم فليكن انن المترجم سفيرا ، وذلك يغني عن الاجتماع المباشر ، وعندما حل الشتاء ارتحل صلاح الدين الى بيت المقدس وارتحل الملك الانكليزي الى عكا ، ثم ارسل صلاح الدين للملك اربعة وعشرين ألف دينار ذهبي من أجل أن يفرج عن الأسرى العرب .

وفي مستهل عام ٥٨٨ للعرب (١١٩٢ م) سار الفرنجة الى عسقلان وبدأوا بترميم ابنيتهما ، وكان قد نشب خلاف بين المركيز صاحب صور وبين ملك الانكليز ، فقد طمع المركيز ان يستقل بهذه المدينة عن الملك ، فحاول الملك أن ينزعه عنها ، فأرسل المركيز الى صلاح الدين يخبره بالتحالف معه لمحاربة أبناء جلدته الفرنجة ، وبينما كان سفير المركيز عند صلاح الدين تسلل اليه

رجلان اسماعيليان تنكرا بلباس الرهبان ، فطعنه أحدهما بسكينة ، وفر الثاني الى كنيسة مجاورة كان قد نقل اليها سفير المركيز ، وعندما سمعه هذا الاسماعيلي الثاني يتكلم هجم عليه ضمن الكنيسة وطعنه ثانية فأجهز عليه فألقى الفرنجة القبض على هذين الرجلين وعذبوهما فزعما أن ملك انكلترا هو الذي بعث بهما ، فصدق الفرنجة ذلك لما بينه وبين المركيز من خلاف ، ولكن تبين فيما بعد أن (سنان) زعيم الاسماعيليين هو الذي أرسلهما ليغتالا سفير المركيز ، واثّر ذلك جعل الملك الانكليزي الكونت هنري واليا على مدينة صور ، فتزوج امرأة المركيز وجامعها وهي حامل مخالفا بذلك الناموس .

وفي هذه الغضون زحف الفرنجة الى الداروم ، وأخذوها من المسلمين ويطشوا بأهلها ، كما اعترض الفرنجة قافلة كبيرة للمسلمين آتية من مصر تحمل ذهباً لصالح الدين ، أضف الى ذلك أن معلومات وردت اليه تفيد أن الفرنجة يستعدون للهجوم على القدس فجهز جيوشه لئلازلتهم ، وأحكم تحصين أسوار المدينة وخرب كل القنوات خارج السور ، وعندما علم ملك انكلترا بذلك أوعز الى الفرنجة بالتوقف عن الزحف الى بيت المقدس قائلاً : لم يعد في ضواحي المدينة ماء ، فالعرب قد خربوا قنوات المياه وأما النهر فبعيد عنها مسافة تزيد على الفرسخ ، ولا تظنوا أن بيت المقدس مثل عكا التي لولا البحر لما استطعنا أن نحصنها أكثر من يومين ، فأخذ الفرنجة برأي الملك وتحولوا الى غزة ، ففرح صلاح الدين بذلك ، لكن الملك عاد فأوفد اليه سفيرا ليقول له : لا تظن أنني أعرض عن غزو بيت المقدس ضعفاً وجبناً ، فإن الكباش لا يرجع القهقري الا لكي ينطح الرأس ، فإن رأيت أن نتهامن على مانريد ، فهذا أفضل لك ، وبعد عدة مراسلات تهانن الطرفان على أن تبقى بلاد الفرنج للفرنج ، وهي : يافا وضاحيتها ، وطرابلس وأنطاكية وعكة ، وحيفا وقيسارية وأرسوف ، وتظل سائر البلاد تحت سلطان العرب ماعدا عسقلان التي يجب أن تمسي خراباً على أن يدفع صلاح الدين للفرنجة ما أنفقوه من أجل إعادة

بنائها ، وأفسح المجال أمام جماهير الفرنجة لزيارة القدس ، وقد غالى صلاح الدين في إكرام هؤلاء الزوار وأجزل لهم العطاء كما قدم لهم خيولا ليركبوها ، ويقال ان ملك الانكليز بعث الى صلاح الدين يقول ان كل فرنجي لا يحمل علامتي لاتسمح له أن يدخل بيت المقدس ، فاستفسر صلاح الدين من بعض العقلاء عن هذه العلامة ، ف قيل له ان العبادة هي الدافع الاسمي الذي يحمل الفرنجة على المجيء الى بيت المقدس ، فاذا ما حجوا ورجعوا الى أوطانهم لم يعد لديهم ما يحملهم على العودة الى المشرق ، وعليه اذا ما احتاج الملك العودة ثانية الى المشرق لا يمكنه أن يلزمهم بمرافقته ، وعندما فهم صلاح الدين ذلك ، بعث للملك يقول : ان هؤلاء الناس هم غرباء لا يحسن بي ان أضييقهم ، وأما أنت فبوسعك أن تمنعهم من المجيء الى هنا .

واثر احتلال الفرنجة لعكة قبضوا على زعيمين عربيين ، وهما ابن المشطوب ، وقرقوش الحاجب الرومي الأهل الذي بعثه صلاح الدين الى افريقية ، وفتح مدنا عدة ، ومن ثم رجع الى مصر حيث أشاد سورا ما يزال يعرف باسمه الى اليوم، وقد عهد اليه فيما بعد بقيادة الجيش في عكا ، وقد طالبه الفرنجة بثمانية آلاف دينار للافراج عنه ، فقال لهم:كم دفع ابن المشطوب حتى أفرجتم عنه؟ فقالوا دفع ثلاثين ألف دينار ، فقال :ليس من الانصاف أن يدفع هو ثلاثين ألف وأنا ثمانية آلاف ، فضحك الفرنج وقبضوا منه ثلاثين ألف ، ولقرقوش حكايات طريفة مثل هذه ، من ذلك أن أحد الشعراء نظم فيه ديوانا تاما لم يظهره الا بعد ان توفي ذلك الشاعر .

وبعدما عقد الصلح بين العرب والفرنجة ذهب صلاح الدين الى بيروت ، حيث زاره البرنس بوهيموند صاحب أنطاكية فغالى في إكرامه وضيافته ووشحه كما وشح الأعيان الأربعة عشر الذين حضروا معه حلا ملكية ، ومنحه نصف غلة أنطاكية التي كان العرب قد احتلوها من قبل ، وقد أعجب صلاح الدين بمجيء البرنس

- ٢٣٧٩ -

اليه بهذه الثقة وتلك الطمأنينة ، ولهذا بالغ في إكرامه وأجزل عطاءه وأحسن توبيعه ، ومن ثم رحل صلاح الدين عن بيروت الى دمشق .

أما ملك انكلترا فقد استعمل على عكا ابن اخته القمص هنري ، ومن ثم عاد الى وطنه ويظن انه مات قبل ان يصل اليه (٢٥)

وفاة السلطان قلعج أرسلان

في آب من سنة ١٥٠٣ لليونان ، ١١٩٢ م توفي في قونية السلطان قلعج أرسلان الذي كان يتحلى بشجاعة وذكاء تمكن بهما من طرد اليونان من عدة مواضع ، وعندما تقدمت به السن قسم مملكته على أبنائه ، ويبدو أن هؤلاء الأبناء لم يكونوا يبشرون بأبيهم ، فقد كان اذا حضر عند أحدهم للغداء - مثلا - ملة فاضطر للتحويل الى ابن آخر ، الى أن زار ابنه صاحب مدينة بروغلو غياث الدين كيخسرو فرحب به وأحسن وفائته ، ثم جيش جيوشه واصطحب اياه وتوجه الاثنان الى قونية فانتزعاها من اخيه قطب الدين ، ثم سارا الى أقصر حيث مرض الأب الشيخ هناك فأعاده ابنه كيخسرو الى قونية وتوفي هناك وكانت مشواه الأخير ، وبقي كيخسرو متوليا أمر قونية ، الى أن أخرجه منها أخوه ركن الدين ، وسنوضح ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى ، والجدير بالذكر ان مدة حكم السلطان قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان بن سليمان ابن قتلмыш بن ييغو بن سلجوق بن دقاق قد استمرت ثمانية وثلاثين عاما وقد كان أبا لاثني عشر ملكا (٢٦)

وفاة صلاح الدين

وفي هذه الآونة ابتلي صلاح الدين بحمى شديدة مات على أثرها في دمشق ليلة الأربعاء ٢٧ صفر من سنة ٥٨٩ للعرب (٤ آذار ١١٩٣ م) وقد خلف سبعة عشر ولدا بين ذكر وأنثى ، وقد كان جوادا معطاء ، ولهذا مات ولم يكن في خزانته سوى دينار وستة وثلاثين فلسا ، وقد كان كرمه من عوامل نجاحه الأساسية في إدارة شؤون البلاد ، ويحكى أنه لما احتل دمشق ووضع أمامه ما في خزانته من الدينار والدراهم ، أوعز إلى ابن المقدم أن يعطي كل واحد من الزعماء والفرسان والعبيد حفنة من هذه الأموال ، فصار ابن المقدم لايملا حفنته جيدا ، فنهره وقال : املا حفنتك ، فضحك ابن المقدم ولما سأله عن سبب ذلك قال : أنكر أن نور الدين كان يوما في مكانك وأحضرت له علبة من جيد الزبيب ، فقال لي وزع بحفنتك على الأعيان ، ولما لاحظت أني املا حفنتي جيدا ، همست قائلا : ان وزعت هكذا فلن يكفي الجميع ، فضحك صلاح الدين وقال : ان البخل لا يوائم الملوك ، بل يوائم التجار ولن توزع بعد الآن بيد واحدة ، بل بكلتا يديك ، وقد قال أحد الحاضرين ان الحفنة التي أصابته كانت مائة وخمسين دينارا .

ومما يحكى عن صلاح الدين أنه بينما كان يحاصر عكا ركب يوما مع قاضي المعسكر واذ بيهودي يقسول اني أتظلم إلى الشرع العربي ، فسئل عن خصمه وعن أكل حقه قال ان خصمي هو السلطان ، لأن عبيده تعدوا علي ، فلم يغضب صلاح الدين بل استدعى هذا اليهودي وأجلسه إلى جانبه ، فقال اليهودي أنا تاجر من دمشق أتيت من الاسكندرية ومعى عشرين حملا من السكر وعندما حللت في مرفأ عكا ، نهب عبيدك ما بحوزتي من السكر وأخذوه إلى الخزانة بدعوى انني كافر ومالي يجب ان يكون للسلطان ، وعندما تبين صلاح الدين صدق ما قاله اليهودي أوعز إلى خزنته ، فدفعوا إلى اليهودي ثمن سكره .

ومما يحكى عن صلاح الدين ايضا انه كان يوما جالسا مع الزعماء ، وكان العبيد يلعبون على مقربة منه ، فرمى أحدهم صاحبه بحذاء فسقط قرب ركبة صلاح الدين ، فالتفت الى الجانب الآخر وشرع يحدث جليسه موهما بأنه لم ير ما حدث ، ويحكى ايضا أنه عطش يوما فطلب ماء فجعل العبيد كل منهم يأمر صاحبه بأن يحضر الماء دون أن يأتوا بشيء ، فطلب صلاح الدين الماء ثانية وثالثة ورابعة وخامسة الى أن أحضر له الماء ، فشرب بدون تذمر ، ودخل يوما الحمام فعطش فطلب ماء باردا فعندما أتى تساقطت قطرات منه على جسمه فارتعدت فرائصه لما كان به من مرض ، فرفض أن يشرب فازداد عطشه فاضطر أن يطلب ثانية وعندما أتى بالماء اندلق الماء كله على جسمه فارتعد ارتعادا شديدا ، ثم قال للخادم : هل تنوي أن تقتلني ، ولم يزد .

وقد سر بكتمر صاحب خلاط بموت صلاح الدين سرورا بالغا ، وأعد جنده ليغير على ميافارقين ، فوثب عليه صهره هزارديناري ، عبد شاه أرمن وقتله وحل محله ، ورعى ولده محمدا الصغير رعاية الأب لولده (٢٧)

وممن ماتوا في هذا العام سنان امام الاسماعيلية (شيخ الجبل) في مصيات ، وقام مقامه ابنه الناصر الفارسي ، وقد كان سنان هذا مهيبا لدى الملوك العرب والفرنجة ، فقد صنع سكاكين عدة صك على كل واحدة منها اسم أحد الملوك ، وكان على من تهدى اليه إحدى هذه السكاكين ، أن ينجز ما يطلبه منه سنان ولو كلفه ذلك حياته ، وقد نهل هذا الزعيم الاسماعيلي من جميع العلوم ، واعتنق مبدأ تناسخ الأرواح الذي ينسب الى افلاطون ، وقد علم أتباعه هذا المبدأ ، ولهذا كانوا لا يبالون بالموت ظنا منهم أنهم سيقون أحياء بعد أن يموتوا ، وقد اختفى سنان في حياته غير مرة ، وكان يشاع في كل مرة أنه قد مات ، ولكنه ما يلبث أن يظهر ثانية ، وهذا ما جعل أتباعه يعتقدون أنه حي يرزق بعد موته .

وفي ١٥٠٤ لليونان (١١٩٣ م) تمكن لاون صاحب قيليقية من خداع البرنس بوهيموند صاحب انطاكية ، واعتقله وسبب ذلك ان بغراس كانت بيد لاون ، فعندما تركها العرب استعادها لاون وأوعز الى واليها الارمني أن يسر الى البرنس أنه يرغب في الايقاع بمولاه لاون ، كما يرغب في أن يتخلى له - اي للبرنس - عن القلعة ويعود الى انطاكية للاقامة هناك ، فبعث هذا الحاكم بذلك الى البرنس ووعد به بأنه سيسلمه قلعة بغراس ، فانطلقت الحيلة على البرنس وصدق كلام الحاكم ، فسار هو وامراته وابنه متظاهرين بأنهم يصطادون، وعندما بلغوا عين ماء بظاهر البلد دلى لهم الحاكم طعاما وخمرا ، ونصحهم الا يدخلوا القلعة نهارا وأن عليهم الانتظار الى أن يخيم الظلام ، فيقبلوا على القلعة حيث يجدوا أبوابها مفتوحة فيدخلوها سرا ، كما نصحهم بالألا يصطحبوا معهم شيئا من الفرسان والأسلحة ، لئلا يتنبه حراس القلعة فيفتضح الأمر ، فانطلقت على البرنس الحيلة كلها ، فترك عين الماء التي كان يخيم عندها موهما بأنه يقصد انطاكية ، حتى اذا جن الليل ، ارتد هو وابنه وزوجته وخدمه ، الى باب القلعة ، فوجدوه مشرعا فولجوه بسرور بالغ حيث استقبلهم الحاكم قائلا : لتخلدوا الآن الى الراحة وفي صباح الغد نستدعي فرسانكم شيئا فشيئا ونقبض على حراس القلعة ، فأطمأن البرنس وصحبه الى كلام الحاكم الذي مالبت أن أبلغ لاون ، فأقبل مع عدد من الأرمن فاعتقل البرنس وامراته وابنه وأوثقهم بالقيود ، ونكل بالبرنس تنكيلا شديدا انتقاما منه لأنه سلف ونكل بروفين أخى لاون ، وبقي البرنس معتقلا لدى لاون الى أن قدم هنري ابن أخت ملك انكلترا فأفرج عنه بالوعد والوعيد ، وقويت شوكة لاون ، بعد أن مات السلطان قلعج أرسلان ، فقد بسط نفوذه على اثنين وسبعين حصنا ، بعضها كان بحوزة الأتراك وبعضها كان بحوزة اليونان ، وكان منتصرا في معاركه كلها .

وما أن بلغ نبأ وفاة صلاح الدين الى صاحب الموصل عز الدين بدأت الاحلام تراوده باحتلال سورية ، فاستنفر قوى أخيه عماد

الدين صاحب سنجار ونصيبين ، وقوى ابن أخيه صاحب الجزيرة ومظفر الدين بن زين الدين صاحب اربيل وهياهم جميعا للاستيلاء على مابحوزة آل صلاح الدين من البلاد ، ولكن الملك الأفضل ، وهو الابن الأكبر لصلاح الدين ، والذي خلف أباه في ولاية دمشق استقدم عمه العادل الذي كان في دمشق ، وأرغمه على قيادة الجيش ، ومن ثم راح يجيش جيوش نويه من الولاة ، فقد استدعى أخاه الملك العزيز من مصر ، وأخاه الظاهر من حلب ، وابن عمه المنصور صاحب حماة ، وابن عم أبيه الملك المجاهد بن ناصر الدين من حمص ، ثم جعل جيوش هؤلاء جميعا جيشا واحدا ، ووجهه بقيادة عمه العادل الى مرج الریحان بضواحي الرها ، فما أن علم بذلك عماد الدين صاحب الموصل حتى توجه بجيوشه الى نصيبين حيث أصيب بأسهال حمله على العودة الى بلاده ، ومالبت ان توفي هناك ، وقد كان هذا الحاكم طيب الطوية خير الفرعة ، كريم اليد واللسان ، وقد حل محله في ولاية الموصل ابنه نور الدين أرسلان شاه الذي كان وصيه مجاهد الدين قايمان (٢٨)

وفي عام ٥٩٠ للهـ ، ١٥٠٤ يونانية (١١٩٣ م) ، توجه علاء الدين تكش خوارزمشاه بجيشه الى خراسان فاشتبك مع طغرل قرب الري ، فقتل طغرل وقطع رأسه وأرسله الى بغداد حيث رفع على قسبة ووضع بباب قصر الخليفة ، وملك خوارزمشاه همذان وسائر البلدان وعين عليها نائبا يدعى قتلغ اينانج بن البهلوان ، سلطان همذان السالف ، فاستحضر خوارزمشاه عندما هرب طغرل من سجنه ، وأخذ منه مقاليد الحكم في البلاد ، وقد كان طغرل هذا آخر حكام الدولة السلجوقية في خراسان ، وظلت دولتهم في بلاد الروم ، وهو ابن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن أرسلان بن داود بك بن ميخائيل بن سلجوق بن تغلق .

وفي هذا العام زحف صاحب مصر الملك العزيز الى دمشق ليخرج أخاه الملك الأفضل منها ، فتدخل عمهما الملك العادل فأصلح بينهما بأن تظل القدس للعزيز واللاذقية وجبلة لصاحب حلب الملك

الظاهر ، وبعض قرى مصر للملك العادل ، ومن ثم عقدوا هدنة فيما بينهم وعاد كل منهم الى بلده .

وفي عام ٥٩١ للعرب ١٥٠٥ يونانية (١١٩٤ م) وجه الخليفة الناصر جيوشا بامرة سيف الدين طغرل أحد قاداته الى أصفهان ، ففتح الأهالي له أبواب المدينة لبغضهم الشديد للخوارزميين الطغاة الذين قهروهم .

وفي هذا العام ايضا استعد صاحب مصر العزيز للقدوم الى دمشق وانتزاعها من أخيه الأفضل ، ولما علم الأفضل توجه بنفسه الى قلعة جعبر يطلب نجدة العادل وأخيه الظاهر ، فذهب معه الى دمشق في حين كان العزيز قد قدم اليها ، ثم بعثوا الى العادل والأفضل يقولون هلم الينا نسلمكما اياه ، فأحس العزيز بمكيدة تعد له ، فأسرع بالعودة الى مصر فلحقه الأفضل والعادل وبلغا بلبيس ، وكان بمقدورهما أن يحتلا مصر لولا ان العادل طلب الى الأفضل أن يتريث ، وأصلح بينهما ، فعاد الأفضل الى دمشق وتولى القدس ايضا ، وأما العادل فقد أقام في مصر يسوس مملكة العزيز .

وفي عام ٥٩٢ للعرب (١١٩٥ م) زحف الملك العادل والملك العزيز من مصر الى دمشق ليأخذاها من الملك الأفضل فتأهب الأفضل لمواجهةهما ، ووزع قواده على الأسوار والأبراج والأبواب ، فخانه حارس الباب الشرقي واسمه عز الدين الحمصي ، وأدخل العادل الى دمشق ، فنزل في دار عمه أسد الدين شيركوه ، ثم تبعه الملك العزيز ، وأخذا دمشق من الأفضل ، ثم ولياه امر قلعة صرخد ، فذهب اليها ، وأما الملك العزيز ، فقد رجع الى مصر وبقي العادل في دمشق كأنه نائب يقوم مقام العزيز وكانت السياسة كلها بيده والاسم للملك العزيز وقد بعث الملك الظاهر مرارا من حلب الى الملك الأفضل يقول له : لاتصدق العادل ، فلن يجديك نفعا ، وأنا أعرفه أكثر منك ، فأنا ابن أخيه وصهره ، ولو كان

يشفق علينا لعاملني أفضل من معاملته لك ، فأجابه الأفضل
قائلا : لقد ساء ظنك فيمن هو بمقام أبينا ، ومن لا يمكن أن
يؤذينا .

وفي العام ٥٩٣ للعرب ١٥٠٧ لليونان (١١٩٦ م) هاجم الملك
العادل الفرنج زاعما أن الصلح ، قد أصبح لاغيا بوفاة صلاح الدين
وملك انكلترا ، ولهذا زحف الى يافا وبخلها عنوة ، فاستنجد
الفرنجة الذين كانوا في الساحل بأصحابهم صارخين أنجدونا والا
احتل العرب كل السواحل ، فأنجدوهم بجيوش جرارة يقودها رجل
يدعى (شذسلير) (٢٨) وهو من رجال الكهنة فصارت الجيوش
تبني طويلا وكانت أن تقتحمها لولا أن ذاع خبر سقوط هنري
صاحب عكا من مكان مرتفع وموته ، ولهذا توقفت الجيوش عن
القتال ، لأنه لم يبق لهم ملك ، فاستحضروا ملك قبرص وزفوا له
زوجة هنري ، وعندما علم الملك العادل بذلك بعث الى الفرنجة يرغب
في مصالحتهم ، فاصطلح الطرفان على أن تكون بيروت للفرنج
وتبني للعرب ، ولهذا غادرها الفرنجة وذهبوا .

وفاة ملكشاه وطغتكين بن أيوب وعماد الدين زنكي

وفي هذا العام (١١٩٦ م) مات ملكشاه بن خوارزمشاه في
نيسابور ، فحل محله قطب الدين محمد علما أن المملكة بحسب
وصية أبيه كان يجب أن تؤول الى ابنه هندوخان ، كما مات في هذا
العام سيف دين الاسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح
الدين ، صاحب بلاد اليمن ، فخلفه ابنه اسماعيل ، ولكن اسماعيل
هذا لم يكن مؤدبا ، فثار عليه الزعماء وقتلوه .

وفي عام ٥٩٤ للعرب (١١٩٧ م) مات عماد الدين بن زنكي بن
مودود بن زنكي بن آق سنقر صاحب سنجار ونصيبين والرقعة فخلفه
ابنه قطب الدين محمد ، وكان وصي محمد هذا عبد أبيه مجاهد الدين
يقش .

هجوم نور الدين ارسلان على نصيبين

وفي هذا العام سار نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل الى نصيبين وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد ، ذلك أن محمدا كان قد تمادى على قرى مابين النهرين على حدود الموصل فعمل نور الدين على اخراج محمد منها فأبى ، فوجه اليه جيوشا طردته الى حران ، فاستعان محمد بالعاقل ، وأما نور الدين ، فبعد أن مكث أياما في نصيبين التي كان قد انتزعها حديثا من ابن عمه محمد فقد استشرى المرضى بجنده ، فمات ستة من أشهر زعماء الموصل ، منهم حاجب نور الدين ، مجاهد الدين قايماز ، مما حمل نور الدين على العودة الى الموصل ، فارتد قطب الدين واستعاد نصيبين .

خوارزمشاه ينتزع بخارى من الصينيين

وفي هذا العام زحف خوارزمشاه الى بخارى ، وأخذها من الصينيين الذين كان العرب البخاريون ينعمون معهم بدفع المحبة والسلام على اختلاف أديانهم ، مما دفعهم الى الوقوف في وجه خوارزمشاه ، فقد تصدوا له على الأسوار وقاتلوه أشد ما يكون القتال ، والبسوا كلبا ثوب خوارزمشاه ، وطرحوه بين الأهالي وهم يقولون لهم هذا هو ملككم ، ومع ذلك احسن خوارزمشاه معاملتهم بعد أن دخل بخارى ، فقد صفح عنهم وعاهدهم وأعطاهم ذهباً .

الملك العادل يستولي على ماردين

وفي هذا العام ايضا استولى الملك العادل على ماردين بعد أن قاتل صاحبها حسام الدين قتالا شديدا ، وقد كان حسام الدين هذا

فتى وكان نظام الدين بن يقش وصيا عليه ، وقد خدع أهالي ماردين بالملك العادل ، فسلموه المدينة ، فما ان دخلها جنده حتى سلبوا مافيها وبطشوا بأهلها وحاصروا قلعتها .

وفاة العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر وتولي أخيه الأفضل .

وفي عام ٥٩٥ للعرب (١١٩٨ م) توفي صاحب مصر الملك العزيز ابن صلاح الدين ، فقد سقط عن حصانه بينما كان يطارد نثبا في رحلة صيد ، فألقت به حمى شديدة وعاد الى مصر فمات فيها ، فاختلف الزعماء فيمن سيخلفه من ذويه ، فقد رأى بعضهم أن يخلفه ابنه الصغير الملك المنصور ، في حين رأى آخرون أن يخلفه الملك العادل ، ورأى غيرهم أن يكون الملك الأفضل خلفا للملك العزيز ، وقد رجحت كفة هؤلاء ، فاستدعي الملك الأفضل من صرخد وجعل ملكا ، ففر أعداؤه في مصر الى بيت المقدس واحتلوها ، وأما الملك الأفضل ، فقد جيش جيوش مصر وسار بها الى دمشق يريد احتلالها ، فأعلم الدماشقة الملك العادل الذي كان بماردين بذلك ، فترك فيها ابنه الملك الكامل محمدا ، وتوجه هو الى دمشق التي كان الملك الأفضل قد سبقه اليها ، ولكن جيوشه انقسمت على أنفسها فارتد الى مصر دون أن يفيد شيئا من مجيئه الى دمشق . وأما الملك الكامل بن الملك العادل ، فقد بقي في ماردين يضغط على من كان في قلعتها الى أن نفدت ذخائرهم ، واستشرت بهم الأمراض ، فرأى نظام الدين الذي كان وصيا على الطفل حسام الدين أن يسلم هذه القلعة ، وهذا ماأثار صاحب الموصل نور الدين وولدي عمه صاحب سنجار وصاحب الجزيرة ، وقال بعضهم لبعض . اذا ماتمكن أتباع العادل من ماردين ، فسيتمكنون من احتلال بلادنا كلها ثم اتحدوا وزحفوا جميعا الى بنيسر (٢٩) ، فنزل الملك الكامل الى البرية حيث لاقاه المواصلة ، ففر هو واتباعه الى ماردين ، فوجدوا أن حماة قلعتها قد نزلوا عنها الى المدينة ، فنهبوا

خيامة ، وهذا ما حمل الكامل على أن يعود في تلك الليلة الى حران ومن ثم تحول الى دمشق حيث ابوه الملك العادل ، ويروى بعضهم أنه لو لم ينزل أصحاب الكامل عن الجبل الى البرية ، لصعب على المواصلة ان يخرجوهم من مارددين ، ولما كادوا يحتلوا القلعة ، ولكن الله - جلت حكمته - يفعل ما يشاء .

الملك العادل يرحل إلى مصر

في سنة ٥٩٦ للعرب (١١٩٩ م) جمع الملك العادل جيوشه وسار باتجاه مصر ، وعلم الأفضل بذلك فهياً جيوشه واستعد لقتال عمه ولكنه هزم واضطر للعودة إلى القاهرة ليلاً ، مما جعل العادل يتابع طريقه إلى القاهرة ويحاصرها بقصد أخذها وهنا اقترح الأقطاب على الأفضل أن يلجأ إلى الهدنة ويطلب المصالحة لعدم قدرته على القتال ، وقد اقتنع الأفضل بهذا الرأي ، ورضي أن تؤول إليه ولاية دمشق أو الرها وحران بدلاً من مصر ، إلا أن الملك العادل رفض طلبه هذا ، ولكنه وافق على توليته على ميفارقين وحناني وجبل جور وأقسم كل منهما للآخر وتوجه الأفضل إلى صرخد وبعث أتباعه ليتسلموا ميفارقين ، ولكنه فوجئ بابن الملك العادل نجم الدين أيوب يرفض تسليمه الولاية فشكاه إلى والده الذي أجابه بأن ابنه متمرّد عليه ، وعلم الأفضل أن هذا اتفاق بين العادل وابنه فلم يفكر بإرسال وسيط بينه وبين العادل .

وفاة خوارزمشاه صاحب خوارزم

وفي السنة نفسها توفي خوارزمشاه تكش بن ألب أرسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان كالري وجزء من بلاد الجبل ، فتولى مكانه محمد بن قطب الدين الذي سمي علاء الدين باسم أبيه .

وفي السنة نفسها مات القاضي الفاضل الفقيه المصري وحيد عصره في مصر .

إلغاء العادل الخطبة للملك المنصور

في عام ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م قام العادل بإلغاء الخطبة للملك المنصور الفتى ابن الملك العزيز مما أزعج الأقطاب ، وجعلهم يكتبون إلى الملك الأفضل في صرخد وإلى أخيه الملك الظاهر في حلب يطلبون منهما القنوم إلى دمشق وأبدوا استعدادهم لاعتقال العادل إذا ما برز إليهما، ولكن الأنباء تسربت إلى العادل فأرسل إلى ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى الذي كان في دمشق وطلب منه أن يسرع إلى صرخد لحبس الأفضل في قلعتها ، فهرب الأفضل إلى أخيه الظاهر في حلب وتوجهوا معا إلى منبج واحتلاها ، ثم تابعا فاحتلا قلعة نجم ثم سارا إلى حماة حيث قدم لهما ناصر الدين بن تقي الدين ثلاثين ألف دينار صوري فتركاهما وتوجها إلى دمشق عن طريق بعلبك ، واتفق الاثنان على أنهما إذا احتلا دمشق فإنها تبقى للأفضل إلى أن يسترد مصر فعندها تصبح مصر للأفضل ويرد دمشق للظاهر ، إلا أن الخلاف وقع بينهما عندما احتلا دمشق فقد طلب الظاهر أن تكون دمشق له على أن يرسل مع أخيه الأفضل جنوده لاحتلال مصر ولكن الأفضل قال له : إن أمي وأهلي ضيوف في حمص ، ولذا أرغب وقد أتيت بهم من صرخد إلى حمص وأعطيتهما إلى زين الدين قراجا عبد أبي حتى يساندني فأرجو أن تترك لي دمشق لتمكث فيها النساء ، وتدافع أنت عنهن حتى تستولي على مصر ، ولكن الظاهر ظل مصرا على رأيه حتى علم الناس بذلك فانصرف قسم من زعمائهم إلى العادل وقسم آخر إلى دمشق إلا أن الأخوين اتفقا بعد ذلك ، وطلبا الصلح من عمهما العادل ، وقد استجاب العادل لهما ومنح الملك الظاهر منبج وأقامية وكفرطاب وبعض المعرة إضافة إلى حلب ، وأعطى الملك الأفضل سميساط

وسروج ورأس العين وجملين ، ودخل الملك العادل إلى دمشق وانصرف كل واحد إلى شأنه .

محاولة انتزاع مابين النهرين من آل العادل

وفي الوقت الذي كان فيه الأفضل والظاهر يحاصران دمشق قام نور الدين بجمع جيوشه واصطحب ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار وصاحب ماردين ، وتوجهوا جميعا ليستردوا مابين النهرين من آل العادل ، ولكن المرض تفشى بينهم عندما وصلوا إلى رأس العين وكان ذلك في الصيف ، وقد أرسل الملك الفائز بن العادل الذي كان في حران إلى نور الدين يطلب الهدنة ، فوافق الأخير ولاسيما أن نبأ اتفاق الأفضل والظاهر والعادل قد وصل إليه مع نبأ المرض وهكذا عاد نور الدين إلى الموصل ، وعاد كل واحد إلى مركزه .

ركن الدين بن قلع أرسلان يأخذ ملطيه

وفي ذلك العام كان معز الدين قيصر شاه واليا على ملطيه ، فزحف أخوه ركن الدين سليمان بن قلع أرسلان وحاصرها واستطاع أخذها منه في حزيران ١٥١١ لليونان (١٢٠٠ م) ، وفر الملك معز الدين يطلب العون من حميه الملك العادل الذي بعثه إلى الرها ومنحه مساعدة ، فيما كان ركن الدين يتابع طريقه من ملطيه إلى أرضروم التي كان يتولاها ابن الملك محمد بن صلتق وهو من الأسرة المالكة في المدينة، وقد خرج إلى ركن الدين مظهرها الود والطاعة إلا أن ركن الدين لم يعبأ بهذا بل سجنه ودخل المدينة ، ثم أخذ قونية من غياث الدين كيخسرو أخيه . وقد فر غياث إلى سورية وقصد الملك الظاهر صاحب حلب وأخبره بما حدث طالباً نجدة ، ولكنه قوبل بالرفض فترك حلب وجعل يتنقل بين البلاد حتى وصل إلى قسطنطينية التي أكرمه ملكها وزوجه إحدى بنات بطارقتها

العظام ، وبقي غياث هناك حتى وصل الفرنج إلى هناك حيث غادرها غياث يريد حميه وكان صاحب إحدى القلاع فرحب به وقال له : يكفيني هذا البلد ويكفيك إلى أن يقضي الله أمره ، وأقام هناك إلى حين وفاة أخيه .

كوارث طبيعية

وفي تلك السنة قلت مياه النيل ولم يفيض فحدث ارتفاع شديد في الأسعار ، وأكل الناس في مصر جثث الحيوانات والبشر ، وانتشر الطاعون ، ثم حدث زلزال هدم الأسوار والأبنية في دمشق وحمص وحمماه وطرابلس وصور وعكا والسامرة ، وأصاب الزلزال بلاد الروم إلا أنه لم يكن قويا في بلاد المشرق .

خوارزمشاه محمد بن تكش ينتزع مرو ونيسابور

سار خوارزمشاه محمد بن تكش سنة ٥٩٨ للعرب (١٢٠١ م) إلى خراسان ، وانتزع مرو ونيسابور من غياث الدين وأخيه شهاب الدين فقد كانت لهما ولما رجع إلى خوارزم بسبب موت أبيه أخذهما غياث الدين فبعث إليه قائلا : كنت أظن أنك تساعدني وتحارب الصين معي ، ولكنك أبيت إلا أن تضربي ، ولكن غياث الدين لم يعد إليه المدينتين مما اضطره للسير إليه وأخذهما عنوة ولم يستطع غياث الدين أن يقف في وجهه بسبب داء النقرس الذي أصابه . وكان أخوه شهاب الدين يقاتل الهنود يومئذ .

محاولة الملك العادل الاستيلاء على ماردين

في سنة ٥٩٩ للعرب (١٢٢٠ م) أرسل الملك العادل أبو بكر بن أيوب حاكم مصر ودمشق جيشا كبيرا مع ابنه الملك الأشرف موسى

إلى ماردين وهناك حاصر هذا الجيش المدينة ، وسيطر على بعض المناطق والقرى ، فتدخل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب بين الطرفين وعقد هدنة تقضي بأن يدفع صاحب ماردين إلى الملك العادل مائة وخمسين ألف دينار ، قيمة كل دينار منها ستة دراهم فضة وأن يدعوه على المنابر ويكتب اسمه على الدراهم والدنانير ، وقد تسلم الملك الظاهر عشرين ألف دينار من ذلك المبلغ وأخذ منه قرية قرادي في شبختان وتركه وانصرف .

وأثناء الأحداث السالفة كان التركمان يعيشون في البلاد فسادا ويسلبون وينهبون حتى صار الناس يخشون السفر دون حماية الجند .

العادل ينتزع سروج ورأس العين

وفي تلك السنة انتزع العادل من أخيه الأفضل سروج ورأس العين وجملين ، وانتزع منه أخوه الظاهر صاحب حلب قلعة نجم ، ولم يتبق له إلا سميساط ، ولما وجد الأفضل أن عمه وأخاه قد ظلماه راسل ركن الدين سليمان بن الملك قلع أرسلان صاحب ملطية وقونية وأبدى له إزعانه واستسلامه له وخطب له ، وسك الدراهم باسمه وأصبح بمثابة واحد من الأمراء في بلاد الروم ، ثم أرسل إلى أمه فذهبت إلى الملك العادل ورجته أن يرد لابنها ماأخذه من يده ، إلا أن العادل رفض رجاءها ليلقى آل صلاح الدين العقاب نفسه الذي عوقب به آل أتابك عندما بعث أمه وابنة عمه فرفض توسلها .

وفي هذه السنة أرغم الملك العادل الملك المنصور ابن الملك العزيز على ترك مصر وجعل إقامته في الرها إلى جانب أمه وأخوته وذلك خشية من أن يبايعه المصريون .

انتزاع الفرنج القسطنطينية من اليونان

في نيسان سنة ٦٠٠ للعرب (١٥١٥ لليونان / ١٢٠٤ م) أخذ الفرنج القسطنطينية من اليونان وألغوا دولتهم منها ، وكان ملك اليونان قد تزوج أخت الملك فرنسيس ورزق منها طفلا ، وكان لملك اليونان أخ تمرد عليه وفقاً عينه وأماته في السجن ، فهرب ابن الملك المقتول وقصد خاله الملك فرنسيس ، فتحمس وحشد جنوده ، وسار الى محاصرة القسطنطينية ، وكان الأهالي حاقدين على ملكهم فأشعلوا المدينة بالنار ، وساعدوا الأفرنج على دخول المدينة والقضاء على الملك الظالم ، ومن ثم سلموا عرش المملكة للفتى شكليا فيما تولوا الأمر عمليا ، وراحوا يرهقون الأهالي بالضرائب الباهظة ، وسلبوا الكنائس الأمتعة والصلبان والأنجيل والمذهبات ..

ولما رأى الأهالي القسوة والنهب ، هبوا على ملكهم وقتلوه وطردوا الفرنج وأغلقوا الأبواب في وجههم ، واستمر الفرنج في قتالهم على الأسوار حتى مل الأهالي وضعفوا فاستنجدوا بالسلطان ركن الدين صاحب قونية الذي لم يستطع مساعدتهم مما أدى الى ثورة التجار الفرنج وعددهم نحو ثلاثين ألفا ، وقاموا بإضرام النار في المدينة حتى أحرقت ربعها ، ثم فتحو أبوابها للفرنج الذين قتلوا أعداد كبيرة من اليونان ولأذ العديد بكنيسة أياصوفيا حتى اضطر الرهبان والأساقفة للخروج وهم يحملون الصلبان والأنجيل يرجون منهم أن يكفوا أذاهم ، ولكن الفرنج لم يهتموا بما سمعوه منهم وتابعوا فتكهم وقتلوا الكهنة وسرقوا الكنيسة وكان للفرنجة ثلاثة قواد هم : بوقس البنادقة الضرير ، وقد ركبوا في سفنه والثاني المركيس مقدم الأفرنسيس وثالثهم غونديفلند ، وقد اختير الأخير لملك قسطنطينية بالقرعة فيما أخذ الأول أقريطش ورودس وغيرهما ، وتولى المركيس البلاد الواقعة شرقي الخليج المار في بنطش مثل لوزقية ونيقية وفيلادلفيا

وغيرها الا انها لم تبـق له فقد تغلب عليه الاشـكري الامـبراطور
اليوناني واستطاع انتزاعها منه.

محاولة نور الدين شاه الاستيلاء على نصيبين

كان الاتفاق سائدا بين نور الدين شاه حاكم الموصل وقطب الدين
محمد بن زنكي ابن عمه حاكم سنجار ، إلا أن العادل أوقع الفتنة
بينهما ، فهاجم نور الدين نصيبين وهي لابن عمه ، وكانت تقع في
يده لولا الخبر الذي جاءه من الموصل والذي مفاده أن مظفر الدين
كوكبري صاحب إربيل زحف إلى نينوى وعاث فيها فسادا ، ولذا
عاد نور الدين إلى مدينة بلد ، ولكن نـمي إليه أن مظفر الدين رجع
إلى إربيل فسار هو إلى تل أعفر ، وأخذ عذوة ويومها كان الملك
الأشرف في حران فجاء إلى رأس العين واتفق مع مظفر الدين
صاحب إربيل ومـمع حاكم الموصل من
و حصن كيفا ، ومع حاكم الجزيرة ليمنعوا صاحب الموصل من
احتلال شيء من صاحب سنجار وقد اجتمعوا في نصيبين ثم زحفوا
إلى باعر بـايا ، وتوجه نور الدين إلى كفر زمار ثم إلى بوشذه وأقام
مع جنده حتى يستعيدوا قوتهم ، فتوجه إليهم الأشرف
بجنوده ، وقاتلهم وخسر نور الدين المعركة وهرب مع أربعة من
رجالـه إلى الموصل ، أما خصومه فقد زحفوا إلى ضواحيها
فاستأسروا وأحرقوا وأفسدوا ولا سيما في بلد.

مصادفة غريبة

وسمعت إحدى النساء - وكانت تطبخ - بما يحدث فخشيت من
السبي وكان في معصمها ذهب فأخفته تحت الموقد ، فدخل أحد
الفرسان ونزلها يفتش عن طعام فوجد بيضة فشواها على الموقد
وعندما حاول قلب النار وجد ذلك الذهب

دخول الفرنج الى حماة

بعد احتلال الفرنج قسطنطينة استجمعوا قوتهم ، وساروا الى قونية وسبوا حتى الأردن وقضوا على كثير من العرب ، وبخلوا حماة فخرج اليهم الملك المنصور بن تقي الدين بن شاهنشاه بن أيوب ولكنه هزم وفر الى حماة ، وخرج أهل حماة لقتال الفرنج فهلكوا جميعا ، فبعث الملك العادل ومنح الفرنج الناصرة وبقية البلدان التي كانت أموالها تقسم بين العرب والفرنج وعقدت الهدنة بين الطرفين.

استرداد أنقرة

وفي هذه السنة استرد السلطان ركن الدين حكم ملطية وقونية ومدينة أنقرة من أخيه بعد حصار دام سنين ، ونفى أخاه وأولاده الى قلعة خارجية ، ولكنه أختبأ لهم في الطريق مع رجاله وفتك بهم ، بيد أنه أصيب بداء المفاصل بعدها بخمسة ايام ومات ليخلفه ابنه قلج ارسلان الذي كان شابا.

وقد عرف ركن الدين بالدهاء والانتظام في أفعاله وميله الى رأي الفلاسفة الخارجين، ولكنه لم يظهر ذلك.

وفي تلك السنة حدث زلزال عنيف دمر سور مدينة صور وأبنية كثيرة في مصر وفلسطين وما بين النهرين والموصل وقبرص وصقلية.

أفعال خصوم نور الدين

وراح خصوم نور الدين يعيشون في الضواحي فسادا واسترجعوا تل أعفر ومنحوه لابن عمه وعقدوا الصلح ، ودشتت الجند.

خلاف بين سلاجقة الروم

في سنة ٦٠١ للعرب (١٢٠٤ م) نشأ خلاف بين زعماء بلاد الروم ، وبعث أحد أمراء أوج ببلاد التركمان المجاورة لليونان يطلب غياث الدين كيخسرو الذي سلف له وفر الى اليونان وجمع لأجل ذلك جيشا كبيرا وجهه الى قونيه ، فخرج أهلها وجندها اليهم وهزمهم ، وحار غياث الدين بأمره فلاذ بمدينة صغيرة مجاورة لقونية هي ابجرام ، ثم عطف عليه أهالي أقصرا فطردوا حاكمهم وولوه عليهم ، وكذلك فعل أهل قونيه فاعتقل قلعج أرسلان ابن أخيه وخضعت له البلاد كافة ، فجاد عليه بذهب كثير وجعله يعود الى الرها ولم يبقه عنده.

وتوجه السلطان غياث الدين الى قيسارية ، وأتى الى زيارته الملك الأفضل ابن صلاح الدين صاحب سميساط ونظام الدين صاحب حصن زياد وخضعا له ، فشهره ذلك..

ناصر الدين والأشرف يستردان حصن زياد

وفي السنة نفسها توجه ناصر الدين محمود بن قرا أرسلان حاكم آمد الى الملك الأشرف طالبا منه أن يمدّه بالعون لاستعادة حصن زياد ، ولبي الأشرف هذه الدعوة وجهز جنودا من سورية والموصل وسنجار والجزيرة وسار واحتل المدينة وأخذ الجمعان يقاتلان في القلعة ، وحين ذلك طلب صاحب حصن زياد من السلطان غياث الدين المعونة ، فأرسل اليه ستة آلاف فارس بقيادة الملك الأفضل صاحب سميساط ، وعلم الأشرف ناصر الدين بهذه المساعدة فغيروا جبهة القتال ، ودخلوا القلعة وعينوا فيها حراسا.

- ٢٣٩٧ -

زحف الكرج الى أنربيجان

وفي عام ١٥١٦ لليونان (١٢٠٥ م) قام الكرج بالزحف الى أنربيجان فبطشوا بأناس عديدين ، وغنموا كثيرا ، وبعد ذلك ساروا الى خلاط وأرضروم ، فسار صاحب خلاط ابن قلج ارسلان صاحب أرضروم وأخذ جيشا من عنده ، وعاد لمقاتلة الكرج ، وقتل في المعركة القائد الكرجي زكري الصغير ، وفر أهل امكرج الى بلدهم.

حوادث طريفة

وفي تلك السنة أنجبت امرأة طفلا له رأسان وأربعة أرجل وأربعة أيد ومات في اليوم نفسه.

ودخل اثنان من العميان مسجدا في بغداد وقتلا أعمى ثالثا ليأخذا أمواله ، وفي الصباح هما بالفرار الى الموصل فرأهما أحد الحراس فقال ممازحا : هذان الاعميان قتلا ذلك الأعمى لأنه لا يقتل الأعمى إلا مثله ، فراح كل منهما يحلف أنه لم يقتل الرجل بل قتله صاحبه فقبض عليهما الحارس واعترفا بفعلتهما بأن أحدهما قد أمسكه ثم خذقه الثاني بحبل ، فأصدر الحاكم أمرا بقتلهما.

أكراد مخربون

وفي سنة ٦٠٢ للعرب (١٢٠٥ م) ظهر جماعة من الأكراد التيرهانية من جبال حاداي وأحدثوا دمارا كبيرا في تلك البلاد ، فلاقاهم العجم وقتلوا عددا كبيرا منهم ، وهؤلاء الأكراد لم يسلموا بل ظلوا على وتنيتهم ، وكانوا ينكرون بالمسلمين أشد التنكيل ويقتلونهم ، وكان من عادة هؤلاء أنه إذا ما ولدت لهم فتاة

- ٢٣٩٨ -

وقف أبوها في باب منزله وصاح : من يخطب هذه الفتاة ، فإن خطبها أحد تركها حية وإلا قتلها ، ولهذا قل عدد نسائهم ، وربما كان ينكح المرأة الواحدة كل رجال البيت.

وإذا نخل عليها أحدهم جعل حذاءه خارجا على الباب حتى لا يدخل سواه ، حتى يخرج هو فيأذن للثاني بالدخول ، ويكون المولود ابنا لأكبرهم سنا.

احتلال أنطالية

وفي عام ٦٠٣ للعرب (١٢٠٦ م) زحف الكرج مرة ثانية الى خلاط ، ففعلوا فيها ما فعلوا من سبي وقتل وحرق ، وفي شهر شعبان احتل غياث الدين كيخسرو أنطالية التي على ساحل البحر ، بعد أن كان قد وجه اليها الجيوش في العام المنصرم ، فما كان من أهالي اليونان إلا أن استنجدوا بالفرنج في قبرص ، واستدعى السلطان جيوشه من المدينة ، وجعلهم في الجبال ، حتى إذا خرج من المدينة أحد قبضوا عليه ، وبقيت الحال على هذا النحو حتى سلمت المدينة الى السلطان ، أما اليونانيون والأتراك فقد اتفقوا معا وحاربوا الفرنج وانتزع السلطان القلعة وأسر من فيها من الفرنج ، كما احتل كوتاس أيضا.

تسليم مدينة خلاط

وفي العام نفسه قوي أمر سلطان خلاط محمد بن بكتمر فقضى على صهره هزار ديناري الذي قتل أباه وعاش في بذخ كبير منذ أن كان طفلا حتى كرهه الخلاطيون ، وثار عليه بلبان أحد عبيد شاه أرمن في منازكره ، وبعث بعض الخلاطيين الى ناصر الدين أرتق ابن ايلغازي بن البسي بن تمـرتـاش بـن

- ٢٣٩٩ -

أيلعازي بن ارتق صاحب ماردين يحرضونه على ابن خال أبيه ويدعونه لاستلام المدينة ، فما كان منه إلا أن زحف بجيوش أتراك ومعيدين وقد استعدوا للقتال ، ولكن الذي جرى أن بلبان أرسل الى صاحب ماردين يطلب منه ترك خلاط ليتدبر أمرها هو زاعما أن أهل خلاط ينفرون من المعديين ، وعندما لم يقبل بذلك هدد بلبان إذا لم يعد الى بلده ، ولكنه خاف بعد أن وجد جيوشه قليلة ، فعاد ليرى أن بلده قد غزاه الملك الأشرف ، وأقام الأشرف في ديئسر وجمع منها أموالا طائلة ثم مالبت أن تركها وعاد الى حران.

محاولة الملك الأوحده احتلال خلاط

وقام بلبان بالزحف الى خلاط بعد أن حشد الجنود ، ولكنه لم يستطع احتلالها ، فجعل يعطي لأهل خلاط الوعود والمواثيق على أنه لن يؤذي أحدا منهم ، حتى سلموه المدينة فقام بسجن ابن بكتمر في حصن من الحصون ، واستفحل أمره ، وفي هذه الأثناء احتل الملك الأوحده نجم الدين أيوب بن العادل قلعة موش ومدينتها ، وتوجه الى خلاط ، ولكن بلبان سد الثغور ، وقضى على عدد كبير من أعوانه ، وأفلت الأوحده وعادا الى بلده ميافارقين مع نفر من المصابين.

كيف تم الأمر للملك الأوحده

وقام الكرج باحتلال مدينة القرص بولاية خلاط في العام نفسه بعد أن قاموا بمحاصرتها عدة أعوام قاطعين عنها الذخيرة. وفي عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م طلب الملك الأوحده نجدة من أبيه الملك العادل حتى يزحف الى خلاط

فبعث الملك الأشرف جيشا كبيرا قبع قرب المدينة ، وحاول بلبان

- ٢٤٠٠ -

محاربته ولكنه عجز عن ذلك وعاد الى خلاط ليبعث رسولا الى صاحب أرضروم مغيث الدين بن قلج أرسلان ليستنجده ، فاستجاب له وأقبل ليحارب مع بلبان الملك الأوحـد مع أخيه حتى تم النصر لهما ، فزحفا الى موش لاحتلالها.

ولكن مغيث الدين خان بلبان وقتله ليستولي على خلاط ، وعندما توجه إلى المدينة ليتولاها وجد أبوابها مغلقة في وجهه ، فتحول الى منازل كرد ، ولكن أهلها قاوموه أيضا مما جعله ييأس ويجر ذيل الخيبة الى بلده ، ثم إن أهل خلاط استدعوا الملك الأوحـد وسلموه المدينة ليتولاها.

اضطرابات في خلاط

وكان الولاة العرب المجاورين يتخوفون من الملك العادل فلم يرضهم ان يتولى ابنه المدينة فراحوا لذلك يغزون الخلاطيين وخاصة الكرج ، فقام بعض الأمراء الخلاطيين بانقلاب على الأوحـد ، واحتل أهم قلعة هناك وهي قلعة (وان) اضافة الى أرجيش ، وبعد تدخل الأشرف أخي الملك الأوحـد استطاع هذا الأخير أن يسترجع قلعة وان ، ولكنه لما خرج فيما بعد الى منازل كرد لينظمها كما يريد ثار الخلاطيون من زعماء الصفوف وكانوا قد استاءوا لتسليم المدينة الى أصحاب العادل فطردوهم من المدينة وقاموا بمحاصرة القلعة ، فما كان من الملك الأوحـد الا أن جاء الى خلاط في جيوش مابين النهرين واحتل المدينة بعد أن دب خلاف بين أهلها وفتك بعدد كبير منهم ، واعتقل العديد ونفاهم الى ميافارقين ، وهكذا تم اخماد حركة زعماء الصفوف الذين كانت أمور العزل والتولية في أيديهم .

موت كيخسرو

وفي هذه السنة مات غياث الدين كيسخرو فخلفه ولده عز الدين كيكاوس، الذي قام باعتقال أخيه علاء الدين كيقباز في قلعة مسارا بأسفل دير مار أهرون في الجبل المبارك قرب ملاطية .

الفرنج في حمص

وفي هذه السنة أيضا قام الفرنج بالزحف الى حمص قادمين من طرابلس فعاثوا الفساد في أرجائها ولم يستطع صاحب حمص أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه الكبير أن يكفهم عن ذلك، وقام القبارصة أيضا بالاستيلاء على بعض السفن العربية واعتقال أصحابها، مما جعل الملك العادل يسير في جيوشه من مصر ليكف الفرنج .

موت صاحب مراغة

وفي السنة ذاتها مات صاحب مراغة علاء الدين بن قرا سنقر ، فخلفه ابنه الصغير ، ولكنه مالبث ان مات أيضا فأقبل صاحب تبريز نصر الدين أبو بكر بن البهلوان واحتل المدينة دون أن يتمكن من قلعة راوند التي قاومه فيها مربى الغلام المتوفى .

زحف الكرج الى مدينة أرجيش

في عام ٦٠٥ للعرب (١٢٠٨) م زحف جيش عرمرم من الكرج الى مدينة أرجيش من ضواحي خلاط فقاموا باحتلالها ونهبها والفتك بأهلها شييا وشبابا وأسر نسائها وأطفالها ، ولم يتركوها الا خرابا ، ولم يتمكن نجم الدين الأوحى الذي كان في خلاط أن

- ٢٤٠٢ -

يقاومهم لكثرتهم ، ولعدم ثقته بالاهالي الذين فتك بهم فيما سلف ، وكان يظن أنه لو ترك المدينة لسلامها أهلها الى الكرج .

زلزال في نيسابور

وفي هذه السنة أصاب نيسابور زلزال قوي ، فهرب على أثره جميع السكان متوجهين الى البرية فبقوا عدة ايام حتى ينتهي الزلزال فيعودوا ، كما أنه حصل زلزال آخر في خراسان ، ولكنه لم يكن بالقوة نفسها لزلزال نيسابور .

اتفاق نور الدين ارسلان مع الملك العادل

وفي عام ٦٠٦ للعرب (١٢٠٩) م زوج نور الدين ارسلان صاحب الموصل ابنته لأحد ابناء الملك العادل بعد أن تم الصلح بينهما ، واتفقا على انتزاع مدينة سنجار من صاحبها قطب الدين ليتولاها العادل ، كما اتفقا على احتلال جزيرة قردو (٣١) من صاحبها ابن سنجر شاه ليتولاها نور الدين ارسلان ، ولكن نور الدين بعد ان فكر مليا ندم على ماخطط لأنه ايقن انه سينتزع منه سنجار والجزيرة ان احتلها بل وينتزع منه الموصل ايضا ، وعندما شاور اصحاب الرأي لاموه جميعا ، اذ لم يطلعهم على اتفاقه السري مع الملك العادل ، ونصحوه بأن ينجز وعده للعادل كيلا يعد ذلك نقضا للعهد فيقيم عليه الحجة ، وبينما كان نور الدين في حيرته هذه ويتظاهر بتهيئة جيش ليرسله الى نصره الملك العادل أتاه ليلا رسول من صاحب اربيل مظفر الدين كوكبري يعده بأنه سيوافي اليه بجيوشه ليتفقا معا على الملك العادل ويحولا دون تمكنه من تلك البلاد ، فرضي بذلك نور الدين مبتهجا وعاهد على ذلك فعاد الى الخليفة يحثه على تعنيف العادل بسبب طمعه ، كما بعث رسولا الى صاحب حلب الملك الظافر بن صلاح الدين والى السلطان عز الدين كيكائوس ووعدهم بالمعونة ، اضافة الى أن أصحاب العادل لم

- ٢٤٠٣ -

يحاربوا سنجار بشدة وخاصة أسد الدين صاحب حمص الذي كان يبعث علنا الى المدينة مؤنا مختلفة ، وتشجع صاحب سنجار على التشبث بمدينته بعد أن كان مستعدا لتسليمها ، وأخذ بدلا منها ، ثم جاء الى الملك العادل رسول الخليفة الناصر فوبخ العادل على طمعه مما جعله يعقد الصلح ويكتفي بالخابور ونصيبين ويعود الى سورية

مظفر الدين والملك العادل

وكان صاحب إربيل مظفر الدين وقتئذ في الموصل فقام بتزويج ابنتيه الى ابني نور الدين وهما عز الدين مسعود وعماد الدين زنكي ، على أنه فيما سلف ، كان مظفر الدين يساند أصحابه العادل ، لكن الحال تغيرت بعد أن ارسل اليه صاحب سنجار ابنه راجيا أن يراجع العادل ليدعه في مركزه ، فكتب اليه في هذا الشأن وكله ثقة أن طلبه لن يخيب عند العادل مهما كان ولكن العادل غض طرفا عن طلبه مما دعا مظفر الدين أن يرتاب وينضم الى نور الدين على الرغم من المشادة التي كانت بينهما ...

وفاة نور الدين ارسلان

وفي السنة ذاتها توفي صاحب الموصل نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن موبود بن زنكي بن آق سنقر ، وكان قويا عادلا تخافه رعيته ، وسلاطين عصره ، ولما حانت وفاته استحلف زعماءه من أجل ابنه الكبير الملك القاهر عز الدين مسعود ، وولى ابنه الصغير عماد الدين زنكي قلعتي العقير وشوش مع اصقاعهما ، وجعل لهما وصيا مملوكه (بدر الدين لؤلؤ) وكان رجلا حكيما ذا هيبة يستحق هذا المنصب، وعندما استفحل المرض على نور الدين اقترح عليه الأطباء ان يسبح في عين دير القديس زينا في سواحل دجلة (٣٢)

- ٢٤٠٤ -

فذهب مع بدر الدين وسبح هناك الا انه لم يستفد من ذلك اذ كان مرضه مميتا ، وماكاد بدر الدين يركبه في السفينة ليرجعه الى الموصل حتى سبقته المنية وكان معهما مملوكان فحسب ، فحملوه في الليل الى بيته دون اشعار احد ، وبقي بدر الدين طوال النهار مشغولا بتصريف الأمور الضرورية حتى الساعة التاسعة وعندها اعلن نبأ وفاته ، فشيعوه ليلا ودفنوه في قبر اعد من قبل تجاه منزله ، وخلفه ابنه الملك القاهر ، وامست ازمة أمور الولاية بيد بدر الدين.

وفي عامي ٦٠٨ - ٦٠٩ للعرب (١٢١٢ - ١٢١٣ م) لم نجد اي خبر هو أهل لأن يذكر

الحواشي والهوامش

- حواشي المؤرخ الرهاوي المجهول .
- ١ - أي السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م) .
 - ٢ - أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه أحمد بن بدر الجمالي ثاني الملوك الأرمن الذين تحكموا بالخلافة الفاطمية في مصر ، اغتيل سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م .
 - ٣ - من كبار قادة التركمان الذين دخلوا الشام ، تعاون مع تقيش بن ألب أرسلان صاحب دمشق ، واستقر لفترة في القدس ، وبعد استرداد الفاطميين للقدس ، ترك الشام إلى الجزيرة حيث أسس أولاده عددا من الإمارات ، وكان تاريخ الإمارات الارتقية موضوع أطروحة للدكتور عماد الدين خليل ، نشرت في بيروت ١٩٨٠ .
 - ٤ - أي الخلافة الفاطمية مع من دان لها بالطاعة والولاء
 - ٥ - الرها هي إديسا في السريانية ، وهي أورفا الحالية داخل الأراضي التركية مقابل الحدود السورية ، تمتعت بمكانة تاريخية كبيرة ، ويشير المؤرخ هنا إلى حملة السلطان ألب أرسلان عليها ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م . انظر كتابي « منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ط دمشق ١٩٧٥ من ١٤٠٠ - ١٤١٠ .
 - ٦ - يريد به الامبراطور البيزنطي
 - ٧ - حول أولى التفاصيل عن علاقات الامبراطور الكسديوس بقيادة الحملة الأولى انظر ماكتبته الاميرة أنا كومينا
 - ٨ - فراغ بالأصل السرياني المخطوط
 - ٩ - يشير هنا إلى ما حل بالقوات التي قادها بطرس الناسك .
 - ١٠ - كانت بيقية غير بعيدة عن القسطنطينية ، وكانت حاضرة دولة سلاجقة الروم ، انظر حول سقوطها وما جرى من مشاكل تاريخ الحروب الصليبية تأليف ستيفن رنسمان - ترجمة عربية ط ٠ بيروت ١٩٦٧ ، ١ / ٢٤٩ - ٢٥٩ .
 - ١١ - دخل في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م السلطان ملكشاه مدينة أنطاكية حيث ألحقها بأملاكه ، وقبل معادرتة لها عين واحدا من ضباطه واسمه يغي سيان ، وهو الذي حاول التصدي للحملة الأولى انظر كتابي منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ٢٠٤ - ٢٠٥ ، ٢٣٧ - ٢٤٢
 - ١٢ - الحقيقة أن هذا حدث قبل وصول الحملة إلى أنطاكية انظر رنسمان ١ / ٢٨٧ - ٢٩١ .
 - ١٣ - بياض بالأصل .
 - ١٤ - انظر كتابي منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ٢٣٧ - ٢٤٢
 - ١٥ - انظر المصدر السابق
 - ١٦ - حدث خلاف بين الفرنجة حول أنطاكية وادارتها انتهى بتولية بوهيموند - انظر رنسمان ١ / ٣٣٥ - ٣٣٦
 - ١٧ - بلدة قريبة من حراس من نيار مضر - معجم البلدان
 - ١٨ - تبعد عن البيرة قليلا إلى الشمال ، والبيرة عند ياقوت في معجم بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية ، وهي قلعة حصينة ، ولها رستاق واسع .
 - ١٩ - قرية مستطيلة من أعمال سميساط ، ولها عرض صالح ، وفيها سوق ودكاكين وافر وفيها حصص كبير على قلعة . معجم البلدان .

- ٢٤٠٦ -

- ٢٠ - مدينة بالثفور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدوبة في العواصم ، وهي قلعة تحت جبل . معجم البلدان .
- ٢١ - كذا والأصح : سليمان بن ملك غازي ، كمشتكين بن ناذشمند .
- ٢٢ - مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن . معجم البلدان .
- ٢٣ - مرعش مدينة في الثفور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق ، والجبل الأسود قريب منها - معجم البلدان .
- ٢٤ - عين زربة بلد بالثفور الشامية من ناحية المضيفة - معجم البلدان .
- ٢٥ - ما تزال معروفة بهذا الاسم في الجنوب الغربي من تركيا على مقربة من الأراضي السورية .
- ٢٦ - هي أضنة حالياً داخل الأراضي التركية على مقربة من الحدود السورية .
- ٢٧ - كذا أي (١١٠٢ م) وهو خطأ والمفروض أن يقول : ١٤٠٦ ، أي ١٠٩٩ م ، ثم القدس لم تسلم بل سقطت عسكرياً واقتحمت اقتحاماً وتم قتل كل من كان فيها . انظر النصوص المقبلة ، هذا ويلاحظ أن سمة الاختصار واضحة هنا .
- ٢٨ - كان لقيام مملكة القدس أهمية قصوى في تاريخ الحروب الصليبية ، فقد عدت أكبر ممالك الفرنجة في الشرق ، وهددت بنشاطاتها كل من دمشق ومصر ، وظلت هكذا حتى سقطت لصالح الدين إثر معركة حطين .
- ٢٩ - بني الحصن المذكور على تلة واقعة على الضفة اليسرى لنهر قابيشا كانت تعرف باسم تلة الحجاج ، واسمها الآن تلة أبي سمرة . انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي للدكتور سيد عبد العزيز سالم ط الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٨٨ - ٩٥ .
- ٣٠ - كذا ومرت أعمال حصار طرابلس بعدة مراحل ، وسقطت لبرتراند بن صنجيل سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ٨٨ - ١٢١ .
- ٣١ - انظر زينة حلب ٢٠ / ١٤٣ - ١٥١ .
- ٣٢ - انظر زينة حلب ٢٠ / ٢١٠ .
- ٣٣ - عين السلطان ملكشاه بوزان في منصبه ، وقد قتل بوزان من قبل قتش بن الب أرسلان ، انظر كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٠٤
- ٣٤ - كان هذا سنة ٤٩٦ هـ / ١١٠٠ م . انظر زينة حلب ٢٠ / ١٤٥ .
- ٣٥ - كذا ويعتمد في هذا المقام ما جاء في النصوص الاغريقية واللاتينية والعربية
- ٣٦ - هو وليم التاسع صاحب بوتو .
- ٣٧ - يعرف الآن باسم تل باجر في محافظة حلب .
- ٣٨ - مقدر أنها سقطت سنة ١١٠٣ م ، وقد تعرض ابن العبري لهذه الحادثة في تاريخه الكبير بالسرانية ، انظر الترجمة الانكليزية ص ٤٦٣ .
- ٣٩ - ذكر ياقوت سروج وقال عنها هي بلدة قريبة من حران من بيار مضر ، هي الآن داخل الحدود التركية قريبة من الأراضي السورية .
- ٤٠ - سيرد ذكر تلك مرارا في نصوص كتابنا هذا ، وهو دور الدولة بلك بن بهرام بن ارتق مات سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م امام اسوار منبج .
- ٤١ - توفي سكمان سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م . انظر حوله الامارات الاردنية في الجزيرة والشام لعبد البين خليل ط بيروت ١٩٨٠ ص : ٢٠٦ - ٢١٩ .
- ٤٢ - كان هذا سنة ١١٠١ م
- ٤٣ - في الاصل قريوقاد ، وهو تصحيف زاد به الناسخ حرف « الدال » .
- ٤٤ - هو شمس الدين جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر . انظر الكامل لابن الاثير ٨٠ / ٢١٠ .
- ٤٥ - لم يتحدث مصدر آخر عن هذه الغارة التي قام بها جكرمش على الرها ، ولعل هذه العملية جاءت مقدمة لمعركة البليخ سنة ١١٠٥ م .

- ٢٤٠٧ -

- ٤٦ - كركر حصن بين سمسياط وحصن زياد - خرتبرت أو خربوط - معجم البلدان .
- ٤٧ - هو قسطنطين عند ابن العبري .
- ٤٨ - أي سنة ١١٠٧ م .
- ٤٩ - رأس عين الخليل عند نبع نهر البليخ حاليا .
- ٥٠ - في السابع من ليار ١١٠٤ م .
- ٥١ - اعتمد الفرنجة على الفرسان الثقيل ، بينما اعتمد التركمان على الفرسان النبالة ، وكان يسندون رمياتهم على مطايا الفرسان الفرنجة ، لهذا عمدوا إلى استخدام ستارة من الرجال ، وقام تكتيك التركمان الآن على فصل المشاة عن الفرسان والايقاع بكل قوة على حدة ، وأحيل القاريء هنا على التفاصيل التي أورنتها في كتابي « حطين - مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس » ط . دمشق ١٩٨٤ .
- ٥٢ - ذكر ابن العديم هذه الحادثة بين وقائع سنة ٥١٧ هـ ، انظر زبدة الحلب . ٢ / ٢١٠ - ٢١١ ، وأيضا ذكرها ابن القلاسي . ٢٣٢ ، وعنده وقعت المعركة قرب قنطرة سنجة ، وفي معجم البلدان : سنجة نهر عظيم لا يتهيا خوضه لأن قراره رمل سيال كلما وطئه انسان برجله سال به فغرقه ، وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر ، وعلى هذا النهر قنطرة عظيمة هي إحدى عجائب الدنيا ، وهي طاق واحد من الشط إلى الشط .
- ٥٣ - هو ابن أخ لبوهيموند .
- ٥٤ - نجم الدولة سالم بن مالك العقيلي ، أول من تسلم قلعة جعبر توفي سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م انظر ترجمته في كتابي منخل الى تاريخ الحروب الصليبية . ٤٠٥ - ٤٠٧ .
- ٥٥ - نسبة إلى ميخائيل امبراطور بيزنطة .
- ٥٦ - جاولي سقاوة أقطعة السلطان السلجوقي محمد الموصل في محرم سنة ٥٠٠ هـ انظر الكامل لابن الاثير . ٨ / ٢٣٨ - ٢٣٩ .
- ٥٧ - سنة ١١٠٨ م .
- ٥٨ - في الاصل بين كيرهان ودليك ، والقرية الاولى هي بالعربية كلز ، ذكرها ياقوت وبيّن أنها قرية « من نواحي عزاز بين حلب وأنطاكية ، ودلوك عند ياقوت » ، بلدة من نواحي حلب بالعواصم ، وهي تقع بين كلز وعين تاب .
- ٥٩ - بدأ الحصار في شهر أيار ١١١٠ ، وكان هناك باب في الرها يدعى باب كاساس .
- ٦٠ - كان رجال الفرنجة خاصة الفرسان منهم هواة حرب ، يندفعون إلى المعركة بشكل جنوني دونما مراعاة للنظام والعمل الجماعي ، فجندهم تشكل من مجموعات اقطاعية ، وكان الفارس من بينهم ما أن يمتطي حصانه ويتقلد رمحه حتى يحرك مطيته ويندفع نحو خصومه بشكل صاعق ، وهنا توجب على خصوم الفرنجة الابتعاد من طريقهم حتى تتبدد طاقات الهجوم ، وخير من تنبه لهذا الموضوع وعالجه في المعصور الوسطى الامبراطور البيزنطي ليون في كتابه حول التكتيك حيث يقول « يعتقد الفرنجي أن الانسحاب عملا غير مشرف مهما كانت الظروف ، وهو مستعد للقتال متى ما عرضت عليه ذلك ، لذلك يتوجب عليك ألا تشتبك به حتى تضمن لذهباك جميع أسباب النجاح ، فالفارس الفرنجي ينقض كالصاعقة ورمحه الطويل مسلط وبيده ترسه الطويل ، وهنا عليك أن تتحاماها ، وإذا أمكن استدرجه نحو الأماكن المرتفعة ، فالفارس الفرنجي أقل فعالية في الهضاب منه في المنبسطات ، وإذا ما عسكرت أمامك جيوش للفرنجة طاولها ولا تشتبك معها ، فقد يمل جندها خلال اسابيع ويركب كل جندي مطيته وينطلق عائدا نحو موطنه ... إنك ستجد الفرنجة لا يعتنون بالحراسة والاستطلاع ، لهذا سيكون من السهل عليك الايقاع ببعض فئاتهم عن طريق الكمائن أو مهاجمة معسكراتهم ، ولا تعرف قوات الفرنجة أي نوع من الانظمة وكل ما يربطهم لا يتعدى يمين الولاء ، والفرنجة يفرقون عادة في لجة من الفوضى فدور شروعهم بالحملة على خصومهم ، وعليك هنا التظاهر بالفرار (الفر) ثم الارتداد عليهم ، ومهما يكن الحال إنك ستجد على العموم من الاسهل والاقل كلفة اتعاب قوات الفرنجة وانها كما بالمناسبات والعمليات

- ٢٤٠٨ -

الدفاعية ، ومن ثم محاولة تدميرها بضرية حاسمة ، . انظر تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى
تأليف أومان - ط . نيويورك ١٩٥٣ ص ٣٤ (بالانكليزية) .

٦١ - هذا هو الحصار الثاني للرها من نيسان حتى حزيران لسنة ١١١٢ .

٦٢ - سنة ١١١٣ م .

٦٣ - جرى اغتياله في مسجد دمشق في يوم الجمعة الأخيرة من ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ / ١٥
تشرين الأول ١١١٣ م وكان مقتاله من الحشيشية ، ولربما كان لكل من رضوان بن تددش وطفتكين
دور في ذلك . انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي : ٢٩٨ - ٩٩ ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية :
٢٤٧ - ٢٤٨ .

٦٤ - في كانون أول عام ١١١٣ م .

٦٥ - كان هذا سنة ٥١١ هـ / ١١١٨ م . انظر زينة الحلب . ٢ / ١٨١ - ١٨٦ .

٦٦ - هي مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم ، معجم البلدان .

٦٧ - كان هذا سنة ١١١٣ م .

٦٨ - ١٠ كانون أول سنة ١١١٣ ، انظر ترجمته بين نصوص كتابنا هذا .

٦٩ - سنة ١١١٤ م ، وللبرسقي ترجمة مطولة بين نصوص كتابنا هذا .

٧٠ - في أيلول سنة ١١١٥ م ، وكان قائد المسلمين في هذه السنة برسق بن برسق انظر الكامل :
٨ / ٢٧١ - ٢٧٢ .

٧١ - ذكرها ياقوت في معجمه وقال عنها : بلد قرب سديسات بين حلب والثغور الرومية ، وهي
قلعة حصينة ، ولها رستاق واسع .

٧٢ - أي سنة ١١١٨ م .

٧٣ - أراد امتلاك مصر ، بلغ حتى قنيس ، وسبح في النيل وانتفض جرح كان به ، ابن الاثير :
٨ / ٢٨٤ .

٧٤ - هنزيط عند ياقوت من الثغور الرومية ، وخرتبرت اسم أرمني لحصن زياد في أقصى نيار بكر
، بينه وبين ملطية مسيرة يومين ، وبينهما الفرات ، معجم البلدان

٧٥ - معروفة حتى الآن بهذا الاسم من أعمال حلب .

٧٦ - أي عام ١١١٩ م .

٧٧ - سنة ٥١٢ هـ / ١١١٩ م . انظر تاريخ دمشق : ٣١٩ - ٣٢٠ ، الكامل لابن الاثير :
٨ / ٢٨٨ - ٢٨٩ . زينة الحلب : ٢ / ١٨٧ - ١٩٠ ، الامارات الارتقية : ٢٤٣ .

٧٨ - كان هذا في آب سنة ١١١٩ م .

٧٩ - في سنة ١١٢٠ .

٨٠ - في أيار سنة ١١٢٠ م .

٨١ - كنا في الاصل ، والمقصود هنا الكرج ، لكن المؤلف استخدم هذا المصطلح على أساس
خضوع شعوب ما وراء أرمينية سابقا إلى امبراطورية الخزر التي اعتنق ملوكها اليهودية ، وقد
أتى المؤرخون المسلمون على ذكر هذه الواقعة وأفضل تفاصيل حولها في الجزء غير المنشور من
تاريخ ميافارقين ، وقد أثبت رواية هذا الكتاب في حاشية تاريخ دمشق لابن القلانسي :
٣٢٦ - ٣٢٨ فلتنظر .

٨٢ - انظر تاريخ دمشق : ٣٣٠ - ٣٣١ حيث - في الحاشية - رواية صاحب تاريخ ميافارقين .

٨٣ - جرى حذف هنا فقرتين تختصان بالشؤون الاغريقية .

٨٤ - المشار إليه هنا قلج أرسلان الاول من سلاجقة الروم

٨٥ - كانون أول عام ١١٢٤ م .

٨٦ - قرب بحيرة وان في تركيا حاليا مازال تحمل الاسم نفسه.

٨٧ - آب ١١٢٣ م .

- ٢٤٠٩ -

- ٨٨ - في زينة الحلب ٢ / ٢١٣ . وسيرهم الى حران وحبسهم بها .
٨٩ - من المفيد مقارنة معلومات المؤرخ المجهول مع ما أورده ابن العديم في زينة الحلب ٢ / ٢١٤ - ٢١٥ .
٩٠ - عام ١١٢٤ م
٩١ - إن ما أورده ابن العديم في زينة الحلب ٢ / ٢١٦ - ٢١٩ حول ملابسات مصرع تلك أوضح وأكثر تفصيلا
٩٢ - من المفيد العودة الى رواية ابن القلانسي بين نصوص كتابنا هذا ، وكان هذا كله عام ١١٢٤ م .
٩٣ - ذكر ابن العديم في الزينة ٢ / ٢١٧ أن تلك نقل الاسرى من سجن حران إلى سجن حلب
٩٤ - نحيل القارئ هنا على ترجمة البرسقي بين نصوص كتابنا هذا ، انظر ايضا زينة الحلب ٢ / ٢٣٥ ، هذا ويلاحظ أن الفقرة وضعت في غير مكانها فقد توجب تأخيرها إلى ما بعد الحديث عن حصار حلب .
٩٦ - كما ويمزح المؤلف هنا بين وفاة أق سندر البرسقي التي سبق له أن ذكرها وبين وفاة ابنة مسعود في الرحبة ، انظر زينة الحلب ٢ / ٢٣٦ - ٢٣٧
٩٧ - نهاية عام ١١٢٦ م .
٩٨ - ذكرها ياقوت فقال عنها : « قرية كبيرة جامعة من نواحي حلب ، وفي منطقة جرابلس التابعة الآن لمحافظة حلب قرية اسمها أعرن »
٩٩ - الياغسياني من كبار رجال دولة زنكي ، له ذكر كبير أيامه وفي أيام نور الدين من بعده
١٠٠ - هذا وهم فقد مات مسعود صاحب أصفهان سنة ١١٥٢ ، ولم يتسلم أخوه سليمان السلطة إلا عام ١١٥٩ .
١٠١ - أي السن عند ملتقى الزاب الأدنى بنهر الفرات ، وكان ذلك سنة ١١٢٩ م .
١٠٢ - عملية الحصار تمت ضد رمنية (أو بعرين أو بارين) وليس ضد حصن الأكراد ، انظر الباهر في الدولة الاتاكية لابن الأثير ٥٩٠ - ٦١
١٠٣ - لعل ذلك كان ١١٢٦ م
١٠٤ - عين الدولة بن غازي ، وقد أولد فرعا من فروع أسرة الدانشمند في ملاطية توفي سنة ١١٥١ م .
١٠٥ - أي الثغر ، وهي تسمية أطلقت في المشرق على الأراضي المجاورة للأراضي البيزنطية
١٠٦ - جيش السلطان مسعود ، سلطان قونية سنة ١١٣٧ م .
١٠٧ - عام ١١٣٨ م .
١٠٨ - العام نفسه ١١٣٨ م .
١٠٩ - الياغسياني .
١١٠ - هو محمد بن ديبس ، ذلك أن ديبس سبق أن قتل عام ١١٢٩ .
١١١ - كان هذا هو المطران المسؤول .
١١٢ - هو جعفر بن يعقوب ، انظر تفاصيل المؤامرة في الموصل في الباهر ٧١ - ٧٢ ، تاريخ دمشق لابن القلانسي ٤٣٧٠ - ٤٤٠ .
١١٣ - حذف هنا قصة البئر .
١١٤ - اقليم ميديا هو اقليم الجبل عند العرب ، وقاعدته همذان
١١٥ - نهر مراد هو شرقي الفرات .
١١٦ - في أراضي مستنقعات العمق شرقي نقطة اتصال قره صوبها ، بجوار دربساك ، ويلاحظ أن المؤرخين العرب - فيما عدا ابن القلانسي - يجعلون هذه المعركة نصرا لنور الدين . انظر تاريخ دمشق : ٤٧٠ ، زينة الحلب : ٢ / ٢٩٢ - ٢٩٣ . الكامل لابن الأثير : ٩ / ٣٢ ، الروضتين : ١ / ٥٥ . الكواكب الدرية في السيرة النورية لابن قاضي شهبه : ١٣٠ .

- ٢٤١٠ -

- ١١٧ - ترد في بعض النصوص شيخ النير ، وهي الآن قرية كردية اسمها شادر . انظر زبدة الحلب : ٢ / ١٢٥ .
- ١١٨ - يحسن مقارنة هذه الرواية بما أورده ابن العديم في زبدة الحلب : ٢ / ٣٠٢ - ٣٠٣ .
- ١١٩ - كذا والاسم الصحيح رينالد أوف شاتيلون (أرناط) ، وقد تزوج في عام ١١٥٣ من كوندستازس ابنة بوهيموند ، أرملة ريموند بواتيو (بيتايين) .
- انظر تاريخ وليم الصوري (ترجمة انكليزية) : ٢ / ١٩٨ - ٢٠٠ . ابن القلانسي :
- ٣٧٢ - ٣٧٣ . الباهر لابن الأثير : ٩٨ - ١٠٠ .
- ١٢٠ - هو بوهيموند الثالث ابن ريموند بواتيو .
- ١٢١ - في الاصل أرند وهو الرسم الأرمني لرينالد .
- ١٢٢ - من أجل تفاصيل موازية انظر الباهر : ١٢٢ - ٣١ ب . زبدة الحلب : ٢٠ / ٣١٨ - ٣٢١ والمراد ببانياس هنا بانياس دمشق .
- ١٢٣ - مقارنة عامة مع مواد تاريخ ابن العبري المطول بالسريانية اعتمسدا على الترجمة الانكليزية .
- ١٢٤ - لم يستعمل ابن العبري كتاب المؤرخ المجهول ، فهو يتحدث عن الرشوة التي أعطيت الى ملك القدس على يد أهالي دمشق ، ويضيف إنني لم أجد هذه الرواية في خمسة كتب عربية مختلفة ، ولكن وجدتھا في كتاب ميخائيل فقط ، وحتى عندما يتفق مع ما قاله المؤرخ السرياني المجهول نراه يضيف تفاصيل .

حوادث ميخائيل السوري .

- ١ - كنا بالأصل وتضبط المدد والتواريخ وتصحح على ما جاء بالأصول الأخرى المعتمدة خاصة رواية لنا كرمينا والمؤرخ الفرنجي المجهول صاحب اليوميات حول الحملة الأولى .
- ٢ - كتب مترجم أو ناسخ مخطوطة صند هذه الحاشية . . فدان أرام اليوم اسمها عين العروس ، وهي قبلي حران بأربع ساعات ، ونهر بليخا يطلع منها ويسمونه البليخ ، وفي وسط الماء يصير زهر أصفر اسمه نيلوفر .
- ٣ - مزج المصنف هنا بينهم وبين الاستبارية .
- ٤ - كنا وهو وهم ضوابة ايلغازي بن أرتق .
- ٥ - هو فخر الدولة أبو المظفر بن نظام الملك ، اغتيل عام ٥٠٠ ، انظر المنتظم لابن العسكري . ١٤٨ / ٩ .
- ٦ - في ابن الأثير : ٢٤٨ / ٨ - حوادث ٥٠١ - . وعبر عسكر السلطان بجلة ولم يعبر هو فصاروا مع صدقة على أرض واحدة بينهما نهر . . وفي مرلة الزمان - ط . حيدرآباد ١٩٥١ : ١ / ١٦ . وفي موضع يقال له يغانيا .
- ٧ - نقل السوري هذه الأخبار بإيجاز وتناخل ، وأمكن التقويم على ما أورده ابن الأثير في الكامل . ٢٦١ / ٨ (حوادث سنة أربع وخمسمائة) حيث التشابه كبير .
- ٨ - هو سكران القطبي ولمزيد من التفاصيل انظر تاريخ دمشق لابن القلاذسي . ط . دمشق ١٩٨٣ ص ٢٧٩ - ٢٨١ .
- ٩ - اغتيل سنة ٥٠٧ - انظر ابن القلاذسي . ٢٩٨ - ٢٩٩ .
- ١٠ - لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الأثير ٢٦٨ / ٨ - ٢٦٩ - حوادث سنة ثمان وخمسمائة
- ١١ - انظر لمزيد من التفاصيل ابن الأثير : ٢٦٦ / ٨ - ٣٠٨ ، وكانت وفاة ايلغازي سنة ٥١٦ هـ .
- ١٢ - تساوي سنة ١٤٣٦ يونانية سنة ١١٢٥ م ، وكان المستظهر قد توفي سنة ١١١٨ م .
- ١٣ - كنا بالأصل وكان صدقة قد قتل سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م وخلفه ابن بيبس بن صدقة وهو المقصود هنا .
- ١٤ - كنا والصحيح الموصل ، وحدث هنا كما أسلفنا سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، ويلاحظ قلة الدقة لدى السرياني في ضبط تواريخ الأحداث .
- ١٥ - لا تتوافق تفاصيل هذه الرواية مع ما أورده ابن الأثير في الكامل ٨٠ / ٣٢٤ - حوادث سنة ٥٢١ هـ -
- ١٦ - يلاحظ أن السرياني يكرر رواياته .
- ١٧ - هذه الرواية تنقصها الدقة والتفصيل قارتها برواية زينة حلب ٢٠ / ٢٤١ - ٢٤٢ .
- ١٨ - لم يوضح السرياني اسم هذه القلعة أو اسم صاحبها ، ومعلوم أن زنكي قد تزوج من ابنة رضوان بن تقيش ، وكان رضوان صاحب قلعة حلب .
- ١٩ - أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني ، وتفاصيل الواقعة رواها ابن القلاذسي في تاريخ دمشق ٣٥٠ - ٣٥٦ وحدث ذلك سنة ٥٢٢ هـ ، وفي هذا مثال جسيدي على عدم تفيد السرياني بـدقة التواريخ .
- ٢٠ - لا يمكن الركوب إلى هذه الرواية لأن حيث التفاصيل ولأن حيث التاريخ قارن للتدقيق الكامل لابن الأثير : ٨ / ٣٥٦ - ٣٥٧ . ابن القلاذسي : ٤٨ . انعاض الحنفيا للمقريزي . ١٥٥ / ٣ - ١٦١ .
- ٢١ - لمزيد من التفاصيل والضبط انظر الباهر لابن الأثير فيمايلي بين نصوص موسوعتنا .
- ٢٢ - تضبط هذه الرواية على ترجمة بيبس بن صدقة في كتابنا هذا وعلى ما أورث ابن القزويني . ٣٦٦ - ٣٦٨ .

- ٢٣ - انظر الباهر أيضا
- ٢٤ - لمزيد من التفاصيل والضبط انظر ابن القلاسي : ٤٠٨ - ٤١٠ . والباهر أيضا .
- ٢٥ - كان بظاهر مدينة بيار بكر ، قامت مكانه قرية يقال لها قره كليسيا . انظر اللؤلؤ المنثور
لاغنا طيوس افرام الاول . ط . دمشق ١٩٨٧ ص ٥١٣ .
- ٢٦ - بلدة دائرة كان موقعها الشمالي بيعة جيل (البيعة) على نهر فرزمان أحد فروع نهر الفرات
ويقال له موزيمان . اللؤلؤ المنثور : ٥١٧ .
- ٢٧ - حدث هذا سنة ٥٣٣ / ١١٣٩ . انظر التفاصيل عند ابن القلاسي ٤٢١ - ٤٢٢ .
- ٢٨ - إلى الشمال الشرقي من مارين على بعد مرحلة منها اللؤلؤ المنثور ٥١٧
- ٢٩ - اشار ابن الاثير في الباهر إلى نشاط زنكي في بيار بكر سنة ٥٣٨ وأرضع انه فتح عدة بلاد
منها . مدينة طنزة وأسعد ، وملك مدينة المعين الذي يعمل منه النحاس من أرمينية ومدينة حيران
وملك أيضا حصن الزوق وحصن فلطيس وحصن باتاسا ، حصن ذي القرنين ، وورد هذه الاسماء
في الكامل : ٧ / ٩ بشكل مخالف ، فتعذر على هذا امكانية ضبط الاسماء هذه .
- ٣٠ - وهذه البابا أنوسنت الذي جاء بعد هونيروس انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري
بترجمتي - ط بيروت ١٩٩٠ ٢٠ / ٧١٦ - ٧٢١ .
- ٣١ - في أرض كرر - هذا ما أوضحه المؤرخ السرياني الجهول .
- ٣٢ - إلى الجنوب من جبل سمعان . اللؤلؤ المنثور ٥١٠ .
- ٣٣ - أشهر بيرة طور عبين . اللؤلؤ المنثور ٥١٢ .
- ٣٤ - طور عبين جبل مشرف على نصيبين ، وكورة كثيرة الزيرة والصوامع قصبتها بلدة
مزيات . اللؤلؤ المنثور ٥١٧ .
- ٣٥ - كونراد ملك النمسا ، وانظر المزيد من التفاصيل في النصوص المقبلة
- ٣٦ - لويس السابع ١١٣٣ - ١١٨١ .
- ٣٧ - مدينة في نواحي ملطية اللؤلؤ المنثور ٥١٨ ، وأرجح انها قلوونية ، وقلونية اسم حصن كان
يقرب ملطية - المرجع نفسه ص ٥١٨ .
- ٣٨ - عند ابن العبري : زوجته
- ٣٩ - سقط في مطلع الخبر .
- ٤٠ - سقط بالأصل ألم بمطلع رواية الاتفاق بين عموري ملك القدس وشاور
- ٤١ - عز الدولة نصر بن نيسان انظر خبره في قطعة اخبار الاراتقة من تاريخ ميافارقين لابن
الازرق ، واكل من قرن مارين معجم البلدان
- ٤٢ - سقط بالأصل .
- ٤٣ - من المدهش صدور هذا كله عن ميخائيل السوري ، والمثير هنا ليس تعصبه بقدر جهله
بالاسلام وعزوه أشياء الى القرن الكريم والصاق دعوى النبوة بنور الدين .
- ٤٤ - سقط بالأصل .
- ٤٥ - أي رئيس الشمامسة
- ٤٦ - سقط بالأصل
- ٧ - أي كونت فلاندر انظر تفاصيل الخبر في تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ،
ترجمتي - ط بيروت ١٩٩٠ ٢٠ ص ١٠٠٥ - ١٠٠٧
- ٤٨ - انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصوري ج ٢ ص ١٠٠٧ - ١٠٠٨ .
- ٤٩ - ترجم له صاحب اللؤلؤ المنثور ص ٣٢٩ - ٣٣١ وأوصح انه توفي سنة ٨١٧ م .
- ٥٠ - أرزون مدينة كبيرة كانت على مقربة من بدليس اللؤلؤ المنثور ٥٠٤
- ٥١ - في جبل سنجار . اللؤلؤ المنثور ٥١٠
- ٥٢ - انظر ترجمته في اللؤلؤ المنثور ٣٨٢ - ٣٩١
- ٥٣ - مجلد أو مجموع عام يتضمن صلوات وأدعية .

- ٢٤١٣ -

- ٥٤ - لمزيد من الايضاح انظر اللؤلؤ المنثور ٤٩٤ - ٣٩٧ .
- ٥٥ - بظاهر مدينة بيار بكر مسيرة ساعة ونصف الساعة عنها ، اطلالة الآن قرب قرية تدعى قره كلسيا . اللؤلؤ المنثور ٥١٣
- ٥٦ - للتدقيق الزمني لهذه الهزيمة التي ادقها قلع ارسلان بالامبراطور مديول ولمزيد من التفاصيل انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصدوري ٩٨٧ - ٩٨٨ .
- ٥٧ - بقرب قل موزل . اللؤلؤ المنثور ٥١٢
- ٥٨ - على مقربة من قل غرب اللؤلؤ المنثور ٥٠٥
- ٥٩ - تحدثت المصادر العربية عن صراع مع سيف الدين يكتمر صاحب خلاط وعن انتزاع تقي الدين لمدينة حاني انظر الكامل لابن الاثير ٩ / ٢١٢ - ٢١٣ (حوادث سنة ٥٨٧ هـ) مفرح الكروب: ٢ / ٣٧٥ ، ٣٧٦

حواشي تاريخ ابن العربي:

- ١ - كذا بالأصل ، وكان الفرنجة قد استولوا على طرسوس والمصيصة وأذنة قبل الاستيلاء على أنطاكية ولعل هناك تصحيف صدوابه . طرسوس وبانياس واللاذقية .
- ٢ - لم يحتلها هو بل ابنه بتراند في سنة ٥٠٢ هـ . انظر طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي للسيد عبد العزيز سالم . ط . الاسكندرية ١٩٦٧ ص ١١٣ ، ١٢٣ .
- ٣ - في الموصل .
- ٤ - بلد غناء بين حلب وأنطاكية . معجم البلدان .
- ٥ - كان أبو الفرح الملقب من أتباع المؤمنين بالطبيعة الواحدة ، مثله مثل برصوم هذا ، وكان المجمع الخلقيدوني المسكوني المنعقد عام ٤٥١ م . بحضور ستمائة وستة وثلاثين أسقفا قد أصدر أمرا بحرمان برصوما .
- ٦ - بلدة في كورة كركر (جرجر) إلى الجذب الغربي من نيار بكر وبينهما يومان الأولؤ المنثور : ٥١٧ .
- ٧ - كان على ضفة الفرات اليمنى يقرب كركر . الأولؤ المنثور ص ٥٠٧ .
- ٨ - مدينة في نواحي ملطية . الأولؤ المنثور : ٥١٨ .
- ٩ - بلد من نواحي نيار ربيعة ثم من شبختان شمالي غربي مارين - الأولؤ المنثور : ٥٠٥ .
- ١٠ - قلعة وبليدة شمالي ميفارقين . الأولؤ المنثور . ٥٢٠ .
- ١١ - على ضفة الفرات بالقرب من خريوط (حصن زياد) الأولؤ المنثور . ٥٠٥ .
- ١٢ - كونراد ملك الألمان وامبراطورهم .
- ١٣ - لويس السابع (١١٣٣ - ١١٨١) .
- ١٤ - من أنيرة كورة مرعش . الأولؤ المنثور : ٥١٣ .
- ١٥ - جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني وزير الأتابكة بالموصل . انظر الباهر لابن الأثير . ١١٨ .
- ١١٦ - انظر حول نسب الاسرة الايوبية كتاب شفاء القلوب في مناقب بني ايوب لأحمد بن ابراهيم الحنبلي ط بغداد ١٩٧٨ ص ٢١ - ٢٣ .
- ١٧ - أنى قلعة حصينة ، ومدينة بأرض أرمنية بين خلاط وكنجة . معجم البلدان .
- ١٨ - انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصدوري ٢٠ ص ١٠٠٨ - ١٠١١ .
- ١٩ - فرقة من الجند التركمان .
- ٢٠ - لمزيد من التفاصيل انظر تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصدوري : ١٠٣٠ - ١٠٣٦ . ونصوصنا المقبلة عن الحملة الرابعة
- ٢١ - تل بسمة بلدة في نواحي نيار ربيعة على مقربة من شبختان شمالي غربي مارين . الأولؤ المنثور . ٥٠٥ .
- ٢٢ - ايزابيل أخت بلدوين الرابع ووالدة بلدوين الخامس تزوجت بفي لوزنغنان وجعلت منه مالكا على القدس . انظر تفاصيل ذلك في تاريخ الحروب الصليبية لوليم الصدوري ص ١٠٧٢ - ١٠٧٦ .
- ٢٣ - هذا وهم فزوجة ريموند صاحب طرابلس هي التي كانت في طبرية .
- ٢٤ - هذا الظن قائم على وهم ، انظر ماسياتي من مواد عن الحملة الثالثة ، لاسيما نيل تاريخ ولیم الصدوري .
- ٢٥ - لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الأثير ٩ / ٢٢٢ - ٢٢٣ - حوادث سنة ٥٨٨ هـ
- ٢٦ - لمزيد من التفاصيل انظر الكامل لابن الأثير ٩ / ٢٢٨ - ٢٢٩ (حوادث سنة ٥٨٩) .
- ٢٧ - انظر الكامل لابن الأثير : ٩ / ٢٢٨ - حوادث سنة ٥٨٩ .
- ٢٨ - أي المستشار الألماني . انظر ما سيأتي حول الحملة الثالثة .
- ٢٩ - جنوبي مارين بينهما فرسخان ، كانت فيما مضى مدينة عظيمة أما هي الآن فمجرد قرية اسمها قوح حصار . الأولؤ المنثور . ٥١٦

- ٢٤١٥ -

٣٠ - أي جزيرة ابن عمر .

٣١ - في الكامل لابن الأثير : ٩ / ٣٠٤ (حوادث سنة ٦٠٧ هـ) د امره الاطباء بالانحدار إلى الحامة المعروفة بعين القيارة ، وهي بالقرب من الموصل ، .

المحتوى

- ٣ - توطئة
- ٢٠ - روايات المؤرخ الرهاوي
- ٤٩ - اطلاق سراح بلدوين وموت جاليراس
- ٨٠ - الحملة الثانية
- ٨٧ - روايات المؤرخ ميخائيل السوري الكبير
- ٨٨ - زحف الفرنجة الى بلاد الشرق
- ٩٠ - استدسلام الرها للفرنجة
- ٩١ - الاستيلاء على انطاكية
- ٩٣ - استيلاء الفرنجة على بقية سورية وبيت المقدس
- ٩٥ - معارك صنجيل مع الطرابلسيين
- ٩٦ - احتلال الاتراك ملطية
- ٩٨ - مجمل احداث ١١٠١ - ١١١٢ م
- ١١٠ - المصاعب التي تزايدت في ملطية
- ١٠٣ - انخساف مرعش بالزلزال
- ١٠٤ - خبر اخوانية الداوية
- ١٠٧ - وفاة تادكرد
- ١٠٨ - احوال الارمن
- ١١٢ - اخبار البيعة
- ١١٤ - فصل ثان عن اخبار البيعة
- ١١٦ - حروب الامير ايلعازي
- ١٢٠ - اسر بك الملك القدس
- ١٢٤ - مجمل احداث ٥٠٠ - ٥١٦
- ١٢٩ - احداث ١١٢٤ - ١١٣٥
- ١٤٨ - اخبار البيعة
- ١٥٤ - فصل آخر حول اخبار البيعة
- ١٥٥ - مقتل ديبس بن صدقة
- ١٥٦ - نهاية ميخائيل الارمني
- ١٥٧ - مصرع الخليفة الراشد
- ١٥٨ - اخبار البيعة
- ١٦٥ - اخبار البيعة ايضا
- ١٦٩ - انتزاع الرها من يد الفرنج
- ١٧٥ - مقتل رنكي
- ١٧٧ - واقعة الرها الثانية
- ١٨٠ - الحملة الصليبية الثانية
- ١٨٢ - قصة دمار الرها
- ١٨٣ - قصة الرها من تاريخ ناسيلوس
- ١٨٦ - تملك توماس الارمني

- ٢٤١٧ -

- ١٩٠ - نهب حول نير مار برصوم
- ١٩٥ - فصل حول نير مار برصوم
- ١٩٧ - مقتل ريموند امير انطاكية
- ٢٠١ - سقوط جوسلين
- ٢٠٤ - استيلاء الترك على البلاد
- ٢٠٧ - وفاة دولت حاكم ملطية
- ٢١١ - اخبار البيعة
- ٢١٢ - ذكرى الربان توما
- ٢١٦ - فصل عن الاعجوبة التي صارت بانطاكية
- ٢١٨ - المشاجرة بين المفران اغناطيوس ورعيته
- ٢١٩ - تنصيب اثناسيوس بطريركا
- ٢٢٣ - استيلاء الفرنجة على عسقلان
- ٢٢٦ - اضطهاد مليح ارمني للمسيحيين
- ٢٢٧ - زلزل عنيفة
- ٢٢٨ - وفاة امير ملطية
- ٢٣٠ - جملة دور الدين على الموصل
- ٢٣٣ - وفاة الخليفة المستجد
- ٢٣٧ - الخليفة المستضيء
- ٢٤٣ - موت نور الدين
- ٢٤٤ - الملك الصالح اسماعيل
- ٢٤٩ - قدوم صلاح الدين الى دمشق
- ٢٥١ - حرب بين مدويل وقلج ارسلان
- ٢٥٣ - موت نجم الدين حاكم ماردين
- ٢٥٦ - فرار صلاح الدين عند عسقلان
- ٢٥٨ - احتلال قلج ارسلان ملطية
- ٢٦٠ - خروج صلاح الدين من مصر
- ٢٦٤ - مرص مدويل وموته
- ٢٦٥ - هجوم قلج ارسلان على رعبان
- ٢٧١ - اخبار البيعة
- ٢٧٦ - زيارتنا لاحد وموت الجاثليق نرسيس
- ٢٨٥ - زواج حاكم انطاكية
- ٢٩٠ - اخبار اندرونيقوس اليوناني
- ٢٩٤ - الصراع بين اندرونيقوس واسحق
- ٢٩٦ - اجتماع الكواكب السيارة
- ٢٩٨ - الصراع بين التركمان والاكراد
- ٣٠١ - فتح بيت المقدس
- ٣٠٤ - الحملة الثالثة
- ٣٠٨ - وفاة السلطان قلج ارسلان
- ٣٠٩ - وفاة صلاح الدين
- ☆ ☆ ☆
- ٣١٢ - روايات ابن العبري
- ٣١٣ - المستظهر بالله

- ٢٤١٨ -

- ٣١٦ - زحف الفرنجة الى المشرق
- ٣١٨ - الاستيلاء على بيت المقدس
- ٣١٩ - صراع بركياروق وأخيه محمد
- ٣٢٠ - معارك صنجيل مع الطرابلسين
- ٣٢١ - احتلال الأتراك المملوكية
- ٣٢٢ - وفاة بركياروق
- ٣٢٣ - وفاة داندشمند
- ٣٢٤ - وفاة قلج أرسلان
- ٣٢٨ - غارات الفرنجة في سورية
- ٣٣٠ - وفاة الغزالي
- ٣٣٠ - وفاة طنكريد
- ٣٣٣ - أحوال الأرمن
- ٣٣٥ - وفاة المستظهر
- ٣٣٥ - المسترشد بالله
- ٣٣٦ - حرب أيلغازي بن أرتق
- ٣٣٨ - أسر ملك بيت المقدس
- ٣٤٠ - وقائع ١١٢٤ - ١١٣٥ م
- ٣٤٨ - أحداث عهد محمد بن غازي
- ٣٥٠ - الخليفة الراشد
- ٣٥٠ - مقتل ديبس بن صدقة
- ٣٥١ - نهاية ميخائيل الأرمني
- ٣٥٢ - نهاية الخليفة الراشد
- ٣٥٢ - المقتفي لأمر الله
- ٣٥٤ - بين زنكي والخليفة المقتفي
- ٣٥٦ - وفاة الراشد
- ٣٥٨ - موت الملك محمود
- ٣٥٩ - انتزاع الرها من الفرنج
- ٣٦٢ - مقتل زنكي
- ٣٦٤ - واقعة الرها الثانية
- ٣٦٧ - ظهور توماس الأرمني
- ٣٧٣ - استيلاء الفرنج على عسقلان
- ٣٧٩ - المستنجد بالله
- ٣٨٢ - هزيمة الفرنج وأسر أمير إيطاكية وكوت طرابلس
- ٣٨٨ - استيلاء صلاح الدين على مصر
- ٣٩٠ - هروب أمير ملطية
- ٣٩٠ - زلازل عيفة
- ٣٩٣ - وفاة الخليفة المستنجد
- ٣٩٤ - الخليفة المستضيء
- ٣٩٧ - الملك الصالح إسماعيل
- ٣٩٩ - قدوم صلاح الدين إلى دمشق
- ٤٠٢ - الحرب بين مدويل وقلج أرسلان
- ٤٠٣ - موت نجم الدين حاكم ماردين

- ٢٤١٩ -

- ٤٠٣ - هزيمة صلاح الدين عند عسقلان
- ٤٠٤ - احتلال قلح الاسلار ملطية
- ٤٠٥ - خروج صلاح الدين من مصر
- ٤٠٥ - موت مدويل
- ٤٠٦ - وفاة المستضيء
- ٤٠٦ - الخليفة الناصر
- ٤٠٧ - المواجهة بين صلاح الدين وقلج ارسلان
- ٤٠٧ - رواج امير اطاكية
- ٤٠٨ - وفاة الصالح اسماعيل
- ٤٠٩ - اندرونيقوس اليلاناسي
- ٤١٧ - احبار صلاح الدين
- ٤١٨ - اجتماع الكواكب السيارة
- ٤٢٠ - الصراعات بين الفرقة
- ٤٢٢ - فتح بيت المقدس
- ٤٢٥ - الخلاف بين صلاح الدين والخليفة الناصر
- ٤٢٨ - قدوم الفرنج الى صدور
- ٤٣٩ - وفاة قلح ارسلان
- ٤٤٠ - وفاة صلاح الدين
- ٤٤٥ - وفاة ملكشاه وطعتهكين وريكي الثاني
- ٤٤٦ - هجوم نور الدين ارسلان على نصيبين
- ٤٤٦ - خوارزمشاه يتترع بحارى
- ٤٤٦ - العادل يستولي على مارين
- ٤٤٧ - وفاة العزيز بن صلاح الدين
- ٤٤٨ - وفاة العادل في مصر
- ٤٤٨ - وفاة خوارزمشاه
- ٤٤٩ - العاء العادل خطبة الملك المنصور
- ٤٥٠ - محاولة انتزاع الجريرة من آل العادل
- ٤٥٠ - ركن الدين يستولي على ملطية
- ٤٥١ - كوارث طبيعية
- ٤٥١ - خوارزمشاه في مرو
- ٤٥١ - العادل يحاول الاستيلاء على مارين
- ٤٥٢ - العادل يستولي على روج
- ٤٥٣ - الفرنجة يستولون على القسطنطينية
- ٤٥٤ - محاولة نور الدين شاه الاستيلاء على نصيبين
- ٤٥٤ - مصادفة غريبة
- ٤٥٥ - دخول الفرنج حماه
- ٤٥٥ - استرداد اذقرة
- ٤٥٥ - افعال خصوم نور الدين
- ٤٥٦ - خلاف بين سلاجقة الروم
- ٤٥٦ - ناصر الدين والاشرف يستردان حصن زياده
- ٤٥٧ - زحف الكرج الى اذربيجان
- ٤٥٨ - احتلال اطاكية

- ٢٤٢٠ -

- ٤٥٨ - تسليم مدينة خلاط
- ٤٥٩ - الملك الاوحد وخلاط
- ٤٦١ - موت كيخسرو
- ٤٦١ - الفرج في حمص
- ٤٦١ - موت صاحب مراغه
- ٤٦١ - زحف الكرج الى ارجيش
- ٤٦٢ - زلزال في نيسابور
- ٤٦٢ - اتفاق نور الدين ارسلان مع العادل
- ٤٦٣ - مظهر الدين والعادل
- ٤٦٣ - وفاة نور الدين ارسلان
- ٤٦٥ - الدواشي والهوامش